

سالك أحمد معلوم



أصل هذا الكتاب رسالة قدمت إلى قسم التربية الإسلامية والمقارنة بكلية التربية . فرع جامعة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة، لإكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير فى التربية (تربية إسلامية) .

وقد نـال الباحث بها درجة الماجستير فى التربية الإسلامية بتقدير ممتاز وكانت المناقشة بتاريخ ١٤/ ٤/ ١٤٠٩ هـ من اللجنة العلمية المكونة من :

(١) د. على خليل مصطفى أبو العينين التوقيع : ( ) مشرفا ورئيسا

(٢) د. محمد على المرصفي التوقيع : ( ) عضوا

(٣) د. عبدالرحمن عبدالرحمن النقيب التوقيع : ( ) عضوا

الفِكرُ التّربوي

عِنْدَ

الخطيب البغدادي

الطبعة الثانية

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م



دمنهور ت - ٣٢٨١٩٩ /٠٤٥


بسم الله الرحمن الرحيم

« كل من أنصف علم أن المحدثين بعد الخطيب عيال على كتبه »

ابن نقطة الحنبلي

المقدمـــــة

تقـوم بين صـفـوف المسلمين - اليـوم - دعـوات، ومـذاهب واتجـاهات فـكرية وتربوية فلسـفـية كـثيرة تطالب ببلورة الاتجاه الاسلامي في الفكر التربوي المعـاصر بحثـا عن الذات الضـائعة بين ركام هذه الفلسفـات والمذاهب والاتجاهات الفكرية المحلية منهـا والعالمية،توصلاً إلى بناء الشخصية المسلمة السوية والنهوض بالأمة ويتطلب هذا البناء وتلك النهضة وجوب العودة إلى مصادر الفكر الاسلامي وما أنتجته قرائح علمائنا الأعلام للتعرف على الآراء والأفكار والنظريات التربوية والمبادئ التعليمية التي تضمنتها مؤلفاتهم، والتي تعكس مدى فطنتهم وسعة اطلاعهم وعمق معرفتهم بالطبيعة البشرية ونفسية المتعلمين. ومثل هذا الأمر واجب علمي تفرضه ضرورات البحث التربوي التأصيلي المعاصر من منطلق الحرص على الاستفادة القصوى من معطيات هذا الفكر في رفد وإثراء هذا النظام التربوي والتعليمي ومده بالدماء الجديدة التي تحقق له أصالة الماضي مع ازدهار الحاضر وتقدمه..

ولقد لفت نظري أثناء البحث عن موضوع للكتابة فيه أن كثيراً من الباحثين والكتاب المعاصرين كانوا يركزون أبحاثهم ومقالاتهم حول آراء بعض العلماء الأجلاء العاملين الذين اشتهروا بالكتابة حول موضوعات التربية الاسلامية من خلال التأليف في موضوعات التعليم الاسلامي؛ ومن هؤلاء العلماء الأجلاء الإمام الشافعي وأبوحامد الغزالي، وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن الصلاح وابن سينا وابن خلدون وبدر الدين بن جماعة وابن مسكوية وبرهان الاسلام الزرنوجي وأبو سعد السمعاني والقاضي عياض وتاج الدين السبكي وشمس الدين الذهبي وابن حزم والامام النووي وغيرهم.. بحيث لا تكاد البحوث التربوية المعاصرة تخرج في موضوعات التربوية والتعليم الاسلاميين عن دائرة البحث في تراث الفكر التربوي لأصحاب هذه الأسماء الكبيرة ورغم جدارة هذه الأسماء واستحقاق أصحابها لتلك العناية والرعاية العلمية إلا أن هناك بالتأكيد من العلماء المميزين وخاصة من طبقة الفقهاء والمحدثين من هو جدير بدراسة أفكاره و البحث في آرائه التربوية.

ومن هذا المنطلق وإدراكاً للدور التربوي الريادي الذي تؤديه مثل تلك الدراسات، كان اختياري لموضوع (الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي)، وهو الفكر الذي أظهرت الدراسة الحالية تميزه وحيويته وغناه وسبقه العلمي والفكري إلى كثير من القضايا التربوية والتعليمية التي تضمنتها مصنفات الخطيب الكثيرة والتي زكّتها رحلات الخطيب العلمية واحتكاكه

بالعلماء وممارسة التعليم بنفسه فترة طويلة من حياته واكتسابه لتجارب حياتية وخبرات تربوية وتعليمية كثيرة وهو أمر يجعل لفكر الخطيب التربوي أهمية خاصة ، فهو لم يقتصر على مجرد اقتراح التوصيات أو تقديم الأفكار وطرح الآراء وإنما كان يمارس ويطبق آراءه في المجال التربوي والتعليمي على صعيد الواقع، مما يعطي لآرائه التربوية بعدا في التناول وعمقاً في المعالجة يجعلها معبرة -بحق- عن الواقع التربوي والتعليمي للعصر الذي عاش فيه.

وقد أثرت شخصية الخطيب وفكره وآراؤه تأثيرا كبيراً في معاصريه وفيمن جاء بعده من العلماء الأجلاء الذين نسجوا على منواله في التأليف واعتمدوا كتبه مصادر لمصنفاتهم، وقد استمر تأثير الخطيب رحمه الله في المتأخرين وإلى وقتنا الحاضر حتى أننا لا نكاد نجد -وباعتراف كثير من الباحثين- دراسة أو بحثا إسلاميا يخلو من ذكر اسم الخطيب وأقواله.. ويكفي ذلك شاهدا على قدر الرجل وعلو مكانته العلمية التي جعلت العلماء يقولون فيه (كل من أنصف علم أن المحدثين بعد الخطيب عيال على كتبه).

ومع هذه الأهمية العلمية لفكر الخطيب ورغم استقطاب الخطيب لاهتمام العديد من الدارسين والباحثين الذين كشفوا عن جوانب هامة من فكره في مجال الدراسات الحديثية، والتاريخية والفقهية والأدبية إلا أن الجانب التربوي من فكره لم يحظ بتلك العناية والرعاية التي نالتها أفكاره وآراؤه الأخرى، ولا تزال الدراسات التي تمت في هذا المجال قليلة جدا بالنظر إلى ضخامة انتاج الخطيب وما كتبه في مجال التربية والتعليم الأمر الذي يعزز من أهمية دراسة آرائه وأفكاره التربوية.

ويعتبر موضوع الفكر التربوي عند الخطيب موضوعا واسعا متشعبا ولذلك كان من الحري بأكثر من باحث مؤهل أن يعمل فيه، ولكنني وقد اقتنعت بأهمية الموضوع استعنت بالله وأدليت بدلوي في محيط هذا الفكر، وأرجو من الله أن يعينني وأن يجعل التوفيق حليفي وأن يعفو عن الأخطاء والتقصير، وعن زلات القلم والتوهم والنسيان.

لقد حاولت خلال فصول هذه الدراسة أن استكشف أهم آراء الخطيب والأفكار والمبادئ التربوية عنده من خلال استقراء آرائه التربوية المبثوثة ضمن موضوعات كتبه الكثيرة، ثم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار التي رواها الخطيب ، ثم من أقواله هو وتعليقاته وآرائه التي حققها ورجحها مؤيداً أو معارضاً، وقد تناول الخطيب العديد من مبادئ التربية الاسلامية التي تميزت بالمرونة والتكامل والشمول لجميع جوانب الحياة الانسانية من عقيدة صحيحة وعبادة خالصة لله تعالى وتعليم هادف وسلوك سوي مستقيم وتعاون على البر

والتقوى وعلاقات أسرية وإنسانية قوية متكافلة وتطبيق عملي هو بتعبير الخطيب (اقتضاء العلم العمل)، وأي انتقاص من ذلك التاكمل والشمول أو إتيان به على غير وجهه الصحيح هو انتقاص من العملية التربوية والتعليمية عند الخطيب.

لقد أفاض الخطيب في ذكر كثير من المبادئ التربوية التي يمكن أن نذكر منها إلزامية التعليم ومجانيته وتكافؤ الفرص التعليمية ومراعاة الفروق الفردية والتدرج ومبدأ التغيير والتنويع كل ذلك بالاضافة إلى الموضوعية والثبات على الحق والحيدة والعلمية ومحاربة التقليد الى غير ذلك مما تناولته فصول هذه الدراسة ويتصل بالمصادر أو الاسس والمبادئ التعليمية والقواعد الأخلاقية التهذيبية ، وهو أمر يؤكد لنا تكامل العملية التربوية والتعليمية عند الخطيب وترابط أجزائها وشمولها لجوانب الحياة الانسانية في خصوصها وعمومها.

وتعتبر آراء الخطيب في كثير من هذه الجوانب من أفضل وأشمل ما كُتب في التربية الاسلامية في زمانه فضلا عما لهذه التربية من جوانب واقعية مثالية تنبع من مصادر الاسلام الأصلية وترتبط بالحياة والأحياء. ومهما تكن فجوة التخلف كبيرة -من بعض الوجوه- بين الحاضر بتقدمه وتطلعاته والماضي بواقعه وانعكاساته فإن ذلك لا يقلل في رأي من أهمية دراسة الآراء التربوية عند علمائنا المسلمين، لأننا إذا كنا ندعو اليوم وكل يوم الى الاستفادة من تجارب الآخرين فإن الأولى بنا أن نعمل بصدق على الاستفادة من تجارب سلفنا الصالح وما تركه لنا علماؤنا من آراء وأفكار تميزت في كثير منها بالعمق والمرونة والشمول فضلا عن قابليتها للتطبيق وموا ءمتها لشخصية المسلم ولروح الاسلام الأمر الذي نأمل -وفي ظل الجهود المخلصة- أن يؤديْ إلى عبور هذه الفجوة ومواجهة الأزمات والضغوط والتحديات الكثيرة التي تجابه أمتنا العربية والاسلامية كل ذلك بالفكر الاصيل والعمل المخلص الدؤب والتخطيط السليم توعية وتبصيراً للمسلم بقيمة فكره وأهميته وضرورة تلقيه له بالقبول وفهمه والدعوة إليه والالتزام به.

وقد جاءت الدراسة في فصل تمهيدي وأربعة أبواب بحيث تضمن الباب الأول ثلاثة فصول رئيسية تناولت العوامل والقوى المؤثرة في التربية إضافة إلى الحركة التربوية والتعليمية بجانب سيرة الخطيب وحياته العلمية . وفي الباب الثاني تناولت الاتجاه التربوي الذي ينتمي إليه الخطيب بالاضافة إلى الاطار الفكري لمفهوم التربية وأهدافها وميادينها عند الخطيب، أما الباب الثالث فقد تطرقت فيه لأهم الجوانب في التعلم والتعليم عند الخطيب.

وأخيراً الباب الرابع الذي تضمن مجموعة من الآداب والصفات والمظاهر التعليمية والسلوكية المرعية من طالب العلم ومعلمه..

وبعد لعل في هذا الجهد العلمي المتواضع ما يشجع الباحثين ويدفع بطلاب العلم والمتعلمين إلى الكشف عن جوانب مشرقة في التراث التربوي للعلماء المسلمين وعلى الأخص الفقهاء والمحدثين إثراء للفكر وتسديدا له على طريق الحق وإلى صراط مستقيم.

وفي الختام أسأل المولى جلت قدرته أن يشملني بعنايته ورعايته وتوفيقه وأن يجعلني ﴿من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾ وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

الفصل التمهيدي

مشكلة البحث وأهميته ..

ويتضمن هذا الفصل الموضوعات التالية :

- تمهيداً

أولاً : أهمية البحث .

ثانياً : مشكلة البحث .

ثالثاً : منهج البحث .

رابعاً : الدراسات السابقة .

خامساً : مخطط الدراسة .

الفصل التمهيدي

تمهيـــــد

تقوم القيادات الفكرية بدور أساسي وبارز في توجيه حياة المجتمعات، فهي عقل الأمة، ومن ثم تأتي أهمية دراستها في إطار ظروف مجتمعها، ليتوفر للمجتمع -أي مجتمع - مجموعة من النماذج التي تعتبر مصدرا جيداً لحفز الهمم واستثارتها، وقدوة يقتدى بها، لا في تجليات تلك القيادات في الفكر والإبداع، بل في تناول قضايا العصر، وما اتسمت به تلك القيادات من جدية ومثابرة وعمق فكري واستجابتها لظروف عصرها.[1]

والقيادات الفكرية تقدم النافع المفيد للنكر التربوي الذي يعتبر -بحق- صورة الأمة في مثاليتها وواقعيتها، ومن ثم كان من المهم والضروري تناول الابداعات التربوية لتلك القيادات بقصد إثراء الفكر التربوي المعاصر، وهو ألزم في مجال الفكر التربوي الاسلامي، نظراً لما يعانيه من قصور واضح في هذا المجال. فالكتابات التربوية الاسلامية -وإن بدا ظاهراً كثرتها ووفرتها- قليلة نادرة في مجملها إذا ماقيست بالنتاج الفكري التربوي الذي يزخر به الفكر الاسلامي، حتى أن التربويين العرب يعرفون عن أعلام الفكر التربوي الغربي -مثلاً- اكثر مما يعرفون عن أعلام الفكر التربوي الاسلامي، وما ذلك إلا نتيجة للقصور في هذه الدراسات كما أشرنا.

ومع أن الكشف عن تاريخ التربية الاسلامية يعتبر أمرا بالغ الأهمية وخاصة فيما يتعلق منه بدراسة الفكر التربوي للقيادات الفكرية الإسلامية، فإن أهم المشكلات التي تواجه أي باحث في هذا المجال أن المادة الخام التي تعتبر مصدر كتابة هذا التاريخ، لا توجد جاهزة بالرغم من أن التربية مجال اهتمام المفكر والانسان العادي على السواء، ولذا كان لابد من الاهتمام بتتبع هذه التربية وفكرها لتكوين صورة جيدة متكاملة عنها، ومن ثم علاج النقص البادي في هذا المجال من جهة، وحتى يبدو هذا الانتاج المتصل بالتربية مبنياً على أسس علمية من جهة ثانية.[2]

---

(١) انظر : عبدالرحمن النقيب: فلسفة التربية عند ابن سينا. القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨٤م، ص٢، ٣ من مقدمة سعيد اسماعيل علي.

(٢) عبدالبديع عبدالعزيز عمر الخولي: الفكر التربوي في الاندلس (٤٠٣- ٤٧٨هـ). ط٢، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٥م، ص٩.

ونظراً لأن العمل كبير في هذا المجال فقد حاول الباحث أن يقصر اهتمامه في هذا البحث على علم من أعلام مدرسة الفقهاء والمحدثين في القرن الخامس الهجري، والتي تعد من أبرز المدارس الفكرية في هذه الفترة، وأكثرها رواجا وانتشارا وأبعدها تأثيراً في المجتمع والدولة، بحكم ما للحديث الشريف والعلماء القائمين عليه من منزلة عند المسلمين. وقد ساعدت تلك المدرسة على ازدهار الفكر التربوي، ونبغ عدد كبير من مفكريها في هذا المجال، وتعددت مؤسساتها، وظهر لعلمائها مؤلفات كثيرة، تضمنت فصولا من الفكر التربوي، وأصول التربية، والتعليم، تميزت بعمق النظرة والفهم وشمولها لقضايا الانسان ومشكلاته.

ويعد الخطيب البغدادي (٣٩٢- ٤٦٣ هـ) أحد أبرز علماء هذه المدرسة وأبعدهم تأثيراً في معاصريه وفي الأجيال التالية له من علماء الحديث، وقد أثنى عليه كثير من العلماء (القدامى والمحدثين) باعتباره علما بارزا من أعلام الفكر الاسلامي.

يذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني عن الحافظ أبي بكر بن نقطة الحنبلي قوله: «كل من أتصف علم أن المحدثين بعد الخطيب عيال على كتبه»[(١)] ، ويقول السمعاني عنه: «كان الخطيب مهيبا ، وقورا، ثقة، متحريا، حجة، حسن الحفظ، كثير الضبط، فصيحا، خُتم به الحفاظ»[(٢)] . ويقول عنه ابن خلكان إنه «أحد الحفاظ المتقنين، والعلماء المتبحرين، وفضله أشهر من أن يوصف»[(٣)].

ويقول ابن عساكر إنه «أحد الأئمة المشهورين ، والمصنفين المكثرين، والحفاظ المبرزين، ومن خُتم به ديوان المحدثين»[(٤)] . ويصفه ياقوت الحموي بأنه كان في درجة الكمال، اكتسبت به دراسات الحديث «غضارة، وبهجة، ونضارة، وكان مهيباً، وقوراً، نبيلا، خطيراً، ثقة، صدوقاً، متحرياً، حجة فيما يصنفه، ويقوله وينقله، ويجمعه، حسن النقل والحفظ، كثير

---

(١) ابن حجر العسقلاني : نزهة النظر شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر -ط٢، القاهرة: دار مصر للطباعة، (ب . ت) ، ص١٦.

(٢) أبوعبدالله شمس الدين محمد الذهبي : تذكرة الحفاظ . ج ٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي (ب.ت) ، ص١١٣٨.

(٣) أبوالعباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ج١، (تحقيق إحسان عباس) بيروت : دار صادر (ب . ت)، ٩٢ .

(٤) أبوالقاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الشافعي المعروف بابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق. ج٣ (تحقيق عبدالغني الدقر، ومراجعة مطاع الطرابيشي)، (ب. ت) . ص٢٢.

الشكل والضبط، قارئا للحديث فصيحاً، وكان في درجة الكمال والرتبة العليا خَلقاً وخُلقاً، وهيئة ومنظراً، انتهى إليه معرفة علم الحديث، وحفظه، وخُتم به الحفاظ»[1].

ويظهر من هذه الأقوال وغيرها سعة علم الخطيب واطلاعه، والاتفاق على توثيقه وضبطه وجودة تصنيفه، كما يظهر الاتفاق على تلقيبه بالحافظ وإمام العصر وخاتمة الحفاظ، وكفي بذلك شهادة على معرفة قدر الرجل في الحفظ والعلم وجودة التصنيف الذي هيأ الله له من أسبابه ما لم يهيئ لغيره من العلماء والحفاظ.

وقد احتل الخطيب مكانة بارزة في أبحاث الدارسين، التي كشفت عن جوانب عديدة من فكره في مجال الدراسات الحديثية والتاريخية والأدبية والفقهية وغيرها، إلا أن الجانب التربوي من فكره لم يحظ بتلك العناية التي نالتها أفكاره الأخرى.

ويعكس هذا الفصل أهمية البحث إضافة إلى مشكلة البحث ومنهجه والدراسات السابقة.

أولاً : أهمية البحث :

رغم تنبيه بعض الباحثين على أهمية دراسة آراء الخطيب التربوية والتعليمية[2]، فإن الدراسات التي تمت في هذا المجال قليلة جدا بالنظر إلى ضخامة إنتاج الخطيب وما كتبه في مجال التربية والتعليم، مما يعد -في حد ذاته- حافزاً للاهتمام بالجانب التربوي والتعليمي من فكره.

ومما يعزز أهمية هذا البحث ويؤيدها أن الرجل مارس التعليم والتدريس فترة طويلة من حياته، مما يجعل لفكره التربوي أهمية خاصة في هذا المجال، فهو لم يقتصر على مجرد تقديم الأفكار وطرح الآراء وإنما كان يمارس ويطبق آراءه في المجال التعليمي، الأمر الذي يعطي لآرائه وأفكاره التربوية بعدا وعمقاً في المعالجة من جهة، ويجعلها معبرة عن الواقع التربوي والتعليمي لعصره من جهة ثانية.

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء. ج٤، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (ب. ت)، ص٣٠.

(٢) أنظر : الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج١، (تحقيق محمود الطحان). الرياض: مكتبة المعارف، (ب. ت)، ص٥٥ من مقدمة المحقق، وحسن عبدالعال: «التعلم عند الخطيب البغدادي مبادئه ومحدداته». رسالة الخليج العربي، العدد العاشر، السنة الثالثة، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٢٥.

لقد كان للخطيب باع طويل في إبداء النصائح وطرح الآراء والأفكار التربوية العملية والخلقية، وهو كأحد «العلماء القدامى وإن لم يكثروا من التآليف المخصصة في مصنفات منفردة إلا أن توجيهاتهم -التربوية- ظهرت في أغلب مؤلفاتهم في شتى العلوم».[1]

وللخطيب كتب مخصصة للتربية والتأديب، مثل كتاب «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، وكتاب «الفقيه والمتفقه» و «الرحلة في طلب الحديث» و «تقييد العلم» و«اقتضاء العلم والعمل» وغيرها. ويمكن أن نقول إن الخطيب قد أثر بكتبه الكثيرة تأثيراً إيجابياً واضحاً في الانتاج الفكري والتربوي لطائفة من العلماء الكبار، والمربين الأفاضل الذين جاؤا بعده، وكانت لهم أنساق تربوية وتعليمية متكاملة مثل السمعاني والزرنوجي وابن جماعة وابن الصلاح والقاضي عياض وغيرهم.[2]

واستنادا إلى ماتقدم يمكن القول بأن الخطيب البغدادي كان يحتل مكانة مرموقة بين المفكرين التربويين الذين أثروا الفكر التربوي الاسلامي بالعديد من الآراء والافكار الجيدة، والتي ساهمت في إعطاء التربية تعريفاً وأهدافاً ومقاصد واضحة، وكرست العمل التربوي لبناء الانسان المسلم الصالح الذي ينهض بأعباء العلم والتعليم والعمل من أجل تقدم المجتمع وصلاحه.

وقد أملت هذه الحقائق اعتبارات معينة شدت اهتمام الباحث إلى دراسة فكر الخطيب التربوي، يمكن بلورتها فيمايلي:

(١) أن الخطيب احتل مكانة بارزة في أبحاث الدارسين التي كشفت عن جوانب عديدة من فكره، نظرا لتأثيره الواضح في فكر عصره وما تبعه من عصور، وحتى وقتنا الحاضر.

(٢) أن أحداً لم يدرس فكر الخطيب التربوي تلك الدراسة المتكاملة التي توضح ابعاده الكاملة في إطار شامل متكامل.

---

(١) ابن الجوزي : لفته الكبد في نصيحة الولد، (قدم له وعلق عليه مروان قبان) ط١ - بيروت: المكتب الاسلامي، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٨ من مقدمة مروان قبان.

(٢) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم. (تحليل وتعليق عبدالأمير شمس الدين) ط١، بيروت: دار اقرأ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٩ من مقدمة عبدالأمير شمس الدين.

(٣) أن الخطيب يعتبر علماً بارزاً من أعلام التربية والتعليم، أدى دوراً مهماً، وواضحاً في الفكر التربوي الاسلامي في عصره، لا يقل أهمية عن دور أي مفكر من مفكري التربية المعاصرين.

(٤) أن دراسة الأفكار والآراء التربوية عند الخطيب مهمة وضرورية، للكشف عن أصول لممارسات مازالت تعيش في مجالات الحياة العامة، فضلا عن مجال التربية والتعليم، مما يعني أهمية دراسة القديم وتحليله، لأنه يكشف عن الواقع ويضع أيدينا على جوانب القوة وجوانب الضعف فيه[١]، إضافة إلى إسهامها في الكشف عن الأصول التاريخية والفكرية للتربية الاسلامية.

(٥) أن محاولة تفسير الواقع التربوي المعاصر ضمن إطار الفكر التربوي الاسلامي المنبثق من الكتاب والسنة أمر تفرضه ضرورات البحث التربوي الاسلامي المعاصر، في محاولة للتعرف على استجابة التربية الاسلامية لحاجات مجتمعها وحل مشكلاته، وهو أمر قد تحقق بعض أهدافه دراسة الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي.

(٦) أن فكر الخطيب يحتوي على جوانب أصيلة تعكس الروح الاسلامية العربية، الذي نفتقده في كثير من جوانب حياتنا، ومما يعكس ذلك الاهتمام التناول الواضح والبين لقضايا العلم والتعليم، ودور الانسان في نشر العلم وتنمية المعرفة وبناء الانسان وصيانة المجتمع وحفظ الآداب ووضوح المنهج والطريق.

(٧) أن دراسة الفكر التربوي عند الخطيب وغيره من العلماء تعني التواصل والتأصيل وتأكيد الوعي الفكري والتربوي ، كذلك يجب دراسة هذا الفكر في اجتهاداته ومنطلقاته التي ترتكز على أصول ديننا الحنيف وثقافتنا وحضارتنا وطبيعة شخصيتنا سواء ما اتصل منه بالماضي أو الحاضر «ولكن بشرط أساسي هو توافر المنهجية والادوات وطرق التحليل السليمة»[٢].

(٨) أن مثل هذه الدراسة عمل مطلوب لغربلة التراث الاسلامي وتنقيته من الشوائب التي

---

(١) علي خليل مصطفى أبو العينين : قراءة تربوية في فكر أبي الحسن البصري الماوردي من خلال كتاب أدب الدنيا والدين. القاهرة : دار الفكر العربي. (ب . ت) ، ص٢.

(٢) المرجع السابق ، ص٣٦٨ .

علقت به، وتأكيد الصحيح منه وبلورته، لا بهدف التعرف عليه فقط، بل من أجل دمجه ومزجه في الواقع المعاش من غير انفصال ولا انفصام.[1]

(٩) أن لكل حضارة فكرا وثقافة وألفاظا ومصطلحات معينة. ونحن -المسلمين- أشد ما نكون اليوم حاجة إلى ألفاظ ومصطلحات حضارتنا وثقافتنا الاسلامية خاصة الفكر التربوي منها[2] وهذا ما نحاوله من دراسة الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي.

(١٠) أن كثيراً من المشكلات التربوية المعاصرة يمكن أن نجد لها وجهات نظر عربية إسلامية أصيلة[3] مثل ضروورة النظرية التربوية، وقضية العلم والتطبيق، وإعداد المعلم، وبناء المناهج، واختيار الطرق التربوية المناسبة، واستمرارية التعليم، وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية، وغير ذلك من قضايا نجد منها الكثير في فكر الخطيب.

مما سبق تتضح أهمية دراسة الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي، وما قدمه من أفكار وآراء واجتهادات تمثل روح عصره باعتبارها مثلاً بارزاً للفكر التربوي الاسلامي في تفاعله مع واقعه، ومعالجة مشكلات عصره التربوية، ويرى الباحث أنه فكر جدير بالبحث والدراسة العلمية الجادة.

ثانياً : مشكلة البحث :

تعتبر دراسة الفكر التربوي الاسلامي من خلال محاولات أنظمة التعليم العربية الاسلامية، عملاً يكشف بوضوح عن ملامح تلك المحاولات في إيجابياتها، وسلبياتها، مع الكشف في الوقت نفسه عن أبعادها وآثارها، لا لاحلال الماضي محل الحاضر، بل لاعادة بنية الوعي واستمراريته عبر الماضي وربطه بالحاضر، وإعادة تأسيسه في الوعي والفهم التربوي الاسلامي المعاصر، وإعداده للمشاركة في بناء الحاضر ورفد المستقبل على أساس من الوعي والادراك لقيمة هذا الفكر ودوره في تأصيل النظرية التربوية الاسلامية، ومن ثم تأتي أهمية دراسة هذا الفكر ممثلاً في مفكريه.

---

(١) المرجع السابق ، ص٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص٤ .

(٣) عبدالرحمن عبدالرحمن النقيب : بحوث في التربية الاسلامية. الكتاب الأول، القاهرة: دار الفكر العربي ، ١٩٨٣م، ص٧- ٨ .

والخطيب باعتباره أحد أعلام الفكر الاسلامي عاش أحداثا مختلفة وعاصر تيارات متباينة، أسهم بصورة أو أخدى في إرساء دعائم الفكر التربوي الاسلامي، ولذا تعد دراسة فكره على قدر من الأهمية، نظراً لما يحتله من مكانة عالية رفيعة في الفكر الاسلامي بعموم والفكر التربوي بخصوص.(1)

ويمكن بلورة مشكلة البحث في التساؤل التالي: ما الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي؟ وتتفرع عن هذا السؤال عدة أسئلة:

(١) ما الاطار الثقافي والاجتماعي والتربوي الذي أثر في الآراء والأفكار التربوية عند الخطيب البغدادي ؟

(٢) ما المصادر والأصول التي تعتبر المنطلقات الفكرية لفكر الخطيب وآرائه التربوية؟

(٣) ما أراء الخطيب وأفكاره التربوية في مجال التعلم والعليم ؟

(٤) ما موقف الخطيب البغدادي من الاتجاهات التربوية في عصره ؟

(٥) ما أثر الخطيب البغدادي في التربية المعاصرة له وفيمن جاء بعده من مفكرين تربويين؟

(٦) ما صدى أفكار الخطيب وآرائه التربوية في التربية المعاصرة ؟

ثالثاً : منهج البحث :

يستخدم الباحث : المنهج التاريخي ، لالقاء الضوء على القوى والعوامل الثقافية والمتغيرات الاجتماعية التي أثرت في فكر الخطيب وذلك من خلال ما كتب عن الفترة التي عاشها الخطيب مع تحليل لأراء الخطيب وأفكاره التربوية، كما وردت في كتبه مما يساعد على بلورة صورة فكره التربوي وتحديد أبعاده.

رابعاً : الدراسات السابقـــة :

تعتبر الدراسات التربوية عن الخطيب قليلة كما ذكرنا، ومع ذلك فهناك:

(١) الدراسة التي قام بها الباحث منير الدين أحمد بعنوان (تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري مستقاه من (تاريخ بغداد)، وهي

---

(١) انظر : حسن عبدالعال (مرجع سابق) ، ص٢٤، ٢٥ .

رسالة دكتوراه تقدم بها الباحث إلى جامعة هامبرج بألمانيا الغربية سنة ١٩٦٧م.[(١)]

وقد حاول الباحث تقديم صورة النظام التربوي والتعليمي الاسلامي في الفترة السابقة على ظهور المدارس النظامية من خلال استقراء تاريخ التعليم من كتاب (تاريخ بغداد)، بالاضافة إلى إبراز المكانة الاجتماعية لعلماء المسلمين في تلك الفترة من تاريخ الاسلام.

ومع أهمية هذه الدراسة إلا أنها اقتصرت على وصف نظام التعليم من خلال كتاب واحد وهو (تاريخ بغداد) وعلى مدى خمسة قرون متتالية، فلم يستطع الباحث تقديم صورة واضحة عن الفترة التي عاش فيها الخطيب، كما أنها لم تتناول بالدراسة والتحليل الفكر التربوي والتعليمي الذي تضمنته كتب الخطيب الأخرى وهو ما تحاول هذه الدراسة بحثه.

(٢) كذلك ضمن الباحث ماجد عرسان الكيلاني كتابه (تطور مفهوم النظرية التربوية الاسلامية)[(٢)] فصلاً ناقش فيه بعض المضامين التربوية عند الخطيب البغدادي كرائد من رواد التربية الاسلامية في القرن الخامس الهجري، الذين استطاعوا التفاعل مع مشكلات عصرهم والاحاطة بمقتضيات التطور فيه.

وقد خلص الباحث إلى أن للخطيب إسهامات كبيرة في بلورة النظرية التربوية الاسلامية، التي تتسق مع الأصول الكامنة في الكتاب والسنة، وقد عرض الباحث لبعض المضامين التربوية في فكر الخطيب، من خلال كتابي (الفقيه والمتفقه) و (شرف أصحاب الحديث)، مبينا أهم مبادئ التعليم، وأساليبه، والصحبه، واستنكار التقليد، كما تناول بإيجاز مشكلة تحقيق التكامل في المنهاج بين الفقه والحديث.

(٣) كذلك قدم الباحث حسن عبدالعال بحثاً بعنوان: «التعلم عند الخطيب البغدادي، مبادئه ومحدداته»[(٣)] تناول فيه أهم العوامل المؤثرة في التعلم عند الخطيب من حيث طبيعة المتعلم والمادة المتعلمة وتربية الذاكرة.

---

(١) منير الدين أحمد : تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري مستقاه من كتاب (تاريخ بغداد)، (ترجمة وتلخيص سامي الصقار)، الرياض: دار المريخ ، ١٩٨١م.

(٢) ماجد عرسان الكيلاني : تطور مفهوم النظرية التربوية الاسلامية، ط١، عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٨م، ص١٣٠، ١٤٤- ١٥٢.

(٣) حسن عبدالعال (مرجع سابق) ، ص٢٥- ٥٧ .

وقد اسهمت هذه الدراسات على قلتها في تجلية بعض جوانب الفكر التربوي عند الخطيب، سوف يستفيد منها البحث الحالي، إلا أنها لم تتناول جوانب تعليمية وتربوية أخرى أبدع فيها الخطيب، سوف تكون محل اهتمام في هذا البحث الذي يستهدف دراسة الفكر التربوي للخطيب ضمن إطار شمولي متكامل.

خامساً : مخطط الدراسة :

وقد جاءت الدراسة في فصل تمهيدي وأربعة أبواب بيانها فيما يلي:

الفصل التمهيدي : (مشكلة البحث وأهميته) : ويتضمن مشكلة البحث وأهميته ومنهجه والدراسات السابقة.

الباب الأول : (العوامل والقوى المؤثرة في الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي) : وتتناول فصوله الثالثة العوامل والقوى المؤثرة في التربية في عصر الخطيب، كما تتناول الحركة التربوية والتعليمية في نفس الفترة. إضافة إلى سيرة الخطيب وحياته العلمية.

الباب الثاني : (أصول الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي) : وقد عكست فصوله الثالثة الاتجاه التربوي الذي ينتمي إليه الخطيب، وهو اتجاه مدرسة الفقهاء والمحدثين التي ترد كل شيئ إلى مصادر الاسلام، وهي أساسا القرآن الكريم والسنة النبوية والاجماع والقياس، كما عكست الاطار الفكري للتربية ومفهومها وأهدافها وميادينها عند الخطيب.

الباب الثالث : (التعلم والتعليم عند الخطيب البغدادي) : ويتناول مفهوم التعلم عند الخطيب، وأهم مبادئه والعوامل المؤثرة فيه، إضافة إلى العديد من الآراء والأفكار والمبادئ التربوية الجادة التي تحاول سبر العلاقة بين المتعلم وعملية التعليم، مثل مبدأ الدافعية والنشاط والفروق الفردية والتدرج وغيرها، كذلك تناول هذا الباب مناهج التعليم ومواد الدراسة في أولياتها كما يراها الخطيب، إلى جانب أساليب التعليم وأدواته السائدة في الفترة التي عاش فيها الخطيب.

الباب الرابع : (آداب العالم والمتعلم في الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي) : وتنتظم هذه الآداب والواجبات في الوظائف التي تجعلهما أهلاً للعلم، وتكفل لهما حسن الاستفادة منه، بالاضافة إلى بيان أهم الصفات العلمية والسمات الشخصية والخلقية التي يجب أن يتصف بها كل من المعلم والمتعلم وتبين علاقة كل منهما بالآخر وبالمجتمع أيضاً، وقد ختمت الدراسة بالفصل الخاص بالخاتمة والتوصيات.



الباب الأول

العوامل والقوى المؤثرة في الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي

ويتضمن هذا الباب الفصول الثلاثة التالية:

الفصل الأول : العوامل والقوى المؤثرة في التربية في عصر الخطيب البغدادي .

الفصل الثاني : الحركة التربوية والتعليمية في عصر الخطيب البغدادي .

الفصل الثالث : سيرة الخطيب البغدادي وحياته العلمية

الفصل الأول

العوامل والقوى المؤثرة في التربية
في عصر الخطيب البغدادي

ويتضمن هذا الفصل الموضوعات التالية :

- تمهيداً

أولاً : الأوضاع السياسية .

ثانياً : الأوضاع الاقتصادية .

ثالثاً : الأوضاع الاجتماعية .

رابعاً : الأوضاع المذهبية .



الفصل الأول

العوامل والقوى المؤثرة في التربية في عصر الخطيب البغدادي

تمهيـــد

عاش الخطيب البغدادي في عصر تميز بكثرة القلاقل السياسية والاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية وانتشار الفوضى «وسط مجتمعات ضعيفة البنيان مرجرجة الكيان»[١]، تتنازع البقاء والسيطرة على دولة الخلافة العباسية المريضة. وقد أثرت تلك الأوضاع في الفكر التربوي الاسلامي سلبا وإيجابا، مما يحتم دراسة وتحليل أهم العوامل والقوى الفاعلة والمؤثرة في الفكر التربوي الاسلامي إبان النصف الأول من القرن الخامس الهجري، وهو الفترة الزمنية التي اكتنفت حياة الخطيب «٣٩٢- ٤٦٣هـ» وعايش أحداثها معايشة واقعية. وتعتبر أحداث هذه الفترة من الكثرة والتشابك والغنى بالتجارب والدروس بحيث تشكل ثروة تاريخية واقعية يمكن أن تضئ لنا بعض جوانب الحياة في القرن الخامس الهجري.[٢]

على أن مهمة هذا البحث ليست «تقصى الجزئيات التاريخية في الفترة السابقة، بقدر ماهي إلقاء الضوء على أهم الابعاد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، التي يكون لها أثر على الحياة عامة بكل مافيها من اتجاهات ومنها الفكر التربوي».[٣]

وسنستعرض فيما يلي أهم الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية في العراق في عصر الخطيب وذلك لما لها من تأثير في تحديد البعد الثقافي والوعي الفكري في حياة المجتمع.[٤]

---

(١) أبوحيان التوحيدي: رسالة الصداقة والصديق، (تحقيق إبراهيم الكيلاني). دمشق - دار الفكر، ١٩٦٤م، ص أ من مقدمة المحقق.

(٢) محمد حسين شندب : الحضارة الاسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (٤٦٧ - ٥١٢هـ) . ط١، بيروت : دار النفائس ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٨.

(٣) السيد الشحات أحمد حسن : تطور التعليم الديني ، دراسة تحليلية في مصر (١٨٠٠- ١٩٢٣م). القاهرة : دار الفكر العربي، (ب . ت) ، ص٦٥ - ٦٦.

(٤) مريزن سعيد مريزن عسيري : الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي . ط١، مكة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٧٨م، ص٨٥.

أولاً : الأوضاع السياسية :

اعترى الحياة السياسية في المجتمع العباسي في تلك الفترة اضطرابات وقلاقل سياسية مختلفة، مما أدى إلى ضعف سياسي واضح، أصاب دولة الخلافة العباسية بالتصدع، فظهرت العصبيات الاقليمية التي تمثلت في ظهور الكثير من الدويلات الصغيرة المتصارعة، ويمكن إرجاع ذلك إلى عوامل عديدة، من بينها:

١ - ضعف الخلافة العباسية :

منيت الخلافة العباسية بالضعف السياسي منذ أوائل القرن الرابع الهجري لأسباب عديدة، منها ازدياد نفوذ القواد والأمراء وتفاقهم خطر الدول المستقلة والصراعات المحتدمة بين الخلفاء والسلاطين من جهة، وبين السلاطين والقواد من جهة ثانية.

وكان من نتائج هذا التنازع المحموم على السلطة وما أعقبه من تسلط وفوضى واضطراب، أن استنجد الخليفة المستكفي العباسي ببني بويه سنة «٣٣٤هـ»، على أن الأمر لم يكد يستقر للسلطان البويهي في العراق حتى حجر على الخليفة وسمل عينيه[١] ثم توالى بعد ذلك مسلسل الرعب والظلم والتنكيل بالخلفاء.[٢] وقد جرد الأمراء البويهيون الخلفاء من حقهم في ممارسة سلطاتهم ولم يبقوا لهم من مظاهر الحكم «إلا السيادة الاسمية وبعض السلطات الادارية المحدودة»[٣]، كاعلان الجهاد، وتعيين القضاة، وأئمة المساجد، وولاة الحسبة، وإمرة الحج، واستقبال السفراء، ولبس بردة الرسول ﷺ، توكيداً لسلطة الخليفة الدينية.[٤]

على أن ضعف الخلافة العباسية في عهد بني بويه لم يكن راجعاً إلى ضعف الخلفاء أنفسهم وصراعهم مع بني بويه الذين استبدوا بالسلطة دونهم، بقدر ماكان راجعاً أيضاً إلى

---

(١) انظر : حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج٣، ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٦٤م ، ص٣٤٨.

(٢) انظر : محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا : الفخرى في الآداب السلطانية والدولة الاسلامية، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، ص٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٨٤، ٢٨٧، وغيرها.

(٣) صالح أحمد العلي وخضر جاسم الدوري «التسلط الأجنبي» ، مجموعة من الكتاب: العراق في التاريخ ، بغداد ، ١٩٨٤م، ص٤٣٩٢.

(٤) انظر : حسن إبراهيم حسن (مرجع سابق) ، ج ٣ ، ص٢٤٩ .

إعطاء الخلفاء الصلاحيات التامة لهؤلاء الأمراء لتسيير شؤون الدولة وتلقيبهم بالألقاب الضخمة التي رفعت من شأنهم وقللت من هيبة الخلفاء أنفسهم.[1]

وقد شجع البويهيون الانقسامات الطائفية وانحازوا لجانب الشيعة الغالية في صراعهم المستمر مع السنيين في بغداد وغيرها من أمهات المدن العراقية، فاختل الأمن وتفككت وحدة المدينة وزاد قلق الناس حتى وضع أهل كل محلة سورا يحميهم من الشطار والعيارين[2]. وبدا أن الدولة عجزت عن حماية المدن والدفاع عنها ضد الاخطار التى تتقحمها وبذلك تهيأ الناس بحدوث هذه الاعمال لقبول ما يغير تلك الحال، وأعطى البويهيون للخليفة العباسي مبررا للالتجاء إلى سلطة جديدة تحميه هو وشعبه من ظلمهم وتعسفهم، وبالفعل التجأ الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى السلاجقة، وطلب منهم الحضور إلى بغداد والقضاء على ثورة البساسيرى المملوك التركى الذى حاول إزالة الخلافة العباسية، وقد استطاع طغرلبك القضاء على حركة البساسيرى سنة ٤٥١هـ[3] كما قضى على سلطة البويهيين في العراق. وعاد الأمر للخلافة العباسية ولكن هذه المرة تحت مظلة السلطة السلجوقية الجديدة[4].

والواقع أن حال الخلافة لم يتغير كثيرا فقد استمرت السلطات الفعلية بأيدي السلاجقة رغم تحسن المعاملة هذه المرة عما كانت عليه الحال أيام البويهيين[5] إلا أن السلاجقة مع مرور الزمن أخذوا يسيؤن إلى الخلفاء والمواطنين، ويبدو أن الظلم زاد عن حده مما أثار الناس ضدهم «فجرت مذابح وسقط جرحى وشهداء»[6] وقد استاء الخليفة لذلك ووجه إنذارا شديد اللهجة إلى القائد طغرلبك ينذره فيه ويحذره من مغبة عمله ويطالبه بكف أذى جنده عن المواطنين[7]. فكان هذا الموقف بادرة طيبة فى سبيل إعادة الهيبة والقوة للخلافة العباسية.

---

(١) المرجع السابق، ج ٣، ص٢٥٠.

(٢) صالح أحمد العلي وزميله (مرجع سابق)، ص٤٤٢.

(٣) أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٨، ط١، الهند -حيدر آباد: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٩هـ، ص٢١١.

(٤) جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي: تاريخ الخلفاء. (تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد)، ط١، القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م، ص٤١٨.

(٥) حسن إبراهيم حسن (مرجع سابق)، ج٤، ص١٧.

(٦) صالح أحمد العلي وزميله (مرجع سابق) ص٤٤٤.

(٧) المرجع السابق، ص٤٤٦.

ولقد اضطلع السلاجقة السنيون بدور هام فى تجديد قوة الاسلام وإعادة الهيبة للخلافة والدفاع عن البلاد ضد الاطماع الداخلية والخارجية وإعادة الوحدة السياسية للدولة الاسلامية[1] ولم يقتصر دور السلاجقة على المجال السياسى والعسكرى وحده، بل شمل أيضا النواحى العلمية والاقتصادية ولاجتماعية، وذلك عن طريق نشر المدارس وإسقاط الضرائب والمكوس مما جعل البلاد تعيش سنوات الحكم الأولى حياة مزدهرة فى مختلف مجالات الحياة.

ولما كان داء الفرقة والاختلاف قد دب في جسم الدولة السلجوقية فقد بدأت أعراض الضعف تظهر على الحياة السياسية بتحولها من الوحدة إلى الانقسام، ومن الاتفاق إلى الخصام، ودخلت الدولة بذلك فى طور العد التنازلى لقوتها ومجدها وسلطانها[2].

٢ - فساد الادارة:

ضعف الوضع الاداري بسبب استغلال الامراء والقواد بالآقاليم التى تقع تحت نفوذهم، وكان للولاية بالنيابة أسوأ الأثر في تدهور الأحوال الاقتصادية والسياسية للبلاد وضياعها من أيدى السلطة المركزية فى بغداد[3] كما كان لضعف الوزراء وفساد الحكام عامة أثر سلبي على سياسة البلاد وحفظ مصالح العباد[4] كذلك كان لاستئثار البويهيين والسلاجقة بالسلطة دون الخلفاء دور فى ضياع الوزراء وغيرهم من المسئولين في الدولة[5].

وكان الهدف من ذلك العمل هو الحد من نفوذ الخلفاء والوزراء معا[6] فساءت

---

(١) حسن إبراهيم حسن (مرجع سابق) ، ج٤ ، ص١ .

(٢) حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف : العالم الاسلامي في العصر العباسي . ط٥، القاهرة : دار الفكر العربي ، (ب.ت) ، ص٦٠٨.

(٣) حسن إبراهيم حسن (مرجع سابق) ج٣ ، ص٢٦٨ .

(٤) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام. (ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة) ج١، ط٥ ، بيروت: دار الكتاب العربي. (ب.ت)، ص١٦١.

(٥) عز الدين أبوالحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير : الكامل في التاريخ. ج٤، بيروت: دار صادر ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٤٣٩ .

(٦) حسن إبراهيم حسن (مرجع سابق) ، ج٣، ص٢٥٨، ٢٥٩ .

أحوال الوزراء واضطربت أمور الدولة وعجز الوزراء عن تسيير دفة الحكم، وفشا الفساد في الادارة حتى توسل البعض بالرشوة ابتغاء الوصول إلى كرسى الوزارة[1].

وخلاصة القول... أن الوضع الاداري والوزاري انهار أنهيارا واضحا، نتيجة سقوط هيبة الوزراء وكثرة المصادرات والتعيين والعزل التعسفي الذى أضعف مركز الوزير وقلل من تأثيره في مجريات الأحداث. ومما يدل على ضعف مكانة الوزراء في هذه الفترة جلوس الوزير في دار الحاجب بعد أن كان يتمتع بدار خاصة بقصر الخلافة يقيم فيها وحوله خواصه وحاشيته[2].

والحق يقال إنه وإن عرف بعض وزراء هذه الفترة بالضعف وفساد الادارة والتهالك على اللهو وحب الملذات فان هناك بالمقابل وزراء كانوا من أماثل الناس وخيارهم ومن هؤلاء: الوزير ابن مسلمة وابن جهير وابنه وابن العميد ونظام الملك وغيرهم.

٣ - الانقسامات الطائفية:

مهد انشغال الدولة العباسية بالحروب المتكررة والفتن الدائرة بين الطوائف السبيل أمام أصحاب المذاهب والنزعات المفرقة إلى نشر تعاليمهم وبث سمومهم بين الناس، وأصبحت بغداد وغيرها من المدن العراقية مسرحا للصراع بين الطوائف تحتدم فيه المعارك بين أهل السنة والشيعة من جهة، وأهل السنة بعضهم وبعض من جهة ثانية[3].

وعلى كل حال فقد أدى انتشار هذه الفرق والصراع المستمر بينها إلى انكماش الخلافة العباسية في بغداد، وضعف الحماسة الدينية للجهاد، والفتوح وانصراف جهود المسلمين إلى إخماد الفتن السياسية الداخلية والخارجية، التى مزقت وحدة الدولة، وأحالتها إلى ممالك ودول عديدة[4].

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص٢٥٥

(٢) آدم متز (مرجع سابق)، ج١، ص١٤٤.

(٣) لمزيد من التفصيل أنظر: ابن الاثير: الكامل في التاريخ. ج٩، ص٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٦١٤. وابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. ج٨، ص٣٨- ١٤٢، ١٤٩، ١٥٧، ١٦٣، وابن كثير: البداية والنهاية. ج١٢، ص٣٦، ٥٤، ٦٤، ٦٦، ٦٨، ٦٩. وغيرها.

(٤) إبراهيم أحمد العدوي: التاريخ الاسلامي آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص٣٢٥، ٣٢٦.

ثانيا: الأوضاع الاقتصادية:

تتحدث المصادر التاريخية التى تناولت العراق في القرن الخامس الهجرى عن الكوارث والأوبئة والازمات الاقتصادية التى كثيرا ما اجتاحت البلاد في هذا القرن[١] . فقد اتفقت الكثير من المصادر في وصف حالات الجدب والقحط والفيضانات والدمار، التى كان من نتائجها حصول أزمات اقتصادية خانقة، نجم عنها اضطرار الكثير من الناس إلى أكل الجيف والكلاب والقطط، وبالتالى حصول ضربات وبائية حادة كان من نتائجها موت الآلاف من الناس وانتشار الأمراض وتوطنها[٢].

ولم تجد محاولات بعض الخلفاء والسلاطين التى استهدفت انقاذ اقتصاديات البلاد وتنمية ثرواتها مما جعل الدولة تعجز عن النهوض بالاقتصاد فضلا عن العجز عن تحقيق أى نوع من التوازن في الدخول وتوزيع الثروات بين مواطنى الدولة لأسباب عدة من بينها[٣]:

(١) الضعف السياسى والادارى.

(٢) الاسراف في الانفاق.

(٣) انعدام الامان على الاموال حيث ظهر نظام المصادرة والتعدى على الحقوق، مع الفتن والاضطرابات المتكررة.

(٤) وقوع الكوارث والازمات.

(٥) سوء توزيع الثروات.

وقد تركت تلك الأحوال آثارها على الحياة الاقتصادية في تلك الفترة ووسمتها بالتناقض والفوضى مما ترك آثاره على كافة جوانب الحياة[٤].

---

(١) انظر: ابن الجوزي (مرجع سابق) ، ج٨، ص٢٥، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٨، ٤٠، وغيرها. وانظر: عماد الدين أبوالفداء إسماعيل بن عمر بن كثير: البداية والنهاية في التاريخ. ج١٢، القاهرة: دار الفكر العربي . (ب.ت) ، ص٧٠، ٧١ وغيرها.

(٢) انظر: ابن الجوزي (مرجع سابق) ، ج٨، ص١٧٠، ١٧١، وغيرها.

(٣) انظر: ابن الجوزي (مرجع سابق) في أماكن متفرقة من الجزء الثامن الذي يتناول أحداث القرن الخامس الهجري.

(٤) مريزن سعيد مريزن عسيري (مرجع سابق) ، ص٩٨ .

ثالثا: الأوضاع الاجتماعية:

تأثرت الحياة الاجتماعية بالأوضاع السياسة والاقتصادية للبلاد كما تأثرت بالأوضاع الأمنية وكثرة الفتن والأزمات التى عاشتها البلاد أثناء هذه الفترة، «والواقع أن الحياة الاجتماعية للعراق في هذا العصر لا تختلف كثيرا عما كانت عليه فى الحقبة السابقة»[1] إلا أن «مجريات الاوضاع السياسية والاقتصادية والدينية أدت إلى وجود ظواهر معينة كان لها آثار واضحة في حياة الناس الاجتماعية فى هذا العصر»[2].

فلقد أدى فقدان الأمن والتسلط وسوء استغلال بعض الفئات الاجتماعية إلى إيجاد فوارق اجتماعية بين الناس، ورغم عدم توفر المعلومات لمعرفة المستوى المعيشى الحقيقى لمختلف الطبقات الاجتماعية إلا أننا نستطيع تمييز بعض الفئات[3] مثل الفئة الغنية التى تضم الخلفاء والسلاطين ومن إليهم من الحكام وعمال الدولة، ثم فئة كبار التجار وملاك الأراضى أما الفئة الثالثة فتشمل صغار التجار والفلاحين، وأخيرا فئة العامة ورجال العلم والحرفيين، والواقع أن الفئات الأولى في هذا السلم كانت تتمتع بموارد مالية كبيرة أتاحت لها القدرة على العيش السعيد، أما الفئات الأدنى فقدكانت محرومة من كثير من أساسيات الحياة رغم أنها كانت تكون السواد الأعظم من أبناء الشعب.

ولقد عمد بعض أفراد هذه الفئة المحرومة إلى اتباع اسلوب شاذ مع الناس تميز بالنهب والسطو والتخريب لكثير من مؤسسات المجتمع، وكان هذا الأسلوب وليد الظروف السياسية والاقتصادية المتردية، وذلك للتعبير عن الاحجاج على الظلم والشقاء وسوء أحوال المجتمع آنذاك. وطبيعى في مثل تلك الاوضاع المضطربة أن يتحمل أهل العلم النصب والمشقة من سوء الحال المعيشية، ولذلك لا يستغرب أن يأتى ذكر رجال العلم في أدنى السلم أو التصنيف السابق، وهو أمر إن دل على شيىء فإنما يدل على تردى الاوضاع المعيشية التى كان العديد من رجالات العلم يعيشونها في هذه الحقبة.

ويكفى هنا أن نذكر أن المجتمع العباسي في بغداد في هذه الفترة ابتلي ببعض

---

(١) المرجع السابق ، ص١١٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص١١٠ .

(٣) محمد أسعد طلس : تاريخ العرب . مجلد ٢ ، ج٦، ط٢ ، بيروت: دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص١٣٦ .

الامراض الخلقية والاجتماعية بسبب ضعف الوازع الدينى والانحطاط السياسي والاقتصادى والانحلال الاجتماعي، يضاف إلى ذلك طائفة أخرى من الأوبئة والامراض والكوارث الطبيعية[١] التى حدثت ببغداد في القرن نفسه وكان لها هى الأخرى آثارها السيئة على حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية. كذلك فشت في المجتمع بعض المظاهر السلبية مثل انغماس الخلفاء والسلاطين في حياة اللهو والمجون والمجاهرة بشرب الخمور[٢] وشيوع المنكرات وتدهور الاخلاق حتى اضطر العلماء من أهل الصلاح والدين إلى الثورة ضد الفساد ومصادرة الفساق والتشهير بالخواطئ وتخريب الخمارات ودور اللهو والمجانة وكسر آلات اللهو والطرب والقبض على أهل الفساد وأخراجهم من البلاد[٣]. ومن مظاهر الحياة الاجتماعية في هذه الفترة أيضا انتشار مجالس العلم، والبحث والمناظرة التى كانت تعقد من قصور الخلفاء وأعيان الدولة[٤]، إضافة إلى المجالس الادبية والاجتماعية الخاصة، التى كانت تعقد في المنازل لسماع الحكايات والنوادر أو لتزجية الفراغ في مزاولة بعض الألعاب الشعبية المسلية[٥].

وخلاصة القول ... «أن تطور الأوضاع الاجتماعية ومظاهرها كان له أكبر الأثر على حياة الناس إلى حد بعيد، فقد دب اليأس وسيطر التشاؤم على نفوس العامة نتيجة لعدم الاستقرار، وكانت شكواهم تدور حول سيطرة الغلمان والعيارين وسيادة الأصاغر وبزوغ نجم الشاذين، وأدعياء الدين، ورواج الفساد والكذب والتزوير وتفشي القتل والسلب وانتشار العادات السيئة بين آفراد المجتمع»[٦].

رابعاً: الأوضاع المذهبية:

تميزت الحياة الدينية في القرن الخامس الهجرى بانتشار التعصب وضيق الأفق والتنازع

---

(١) انظر : ابن الجوزي (مرجع سابق) ، ج٨، ص٣٨، ٤٠، ٦٩، ٨٢، ١٥٤، ١٦٠، وغيرها.
(٢) المرجع السابق ، ج٨، ص٢٥٥.
(٣) المرجع السابق ، ج٨، ص٢٥٥، والسيوطي (مرجع سابق) ، ص٤٢١ .
(٤) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق من عهد نفوذ الاتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري. القاهرة: دار الفكر العربي . (ب.ت)، ص١٩٧.
(٥) المرجع السابق ، ص١٩٨ .
(٦) مريزن سعيد مريزن (مرجع سابق) ، ص١١٩ .

الطائفي والخصومة بين العلماء، «واستخدام العلم والمعرفة لغرض المجادلات الدينية»[1]، كذلك تعصب علماء بعض المذاهب ضد المذاهب التى تخالفهم واعتبروا محاربة الخصوم واجبا ملزما يجب عدم التوانى أو التهاون فيه، ولذلك أنشأوا المراكز العلمية والمدارس التى تنشر تعاليمهم، وتدعم مذاهبهم، كما اعتمدوا في نزاعهم طرق الجدل والمناظرة لتخريج الدعاة المؤهلين للدفاع عن المذهب[2]. وقد اشتدت الخصومة بين أصحاب المذاهب والفرق الاسلامية، فكانت الحروب الطاحنة بين هذه الفرق بعضها مع بعض[3] وبينها وبين الدولة «إضافة إلى ما نجم عن ذلك من صراع فكرى أحدث آثارا عميقة وبعيدة المدى تضمنت عند عدد كبير من الفرق شذوذا فكريا ونزوعا إلى استخدام المنطق، واعتماد الأسلوب الفلسفي في التفكير مما عصف بالمسلمين وشتت أفكارهم، وفرق عقيدتهم وأفقدهم الثقة بأنفسهم»[4].

ولقد تعددت الفرق الاسلامية فى هذه الحقبة واحتدم الصراع بينها خصوصا بين أتباع مذهب السلف وبين الشيعة العلوية، كذلك امتد الصراع ليشمل أتباع المذهب الواحد كما حصل لاتباع المذاهب السنية من الشافعية والحنابلة والأحناف إذ كثيرا ما انتقل الخلاف بينهم من حلبة المناظرة والجدل إلى ساحة الصراع والقتال الدامي[5] «وأيا ما كان الأمر فقد انتشرت الفرق والمذاهب الاسلامية في هذا العصر وكانت المنازعات والمناقشات مستمرة بينها»[6].

ولقد أصبحت العراق عامة وبغداد بخاصة «ميدانا للصراع الفكرى والنشاط العلمى المتجدد، غير أن هذا الصراع كان من الناحية الأخرى عامل تمزق وضعف قاست منه الأمة الاسلامية كثيرا...»[7]، خاصة بعد استيلاء القوى الأجنبية على مقاليد الحكم في العراق إبان تلك الفترة والتى عملت على إذكاء نار العصبية والفرقة والتمزق كما أسلفنا. وقد

---

(١) قاسم غنى : تاريخ التصوف في الاسلام. (ترجمة صادق نشأت) - القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م، ص٦٥٥.
(٢) المرجع السابق ، ص٦٥٦ .
(٣) عدنان زرزور : الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن - دمشق: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ١٣٩١هـ/١٩٧١م. ص٣٥ .
(٤) مريزن سعيد مريزن عسيري (مرجع سابق) ، ص١٢٥ .
(٥) عدنان زرزور (مرجع سابق) ، ص٣٥ .
(٦) مريزن سعيد مريزن عسيري (مرجع سابق) ، ص١٢٦ .
(٧) المرجع السابق ، ص١٢٦ .

انعكست تلك الحال على الحياة الدينية في اقرن الخامس الهجرى، وأثرت تأثيرا سلبيا على وحدة الأمة وضعفها وانحلال روابطها، إضافة إلى انصراف جهود المسلمين نتيجة الصراع المستمر عن متابعة الجهاد ومواصلة الفتوح إلى إخماد الفتن والمنازعات السياسية من جهة والصراعات المذهبية من جهة ثانية[1]. وقد نشطت فرق كثيرة في هذا القرن نذكر منها على سبيل المثال فرقة أهل السنة والجماعة والشيعة العلوية وخصوصا الاسماعيلية الباطنية والمعتزلة والمتصوفة وغيرها.

ويبدو أن الهجمة الشعوبية الشرسة التى شنتها فرق الشيعة ضد المذهب السنى في تلك الفترة كانت من الخطورة بمكان جعل الوزير السلجوقى نظام الملك يعمد إلى الوقوف بحزم في وجه هذا الخطر الذى أصبح يهدد دولة الاسلام..

فبادر إلى محاربة أفكار الفرق الهدامة بفكر بناء يعتمد على نشر العلم والثقافة الاسلامية الصحيحة وذلك عن طريق إنشاء المدارس النظامية التى بثها في كل مكان من أرجاء العالم الاسلامى، « لتخريج دفعات من الشباب المتسلح بسلاح العلم والمعرفة الحقة للدفاع عن الاسلام والعقيدة السلفية الصالحة، والوقوف في وجه الحركات المغرضة المضادة للاسلام، كالحركة الاسماعيلية «الباطنية» التى نشرت سمومها ومبادئها الهدامة بين أفراد المجتمع الاسلامى في العراق وفارس، وكادت أن تعصف بحياة الاسلام والمسلمين »[2].

وقد أسهم علماء أهل السنة والجماعة في الصراع الدائر بين مختلف الفرق وتوجيهه فى كثير من المسائل والأمور الفقهية والسياسية والعلمية. مما كان له أثره في نهضة الحركة الفكرية وازدهارها في كثير من العلوم الاسلامية، النظرية والتطبيقية، ويعد أصحاب مدرسة الفقه والحديث من أكثر الرواد نشاطا وتأثيرا، كما تعد مدرستهم من أكبر المدارس شيوعا وانتشارا ونفوذا وتأثيرا في الناس حتى في الفترات التى ضعف تأثيرها وخبا نجمها سرعان ما كانت تنهض من جديد لتوجيه الحكام والمحكومين وتفقه الناس في أمور الدين[3]. ومن هنا

---

(١) إبراهيم أحمد العدوي (مرجع سابق)، ص٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٢) مريزي سعيد مريزن عسيري (مرجع سابق)، ص١٥١ .

(٣) حسان محمد حسان ونادية جمال الدين : مدارس التربية في الحضارة الاسلامية، دراسة نظرية تطبيقية. ط١، القاهرة: دار الفكر العربي ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٩٠ من دراسة حسان محمد حسان (مدارس التربية في الحضارة الاسلامية) .

لم يكن غريبا أن تكون «هذه المدرسة من أكثر المدارس انغماسا في أمور التربية والتعليم بحكم طبيعتها وأهدافها وبحكم موقعها وتأثيرها في أمور الحكم والمحكومين»[1].

وبحكم انتشار هذه المدرسة وذيوعها واتساعها واستمرارها نما فيها الفكر التربوى أكثر من غيرها، بحيث تزايد عدد مفكريها وتضخم عدد مؤسساتها، واستطاع الكثيرون من مفكريها أن يبلوروا نظريات تربوية متكاملة تتمحور حول الكتاب والسنة وتواكب تطورات الحياة كما تلبى حاجات المجتمع والأفراد معاً[2].

والخلاصة... أن الدولة الاسلامية أصيبت ببعض الوهن والضعف في هذه الفترة من الزمن، ويعود ذلك إلى أسباب وعوامل كثيرة بعضها أتى من الخارج والبعض الأخر أتى من الداخل، ويمكن إرجاع بعض هذه الأسباب والعوامل إلى ما يأتى:[3]

(١) الضعف السياسى إذ اقترنت الفتوحات الاسلامية بقوة السياسة والادارة والحكم، لذلك يمكن إرجاع حالة الضعف هذه إلى ما ظهر في هذا القرن من تفرق وفتن وحروب استمرت تنخر في جسم الدولة العباسية، حتى فجعت الانسانية بسقوطها على أيدى التتار وغيرهم.

(٢) تدهور الاقتصاد وعدم العناية بموارد البلاد التى تعد في الواقع ثروة ضرورية لنمو الحضارة الاسلامية فهو منها مثل الدم من الجسم الحي يبلغه غاية نموه.

وقد كان بيد الشرق الاسلامى على مدى فترات طويلة من تاريخه زمام اقتصاديات العالم، فهو معبر التجارة العالمية، وملتقى الحضارات في الشرق والغرب. وقد أدى الضعف وتفرق المسلمين إضافة إلى الحروب المستمرة والمنازعات المتكررة إلى ذهاب جهودهم، وخاصة بعد يقظة أوروبا وظهور أطماع المغول، حيث دبت عوامل جديدة من عوامل الضعف في جسم الدولة الاسلامية.

(٣) ضعف الكيان الاجتماعى نتيجة الفقر الذى عانت منه بعض طبقات المجتمع، ومصادرة الاموال والحريات وانتشار الفتن وقيام الثورات، وفشو المنكرات وتدهور الاخلاق نتيجة ضعف الوازع الدينى وبالتالى عدم اتباع تعاليم الدين الصحيح.

---

(١) المرجع السابق، ص٩٠.

(٢) ماجد عرسان الكيلاني (مرجع سابق)، ص١٣٠.

(٣) انظر: عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى. ط٤. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٨م، ص٢٩٠- ٢٩٣.

(٤) أما الفرق والمذاهب الاسلامية فقد نشطت في هذه الفترة ورغم إسهام بعضها في نشاط الحركة العلمية إلا أن الصراع المستمر بينها كان عاملا من عوامل الضعف والتمزق التى عانت منها الأمة الاسلامية كثيرا.

وبالجملة فقد اضطربت أحوال البلاد الاسلامية، وتصدع كيان الدولة العباسية لما اعتراه من فوضى سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية عصفت بوحدة الدولة واستقرار أوضاع المجتمع. وانعكست هذه الحال على الحياة في الدولة والمجتمع بما حملته من انقسام وتفكك وبما صاحبها من فتن وصراع مرير على السلطة، إضافة إلى سوء الأوضاع وتخلفها بصفة عامة.

والواقع أن اضطراب الحياة السياسية وتخلفها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية في هذا العصر لم ينتج - بالضرورة- تخلفا فكريا عكس ما هو متوقع في مثل هذه الظروف، ولذلك نجد أن الحركة الفكرية ازدهرت ازدهارا حسنا في هذا القرن، وبلغت بذلك العلوم والثقافة الاسلامية درجة كبيرة من التقدم والرقى في بغداد وغيرها من مدن الدولة الاسلامية.

وبعد فقد عاش الخطيب البغدادى في هذه الحقبة من التاريخ، وهى كما رأينا فترة من أغنى فترات الدولة العباسية بالأحداث والتقلبات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية التى أثرت ولا شك في الحياة التربوية والعلمية مثلها في ذلك مثل أى جانب ثقافى آخر ابتكره المجتمع وتأثر بالقوى والعوامل المختلفة فيه[١]. فعصر الخطيب «وإن كان عصر القلاقل السياسية والخصومات الطايفية، والخلافات المذهبية، إلا أنه كان عصر العلم وتصنيف المصنفات الكثيرة التى أعطت العلوم شكلها النهائى، وقُعّدت فيه قواعدها الأخيرة، فصارت تلك المصنفات عمدة المتأخرين، وصار الذين جاؤا بعد الخطيب لهذه المصنفات مقلدين ولما فيها من العلوم والقواعد معتمدين»[٢]. ويرى الباحث أن استعراض العوامل والقوى الفاعلة المؤثرة فى التربية في عصر الخطيب يستدعى الحديث عن الحركة العلمية والتربوية فى نفس الفترة للالمام بمختلف المتغيرات وتحديد إطار الصورة العامة للعوامل والقوى المؤثرة في الفكر التربوي عند الخطيب، وهو ما سنتناوله في الفصل التالي بإذن الله.

---

(١) انظر : أبو الفتوح رضوان وزملاؤه : المدرس في المدرسة والمجتمع. القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٨م، ص٥.

(٢) محمود الطحان : الحافظ الخطيب البغدادي وأثره في علوم الحديث (٣٩٢- ٤٦٣) . ط١، بيروت: دار القرآن الكريم ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٢٦.

الفصل الثاني

الحركة التربوية والتعليمية
في عصر الخطيب البغدادي

ويتضمن هذا الفصل الموضوعات التالية :

- تمهيداً

أولاً : الحركة الفكرية وعوامل ازدهارها في عصر الخطيب البغدادي .

ثانياً : أهم مراكز الحركة الفكرية والعلمية في عصر الخطيب البغدادي .

ثالثاً : الاتجاهات الفكرية والتربوية في عصر الخطيب البغدادي .

رابعاً : نظام التعليم .

خامساً : مراحل التعليم .

سادساً : مناهج التعليم .

سابعاً : طرق التعلم والتعليم .

ثامناً : المؤسسات التعليمية .



الفصل الثانى

الحركة التربوية والتعليمية في عصر الخطيب البغدادي

تمهيـــــد...

إن الاطلاع على الحياة العلمية في العراق في القرن الخامس الهجرى يعطينا فكرة مهمة عن الانجازات التى حققتها الحضارة الاسلامية في هذه الفترة من الزمن وإذا كانت الحياة في هذه الفترة قد لفتها الأجواء القاتمة على الصعيد السياسى والعسكرى والاقتصادى والاجتماعى، فإن الحياة الفكرية كانت على عكس ذلك مزدهرة متطورة نامية، حيث ارتقت العلوم والفنون على حساب الانحطاط والتخلف السابقين.

وسنتناول فى الصفحات التالية أهم الاتجاهات الفكرية التربوية في عصر الخطيب إلى جانب دراسة نظام التعليم وأهم المراحل الدراسية، بالاضافة إلى المناهج وطرق التدريس وأخيرا أهم المؤسسات التعليمية في تلك الفترة من الزمن.

أولا: الحركة الفكرية وعوامل ازدهارها في عصر الخطيب:

لقيت الحركة الفكرية إقبالا وتشجيعا من دويلات القرن الثالث والرابع الهجريين بعكس دويلات القرن الخامس الهجرى التى اهتمت بالنواحى السياسية والعسكرية أكثر من اهتمامها بنواحى الفكر والثقافة، ومع ذلك فإن الحركة الفكرية لم تتوقف في القرن الخامس الهجرى رغم النكسات والنكبات التى منيت بها الدولة الاسلامية، كما أنها لم تحافظ على مستوها وازدهارها الذى كانت عليه فى القرن الرابع الهجرى من حيث الابتكار وكمية الانتاج وتنوعه في مختلف مجالات العلوم والمعرفة والفنون[١].

وقد أخذ الاتجاه العلمى فى القرن الخامس الهجرى « يؤكد على إعادة تنظيم المادة التى تحتويها مؤلفات القرون السابقة بشكل يجعلها أسهل منالا وأشمل فائدة وأكثر استيعابا... ومع ذلك فإن القرون التالية قد زخرت بعشرات المؤلفات الجديدة في كثير من

---

(١) انظر : أكرم ضياء العمري : موارد الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد) . ط٢، الرياض : دار طيبة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٧، ١٨

مجالات الفكر ولكن الأصالة والابداع تمثلا في إتمام الأفكار الناقصة أو شرحها أو إعادة تنظيم الافكار وعرضها عرضا جديدا يسهل على الدارسين المراجعة، كما تطورت مناهج البحث العلمى واستقرت أسسها ووضعت المؤلفات الباحثة فيها »(١).

وقد احتلت بغداد خلال العصور الاسلامية «مكانا مميزا في دراسة العلوم وتطويرها وبذلك استطاعت خلال فترة قصيرة من عمر الانسانية أن تستوعب الأفكار الوافدة نتيجة الاحتكاك بالثقافات الأخرى وتنظيمها، وبالتالى هضمها ثم نقدها وتحليلها »(٢). ونتج عن ذلك الاحتكاك والتلاقح الفكرى، أهم المؤسسات العلمية التى قامت وازدهرت في الحضارة الاسلامية، والتى رفدت علوم المسلمين وثقافتهم في مختلف المجالات والأنشطة الحياتية والفكرية، مما كان له الأثر الكبير في تنوع الثقافة العامة ونموها في هذه الفترة من تاريخ الاسلام(٣).

كل ذلك من غير أن تستطيع الثقافات الأجنبية زحزحة الثقافة العربية الاسلامية الأصيلة عن مكانها، ولذلك فإن التيار العام المتمثل فى سيادة الثقافة العربية الاسلامية ظل هو السائد وإن بدا تعطله عن الفعل والتأثير في بعض فترات الظلام واستلاب السيادة(٤). ورغم الضعف الذى حل بالدولة الاسلامية فى القرن الخامس الهجرى إلا أن الابداع والعطاء ظلا مستمرين خلال القرون التالية وليس أدل على ذلك من تنظيم العلوم العربية في هذا العصر تنظيما جيدا وما كان لها من أثر وتأثير فعال في تقدم الحضارات وازدهارها في أوروبا وغيرها وهو تأثير لا ينكره إلا جاحد أو مكابر.

ولقد أولى أصحاب السلطة عناية كبيرة بالعلم والعلماء، وقدموا لهم الدعم السخي وأسسوا المؤسسات العلمية التى ساهمت في ازدهار الحضارة العربية الاسلامية وتطويرها في مختلف المجالات العلمية والفكرية والأدبية. فقد عنى الخلفاء وغيرهم من المسؤلين بتشجيع الحركة الفكرية وتقريب العلماء وحثهم على نشر العلوم الدينية والعربية «وبذلك استقرت

---

(١) بشار عواد معروف: «أزدهار الحركة الفكرية» مجموعة من الكتاب: العراق في التاريخ، بغداد، ١٩٨٣م، ص٤٩٨.
(٢) المرجع السابق، ص٤٨٢.
(٣) المرجع السابق، ص٤٧٥.
(٤) المرجع السابق، ص٤٧٥.

الثقافة في بغداد على الأسس والاتجاهات التى ميزتها عن الثقافات فى البيئات الأخرى، كما اتضحت معالم الصرح الثقافى، وازدادت عناية الناس به وتقديرهم له، وأصبح لعلماء هذه العلوم الحظوة ببغداد والسيطرة على توجيهها »[1].

وقد «تألق في هذا القرن عدد كبير من العلماء والأدباء والمفكرين المبرزين الذين بقى انتاجهم مثار إعجاب النقاد والدارسين»[2]. ويطول بنا الحديث لو حاولنا إحصاء العلماء والأدباء والمفكرين... في هذه الفترة سواء في مجال الحديث أو الفقه أو التاريخ أو التفسير أو الفلسفة والأخلاق أو علم الكلام أو الشعر أو البلاغة والأدب وغير ذلك من ميادين العلوم، والمعارف التطبيقية. وهذا الأمر وإن دل على شيىء فإنما يدل على استمرار الحركة الفكرية رغم الاضطراب السياسى والضعف الاقتصادى، ورغم الكوارث العديدة والهزات السياسية والاجتماعية والاقتصادية العنيفة التى عصفت باستقرار الحياة في الدولة الاسلامية إبان هذه الفترة من الزمان.

ثانيا: أهم مراكز الحركة الفكرية والعلمية في عصر الخطيب:

تعددت مراكز الحركة الفكرية والعلمية في القرن الخامس الهجرى ومن أهمها:

١ - مراكز العراق:

لقد احتلت بغداد حاضرة الخلافة العباسية مكانة علية منذ تأسيسها، وقد أدى اتساعها العمرانى على مر العصور، ورخاؤها الاقتصادى فى فترات كثيرة إلى ازدهار الحركة الفكرية فيها، مما أدى الى هجرة كثير من العلماء وطلبة العلم إليها سواء من داخل العراق أو خارجها. ومما يدل على نشاط الحركة الفكرية والعلمية بها إنشاء المدارس فيها خلال النصف الاول من القرن الخامس الهجرى على يد نظام الملك سنة ٤٥٧هـ[3] هذا إلى جانب المكتبات ودور العلم وغيرها من المؤسسات التعليمية والتربوية التى سوف نعرض لها فيما بعد، ويمكن القول بأن بغداد شهدت «ازدهارا فكريا، متميزا منذ القرن الخامس الهجرى فأنشئ فيها عدد

---

(١) المرجع السابق، ص٤٨٥ .

(٢) أكرم ضياء العمري (مرجع سابق)، ص١٨ .

(٣) بشار عواد معروف (مرجع سابق)، ص٤٩٩ .

من المدارس كما شهدت نشاطا علميا واسعا في مختلف المجالات الفكرية»[١].

ومن مراكز الحركة الفكرية في العراق - بالإضافة إلى بغداد - البصرة والكوفة والموصل وواسط وغيرها وكلها أدت دورا حيويا في نمو الحركة الفكرية خاصة بعد افتتاح المدارس إضافة إلى انتشار الجوامع وبيوت العلم الكثيرة[٢] . وقد ازدهرت الحركة التعليمية نتيجة لنشاط الحركة الفكرية والعلمية فظهر عدد كبير من العلماء البارزين فى شتى أنواع المعرفة، والتخصصات العلمية والأدبية، ويشهد لذلك ازدحام مدن الدولة الاسلامية وخاصة بغداد بالعلماء وطلبة العلم، حتى أصبحت العراق بذلك «أهم مكان للحركة العلمية في الدنيا لاسيما بغداد التى حصلت على شهرة عالمية واسعة لاتدانيها في ذلك شهرة مدينة من مدن الامبراطورية العباسية في العلوم الاسلامية والعربية أو في نقل العلوم الأجنبية»[٣].

ونتيجة لهذا الازدهار الفكرى غدت بغداد قبلة أنظار العلماء، وطلبة العلم، الذين أخذوا يتوافدون إليها حتى في أحلك الظروف وأقساها، وتشير الأعداد الضخمة من العلماء وطلبة العلم إلى المكانة المرموقة التى كانت تحتلها بغداد في النفوس وليس أدل على ذلك من التواريخ المؤلفة عن بغداد ومن بينها كتاب الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) الشهير، «تاريخ بغداد أو مدينة السلام» في أربعة عشر مجلداً وهو فى تراجم أعيان البغداديين والبغداديات، ومن ورد بغداد من طلبة العلم أو المدرسين من البلدان الأخرى إلى قريب من وفاة الخطيب رحمه الله.

٢ - نيسابور والشرق الاسلامى:

تعد نيسابور ثانى أهم مراكز الحركة الفكرية فى القرن الرابع والخامس الهجريين، وقد تعاظم مركزها منذ القرن الثالث الهجرى حتى أنها كانت تنافس بغداد في علم الحديث خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، بل إن نيسابور قد سبقت بغداد في إنشاء المدارس الأولى في الاسلام[٤] . وهناك مراكز فكرية أخرى كثيرة في المشرق الاسلامى وفى مقدمتها همدان

---

(١) المرجع الساق ، ص ٤٩٩ .

(٢) المرجع الساق ، ص ٤٩٩ .

(٣) ناجي معروف : أصالة الحضارة العربية . ط٣، بيروت : دار الثقافة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص٤٣١.

(٤) أكرم ضياء العمري (مرجع سابق) ، ص٢٤ .

وأصبهان والرى ومرو وبلخ وقزوين[1] وقد أسهمت كلها فى ازدهار الحركة الفكرية في هذه الفترة، وإن كان هناك مدن أخرى كان لها نصيب في انتعاش الحركة الفكرية، إلا أنها أقل أثرا من المراكز السابقة، ومن هذه المدن حلوان والدينور وأبهر واذربيجان وجرجان وهراة وبخارى وخوارزم[2].

٣ - بلاد الشام

لم تكن الحركة الفكرية مزدهرة بالشام ازدهارها في العراق ونيسابور مثلا، «وعندما زارها الخطيب فى منتصف القرن الخامس «الهجري» فانه أفاد علماءها أكثر بكثير مما استفاد منهم»[3].

٤ - أما الحجاز:

فكانت أهمّ المراكز الفكرية فيها الحرمان الشريفان في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد زارهما الخطيب البغدادى واجتمع إلى علمائهما واستفاد منهم.

وبعد فهذه أهم مراكز الحركة الفكرية في المشرق الاسلامى في عصر الخطيب، أما مراكز الحركة الفكرية في مصر والمغرب والأندلس فى نفس الفترة، فرغم أهميتها العلمية إلا أن الخطيب لم يرحل إليها ولم يستفد منها استفادته من مراكز الحركة الفكرية في المشرق.

لذلك نخلص إلى أن الحركة الفكرية فى بلاد الخلافة العباسية والمشرق الاسلامى عامة كانت مزدهرة نشيطة متفاعلة مع غيرها من الثقافات مؤثرة فيها وقد حدث كل ذلك التقدم الفكرى رغم الضعف السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى أصاب الخلافة العباسية فى أواخر القرن الرابع الهجرى. وما يتلوه من قرون، وهو أمر يشير إلى أن هذا الفكر يتركز في ضمير علماء الاسلام الذين اندفعوا بكل حيوية ونشاط الى بناء هذا الصـــرح العلمى الفكرى الزاهر.

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧ .

ثالثا: الاتجاهات الفكرية والتربوية في عصر الخطيب البغدادي:

التفكير ظاهرة اجتماعية مرتبطة بأشخاص واتجاهات فيما بينها بحيث تنتهى في الغالب إلى تكوين مدارس فكرية تتخذ طابعا معينا إزاء المسائل والمشكلات الفكرية وفي الاتجاهات العقلية التى تجمع بين الأفراد والجماعات[1]. ولما كانت التربية الاسلامية نظاما له ملامحه وفلسفته وأهدافه التى تعكس آيديولوجية الحياة في المجتمع الاسلامى، كان من الضرورى أن يكون للاسلام نظرية تربوية أو فكر تربوى إسلامى يعكس روح هذه التربية في الواقع والمثال.[2]

وقد مرت التربية في المجتمع الاسلامى بتطورات «وظروف عديدة تعرضت فيها مقومات الثقافة السائدة في البلاد الاسلامية لتغيرات كثيرة، استجابة لحاجات عديدة فرضت نفسها على حياة المسلمين في العصور المختلفة، وكانت فلسفة التربية والفكر التربوي سريعى الاستجابة لكل تلك التغيرات والتطورات»[3] التى أسهمت فى تشكيل صورة الفكر التربوى الاسلامى من خلال المدارس الفكرية العديدة التى أفرزتها تطورات الفكر في الحياة والمجتمع.

وقد عكست هذه المدارس الأجواء العلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية على المفاهيم التربوية والتعليمية السائدة في القرن الخامس الهجرى. وكان لها تأثيرها في فكر الخطيب، وفى مسيرة التربية بصفة عامة، وفيما يلي نستعرض بإيجاز أهم مدارس الفكر التربوى في عصر الخطيب البغدادي.

١ - مدرسة الفقهاء والمحدثين:

كان الصراع القائم بين الفرق المختلفة من شعوبية وإسلامية، سببا فى ظهور مدرسة

(١) بهي الدين زيان: الغزالي ولمحات عن الحياة الفكرية الاسلامية. القاهرة: مكتبة نهضة مصر، (ب.ت)، ص٣.

(٢) عبدالغني عبود: في التربية الاسلامية. ط١، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٧م، ص١١٩.

(٣) حسن عبدالعال: التربية الاسلامية في القرن الرابع الهجري. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٨، ص٩٦.

الفقهاء والمحدثين قوية - كما ذكرنا - وكان لها أهدافها التربوية التى تمثلت في الدفاع عن الكتاب والسنة، ونشر مبادئ الاسلام السمحة من مصادرها الأصلية بين المسلمين، وغير المسلمين، وإعداد المعلمين والعلماء ورجال الدعوة الاسلامية ، ثم إعداد القضاة[1] ، كما كان لها مناهجها ووسائلها المختارة التى عملت من خلالها على تحقيق هذه الأهداف وغيرها. ويستطيع المتتبع لتطورات هذه المدرسة أن يجد اتفاقا بين أهل الحديث والفقه - أولا - إلا أنه مع تطور الزمن ظهر اختلاف بينهما، وهو اختلاف يعزي إلى ظهور الاجتهاد الشخصى في مجال التأويل والتفسير للنصوص الدينية[2].

وقد مرت العصور الاسلامية الأولى فى محيط الحديث والفقه بمرحلتين الأولى مرحلة الاتفاق بين المحدثين والفقهاء خلال القرون الثلاثة، والثانية مرحلة تباين الطرفين في الرأى في القرن الرابع والخامس الهجريين.[3]

وقد حاول الخطيب البغدادى أن يضع تصورا يحقق التكامل بين وجهات النظر لدى كل من الفقهاء والمحدثين، وكان موقفه من الاختلاف بين الفريقين واضحا وصريحا وهو محاولة التوفيق بينهما، مبينا رأيه في أصل الخصومة وواقعها وضرورة تجاوزها بل واحتوائها لصالح العلم والفقه الذى هو الفهم الصحيح للمراد من العلم في الدين[4].

وقد خلص الخطيب إلى أن الخلاف القائم بين أهل الرأى والمتكلمين من جهة وأهل الحديث والفقه من جهة أخرى لا مبرر له، وأن الواجب يقتضى انصراف الطرفين إلى مشكلاتهم المعاصرة طبقا لقواعد الاجتهاد الصحيحة، بدلا من تعزيز الخلاف والتنابز بالألقاب[5]. ولو استطاع الفكر التربوى الاسلامى تجاوز مشكلات الخلاف بين الفقهاء والمحدثين «لتجنب أسباب الجمود التى أصابته فيما بعد أو دفعها على الأقل إلى فترة أبعد من الفترة التى حدث الجمود فيها»[6]. ولاستطاع أقطاب هذه المدرسة بلورة «نظرية تربوية

---

(١) حسان محمد حسان وزميلته (مرجع سابق) ، ص٩٤ - ٩٦ .

(٢) بهي الدين زيان (مرجع سابق) ، ص٣ .

(٣) ماجد عرسان الكيلاني (مرجع سابق) ، ص١٠٤ .

(٤) انظر الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه . (تصحيح وتعليق إسماعيل الانصاري) ج١، ط٢، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٧٧ - ٨٤ .

(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٧٢- ٧٧، ٨٢- ٨٤ .

(٦) ماجد عرسان الكيلاني (مرجع سابق) ص١٠٨ .

متكاملة، ولتفتقت ميادين ومناهج مرنة تواكب التطور وتلبى حاجات المجتمع»[1]

٢ – مدرسة علماء الكلام:

تدور أبحاث هذه المدرسة حول العقائد الايمانية مثل الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ويتضمن العلم الذي يبحث فيه أصحابها «الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة وسر هذه العقائد الايمانية هو التوحيد»[٢]. ويبدوا أن بعض أصحاب هذه المدرسة حاول صبغ عقيدة الاسلام ومفاهيمه بأفكاره وآرائه رغم محاولات بعض أصحابها الآخرين الدفاع عن عقيدة التوحيد، ومغالبة الملحدين والضالين ونشر مبادئ المتكلمين، والاعتماد على العقل والتأويل[٣]. وقد نظر السلف إلى علم الكلام نظرة حذر ومحافظة، ومنهم من «عد الكلام بدعة من أكبر البدع»[٤]، وممن شدد النكير على اتباع علم الكلام أهل الحديث والفقه الذين ناصبوا المتكلمين العداء وتصدوا لهم يفندون آراءهم ويردون عليها.

٣ – مدرسة الفلاسفة:

ثالث هذه المدارس «المدرسة الفلسفية التى اكتملت أدوات فلاسفتها ونضجت مناهجها ومذاهبها وتحدد لها الاتجاه الفلسفى كوسيلة من وسائل الوصول إلى الحقيقة واليقين العقلي...»[٥] ويرى الفلاسفة أن الهدف من المعرفة الفلسفية هو تكميل النفس الانسانية لكى يحيى الانسان سعيدا...[٦]. كما أنهم حاولوا التوفيق بين الآراء الفلسفية ومسائل الدين، إضافة إلى محاولتهم صبغ المسائل الدينية بالصبغة العقلية بعيدا عن الوحى، لذلك نجد مثلا أن من الفلاسفة من أنكر حدوث العالم على خلاف ما تقول به العقيدة الاسلامية

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٩.

(٢) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون : مقدمة ابن خلدون، بيروت : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (ب.ت)، ص٤٥٨.

(٣) حسان محمد حسان وزميلته (مرجع سابق)، ص٢٩، ٣٠.

(٤) بهي الديان زيان (مرجع سابق)، ص١٣.

(٥) حسن عبدالعال : التربية الاسلامية في القرن الرابع الهجري (مرجع سابق)، ص٩٩.

(٦) بهي الدين زيان (مرجع سابق)، ص٢٠.

وهؤلاء هم الدهرية، ومن الفلاسفة من نفى النبوة والشرائع[١] كذلك أعطي الفلاسفة الأولوية للعقل في الوصول إلى معرفة الله أو صفاته ودللوا على وجود الله تعالى عن طريق البرهان الفلسفي البعيد عن الوحي القرآني[٢]. وقد أدى هذا الامر إلى الخصومة بين الفلاسفة ورجال الفقه والحديث، وخاصة الأشاعرة ومن على مذهبهم حيث ناصبوا الفلاسفة العداء وظلوا في صراع معهم حتى جاء الامام الغزالي ففند كثيرا من آرائهم وأبطلها[٣].

٤ – المدرسة الصوفية:

ظهر اتباع المدرسة الصوفية كجماعة متميزة في نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري واتبعوا طريقا تختلف عن الفلاسفة وعلماء الشرع، وهو «طريق القلب بعد أن يصفى من شوائبه، وطريق النفس بعد أن تتجرد عن لذاتها وما يتعلق بها من أمور الدنيا...»[٤] وقد ترتب على ذلك أن أصبح موضوع التصوف هو الارادة الانسانية وأثارها في القلوب، وما يعرض على حياة الانسان النفسية من أحوال تبدوا حينا وتختفى حينا آخر، ومن مقامات لابد أن يكون لها في حياته النفسية والخلقية أثر ظاهر...»[٥] كذلك كان للصوفية ألفاظ ورموز ومصطلحات مبهمة اعتبرها رجال الفقه وأهل الظاهر خروجا عن الدين «ولهذا كانت الخصومة بين أهل الفقه، وأهل التصوف كبيرة، وكان مرجع ذلك إلى أن مبدأ التصوف شئ باطني غير ظاهر...»[٦]، يضاف إلى ذلك أن بعض المتصوفة صبغوا تصوفهم بصبغات فلسفية لا تستقيم ووجهة رجال الشرع.

ويمكن القول أن التصوف كان طريقا من طرق المعرفة بجانب طريق الفلاسفة وغيرهم إلا أنه يختلف عنه، فإذا كان الفلاسفة يجعلون العقل مصدرا للمعرفة وإذا كان أهل الشرع يعتمدون على العقل والنقل في الوصول إلى المعرفة، فان المتصوفة قد اعتمدوا طريقا آخر هو طريق القلب بعد أن يصفى من شوائبه وطريق النفس بعد أن تتجرد من لذاتها وما يتعلق بها

---

(١) ابن حزم الظاهري : الفصل في الملل والأهواء والنحل ج١ . مكتبة السلام العالمية ، (ب.ت)، ص٦٣، ٧٩ .
(٢) بهي الدين زيان (مرجع سابق) ، ص٢٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص٣٠ .
(٤) المرجع السابق ، ص٣٠ .
(٥) المرجع السابق ، ص٢٨ .
(٦) المرجع السابق ، ص٢٩ .

من أمور الدنيا[١].

من ذلك نخلص إلى أن مدرسة الفقهاء والمحدثين التربوية وقفت وقفة ثابتة صلبة فى وجه النزعات العقلية لدى الفلاسفة والمتكلمين من جهة، كما تصدت للمتصوفة من جهة ثانية، «تقدم الدين للناس فى صورة بسيطة بعيدة كل البعد عن الجدل والنظريات الفلسفية الصعبة، وكان القرآن الكريم والحديث الشريف هما مصدر العلم الأساسى عند الفقهاء والمحدثين وكانت مسائلهما هى المسائل الوحيدة التى تبحث بعيدا عن التطرف العقلى لدى الفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة»[٢]. وليس غريبا بعد ذلك أن يكون لمدرسة الفقهاء والمحدثين كل ذلك التأثير فى عامة الناس وخاصتهم، لأصالة علومها، وصفاء منابعها، وبعدها عن التعقيد والالتواء من جهة، ولملاءمتها في الوقت نفسه للطبائع البشرية، ونظرتها المتكاملة للانسان وللحياة الانسانية عامة.

رابعا: نظام التعليم:

انقسم نظام التعليم في هذه الفترة إلى نظامين رئيسيين، أولهما نظام الحلقة وثانيهما نظام المجلس، ويمكن أن نضيف إليهما نظام الفصل أو المحاضرة، خاصة بعد انتشار المدارس وعناية المسئولين بها. أما التعليم الأولى فقد كان الصبيان يتلقون تعليمهم في المكتب، يتعلمون القراءة والكتابة إلى جانب حفظ القرآن الكريم أو بعض سوره إلى غير ذلك من المواد التى تدرس عادة في مرحلة التعليم الأولى، والتى سنبينها عند الحديث عن مناهج التعليم الأولى. وبالنسبة للتعليم العالى فقد كان نظام الحلقة والمجلس هما السائدان في معظم الاقطار الاسلامية، وخاصة في المساجد والجوامع الكبيرة، حيث ظل المسلمون يتبعون هذا النظام منذ أن جلس الرسول ﷺ بالمسجد يعلم الناس أمور الدين الجديد[٣].

وتتلخص صفة هذا النظام فى جلوس الطلبة حول المدرس على هيئة حلقة أو حلقات

---

(١) المرجع السابق ، ص٣٠ .
(٢) حسن عبدالعال (مرجع سابق) ، ص١٠١ .
(٣) سعيد إسماعيل علي : معاهد التربية الاسلامية . القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٨٦م، ص٢٢٤.

بينما يقوم المدرس (العالم) بالقاء دروسه، وكانت الحلقات الدراسية تعقد في كل مكان يصلح للتعليم كالمساجد أو الجوامع كما تعقد في المنازل وحوانيت الوراقين ودور العلم وغيرها[١].
وكان نظام الدرس في هذه الحلقات يكاد يغطى اليوم كله، خاصة إذا علمنا «أن الطالب يقوم بدراسة أكثر من مادة واحدة في ذات الوقت ويذهب إلى أكثر من معلم في نفس الوقت»[٢] كذلك «لم يكن هناك جدول خاص يعين أوقات الدروس أو أنواعها، ولكن فى الغالب كانت تخصص أوقات البكور والذهن فى نشاطه لدراسة العلوم النقلية التى هى عماد الدين مثل التفسير والحديث والفقه والنحو والصرف وغيرها، أما بعد الظهر فكان يخصص لدراسة العلوم الأخرى التى تستند إلى العقل، وأما المساء فجعلوه للاستذكار والحوار والتأمل، على أن ذلك لم يمنع أن تلقى دروس الفقه أو غيره من العلوم الأخرى فى أى وقت من أوقات النهار»[٣].

أما عدد الطلبة في الحلقة فلم يكن ثابتا، بل هو يتوقف على نوعية العلم وشهرة صاحب الحلقة وقدرته على استقطاب الطلاب، وتعود عدم معرفة عدد الطلاب على التحديد «إلى عدم توفر الشكليات الموجودة في مؤسسات التعليم الحديثة، ولأن التعليم آنذاك كان من الأعمال التى لها صفة دينية في الغلب لذا كان يصعب على الشيخ المعلم دفع من شاء التعليم»[٤]. ومما ساعد على شيوع تلك الأجواء العلمية الحميمة أن نظام التعليم كان مرنا يتيح للطلبة حرية التعلم والتنقل حيث شاؤا، ومن هنا كان كثير من طلبة العلم لا يكتفون بما يتلقون من علوم ومعارف فى بلادهم، بل يرحلون إلى البقاع النائية حيثما سمعوا بمكان عالم يستفيدون منه، وكان الطالب الذى يصل إلى مرحلة تعليمية معينة يقتنع فيها أستاذه بأهليته للجلوس مكان المعلم يُمنح إجازة تخوله حق التدريس أو الافتاء أو هما معا[٥].

نخلص مما سبق إلى أن نظام التعليم فى هذه الفترة كان مرنا، ومتفاعلا مع حاجات المجتمع الاسلامى بحيث أتاح الفرصة لأكبر عدد من المتعلمين للتزود بزاد العلم والثقافة، يدفعهم إلى ذلك حب العلم من جهة، وما كان يظفر به العلماء في ذلك الحين من تقدير

---

(١) حسن عبدالعال (مرجع سابق)، ص١٢٩.
(٢) سعيد إسماعيل علي (مرجع سابق)، ص٢٢٨.
(٣) المرجع السابق، ص٢٢٩.
(٤) حسن عبدالعال (مرجع سابق)، ص١٣٠.
(٥) انظر: الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية. مصور عن طبعة دائرة المعارف العثمانية سنة ١٣٥٧هـ، ص٣٢٦ - ٣٥٥.

ملحوظ عند عامة الناس وحكامهم من جهة أخرى[1].

خامسا: مراحل التعليم:

قد لا يكون من السهل أن نضع فواصل محددة بين مرحلة تعليمية وأخرى في هذه الفترة، ومع ذلك يمكن أن نميز مرحلتين تعليميتين هامتين فى السلم التعليمي فى القرن الخامس الهجرى وهو الفترة التي عاش فيها الخطيب وهما:

١ - **مرحلة التعليم الأولى**: وتبدأ عادة حول العام السادس من عمر المتعلم[2] أما السنة التى تنتهى عندها الدراسة فى هذه المرحلة فهى الثالثة أو الرابعة عشرة تقريبا[3]. وتعد هذه المرحلة من الأهمية بمكان وذلك لعموم الثقافة فيها وشمولها بحيث يتلقى فيها «أولاد المسلمين أساسيات الثقافة الاسلامية من قرآن كريم وقراءة وكتابة وخط وشعر عربى...»[4].

والتعليم في هذه المرحلة تعليم جماعى، فقد أدرك كثير من المربين والفلاسفة المسلمين أهمية الجماعية فى التعليم وبينوا «أن التعليم الفردى يسبب الضجر للطفل، وللمعلم معا، كما أنه يحرم الطفل من الاستفادة الناتجة عن مخالطة الرفاق»[5]. وقد وقفت التربية الحديثة على أهمية التعليم الجماعى حتى أنها لا تكاد تضيف جديدا في هذا المجال وتلعب الجماعة دورا إيجابيا فى نمو شخصية المتعلم واكتسابه للكثير من التجارب والخبرات فضلا عن ثقته بنفسه ومن هنا كان حرص التربية الاسلامية واهتمامها بهذه المرحلة من مراحل التعليم.

---

(١) أحمد أحمد بدوي : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام. القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ١٩٧٢م ، ص٩٠.

(٢) أبو علي الحسين بن علي بن سينا : القانون في الطب . ج١ ، طبعة جديدة بالأوفست عن طبعة بولاق، بيروت : دار صادر ، (ب.ت) ، ص١٥٧، ١٥٨ .

(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٩٩ .

(٤) حسن عبدالعال (مرجع سابق) ، ص١١٦ .

(٥) المرجع السابق ، ص١١٧ .

٢ - مرحلة التعليم العالى : وهى المرحلة الثانية البارزة من مراحل التعليم في هذه الفترة، ومن الصعوبة بمكان تحديد السن التى يبدأ عندها الطالب تعليمه فى هذه المرحلة بعد اتمام مرحلة الكتّاب السابقة ومثل ذلك يقال عن مدة الدراسة وعن السن التى ينتهى عندها التعليم، وعلى ذلك فأى تحديد لمدة الدراسة العالية فى هذه المرحلة لا يعدو الحدس والتخمين[١] وقد سبقت الاشارة إلى أن كثيرا من الطلبة لا يقفون عند حد العلوم التى يتلقونها في بلادهم وإنما يرحلون إلى الاقطار البعيدة طلبا للعلم، ومن هؤلاء الطلبة من يطلب العلم إلى آخر يوم في حياته عملا بالقول المأثور يظل المرء عالما ما عاش طالبا للعلم فاذا ظن أنه علم فقد جهل[٢]..

سادسا: مناهج التعليم:

تميز القرن الخامس الهجرى بانشاء المدارس وانتشارها فى المدن والحواضر الاسلامية، إلى جانب المؤسسات التعليمية التقليدية الأخرى، والتى تتمثل في المساجد ودور العلم والمكتبات ومنازل العلماء وحوانيت الوراقين وغيرها أما مناهج التعليم فى هذا القرن فقد كانت مثل بقية المناهج في القرون السابقة لها وظيفية تهدف إلى تخريج وتشكيل إنسان مسلم عارف بدينه، يتحلى بأخلاق القرآن الكريم، ويتصرف وفق قواعده ومبادئه، وفى الوقت ذاته تخريج إنسان فاهم للحياة قادر على أن يعيش حياة كريمة في مجتمع حر يقدر أن يعطيه ويساهم فى حركة بنائه ودفعه وتطوير الحياة فيه....

وسنتناول فيما يلى أهم المناهج التعليمية بصفة عامة، والتى درست في مراحل التعليم التى سبق ذكرها هنا وهى مرحلة التعليم الأولى ومرحلة التعليم العالية.

١ - مناهج التعليم في مرحلة التعليم الأولى:

ذكر أبن خلدون في مقدمته أن عناية أهل المشرق بالمنهج كانت منصبة على «دراسة القرآن الكريم وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة، ولا يخلطونه بتعليم الخط، بل

---

(١) المرجع السابق ، ص١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢، ص١٦٠ .

لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده كما تعلم سائر الصنائع...»[١] لهذا عكست مناهج التعليم فى هذه المرحلة اهتمام كل بلد بمواد معينة أو بقيم وفلسفة محددة أبرزها ذلك المنهج وركز عليها، على أن الهدف من التعليم كان في النهاية يعمل لتشكيل إنسان مسلم يسعى للوصول إلى رضا الله تعالى، ويعمل للحفاظ على الدين بطلب العلم لوجه الله، والدار الآخرة وإزالة الجهل عن النفس وعن سائر الجهال وإحياء الدين وإبقاء الاسلام، مع التواضع وإعزاز النفس وصون الكرامة والعمل للفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة[٢].

وقد قسم الفقهاء والمحدثون مواد التعليم الأولى إلى علوم إجبارية وأخرى اختيارية، والقرآن الكريم بالطبع هو أول العلوم الاجبارية التى ينبغى أن يدرسها الصبيان ومن هنا أصبح القرآن الكريم المحور الأساسى الذى تدور حوله الدراسة في الكُتّاب وقد أكد الخطيب - رحمه الله - على حفظ القرآن الكريم وقدمه على جميع المواد بما فيها حديث الرسول ﷺ، وبين ضرورة تعليمه للصبيان في هذه المرحلة وعدم خلطه بغيره من العلوم حتى يرسخ فهمه ويتم حفظه فى الصدور وبعد ذلك يتدرج التلاميذ في تعلم مواد المنهج فيدرسون الحديث الشريف ثم الفقه والنحو والعربية والتفسير وغيره...[٣].

ويمكن القول بصفة عامة بأن المنهج فى بلدان الشرق الاسلامى كان «يتضمن القرآن الكريم، وهو أساس المنهج وأهم مواده، والهجاء للتدريب على القراءة ثم العبادات ثم النحو والعربية والخط فإنها من معانى التقوية على القرآن ويتضمن إلى جانب ذلك فى بعض الأحيان الحساب والشعر وأيام العرب»[٤].

٢ - مناهج التعليم للمرحلة العالية:

تشكل المواد الدينية واللغوية والأدبية جل مواد المنهج في مرحلة التعليم العالى، ولئن تعددت مواد المنهج وتباينت فإنما كانت تختلف «باختلاف الغرض الذى يرمى إليه

---

(١) ابن خلدون (مرجع سابق)، ص٥٣٨ - ٥٣٩ .

(٢) سعيد إسماعيل علي (مرجع سابق)، ص١٧١ .

(٣) الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق)، ج١، ص١٠٦، الفقيه والمتفقه (مرجع سابق)، ج١، ص٥٧ .

(٤) حسن عبدالعال : (مرجع سابق) ص١٣٨ .

المتعلم، فمنهج من أعد نفسه ليكون كاتبا، غير منهج من أراد أن يكون محدثا وكلاهما غير من أراد أن يكون طبيبا أو مهندسا...»[1]. وقد عنى المحدثون منذ وقت مبكر بتنظيم الحديث الشريف وتدوينه وفق أنماط معينة يستفيد منها الفقهاء، كما اعتنى العلماء بتأليف الكتب التى تتناول علوم القرآن الكريم إلى جانب دراسة كثير من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية التى برزت نتيجة لتطور المجتمعات العربية الاسلامية وازدهار الحياة العصرية فيها، مما أدى إلى ظهور علماء أفذاذ في كثير من ميادين العلم والمعرفة قادوا الحركة الفكرية والعلمية وأثروها بانتاجهم الضخم وتآليفهم المبتكرة.

كذلك ابتدع علماء الحديث الشريف مناهج علمية على غاية من الرقي والدقة العلمية، ظلت تنموا سريعا حتى اكتملت بظهور كتب مصطلح الحديث التى ثبتت فيها قواعد منهجهم العلمى مثل كتاب (الكفاية في علم الرواية) للخطيب البغدادي وغيره من كتب مصطلح الحديث. كما أثرت طريقة المحدثين في البحث العلمى وفى التأليف في مجمل الحركة العلمية والفكرية العربية والاسلامية وأفاد منها المؤرخون والأدباء واللغويون وغيرهم[2]. أما التفسير فقد نشأ فرعا من فروع الحديث، ولذلك كانت نصوصه تروى بالسند الموصل إلى الراوى كالحديث تماما[3] وقد احتلت التآليف العربية في التفسير وغيره أهمية كبرى نتيجة لهذه المنهجية العلمية التوثيقية الدقيقة، مما كان له أثره الواضح في تآليف العصور الاسلامية التالية. أما اللغة العربية فقد أدرك المحدثون والفقهاء منذ وقت مبكر أنها شعار الاسلام ولغة القرآن الكريم وأن ظهورها وسيادتها ظهور للاسلام وسيادة له، ولذلك عدوها من الدين، ومن هنا كانت عناية العلماء والأدباء بها نظرا لأهميتها في الحفاظ على كيان الامة ووحدتها[4] وقد عمل العلماء على جمعها وتنظيمها وتبويبها، وألفوا فيها وعنها أعظم المؤلفات الأدبية الأصيلة.

وبالنسبة للتاريخ فقد شهد مرحلة جديدة من التطور الثقافى فى التأليف والكتابة التأريخية، فقد تجمعت مادة ضخمة من الروايات التاريخية نتيجة تنقل العلماء فى بلدان

---

(١) المرجع السابق ، ص١٤٠ .
(٢) منير الدين أحمد (مرجع سابق) ، ص٢٢ .
(٣) بشار عواد معروف (مرجع سابق) ،ص٤٩٣ .
(٤) المرجع السابق ، ص٤٨٥ .

الخلافة وتعدد العلوم وتطورها وسهولة تبادل الخبرات والتأثر فى الأسلوب والنظرة التاريخية[١] ، وتمثل هذه الفترة نضج علم التاريخ عند العرب والمسلمين ووضوح سيرته واتجاهاته واكتمال مناهجه، حتى أصبحت الكتب التاريخية التى وضعت فيها أساساً للكتب التاريخية التى جاءت بعدها في التنظيم والمحتوى[٢].

ويمكن القول بأن مناهج التعليم العالى كانت تتضمن القرآن الكريم والتفسير والحديث وعلومه والفقه والأصول واللغة والأدب والتاريخ والسير والمغازي[٣] إضافة إلى العلوم الثقافية الأخرى مثل الرياضيات والطب والفلك والفلسفة والمنطق والكيمياء والهندسة والطبيعة وغيرها ، وهى مناهج مرنة متكاملة، استطاعت استيعاب ثقافة المجتمع وتراثه العلمى إلى جانب عملها على تلبية احتياجات كل من الفرد والمجتمع وطموحاتهما ، كما أنها مناهج تميزت بالشمول إلى جانب مراعاتها لظروف العصر ومتطلباته.

سابعا: طرق التعلم والتعليم:

تعددت طرق التعليم فى القرن الخامس الهجرى بتعدد العلوم ومعاهد التعليم آنذاك. كما اختلفت طرق التعليم من مرحلة إلى أخرى وفيما يلي بيان ذلك :

١ - طرق التعلم والتعليم فى مرحلة التعليم الأولى

نظرا لأن القرآن الكريم هو محور الارتكاز الذى تدور حوله الدراسة في الكتّاب فقد غدت طريقة الحفظ والاستظهار هى المفضلة، كذلك سادت فى هذه المرحلة طريقة التلقين والتكرار، ومن هنا كان تأكيد السلف على الحفظ وتقديمه على الفهم خاصة في هذه المرحلة، فقد روى الخطيب أن «أول باب من العلم الأنصات له، ثم الاستماع له، ثم حفظه، ثم العمل به ثم نثه»[٤]. وهكذا يعد الخطيب الاستماع أولى درجات الاستفادة من التعليم الجيد، ولذلك

---

(١) المرجع السابق ، ص٤٩٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص٤٩٦ .

(٣) انظر : الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص١٨٤ - ٢٠٠ .

(٤) نثه : أي إفشاؤه ونشره ، المرجع السابق ، ج١ ، ص١٩٤ .

يحث الطالب الذى يعد نفسه ويهيؤها للتعليم أن يكون أول ما يحرص عليه الاستماع والاصغاء لما يقوله الاستاذ، ثم الحفظ والعمل[1].

٢ – طرق التعلم والتعليم مرحلة العالية:

عرف المسلمون طرقا تدريسية كثيرة منها[2]:

(١) الاملاء.

(٢) السماع.

(٣) القراءة والعرض.

(٤) المناظرة.

(٥) السؤال.

(٦) التعليم بالمراسلة.

(٧) الرحلة في طلب العلم.

وسوف نرجئ الحديث عن هذه الطرق إلى الفصل الذى يتناول مناهج التعليم وأساليبه وأدواته حيث تتم دراستها بصورة أشمل وأكثر تفصيلا.

ويبدو أن طرق التعليم السابقة إنما تؤكد بتنوعها على مرعاة التربية الاسلامية لقدرات المتعلمين وأخذها فى الاعتبار ما لديهم من معلومات وخبرات سابقة بحيث لا تقتصر الطرق على عمليات التلقين وإنما تشمل المناقشة، والتحليل والاستنتاج والاستنباط من جانب المتعلم لتدفعه إلى الاطلاع والقراءة والمقارنة والاستفادة من المعارف والخبرات المتنوعة وتشجيع الطلبة على التفكير والايجابية فى العملية التعليمية والمشاركة في الدرس...[3] مع ملاحظة أن «طرق التدريس السابقة هى المتبعة فى العلوم النقلية أما بالنسبة للعلوم

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص١٩٤.

(٢) انظر: الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية (مرجع سابق)، ص٢٦٠- ٢٧٦، ٣٢٥، ٣١١-٣٥٢. الفقيه والمتفقه (مرجع سابق)، ج٢، ص٣٥- ٣٧، ١٣٢، الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق)، ج٢، ص٢٤٧.

(٣) انظر: لطفي بركات أحمد: في الفكر التربوي الاسلامي. ط١، الرياض: دار المريخ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٩٣، ٩٤.

العـمليـة كـالطب والكيـمـيـاء فـقـد عـرف المسلمـون فى هذا العـصـر الجمع بين النظرية والتطبيق»[1].

ثامنا : المؤسسات التعليمية:

كان القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف هما نقطة الارتكاز التى تتمحور حولها مواد المنهج وطرائقه فى مختلف مراحل التعليم كما رأينا ، ومع التقدم الحضارى والعلمى الذى حققته المجتمعات الاسلامية عبر الأعصر المتتالية ظهرت مؤسسات تعليمية فرضت نفسها على واقع المجتمع الاسلامى كالمسجد الذى يعد أول جامعة فى الاسلام إضافة إلى مجالس العلم والمناظرة التى تشبه الحلقات العلمية فى كلياتنا الجامعية اليوم، إلى جانب منازل العلماء، تلك المؤسسات العلمية المتخصصة التى «يحج إليها طلاب العلم المتخصصون فى فرع من فروع المعرفة في كل مكان»[2].

وكما ذكرنا لم يكن فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى «نظام للتعليم تشرف عليه الدولة، بل كان التعليم حرا يقوم به المجتمع إلا أن زيادة الاحتكاك بالحضارات الأخرى واستمرار التقدم وتراكم الثروة وتزايد عدد التلاميذ، ثم الصراع المذهبى كل ذلك أدى إلى دخول الدولة، ميدان التعليم»[3] فأنشات المدارس ودور العلم وألحقت المكتبات بالمدارس والمساجد وغيرها و «بانشاء نظام المدارس بدأ نظام التربية الاسلامية يدخل مرحلة جديدة من مراحل نموه وتطوره، مرحلة أشرفت فيها الدولة على النظام التربوى»[4].

وفيما يلى سنتناول أهم المؤسسات التعليمية فى القرن الخامس الهجرى وهى الكُتّاب، المسجد، المدارس، منازل العلماء، دكاكين الوراقين، مجالس العلم والمناظرة، المكتبات، المستشفيات والربط.

١ - الكُتّاب :

---

(١) حسن عبدالعال (مرجع سابق) ، ص١٥٥ .

(٢) عبدالغني عبود (مرجع سابق) ، ص١١٣ .

(٣) حسن عبدالعال (مرجع سابق) ، ١٢٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص١٨٣ .

أو المكتب هو موضع التعليم، وهو أقدم أنواع المعاهد التعليمية وجودا فى العالم الاسلامى، وقد اشتق اسمه من التكتيب وتعليم القراءة والكتابة[1] وقد أطلق «جولد زيهر العبارة الانجليزية Elementary School على الكتّاب أو المكتب، ويعدهما مؤسسة واحدة، أعدت للتعليم الأولى ويؤيد طيباوى جولد زيهر فى أن الكتّاب، والمكتب مؤسسة واحدة هدفها تربية الصبيان فى مرحلة التعليم الاولى[2].

ويبدو أن الكتاتيب كانت منتشرة انتشارا كبيرا فى الاقطار الاسلامية، وهو أمر متوقع تفرضه تعاليم الدين التى تحث المسلمين على حفظ القرآن الكريم أو بعض آياته، إضافة إلى ضرورة نشر التعليم بين الناس، ولذلك عدّ المسلمون «بناء الكتاتيب لتعليم أبناء المسلمين القرآن الكريم والقراءة والكتابة والدين عملا من أجل الأعمال، وأكرمها عند الله يتنافس فيها المتنافسون من عباد الله الصالحين»[3]. والجدير بالذكر أن سن التعليم فى الكتّاب لم تكن محددة، وكذلك مدة الدراسة كما أوضحنا، وكان الأمر متروكا لتقدير ولى أمر الصبي وإلى مدى استعداد الطفل وقابليته للتعلم إضافة إلى غنى أهل الصبى وذويه وقدرتهم على الانفاق على تعليمه[4].

والذى يلفت الانتباه أن تعليم الصغار فى هذه الفترة بدا وكأنه حظى بعناية أقل من تعليم الكبار، ولذلك قلت العناية بإنشاء المؤسسات التى تتولى تعليم الصغار، فكان التركيز على «تعليم الكبار وعن تربية الكبار تفرعت أجهزة تربوية أخرى تهتم بتعليم الصغار، ولذلك عندما أحس المعلمون بأن هؤلاء الكبار لابد من إعداد مسبق لهم يمكنهم من برامج التعليم التى تعد للكبار»[5].

٢ - المسجد:

يعتبر المسجد من أقدم المؤسسات التعليمية إنشاء في العالم الاسلامى وقد انتشر

---

(١) أحمد شلبي : التربية الاسلامية ، نظمها ، فلسفتها ، تاريخها . ط٦، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٨م ص٤٨ .

(٢) سعيد إسماعيل علي (مرجع سابق) ، ص١٢٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص١٥٩ .

(٤) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الاسلام . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٠م ، ص٥٩.

(٥) عبدالغني عبود : (مرجع سابق) ، ص٥٧ .

بانتشار الاسلام نفسه، فكان معهد التربية والتعاليم الاسلامية الذى يتخرج فيه العلماء والفقهاء والقادة والدعاة المصلحون وقد اشتهرت فى القرن الخامس الهجرى مساجد كثيرة منها الحرمان الشريفان في مكة المكرمة والمدينة المنورة والمسجد الأقصى بالقدس والجامع الازهر ومسجد عمرو بن العاص بالقاهرة والمسجد الأموى بدمشق وهو من الجوامع التى زارها الخطيب وحاضر فيها، كذلك من المساجد الشهيرة مسجد القيروان والزيتونة في شمال أفريقيا ومساجد بخارى وغزنة وأصبهان وجامع قرطبة في الأندلس وغيرها.

أما في العراق فأشهر المساجد والجوامع ثلاثة أولها جامع المنصور في الجانب الغربي من بغداد ويعرف بجامع المدينة (المدورة) وقد حدّث فيه الخطيب البغدادي، وثانيها جامع المهدى ويعرف بجامع الرصافة، وثالثها جامع القصر ويعرف بجامع الخليفة[١] أما المساجد وهى التى لاتقام فيها الجمع فكثيرة ومنها مسجد عبدالله بن المبارك ومسجد أبى عبدالله الجرجانى ومسجد الصيمرى ومسجد إسحاق الشيرازى ومسجد أبى بكر الخوارزمى ومسجد أبى الطيب الطبرى ومسجد القاضى أبى يعلى وغيرها[٢].

٣ - المدارس:

برزت الحاجة عند مجئ السلاجقة إلى العناية بالعلوم وتوجيهها «من أجل خلق آيديولوجية توحد الامة فى الداخل للوقوف بوجه الحركات المفرقة والهدامة التى نشطت فى القرن الخامس الهجرى مما دفع الوزير العالم نظام الملك إلى إنشاء المدارس النظامية في منتصف القرن الخامس الهجرى...»[٣] وإن كان ظهور المدارس يعود إلى عهد سابق على تأسيس المدارس النظامية بحيث يمكن إرجاعه إلى «أواخر القرن الثالث الهجرى، إلا أنها لم تتخذ خصائص مدارس القرن الخامس الهجرى من حيث استقلال البناء وهندسته وإيقاف الوقوف عليها وإلحاق الأقسام الداخلية فيها وتعيين المدرسين وقبول الطلبة ومناهج الدراسة»[٤]. وقد اشتهرت مدارس عديدة في العالم الاسلامى في تلك الفترة مثل المدارس النظامية ومدرسة أبى حنيفة وغيرها من مدارس متنوعة كانت سببا في ازدهار الحركة العلمية وذلك عن طريق

---

(١) انظر : بشار عواد معروف (مرجع سابق) ، ص٥٠٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص٥٠٤ .
(٣) المرجع السابق ، ٥٠٤ .
(٤) المرجع السابق ، ص٥٠٤ - ٥٠٥ .

إنشاء عدد من الموسرين لكثير من المدارس على غرارها[1].

٤ – منازل العلماء:

على الرغم من استمرار المؤسسات التعليمية الأخرى في دورها إلا أنها لم تلغ تماما نشاط هذه المؤسسة التى اضطلعت بنصيب كبير فى دعم الحركة العلمية، والتوسع فى نشر العلم والثقافة الأدبية، من خلال استقبال العلماء لطلبة العلم فى منازلهم وتعليمهم، وفى الأدب التربوى الكثير من الأخبار فى هذا المجال لا يتسع المقام لذكرها[2].

٥ – دكاكين الوراقين:

تعد هذه المؤسسة غير المتخصصة أحد الوسائط التربوية التى لا يمكن إغفالها في دراسة معاهد التربية الاسلامية، ومما يرفع من شأنها ويبرز أثرها التربوى براءتها من شوائب التعصب التى شابت عديدا من المؤسسات الأخرى[3] فما فتئت دكاكين الوراقين منتداً يلتقى فيه العلماء والأدباء وطلبة العلم ومحبوهم من كل مكان، وكان بعض أصحاب هذه الدكاكين من العلماء والمثقفين، وكانوا كثيرا ما يشاركون العلماء فى مناقشاتهم ومحاوراتهم، مما صبغ هذه الأماكن ومجالسها بالصبغة الفكرية والعلمية، وأصبحت الاجتماعات التى تتم فيها مسرحا للثقافة والأدب والحوار العلمى الهادف.

ولعل في وجود أفاضل العلماء وأماثل الفقهاء في طائفة الوراقين.. ما يلقى الضوء على عمق ما كان يدور في حوانيت الوراقين من محاورات، ومناظرات ومناقشات ذات صبغة علمية وأدبية هامة ويؤيد ذلك ما يلاحظه الدارس لتاريخ هذه المؤسسة الذى يظهر أن الثقافة العلمية والأدبية لم تكن قاصرة على العلماء وطلاب العلم وأصحاب المكتبات ودكاكين

---

(١) انظر : سعيد إسماعيل علي (مرجع سابق، ص٣٥٥ ، ٣٥٩ ، بشار عواد معروف (مرجع سابق) ، ص٥٠٦-٥٠٩ .

(٢) انظر : سعيد اسماعيل علي (مرجع سابق) ، ص٥١٣ - ٥٢٩ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص٤٧٥ .

الوراقين وحدهم بل شمل النشاط الثقافى والعلمى حوانيت البيع والشراء العادية[1] ومما يفسر ازدهار الحركة العلمية وتعدد «المكتبات التجارية في عواصم البلاد الاسلامية وكثرتها كثرة تدل على أقبال المسلمين على العلوم والآداب الدينية ونشر الثقافة والتربية والتعليم فى جميع أنحاء الامبراطورية الاسلامية... »[2]. الامر الذى كان من نتائجه شيوع الثقافة الاسلامية بين أكبر عدد من قطاعات المجتمع وفئاته في هذه الفترة من الزمان.

٦ - المكتبات:

كانت المكتبات طريق بعض المتقدمين لنشر العلم والثقافة بين الناس وكان من المألوف أن يوجد بجوار كل مسجد أو مدرسة مكتبة يؤمها الطلبة، ورواد العلم والمعرفة، و «لسنا نبالغ فى قليل أو كثير إذا قلنا إن المكتبات هى القاعدة الصلبة التى يمكن أن تقوم عليها مختلف الجهود الثقافية في مجتمع من المجتمعات وفي مقدمتها الجهود التربوية إلى الدرجة التى تجعلنا فى كثير من الأحيان نتخذها معيارا نحكم به على مدى تقدم المجتمع »[3] من تخلـــفه.

ولا شك أن المتتبع للنهضة العلمية والتعليمية فى مختلف البلاد الاسلامية ليدرك كم هو حجم الدور الايجابى الذى لعبتـه المكتبات فى نشر الثقافة بين أفراد المجتمع، وذلك لما تحتويه «من كتب ووثائق وغيرها من المواد التى تساعد على كسب المعرفة التى يمكهنا أن تساعد المواطنين على الاتصال بمصادر الفكر والثقافة والالمام بنواح مختلفة من المعارف فيما يحيط بهم من بيئات وما جرى فى تاريخهم من أحداث وما تركه لهم أسلافهم من تراث وما تجرى عليه أمور العالم الذى يعيشون فيه، إلى غير ذلك من نواحى المعرفة التى تساعد على تقوية الحياة التعليمية وخصبها »[4].

ولقد انتشرت المكتبات في المدن والحواضر الاسلامية تجتذب طلبة، العلم ورواد المعرفة للتزود من معارفها المتنوعة، كما سعت جهات كثيرة إلى تعميم المكتبات ونشرها

---

(١) سعيد إسماعيل علي (مرجع سابق) ، ص٤٧٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص٤٧٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص٤٨٧ .
(٤) المرجع السابق ، ص٤٨٨ .

«وجعلها فى متناول أفراد الشعب دون اعتبار للعمر أو الجنس أو الدين أو اللون أو الثقافة»[1] وانتقلت عدوى حب الكتاب من الخاصة إلى العامة، حتى أصبح «وجود مكتبة بالمنزل من تمام زينته وتأثيثه حتى ولو لم يكن صاحب المنزل مؤهلا للاطلاع والاستفادة من ذخائرها، فهى على كل حال تضفى على المنزل جمالا وعلى صاحبه كمالا وجلالا»[2] وقد عرفت الحضارة الاسلامية أنواعا متعددة من المكتبات منها المكتبات الخاصة والمكتبات العامة، ومكتبات المدارس والمساجد وغيرها[3].

٧ - مجالس العلم والمناظرة:

عرف تاريخ التربية الاسلامية الكثير من المجالس العلمية التى تعد «وسيطا تربويا رائعا قدم للتربية الاسلامية على وجه الخصوص وللفكر التربوى على وجه العموم خدمات جليلة لا يقل شأنها عن تلك الخدمات التى تقدمها مؤسسات التعليم المتخصصة...»[4]. ولا ريب أن أسلوب المناظرة الذى كان يسود هذه المجالس من الأساليب التربوية المميزة، لدوره الكبير في إنهاض الهمم، وشحذ الأذهان وتقوية الحجة وانطلاق البيان وتقوية الثقة بالنفس والتفوق على الأقران، كما أنه يتيح فرصا عديدة للنمو الثقافي واحتكاك الأفكار وتبادل الآراء ومراعاة المواهب والقدرات ومن هنا ندرك أهمية هذه المجالس فى نشر العلم والثقافة الاسلامية وإذكاء الحركة الفكرية والعلمية، ومما يدل على أهمية هذه المجالس العدد الضخم الذى تضمه من أكابر الفقهاء والمحدثين والعلماء والمفسرين والنحاة والفلاسفة والاطباء والمتكلمين وغيرهم.

٨ - البيمارستانات (المستشفيات):

البيمارستان لفظ فارسى مكون من مقطعين أولهما (البيمار) ويعنى المرضى

---

(١) المرجع السابق، ص٤٨٩ .

(٢) المرجع السابق، ص٣٩٢ .

(٣) انظر : ابن خلكان (مرجع سابق)، ج٢، ص٥٥، سعيد إسماعيل علي (مرجع سابق)، ص٤١٣، ٤٢١ .

(٤) سعيد إسماعيل علي (مرجع سابق)، ص٤٩٣ .

و(ستان) ويعنى الموضع، والمعنى (موضع المرضى)[1] وتنقسم البيمارستانات عند العرب إلى قسمين[2]:

أ- البيماوستان الثابت.

ب- البيمارستان المتنقل.

وكانت البيمارستانات الثابتة منتشرة فى كثير من البلدان الاسلامية كالقاهرة وبغداد ودمشق، أما البيمارستانات المتنقلة فكانت مقتضيات العمل وظروفه هى التى تتحكم في إنشائها عند انتشار الأوبئة والأمراض، وكان العمل في هذه المستشفيات منظما ، وقائما على أسس جيدة ومدروسة وكان الطب بمختلف فروعه مزدهرا طيلة فترة القرون الوسطى، كما كان الطب فنا وعلما تخصص له المعاهد الدراسية، حتى بلغ من التقدم عند العرب فى القرنين الرابع والخامس الهجريين مرتبة سامية تدعو إلى الدهشة والاعجاب[3] وكانتالبيمارستانات (المستشفيات) تقوم بالاضافة إلى عملها الانسانى - الذى هو المعالجة جسميا وعقليا - بمهام تدريس الطب بكفاءة نظرية وعملية كبيرة[4] والمعروف أن الكثيرين من علماء الفقه والحديث وغيرهما من العلوم النظرية كانوا على علم ومعرفة بالعلوم الطبية والعملية فى زمانهم.

٩ - الرُبُـــط:

الرباط في الأصل المكان الذى يرابط فيه جنود المسلمين للجهاد فى سبيل الله[5] وفى الاصطلاح المكان الذى يرابط فيه جماعة الصوفية للعبادة ومجاهدة النفس وكسر شهوتها ، وقد صار مع الزمن مقرا للعجزة والنساء، والفقراء والأيتام والغرباء ولكن مع مرور الزمن صارت

---

(١) ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، (تحقيق نزار رضا) . بيروت : مكتبة الحياة، ١٩٦٥، ص٤٧ .

(٢) انظر : حكمت نجيب عبدالرحن : دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، ط٤، ١٩٨٥م، ص٧٢-٧٨ .

(٣) عبدالمنعم ماجد (مرجع سابق) ، ص٢٤٤ .

(٤) سعيد إسماعيل علي (مرجع سابق) ، ص٥٥٨ .

(٥) الطاهر أحمد الزاوي : ترتيب القاموس على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة. ج٢، ط٢، القاهرة: عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٩٧٢م، ص٢٨٩ .

الربط تقدم كثيرا من الخدمات الاجتماعية والدينية والثقافية والتربوية، ومما ساعدها على أداء رسالتها إيقاف الكتب والأرزاق عليها، وكان بعض العلماء يتخذون منها أماكن للمطالعة والكتابة والانتساخ يساعدهم على ذلك وجود المكتبات العامرة فيها[1] مما مكن هذه الربط من أن تؤدى خدمات تربوية واجتماعية جليلة باعتبارها «مؤسسات للتربية العسكرية والدينية بحكم إقامتها على الحدود وفي مواجهة الدول الأخرى التى كانت تتربص بالدول الاسلامية وتتحين الفرص للقضاء عليها»[2].

والواقع أن الربط لم تكن تقتصر خدماتها على الجهاد، أو الرعاية الاجتماعية للمحتاجين أو «العبادة والزهد وتأليف الكتب والاقراء والتثقيف والمحاضرات، بل تنوعت واختلفت بتنوع الرجال واختلاف العصور، بحيث صارت عالما ثقافيا له خصائصه الواضحة المتميزة فى الحضارة الاسلامية»[3].

وخلاصة القول إن الحضارة العربية الاسلامية قطعت في القرن الخامس الهجرى شوطا بعيدا في التقدم والرقى والازدهار، وليس أدل على ذلك من عناية العرب والمسلمين بالعلم والمعرفة، فوضعوا المؤلفات الأصلية المنظمة الباحثة فى العلوم العربية والاسلامية عموما «وفق مناهج علمية راقية، فصارت هى الكتب المعتمدة عند العلماء اللاحقين وتبوأت مكانة عظيمة استمرت قرونا طويلة وقلما استطاع العلماء بعدها أن يتجاوزوها»[4] وقد انعكس هذا الاهتمام وتلك العناية بالعلوم على التربية الاسلامية وعلى مناهج التعليم ومؤسساته التى قدم المسلمون من خلالها خدمات عظيمة للمعرفة الانسانية عامة، وللفكر التربوى الاسلامى على وجه الخصوص. وهى جهود مباركة استمرت تفعل فعلها فى الحركة الفكرية فى البلاد الاسلامية وتؤتى ثمارها رغم الضعف السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى أصاب الخلافة العباسية فى أواخر القرن الرابع الهجرى وما تلاه من قرون.

وقد رأينا كيف أن الحركة الفكرية لم تحافظ على مستوها من حيث الابتكار وكمية الانتاج وتنوعه ومع ذلك فإن القرون التالية تميزت بالنشاط في مختلف مجالات الفكر

---

(١) ناجي معروف (مرجع سابق)، ص٤٦٦ .

(٢) سعيد إسماعيل علي (مرجع سابق)، ص٦٠٠ .

(٣) المرجع السابق، ص٦٠٣ .

(٤) بشار عواد معروف (مرجع سابق)، ص٤٩١ .

والحياة، وأصبحت بغداد نتيجة ازدهار الحركة الفكرية إبان هذه الفترة قبلة أنظار العلماء والمتعلمين يفدون إليها حتى فى آقسى الظروف وأحرجها يأخذون العلم عن علمائها.

وقد شاءت إرادة الله وحسن تدبيره أن يولد الخطيب البغدادى فى هذه البيئة العلمية الخصبة المعطاءة والجو الفكرى المواتى وأن يتلقى علومه على أولئك النفر من العلماء الأعلام والجهابذة الأفذاذ فى علوم الحديث والقراءات والفقه والتاريخ، يغترف من معين العلم وبحور المعرفة ويعايش الأحداث، يعلّم ويتعلم ويكتسب المزيد من التجارب والخبرات فى مجال العلم والمعرفة والحياة، وفي الفصل التالى سنتناول بحول الله تعالى سيرة الخطيب وحياته العلمية.



الفصل الثالث

سيرة الخطيب البغدادي وحياته العلمية

ويتضمن هذا الفصل الموضوعات التالية :

- تمهيداً

أولاً : نسب الخطيب وشهرته.

ثانياً : نشأته وتعليمه .

ثالثاً : مسيرته العلمية .

رابعاً : شخصيته .

خامساً : مذهبه وعقيدته .

سادساً : مكانته العلمية .

سابعاً : أثره في علوم عصره .

ثامناً : شيوخه وتلاميذه .

تاسعاً : بعض مصنفاته وقيمتها التربوية.

عاشراً : وفاته .



الفصل الثالث

سيرة الخطيب البغدادي وحياته العلمية

تمهيـــــد...

أشرنا فى مطلع هذا البحث إلى أن الخطيب أحد أعلام التربية والتعليم البارزين الذين أثروا الفكر التربوى بالعديد من المصنفات التربوية الهامة، التى تناولت مجالات متكاملة وتضمنت نظرات وآراء تميزت بعمق الفكر وشمولها لقضايا الانسان المسلم ومشكلاته.

ويعد الخطيب أحد أبرز علماء مدرسة الفقهاء والمحدثين التربوية، وأبعدهم تأثيرا فى معاصرية ومن جاء بعدهم من العلماء والمجتهدين، كما كان أستاذا قديرا لكثير من علماء عصره، وكانت له علاقات واسعة بالناس والعلماء أتاحت له الالمام بمشكلات عصره آنذاك ويجد الباحث في حياة الخطيب «مثالا كريما للعالم الدؤوب الذى خالط حب العلم شغاف قلبه، وشغله التحقيق فى مسائله والغوص على دقائقه عن كل شئ فحصل منه على كل ما يريد»[١].

وسنحاول فيما يلى عرض بعض جوانب سيرة الخطيب وحياته الزاخرة بالحيوية والنشاط العلمى المتميز.

أولا: نسب الخطيب وشهرته:

اشتـهـر مـؤلف تاريخ بغداد بين الناس وفى بيئات العلم والأدب باسم: «الخطيب البغدادى»، واسمه بالكامل هو أحمد بن على بن ثابت بن أحمد بن مهدى المعروف بالخطيب البغدادى، وأما تلقيبه بلقب «الخطيب» فيبدو أنه كان بالنسبة إلى مهنة أبيه الذى اشتهر بالخطبة والامامة مدة طويلة بقرية درزيجان العراقية[٢]، وإن لم يكن الخطيب الشخص

---

(١) محمود الطحان (مرجع سابق)، ص٢٨.

(٢) درزيجان: قرية كبيرة تحت بغداد، على دجلة بالجانب الغربى منها، انظر: شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى: معجم البلدان. جـ٢، بيروت: دار صادر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٠ ٤٥٠.

الوحيد الذى اشتهر بهذا اللقب بين الناس، فقد عرف به عدد كبير من العلماء من بينهم تلميذه الخطيب التبريزى وآخرون[١].

أما نسب الخطيب فيرجع إلى الأصل العربى، إذ ينحدر من عشيرة عربية، كانت تسكن قرب منطقة الحصاصة من نواحى الفرات في العراق[٢] حيث سكن والده أبو الحسن على بن أحمد قرية درزيجان السابقة ومكث فيها قرابة العشرين سنة يؤم الناس ويخطبهم في مساجدها[٣].

ثانيا: نشأته وتعليمه:

ولد الخطيب البغدادى في غزية[٤] وقيل بل في هنيقيا[٥]، يوم الخميس لست بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة[٦] ونشأ في قرية درزيجان بين أفراد أسرته وتحت رعاية والده الذى حبب إليه العلم وبث فيه روح الحماسة والرغبة في التعليم، وقد تلقى علومه الاولية على يد هلال بن عبدالله الطيبى[٧] كما تعلم وجوه القراءات على يد ابن الصيدلانى وعلى بن منصور الحبال[٨] وعندما بلغ الخطيب الحادية عشرة من عمره تاقت

---

(١) محمود الطحان (مرجع سابق)، ص٣٠.

(٢) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد أو مدينة السلام. جـ١١، بيروت: دار الكتب العلمية، (ب.ت)، ص٣٥٩. والحصاصة : قرية قرب قصر ابن هبيرة من أعمال الكوفة - معجم البلدان (مرجع سابق)، جـ٢، ص٢٦٣.

(٣) الخطيب البغدادى (مرجع سابق)، جـ١١، ٣٥٩.

(٤) غزية : موقع قرب فيد. معجم البلدان (مرجع سابق)، جـ٤، ص٢٠٣.

(٥) هنيقيا: قرية من أعمال نهر الملك. انظر: صلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدى: الوافي بالوفيات. جـ٧، (تحقيق احسان عباس)، بيروت: دار صادر، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص١٩١.

(٦) انظر: ابن عساكر (مرجع سابق)، جـ٧، ص٢٢، أبو سعد عبدالكريم السمعانى: الانساب. جـ٥، (تحقيق عبدالرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى). ط٢، بيروت: الناشر محمد أمين دمج، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص١٥١، تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن على بن عبدالكافي السبكى: طبقات الشافعية الكبرى. جـ٤ (تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحى)، ط٢، القاهرة: مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م، ص٢٩.

(٧) الخطيب البغدادى (مرجع سابق)، جـ١٤، ص٧٥-٧٦.

(٨) المرجع السابق، جـ٤، ص٣٩٣.

نفسه لتعلم الفقة والحديث، فالتحق بمجلس المحدث ابن رزقوية، وفى نفس الوقت أخذ يتردد على مجلس الفقيه الشافعى المعروف أبى حامد الاسفرائيني، وقد واصل التحصيل في هذين العلمين الجليلين حتى عُدَّ من رجالات الحديث والفقهاء المبرزين[١].

ثم إنه انقطع، بعد ذلك إلى تعلم الحديث، وقد أفاد كثيرا من شيخه في الحديث ابن رزقوية كما أفاد من شيخ آخر شهير هو أبو بكر البرقانى الذى أثر كثيرا فى حياته العلمية ووجهه لدراسة الحديث الشريف والتخصص فيه وقد عرف الخطيب بالاجتهاد وسعة الاطلاع والجد فى الطلب منذ وقت مبكر - وحتى من قبل أن تتوق نفسه وهو شاب - إلى الرحلة فى طلب العلم وزيادة التحصيل.

ثالثا: مسيرته العلمية.

أخذ الخطيب يعد العدة للقيام بأولى رحلاته العلمية سنة ٤١٢هـ[٢] وتذكر المراجع أنه قام «بثلاث رحلات في هذه المرحلة من حياته زار فيها ثلاث عشرة ناحية ومدينة، كانت من أشهر بلاد المسلمين ازدهارا بالحديث وعلومه فى ذلك الوقت»[٣] ومن هذه الرحلات الكثيرة: رحلته إلى البصرة ورحلته إلى نيسابور وأصبهان والرى وهمذان والدينور ورحلته إلى الحج التى سأل الله فيها ثلاث حاجات[٤] أولها: أن يحدث بتاريخ بغداد في بغداد نفسها، والثانية: أن يملى الحديث بجامع المنصور، والثالثة: أن يدفن إذا مات عند قبر بشر الحافى، وقد حقق الله له هذه الدعوات الثلاثة، وأصبح من المبرزين في الحديث وعلومه، ومعرفة صحيحة من سقيمه[٥].

وقد سارت حياة الخطيب في هذه الفترة سيره حسنه، حتى قامت فتنة البساسيرى المملوك التركى[٦] الذى حاول الاطاحة بالخلافة العباسية وإحلال الخلافة

---

(١) السبكي (مرجع سابق)، ج٤، ص٣٠.
(٢) الخطيب البغدادي (مرجع سابق)، ج١، ص٤١٧.
(٣) محمود الطحان (مرجع سابق)، ص٣٤.
(٤) ابن عساكر (مرجع سابق)، ج٧، ص٢٤ - ٢٥.
(٥) محمود الطحان (مرجع سابق) ص٤٧.
(٦) هو: أبو الحارث أرسلان المظفر القائد التركي المتشيع.

الفاطمية محلها[1] فاضطر الخطيب إلى الهجرة من بغداد إلى دمشق، التى استهل نشاطه العلمى بها وصار صاحب حلقة دراسية كبيرة بالجامع الأموى[2] يؤمها خلق كثير من العلماء وطلبة العلم ومحبيه[3] وسارت حياته دون منغصات فى هذا القطر حتى حقدت عليه مجموعة من الروافض وسعوا إلى إخراجه من دمشق إلى صور[4] التى غادرها متجها إلى بغداد وقد وصلها سنة ٤٦٢هـ، بعد فراق دام إحدى عشرة سنة، ليستأنف التدريس فى حلقته العلمية فى جامع المنصور، يملى الحديث، ويصنف الكتب ويدرس لطلاب العلم حتى توفاه الله.

رابعا: شخصيته:

يعتبر الخطيب واحدا من أعظم رجال عصره(٥) في العلم والزهد، والأخلاق الكريمة والخصال الحميدة والمناقب النبيلة، كما كان في درجة الكمال والرتبة العليا من الأخلاق وجمال الهيئة والمنظر، وكان وقورا، صاحب شخصية قوية مؤثرة، ذكيا، محبا للعلم، تقيا معروفا بالكرم وعزة النفس، وكان مثالا للعالم المؤمن الذى يحرص على أن يكون عمله صورة صادقة لعلمه، وكان يرى أن أهم لوازم طالب العلم الاخلاص والاجتهاد في العمل الذى يعتبر عنده ثمرة للعلم[6].

والخطيب البغدادى بهذه الصفات والأخلاق مثال يحتذى فى العلم والعمل وهو أحد رجالات العلم والتربية المعدودين في الدرجة العليا من الأخلاق الكريمة والمناقب النبيلة وقد رأينا إجماع العلماء على وصفه بالعلم والصدق والأمانة العلمية وحسن الخط وجودة التصنيف والفصاحة وسعة الاطلاع[7].

---

(١) محمود الطحان (مرجع سابق)، ص٤٨ .

(٢) الذهبي (مرجع سابق) ج٣ ، ص١١٣٨ وابن كثير (مرجع سابق) ج١٢، ص١٠٢ .

(٣) . ياقوت : معجم الأدباء (مرجع سابق) ، ج٤، ص٣٢، ٣٣ .

(٤) ابن كثير (مرجع سابق) ج١٢ ، ص١٠٢ .

(٥) منير الدين أحمد (مرجع سابق) ، ص٣٦ .

(٦) الخطيب البغدادي : اقتضاء العلم العمل (تحقيق محمد ناصر الدين الألباني) . ط٤، بيروت: المكتب الاسلامي ، ١٣٩٧هـ، ص١٤ .

(٧) ياقوت : معجم الأدباء (مرجع سابق) ج٤ ، ص٣٠ .

خامسا: مذهبه وعقيدته:

كان الخطيب على مذهب الأشعرى فى الأصول[1] ورأيه فى مسألة الصفات أنها تمر كما جاءت من غير تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف وهو مذهب السلف الصالح من الأئمة وأهل الحديث وفي ذلك يقول الخطيب: «أما الكلام في الصفات فإن ما روى منها فى السنن الصحاح مذهب السلف إثباتها، وإجراؤها على ظواهرها ونفى الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله، وحققها قوم من المثبتين فخرجوا من ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف والفصل إنما هو سلوك الطريقة المتوسطة بين الأمرين ودين الله بين الغالى فيه والمقصر عنه...»[2].

أما مذهب الخطيب في الفروع فهو المذهب الشافعى، ومهما قيل عن تحوله من المذهب الحنبلى إلى المذهب الشافعى فإنه عرف منذ نعومه أظفاره بتمذهبه للمذهب الشافعى حتى لا يكاد يعرف له مذهب فى الفروع غيره. ورغم جواز القول بالتحول إلا أن القائلين بذلك لم يقدموا أدلة منطقية مقنعة كافية تثبت صحة دعواهم، وما يقوله البعض من أن خصومة الحنابلة له كانت بسبب تحوله إلى المذهب الشافعى هو قول مردود، لأن الحنابلة خاصموا مذاهب وفرقا أخرى كثيرة ومع ذلك لم يقل أحد إنهم إنما خاصموها لتحول أصحابها عن المذهب الحنبلى، كما أن اتخاذ بعض الحوادث الانفرادية أدلة على الخصومة هو أمر غير مقبول، فلا يمكن مثلا أن نعتبر صلاة بعض الناس على جنازة أحد أتباع مذهب ما دليلا على إلحاق أولئك المصلين بمذهب من يصلون عليه[3].

سادسا: مكانته العلمية:

تبوأ الخطيب منزلة رفيعة بين العلماء، وكان محل ثقتهم وثنائهم، أشاد بذكره الأعداء والأصدقاء، يقول عنه معاصره ابن ماكولا «كان أبو بكر الخطيب آخر الأعيان ممن شاهدناه معرفة وحفظا وإتقانا وضبطا لحديث رسول الله ﷺ وتفننا فى علله وأسانيده وعلما بصحيحه وغريبه وفرده ومنكره ومطروحه .. ولم يكن لبغداد

---

(١) السبكي (مرجع سابق)، ج٤، ص٣٠.

(٢) الذهبي (مرجع سابق)، ج٣، ص١١٤٢ - ١١٤٣.

(٣) انظر: محمود الطحان (مرجع سابق)، ص٦٠ للاطلاع على مناقشة هذه الدعوى وتفنيدها.

بعد الدارقطنى مثله»[1] وقال عنه السبكي إن سور بغداد لم يطف «على نظيره يروى عن أفصح من نطق بالضاد، ولا أحاطت جوانبها بمثله، وإن طفح ماء دجلتها وروى كل صاد، عرّفته أخبار شأنها وأطلعته على أسرار أبنائها وأوقفته على كل موقف منها وبنيان وخاطبته شفاها لو أنها ذات لسان»[2].

ووصفه السمعانى بأنه «إمام عصره بلا مدافعة وحافظ وقته بلا منازعة»[3]، كما وصفه بعلو المكانة وقوة الحفظ وكثرة الضبط والتوثيق[4] وقال عن ابن عساكر إنه «أحد الأئمة المشهورين والمصنفين المكثرين والحفاظ المبرزين ومن ختم به ديوان المحدثين»[5].

وقال أبو على البردانى «لعل الخطيب لم ير مثله»[6] في الضبط والحفظ والاتقان ووصفه أبو الفتيان الرؤاسى بأنه «إمام هذه الصنعة، ما رأيت مثله»[7] وحسب الخطيب أنه كان رئيس أصحاب الحديث الشريف في دولة الخلافة في عصره، يشرف على المحدثين والوعاظ فلا يحدثون بحديث حتى يعرضوه عليه فيرده أو يجيزه[8] وقد بلغ الخطيب درجة رفيعة في العلم والتوثيق والتعديل أثارت كيد الحاسدين له -وكل ذى نعمة محسود- لذلك حاول الحاقدون عليه إثارة الطعون فى علمه وشخصه، فاتهموه بالتصحيف والتحديث عن الضعفاء والتدليس وكثيرة الأوهام وغير ذلك من التهم الساقطة الواهية التى لا تجوز على عقل مستنير[9].

يظهر مما سبق مكانة الخطيب العلمية العالية التى احتلها بين العلماء بفضل جده

---

(١) ابن عساكر (مرجع سابق)، ج٧، ص٢٥ - ٢٦.
(٢) السبكي (مرجع سابق)، ج٤، ص٣٠ - ٣١.
(٣) السمعاني (مرجع سابق)، ج٥، ص١٥١.
(٤) المرجع السابق، ج٥، ص١٥١.
(٥) ابن عساكر (مرجع سابق)، ج٧، ص٢٢.
(٦) السبكي (مرجع سابق)، ج٤، ص٣٢.
(٧) المرجع السابق، ج٤، ص٣٢.
(٨) الذهبي (مرجع سابق)، ج٣، ١١٤١.
(٩) السبكي (مرجع سابق)، ج٤، ص٣٤.
وكارل بروكلمان: تاريخ الادب العربي، ج٦ (ترجمة يعقوب بكر ومراجعة رمضان عبدالتواب)، ط٢، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣م، ص٥٦

واجتهاده وسعة علمه واطلاعه، فقد ألف في مجالات علمية وأدبية عديدة من بينها الحديث والتاريخ والفقه والأدب والرقائق، وجمع الكثير من العلوم والمعارف وكانت له مكتبة كبيرة تعد من أكبر خزائن الكتب المهمة في بغداد[١] أوقف جميع كتبها على المسلمين عند وفاته[٢]

سابعا: أثره فى علوم عصره:

مر معنا أن الخطيب حفظ القرآن الكريم فى صغره، وتعلم القراءات وتعمق في دراسة الفقه حتى عد من كبار فقهاء الشافعية[٣] كما سمع الحديث ورحل في طلبه، واشتغل بالتاريخ والتراجم، ورغم تعدد جوانب الخطيب هذه، فقد عرف بالتخصص في علمين هامين هما التاريخ وعلم الحديث[٤] فقد اشتهر الخطيب في علم الحديث وبرع فى فنونه براعته في التاريخ «تلك البراعة التى شهرته كعالم مؤرخ ناقد، حيث طبق على التاريخ منهج المحدثين النقدى في الاستثبات من النصوص المنقولة ونقد الوثائق التاريخية»[٥] وكان بذلك من السابقين إلى وضع قواعد علم التاريخ التى توصل إليها المؤرخون المعاصرون.

وقد أثر الخطيب في كثير ممن جاءوا بعده من العلماء الذين استفادوا من كتبه ومصنفاته ولم يأتوا بأحسن منها وأجمع كما استفاد منه ومن غيره علماء مثل القاضى عياض وابن الصلاح[٦] ونسج على منواله في التأليف علماء منهم السمعانى وابن جماعة والزرنوجى ممن عرفت لهم أنساق تربوية وتعليمية متكاملة، تصدّق فيه قول القائل: «كل من أنصف علم أن المحدثين بعد الخطيب عيال على كتبه»[٧] ولا ينكر أحد أثر الخطيب وتأثيره في كثير من العلوم فى عصره، بل وفى عصرنا الحاضر وخاصة في الحديث وعلومه والفقه والتربية والتاريخ التى تزخر بالعديد من الآراء الدقيقة والتحقيقات العميقة والشواهد المستفيضة في كثير من

---

(١) ناجي معروف (مرجع سابق) ، ص٤٦٨، وابن الجوزي (مرجع سابق) ، ج٨، ص٢٦٩ .
(٢) السبكي (مرجع سابق) ، ج٤ ، ص٣٥ ، ٣٧ .
(٣) المرجع السابق ، ج٤ ، ص٣٠ .
(٤) ابن خلكان (مرجع سابق) ج١، ص٩٢ .
(٥) الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث (تحقيق نور الدين عتر) ، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص٥٣.
(٦) أكرم ضياء العمري (مرجع سابق) ، ص٦١ .
(٧) ابن حجر العسقلاني (مرجع سابق) ، ص١٦ .

مسائل العلم الاصلية منها والفرعية[1]. حيث تقدم مؤلفاته معالجة جديدة ومادة مفيدة لم يُسبق الى كثير منها سواء في مجال الحديث الشريف أو التراجم أو الفقه أو التربية أو الأدب والتاريخ.

ثامنا: شيوخه وتلاميذه:

سمع الخطيب من علماء كثيرين يزيد عددهم على الألف[2] من بينهم عدد كبير من أئمة الحديث والحفاظ المشهورين نذكر منهم أبا نعيم الأصبهانى وأبا بكر البرقانى وأبا عبدالله الصورى وابن رزقويه والمحاملى وغيرهم أما تلاميذه فهم أيضا كثيرون، وذلك أنه لم يكن يحل فى مكان حتى يجتمع عليه طلبة العلم يأخذون عنه نظرا لما كان يتمتع به من شهرة واسعة فى شتى ديار المسلمين ومن تلاميذه ابن ماكولا وعبدالعزيز الكتانى وابن الأكفانى وأبو اسحاق القشيرى وطاهر بن سهيل الاسفرائى والخطيب التبريزى وغيرهم.

وقد كان الخطيب معظما لشيوخه مجلا لهم، عطوفا على تلاميذه محباً لهم يتفقد أحوالهم ويبذل لهم ماله الكثير، يقول السبكى: «كانت للخطيب ثروة ظاهرة وصدقات على طلاب العلم دارة، يهب الذهب الكثير للطلبة»[3].

تاسعا: بعض مصنفاته وقيمتها التربوية:

عرف الخطيب البغدادى بكثرة التصانيف وتعدد الجوانب والاهتمامات «صنف قريبا من مائة مصنف صارت عمدة لأصحاب الحديث...»[4] وقد اختلف المؤرخون في عدد مصنفاته إلا أنه يمكن حصرها بين ست وخمسين ومائة مصنف كبير أو رسالة صغيرة[5] تناولت ميادين علمية وأدبية متنوعة منها الحديث وعلومه والفقه وأصوله والتاريخ والزهد والرقائق والأدب.

---

(١) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ، ج١، ص٤٦ .

(٢) محمود الطحان (مرجع سابق) ، ص٦٨ .

(٣) السبكي (مرجع سابق) ، ج٤ ، ص٣٤ ، و الذهبي (مرجع سابق) ، ج٣ ، ص١١٣٨ .

(٤) السمعاني (مرجع سابق) ، ج٥ ، ص١٥١ .

(٥) انظر : السبكي (مرجع سابق) ، ج٤ ، ص٣١ ، السمعاني (مرجع سابق) ج٥، ص١٥١، محمود الطحان (مرجع سابق) ، ص١٢١ .

ومن أهم مؤلفاته في مصطلح الحديث كتاب «الكفاية في علم الرواية» أما أهم كتبه فى أدب الرواية فكتاب «الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع» وغيرهما.

ورغم أن مؤلفات الخطيب ليست أول مصنفات تتناول أصول الحديث إلا أنها احتلت مكانة مرموقة بين كتب هذا العلم، وكانت صاحبة التأثير الأقوى على العلماء المتأخرين الذين تأثروا بها ونسجوا على منوالها. إن الخطيب وإن أفاد من مؤلفات من سبقة من العلماء مثل الحسن بن خلاد الرامهرمزى «ت ٣٦٠هـ» وأبي عبدالله الحاكم النيسابورى «ت ٤٠٥هـ» وأبى نعيم الأصبهانى «ت ٤٣٠هـ» وغيرهم إلا أنه أثر بدوره فيمن جاء بعده من العلماء الذين أفادوا من مصنفاته وخاصة كتابيه «الكفاية في علم الرواية»، «والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع» اللذين أصبحا مرجعين معتمدين في مصطلح الحديث وأدب الرواية كماذكرنا.

ومن العلماء الذين تأثروا بفكر الخطيب من خلال هذيه الكتابين وغيرهما القاضى عياض «ت ٥٤٤هـ» في كتابه «الالماع إلى معرفة أصول الراوية وتقييد السماع»[1] وابن الصلاح في كتابه «علوم الحديث»[2]، وأبو سعد السمعانى في كتابه «أب الاملاء والاستملاء»، وبرهان الدين الزرنوخى في كتابه «تعليم المتعلم طريق التعلم» والقاضى ابن جماعة في كتابه «تذكرة السامع والمتكلم فى أداب العالم والمتعلم» وغيرهم، وقد استمر تأثير الخطيب بطريق مباشر أو غير مباشر من خلال كتبه أو الكتب التى نقلت عنه[3] بالاضافة إلى مؤلفاته الكثيرة الأخرى سواء فى الفقه والأصول أو التاريخ أو الأدب أو الحديث وعلومه.

ويعتبر كتاب «تاريخ بغداد» من أشهر مصنفات الخطيب البغدادى وهو عبارة عن معجم تراجم لأهل الحديث الذين وردوا بغداد منذ تأسيسها وحتى وقت قريب من وفاة الخطيب، وقد أعد الباحث منير الدين أحمد رسالة علمية حول تاريخ التعليم الاسلامى من خلال هذا الكتاب مما يدل على أهمية كتب الخطيب، وغناها بالمعلومات والمواد التربوية التى تكشف الكثير من ملامح الفكر التربوى الاسلامى، أما كتب الخطيب فى أداب الرواية

---

(١) أكرم ضياء العمري (مرجع سابق)، ص٦١.
(٢) ابن حجر العسقلاني (مرجع سابق)، ص١٧.
(٣) أكرم ضياء العمري (مرجع سابق)، ص٦٢.

فتعتبر فى أغلبها كتبا ذات قيمة تربوية وتعليمية هامة لما تضمنته من قواعد وآداب وتوجيهات وتعاليم تنصب على المعلم والمتعلم والعملية التعليمية، ومن هذه الكتب:

١- اقتضاء العلم العمل.

٢- الجامع لاخلاق الراوى وآداب السامع «جزءان».

٣- شرف أصحاب الحديث.

٤- نصيحة أهل الحديث.

٥- تقييد العلم.

٦- الرحلة فى طلب الحديث.

٧- الفقيه والمتفقه «جزءان».

ولهذه الكتب وغيرها من مصنفات الخطيب أهمية كبيرة في تاريخ الحياة الثقافية والتعليمية زمان الخطيب البغدادي، حيث تكشف عن النشاط العلمى للعلماء ومدى اتصال الحركة الفكرية في المدن الاسلامية، إضافة إلى بيانها لمناهج التعليم وطرق التدريس وعلاقة العلماء بتلاميذهم، والتعريف بالمؤسسات العلمية التى كانت منتشرة فى القرن الخامس الهجرى وبالحلقات العلمية ومجالس المناظرة وحلقات التدريس التى يعقدها كبار العلماء في المساجد أو الدور لاملاء الحديث أو التدريس أو المناظرة أو المذاكرة[١].

ونظرا للأهمية التربوية للمصنفات السابقة سنتحدث عنها فيما يلى بشيئ من الاختصار والتركيز: يعتبر كتاب «اقتضاء العلم العمل»[٢] كتابا تربويا خالصا بما حواه من جوانب تربوية وتطبيقية، وقد أداره الخطيب من أوله إلى آخره حول الجمع بين العلم والعمل الذى يعد أصلا من الأصول الاسلامية، إذ لا يفهم الاسلام أو يطبق دون الاخذ به، لأنه لا معنى للعلم المجرد، بل لا بد من انتقال المعلومات إلى حيز التطبيق على اعتبار أن العمل بالعلم من أسس التربية والتعليم فى الاسلام، والعلم المجرد، أو العلم للعلم كما يقال مسألة مرفوضة لدى كل التربويين المسلمين قديما وحديثا[٣].

وقد أفاض العلماء المسلمون -وبالأخص التربويين- فى الكلام حول هذا المبدأ

(١) أكرم ضياء العمري (مرجع سابق)، ص٨٨.

(٢) الخطيب البغدادي (مرجع سابق).

(٣) انظرابن الجوزي : لفتة الكبد في نصيحة الولد (مرجع سابق)، ص٦٦ من مقدمة مروان قبان.

وخصصوا له كتبا وفصولا ومن هذه الكتب كتاب الخطيب الذى نحن بصدده. والكتاب فى مجموعة نصيحة مخلصة لطلبة العلم ليحرصوا على جانب التطبيق لما يتعلمونه، ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى العمل بهذه النصيحة للنهوض بالتعليم فى مؤسساتنا المختلفة لأن المشكلة ليست في العلوم والمعارف التى نتعلمها ولكنها في القدرة على الاستفادة منها أى في العمل الذى يبرز القوة الكامنة في العلم وتسخيره لصالح الانسان وسعادته في الدنيا والآخرة.

أما كتاب «شرف أصحاب الحديث»[1] فهو كتاب موجه إلى المعلم بهدف تعريفه بمكانته ودوره فى نشر العلم وتبليغه، وفي الكتاب موضوعات كثيرة تدور حول مكانة العالم وشرفه وما ينبغى له من آداب وأخلاق تجمع بين الاصالة والتجديد ضمن حدود ما جاء به الشرع السديد.

أما الكتاب «نصيحة أهل الحديث»[2] فهو قريب النسب لموضوع كتاب شرف أصحاب الحديث وفيه شرح لأسباب المطاعن التى تدخل على المحدثين من تقصيرهم في الفهم لما يجمعون، فهو دعوة إلى الفهم وإعمال الفكر والتدبر فى النصوص واستنباط الأحكام، كما تطرق الخطيب في هذا الكتاب الى معالجة بعض المبادئ التربوية الهامة مثل التعليم فى الكبر وأثر النظرة الاجتماعية على التعليم وغيرها.

وفي كتاب «الرحلة في طلب الحديث»[3] أوضح الخطيب أهمية الرحلة في طلب العلم وأنها وسيلة من وسائل التعليم المعتمدة لدى المحدثين أما كتاب «تقييد العلم»[4] فهو دعوة لطلبة العلم إلى القراءة والثقافة والتعليم، كما أنه دعوة للعلماء إلى تقييد علومهم لينتفع بها طلبة العلم في كل مكان وزمان.

ويعتبر كتاب «الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع»[5] أهم كتب الخطيب التربوية

---

(١) الخطيب البغدادي : شرف أصحاب الحديث . (تحقيق محمد سعيد أوغلي) أنقرة : دار احياء السنة النبوية ، ١٩٧١م.

(٢) توجد ضمن كتاب (الفقيه والمتفقه) ، وصفحاتها لا تتجاوز أصابع اليدين، محمود الطحان (مرجع سابق) ، ص٢٣٦ .

(٣) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) .

(٤) الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، (تحقيق يوسف العش) . ط٢ ، انقرة :دار احياء السنة النبوية ، ١٩٧٤م.

(٥) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) .

وهو غاية فى بابه، لم يكد الخطيب يدع فيه شاردة ولا واردة تتعلق بالمعلم أو المتعلم إلا وأشار إليها[1] مما يجعله كتابا جديرا بالدراسة، وخاصة في مجال أصول التربية والتدريس وطرق التعليم وآدابها[2].

وأما كتاب «الفقيه والمتفقه»[3] فهو أهم كتب أصول الفقه عند الخطيب، وتغطى موضوعات الأصول فيه ثلثى الكتاب تقريبا بينما خصص المؤلف الثلث الباقى للنواحى المتعلقة بآداب العالم والمتعلم وما يتعين على كل منها من حيث مرعاة آداب التعلم والعمل على اتباع القدوة الحسنة والالتزام بالتطبيق. ويعتبر هذا الكتاب مع الكتب السابقة «سلسلة تربوية متكاملة منفصلة»[4]. وقد تكلم الخطيب في هذا الكتاب على مصادر التربية الاسلامية الخالدة وهى:

١- القرآن الكريم.

٢- السنة النبوية.

٣- الاجماع.

٤- القياس.

وسنتعرض بالدراسة لهذه المصادر عندما نتحدث عن مصادر التربية الاسلامية عند الخطيب في الفصل التالى باذن الله تعالى.

عاشرا: وفاته:

استمر الخطيب يحاضر فى جامع المنصور ببغداد بعد عودته من الشام سنة ٤٦٢هـ إلى أن اشتدت عليه وطأة المرض «فوقف جميع كتبه وفرق جميع ماله في وجوه البر وعلى أهل

---

(١) أكرم ضياء العمري (مرجع سابق) ، ص٦٩ .

(٢) محمود الطحان (مرجع سابق) ، ص٤٦٩ .

(٣) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) .

(٤) برهان الدين الزرنوجي : تعليم المتعلم طريق التعلم (تحقيق وتقديم صلاح محمد الخيمي ونذير حمدان) ط١، دمشق ، بيروت: دار ابن كثير ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص١٢ من مقدمة المحققين.

العلم والحديث، وكان ذا ثروة ومال كثير»[1] وقد وكل أبا الفضل ابن خيرون بكتبه، فحفظها إلى أن احترقت عند ابنه الفضل ابن خيرون وكان والده قد تركها في رعايته[2].

وقد توفي الخطيب في يوم الاثنين السابع من ذى الحجة سنة ثلاث وستين وأربعمائة للهجرة ببغداد، ودفن بباب حرب إلى جانب بشر بن الحارث الحافي، وتبع جنازته خلق كثير يتقدمهم العلماء والكبراء، وكان فى المشيعين جماعة ينادون هذا الذى يذب عن رسول الله ﷺ هذا الذى ينفى الكذب عن رسول الله ﷺ، وهذا الذى يحفظ حديث رسول الله ﷺ[3] وبوفاة الخطيب «طويت صفحة من صفحات العلم الحافلة بالتحقيق والتصنيف وفقد المسلمون علما من أعلام المحدثين الذين أغنوا الخزانة الاسلامية، بما تحتاجه من علوم الحديث»[4].

يتضح لنا مما سبق أن الخطيب «كان على جانب كبير من الأخلاق الكريمة والمناقب النبيلة وأنه كان مخلصا في علمه وتصنيفه حتى انعكست السنة التى يشتغل بها على نفسه، فأكسبتها كمالا وتواضعا وتقى وعملا خيرا»[5] وكان بمجموع خصاله نموذجا طيبا للعالم العامل بعلمه كما كان لكتبه الأثر البالغ فى علماء عصره والأعصر اللاحقه له.

والخطيب بحق صاحب عقلية موسوعية، انتجت ثقافة علمية متنوعة أثرت الفكر الاسلامى، وقد أسلفنا أنه كان أحد المكثرين في التصنيف المجيدين له البارعين فيه مما لا يتنازع فيه إلا جاحد أو جاهل...

وسنتناول فيما يلى من فصول أهم آراء الخطيب التربوية والتعليمية بعد أن مهدنا لذلك بالفصول السابقة التى تعكس الخلفية الاجتماعية والثقافية والعلمية التى تأثر بها الخطيب. وفي الباب التالى نتناول أصول الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي محاولين تعرف الاتجاه الذى ينتمى اليه الخطيب من خلال دراسة مصادر التربية الاسلامية وإطارها الفكرى ومفهومها عامة وعند الخطيب خاصة إلى جانب أهداف التربية وميادينها عند الخطيب البغدادي بصورة أخص.

---

(١) السبكي (مرجع سابق) ، ج٤ ، ص٣٥ .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم (مرجع سابق) ، ج٨، ص٢٦٩، وياقوت : (مرجع سابق) ، ج٤ ، ص٢٧.

(٣) انظر : السبكي (مرجع سابق) ، ج٤ ، ص٣٧، وابن الجوزي المنتظم (مرجع سابق) ج٨، ص٢٦٩، والصفدي (مرجع سابق) ج٧، ص١٩٧ .

(٤) محمود الطحان (مرجع سابق) ، ص٥٥ .

(٥) المرجع السابق ، ص٦١ .



الباب الثاني

أصول الفكر التربوي
عند الخطيب البغدادي

ويتضمن هذا الباب الفصول الثلاثة التالية:

الفصل الرابع : مصـــادر الفكـــر التربـــوي
عنـــد الخطـــيب البغـــدادي.

الفصل الخامس : الاطار الفكري لمفهوم التربية
وأهدافها عند الخطيب البغدادي

الفصل السادس : ميادين التربية الاسلامية.
عنـــد الخطـــيب البغـــدادي.



الفصل الرابع

مصادر الفكر التربوي
عند الخطيب البغدادي

ويتضمن هذا الفصل الموضوعات التالية :

- تمهيداً

أولاً : القرآن الكريم .

ثانياً : السنة النبوية المطهرة .

ثالثاً : الإجماع .

رابعاً : القياس .



الفصل الرابع

مصادر الفكر التربوى عند الخطيب البغدادي

تمهيـــــد ...

جاءت أصول التشريع الاسلامى بالكثير من القواعد والمبادئ والتوجيهات والأصول الدقيقة الجامعة التى تشتق منها التربية الاسلامية فلسفتها وأهدافها، ومناهجها وأساليبها، ويعتمد الفكر التربوى عند الخطيب البغدادى على هذه الأصول، إذ نجده يذكر فى كتابه «الفقيه والمتفقه» الأصول التى تشتق منها أدلة القضاء، ويمكن اعتبارها مصادر للفكر التربوى عنده وهى[1]:

١- القرآن الكريم.

٢- السنة النبوية المطهرة.

٣- الاجماع.

٤- القياس.

وهذه المصادر تعكس الاتجاه الفكرى الذى ينتمى إليه الخطيب، وهو اتجاه مدرسة الفقه والحديث كما تعكس بوضوح -أيضا- المذاهب الفكرية لهذه المدرسة من حيث ردها كل شئ إلى المصادر الأصلية للاسلام، وهى أساسا القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

أولا: القران الكريم:

القرآن الكريم هو المصدر الأول اليقينى الذى يحتوى على معالم المنهج الاسلامى فى التربية والتعليم والتنشئة والتوجيه[2] وغير ذلك مما عالجه الاسلام بطرق عملية حكيمة راعت جميع الخصائص الفطرية والمكتسبة في الانسان الذى يعد موضع اهتمام هذه التربية مثلما هو

---

(١) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٥٤ .

(٢) عبدالحميد الهاشمي : الرسول العربي المربي . ط١ ، دمشق : دار الثقافة للجميع، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص١٧ .

محل اهتمام وعناية من القرآن والسنة[1] ومعروف أن القرآن هو عهد الله إلينا الذى ألزمنا الاقرار به والعمل بما فيه، وصح بنقل الكافة الذى لا مجال للشك فيه، وهو المكتوب في المصاحف المشهور فى الآفاق كلها[2] وهو فى الاصطلاح، «كلام الله تعالى المنزل على سيدنا محمد ﷺ باللفظ العربى، المنقول إلينا بالتواتر، المكتوب فى المصاحف المبدوء بسورة الفاتحة، والمختوم بسورة الناس»[3].

كذلك أطلق الكتاب في عرف أهل الشرع على كلام الله تعالى، المكتوب في المصاحف، المقروء على ألسنة العباد، وهو بهذا الاطلاق مرادف للقرآن الكريم، الذى هو كلام الله تعالى، غير أن اللغويين يقولون بالمغايرة بينهما، فالكتاب عندهم اسم للمكتوب، أما القرآن فمصدر للمقروء «بمعنى القراءة»[4]، وعلى هذا يكون القرآن مجموع اللفظ المقروء في كتاب الله تعالى، وما يدل عليه اللفظ من معنى[5] وقد أولى االمسلمون عناية فائقة بالقرآن الكريم، يدرسونه تعليما وتعلما، ويتلونه حق تلاوته، ويتدبرون آياته، ويعملون بما جاء فيه من أوامر ونواهى، ومن إصلاح، وتزكية، وتهذيب[6] ومن هذا المنطلق أصبح القرآن الكريم المحور الذى تتمركز حوله العملية التربوية والتعليمية عند المسلمين، وتدور حوله مناهج التعليم وطرق التربية وأساليبها.

---

(١) علي خليل مصطفى أبو العينين : «الفكر التربوي الاسلامي ، مصادره، معطياته، حركته» رسالة الخليج العربي، العدد ١٧، السنة السادسة، الرياض ، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٣٢ - ٣٣ .

(٢) الحافظ أبو محمد علي بن حزم الاندلسي الظاهري : الاحكام في أصول الاحكام . ج١ (تحقيق وتقديم وتصحيح محمد احمد عبدالعزيز) ، ط١، القاهرة: مكتبة عاطف ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص١٠٧ .

(٣) زكي الدين شعبان : أصول الفقه الاسلامي . ط٣ ، بيروت : دار القلم ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص٣٣ .

(٤) بدران أبوالعينين بدران : أصول الفقه الاسلامي ، الاسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة (ب.ت) ، ص٥٦. وانظر : ابراهيم أنيس وزملاؤه : المعجم الوسيط . ج٢ ، دمشق: دار الفكر، (ب.ت)، ص٧٧٥ .

(٥) بدران أبوالعينين بدران (مرجع سابق) ، ص٥٧ .

(٦) حامد عبده الهوال : التعليم والتعلم في القرآن الكريم . ط١، الكويت: مكتبة الفلاح، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٢٩ .

لذلك ليس غريبا أن نجد الخطيب يركز على وجوب تعلم القرآن الكريم، دراسة وحفظا، مبينا أن على الطلبة بذل الجهد وإخلاص القصد في حفظ القرآن وتدبر معانيه، والمداومة على تلاوته والعمل بما جاء فيه من توجيهات وأحكام وتعاليم، مشيرا إلى ما ينبغى للطالب أن يتعلمه عند دراسة القرآن الكريم من حفظ الآثار وهى السنن، بالاضافة إلى تعلم اللغة العربية وغيرها من العلوم التى لا تستقيم تلاوة القرآن وفهمه إلا بها، خاصة وأن القرآن يشتمل على «المُحْكَمِ والمتشابه والحقيقة والمجاز والأمر والنهى والعموم والخصوص والمُبَيَّنِ والمجمل والناسخ والمنسوخ، فيحتاج الناظر في علمه إلى حفظ الآثار ودرس النحو وعلم العربية، واللغة إذ كان الله تعالى إنما أنزله بلسان العرب»[1] فقال تعالى: ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[2].

وقد روى الخطيب أن رجلا سأل يحيى بن عتيق فقال له: «أرأيت الرجل يتعلم العربية يطلب بها حسن المنطق، ويلتمس أن يقيم قراءته؟ قال: حسن فتعلمها يا أخى فإن الرجل ليقرأ الآية فيعى بوجهها فيهلك فيها»[3] وعلى هذا يكون القرآن أشرف العلوم التى يمكن أن يتعلمها الطالب، ويشتغل بها ولا غرابة إذا وجدنا الخطيب ينصح طلبة العلم وخاصة المبتدئين منهم بصرف الهمة إلى حفظ القرآن وعدم التشاغل عنه بغيره، أو خلطه بأى علم آخر سواه، ولو كان حديث رسول الله ﷺ، حتى يتوفر على حفظه وفهمه وإتقان علومه. فإذا تحقق هذا الهدف للطالب بدأ بعد ذلك في دراسة الحديث الشريف وهو العلم الذى يتلو القرآن في الأهمية والشرف، وفي ذلك يقول الخطيب: «ينبغى للطالب أن يبدأ بحفظ كتاب الله عز وجل إذ كان أجل العلوم وأولاها بالسبق والتقديم»[4]، «فإذا رزقه الله تعالى حفظ كتابه فليحذر أن يشتغل عنه بالحديث أو غيره من العلوم اشتغالا يؤدى إلى نسيانه»[5].

وهكذا يشدد الخطيب على أهمية حفظ القرآن ويعد نسيانه ذنبا يجازى الله عليه يوم القيامة بأشد العقوبات، وذلك فيما رواه بسنده عن سعد بن عبادة أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) الخطيب البغدادي : (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٥٧ .
(٢) سورة يوسف ، آية (٢) .
(٣) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٥٧ .
(٤) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص١٠٦ .
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٠٨.

(ما من رجل تعلم القرآن ثم نسيه إلا لقى الله يوم القيامة وهو أجذم)[1].

والخطيب عندما يؤكد على أهمية حفظ القرآن وتعلمه إنما يدل بذلك على دوره التربوى والتوجيهى فى حياة المسلمين فضلا عن سلطانه وتأثيره فى الأنفس وراحة القلوب، قال تعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[2]، كما بين الرسول ﷺ فضل قراءة القرآن ومدى تفاوت الناس فى ذلك الفضل، قال ﷺ : (مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر)[3].

ولا تقتصر تلاوة القرآن الكريم على مجرد القراءة وإنما هى قراءة ملؤها التدبر، والفهم، والادراك. واستشعار الرهبة، والخوف، والأمل، والرجاء، بحيث ينتقل القارئ للقرآن من هذه التلاوة إلى التزكية وإلى التوبة والاقلاع عن الذنوب وتنقية النفس من الأدران والشوائب، وجعلها فى حالة تسمح لها بتلقى الحكمة، وتعلم كل ما ينفعها مما لم تكن تعلمه...[4].

هذا والحق يقال إن هناك شبهة قد يثيرها البعض بخصوص طريقة الحفظ باعتبار أن الحفظ يتعارض مع بعض المبادئ والمفاهيم التربوية الحديثة التى تعتبر الحفظ والاستظهار عادة سيئة، ومعوقة لعملية التعلم ينبغى محاربتها[5]، وهى دعوى غير صحيحة فى جميع الأحوال، كما أنها دعوى بائنة الخطر، خاصة عندما يتعلق الأمر بحفظ كتاب الله الكريم، لأن الله تعالى تعبد هذه الأمة بتلاوة القرآن الكريم وكلفها بحفظه «ولم يكلف الأمم السابقة

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص١١٠ ، أجذم : أي مقطوع اليد ، من الجذم وهو القطع، والمعنى أن من نسي القرآن لقي الله خالي اليدين من الخير ، صفرها من الثواب والعياذ بالله.

(٢) سورة الرعد ، آية (٢٨)

(٣) محمد بن اسماعيل البخاري : صحيح البخاري - كتاب التوحيد . ج٨ ، استانبول: دار الدعوة ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٢١٨ .

(٤) انظر : عبدالفتاح جلال : من الأصول التربوية في الاسلام المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي، سرس الليان، المنوفية ، جمهورية مصر العربية، ١٩٧٧، ص١٦ .

(٥) انظر : سعيد إسماعيل علي : أصول التربية الاسلامية، ا لقاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٨٥م، ص٥٣

بحفظ كتبها وصحفها... فكان من الضرورى المحافظة على النص بالطريق المفيدة للقطع واليقين، وليس ذلك إلا بأن يحفظ العدد الكبير في كل جيل وعصر...»[١].

ورغم أن الخطيب يعلم أن حفظ القرآن الكريم فرض كفاية لا وجوب وأنه ليس شرطا في عملية التعلم والتلقى إلا انه يشترط حفظه فى بدء التعليم حتى يكون لدى طالب العلم أساس صحيح متين يشيد عليه بناءه العلمى والمعرفى أثناء تلقيه للعلوم والمعارف خلال مراحل الطلب المختلفة بل وخلال حياته كلها كمصدر أساسي للتربية الاسلامية. تجب العناية به حفظا وتعليما لأبناء المسلمين.

ثانيا: السنة النبوية المطهرة:

تعتبر السنة النبوية أحد الأصول التى ألزمنا الله تعالى طاعتها والانقياد لها في الآية الجامعة لجميع الشرائع أولها عن آخرها[٢]، وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾[٣]، كما «صح لنا بنص القرآن أن الأخبار هى أحد الأصلين المرجوع إليها عند التنازع»[٤] قال تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾[٥].

أ- تعريف السنة:

السنة في اللغة الطريقة، حسنة كانت أو قبيحة[٦] «وأصلها قولهم سننت الشيئ بالمسن إذا أمررته عليه حتى يؤثر فيه سنا، أى طريقا»[٧]. كما وردت السنة في الحديث الشريف بمعنى الطريقة في قوله ﷺ : (من سن فى الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من

---

(١) المرجع السابق، ص٥٣ - ٥٤ .

(٢) ابن حزم : الاحكام في أصول الاحكام (مرجع سابق) ج١ ، ص١٠٨ - ١٠٩ .

(٣) سورة النساء ، آية (٥٩) .

(٤) ابن حزم (مرجع سابق) ، ج١ ، ص١٠٨ - ١٠٩ .

(٥) سورة النساء ، آية (٥٩) .

(٦) ابن منظور : لسان العرب ، ج٣، القاهرة : دار المعارف ، (ب.ت)، ص٢١٢٤.

(٧) محمد بن علي بن محمد الشوكاني : إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الاصول . ط١ ، القاهرة : مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م، ص٣٣ .

عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن فى الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيىء»[١].

أما السنة فى اصطلاح أهل الشرع فهى ما أضيف إلى النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة أو خليقة أو سيرة[٢].

وقد عرف الخطيب السنة بتعريف ينتمى إلى المعنى اللغوى السابق فقال: «السنة ما رسم ليحتذى»[٣] وهى عنده لا تخلو «من فائدة أو فوائد»[٤].

ب - أقسام السنة:

تنقسم السنة من حيث روايتها إلى سنة متصلة، وسنة غير متصلة، فالمتصلة ما ذكر فيها الرواة من أول سند إلى الرسول ﷺ فلم يسقط من روايتها أحد، وغير المتصلة هى التى سقط من سندها راو أو أكثر، وتنقسم المتصلة إلى سنة متواترة[٥] وسنة غير متواترة[٦] وتنقسم السنة «الأخبار» عند الخطيب إلى ثلاث أضرب: ضرب منها تعلم صحته، وضرب منها يعلم فساده، وضرب ثالث لا سبيل إلى معرفة صحته من فساده[٧] ويرى الخطيب أن «ما أوجب العلم من الأخبار لا يصح دخول التقوية والترجيح فيه أما الذى لا يوجب العلم منها فيجوز دخول التقوية والترجيح عليه عند التعارض لأنها تقتضى غلبة الظن دون العلم والقطع، ومعلوم أن الظن يقوى بعضه بعضا عند كثرة الاحتمال، والأمور المقوية

---

(١) مسلم بن الحجاج القشيري : صحيح مسلم - كتاب الصلاة . ج ١ (تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي) ، استانبول : دار الدعوة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٧٠٥ .

(٢) الشوكاني (مرجع سابق) ، ص٣٣ .

(٣) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٨٦ .

(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٣٠ - ١٣١ .

(٥) السنة المتواترة هي ما رواه عن رسول الله ﷺ جمع عن جمع يستحيل عادة تواطؤهم على الكذب، وهي نوعان، متواتر لفظي ومتواتر معنى، الخطيب: الكفاية في علم الرواية (مرجع سابق) ، ص١٦ .

(٦) السنة الآحادية وهي ما قصر عن صفة التواتر ولم يقطع به العلم وإن روته الجماعة. الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ص١٦ .

(٧) انظر : المرجع السابق ، ص١٧ ، ١٨ .

لغلبته، فصح بذلك تقوية أحد الخبرين على الآخر»[1]، خاصة إذا سلم النص من الاضطراب واختلاف الألفاظ مع حدوث ذلك في غيره[2] ويرى الخطيب فى هذا الصدد أن هناك شروطا ضرورية يتعين وجودها في الراوى منها: العدالة، والبلوغ، وسلامة العقل، والأمانة، وفهم النص المروى، وصحة الاعتقاد، والاتباع وعدم الابتداع وتجنب الكبائر والتنزه عن فعل الصغائر وكل ما يسقط المروءة من المجون والسخف والأفعال الدنيئة[3].

ونحن نرى في جملة هذه الشروط خصالا تربوية وعلمية وخلقية حميدة ينبغى توافرها فى العالم والمتعلم وصاحب العلم عامة، إلى جانب أنها صفات عملية يمكن أخذها في الاعتبار عند إعداد المعلم المسلم الذى نأتمنه على تربية وتعليم أبناء المسلمين، وحتى يكون المعلم المسلم المعاصر صاحب رسالة علمية وتربوية تستمد أصالتها من ثبات المصدر وعدالة المعلم وصدقه وورعه وإخلاصه في تخريج جيل مسلم يؤمن بالله ورسوله ويعمل بجد وتفان لخدمة أمته.

إن الخطيب رغم إيجابه العمل بالخبر الذى تتوفر له صفة عدالة الراوى واتصال إسناده، إلا أنه يتحفظ بالنسبة للعمل بالحديث الذى لا يعمل راويه به، ويقول إن علينا أن نأخذ برواية الناقل ونترك ما روى عنه من فعله أو فتياه «لأن الواجب علينا قبول نقله رواية عن النبي ﷺ لا قبول رأيه»[4] وعلى ذلك فالعبرة بقوله لا بفعله واعتقاده لأن رأيه محسوب عليه وهو يتحمل في النهاية تبعاته ونتائجه فى حال الصواب أو الخطأ، أما صدق الخبر ومشروعية العمل به فإنها راجعة بالدرجة الأولى إلى المصدر المنقول عنه لا إلى الناقل له.

وفى هذا الرأى الجرئ، ما يفيدنا اليوم فى مجال نقل العلوم والتقنيات عن الأمم المتقدمة بحيث نستفيد من الحقائق والنظريات المجردة بعيدا عن التطبيقات الخاطئة لأصحابها، لذلك نستطيع القول إن لهذه الآراء قيمتها التربوية وأثرها على المنهجية التى يتم بها نقل الأفكار والنظريات وهى عند الخطيب منهجية علمية تهدف إلى تمحيص الأفكار وبيان الحقائق ونفى الأباطيل والشبهات، خاصة إذا ما كانت هذه النظريات والمعارف والعلوم ذات

---

(١) المرجع السابق، ص٤٣٣ .
(٢) المرجع السابق، ص٤٣٤ .
(٣) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق)، ج١، ص١٠٣ .
(٤) المرجع السابق، ج١، ص١٤١ .

مساس بالدين وشرع الاسلام بصفة عامة، وهو أمر يتعين معه على المسلم نقد الأفكار والمفاهيم فى ضوء ما سبق حتى لا يقول من شاء ما شاء وحتى نحافظ على صفاء المصدر وعدم تحريفه.

ويقول الخطيب بصدد ذلك إنه لربما يبدو لبعض الناس أن تتبع أحوال العلماء وكشف مثالبهم نوع من الغيبة والتجنى على الناس، إلا أن الأمر عنده غير ذلك «لان أهل العلم أجمعوا على أن الخبر لا يوجب قبوله إلا من العاقل الصدوق، المأمون على ما يخبر به، وفي ذلك دليل على جواز الجرح لمن لم يكن صدوقا في روايته مع سنة رسول الله ﷺ وقد وردت مصرحة بصدق ما ذكرنا وبضد قول من خالفنا[1] فوجب لذلك فضح الكذابين وأدعياء العلم حماية للدين وحفظا للشريعة من تلبيس الملحدين[2].

ويقول الخطيب إن سنة الرسول ﷺ لا تخلو من أمرين، فهى إما أن تكون وحيا مباشرا من الله تعالى، من حيث مضمونها، وإما أن تكون اجتهادا من الرسول ﷺ أقره الوحى عليه[3]، ويبدو أنه يميل إلى القول بأن السنة وحى واجب الاتباع وذلك من قول الشافعى الذى أورده كتلخيص لجملة الأقوال في هذا الخصوص، حيث قال: «وأى هذا كان فقد بين الله أنه فرض فيه طاعة رسوله ﷺ ولم يجعل لأحد من خلقه عذرا بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله ﷺ »[4].

أما بالنسبة لقول الصحابى فقد اختلف الناس فى قوله مثل أمرنا بكذا، أو نهينا عن كذا، أو كنا نفعل كذا، هل هو من قول الرسول ﷺ أم هو من قول غيره رواية عنه؟ وقد أجاب الخطيب عن هذا التساؤل بأن أكثر العلماء على القول بأن ذلك مما سمعه الصحابى عن الرسول ﷺ، وهو الأولى والأظهر عنده[5] والدليل على ذلك «أن الذى يقتضيه ظاهر العدالة أن لا يقول الراوى من الصحابة أمر رسول الله ﷺ بكذا أو قال كذا إلا وهو عالم متحقق لقول من أضاف إليه»[6]، يضاف إلى ذلك كما يقول الخطيب: «أن الصحابى إذا قال أمرنا بكذا فإنما

---

(١) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية (مرجع سابق) ، ص٣٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص٣٥ .
(٣) انظر : الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٩٠ - ٩٤ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص٩٤ .
(٥) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية (مرجع سابق) ، ص٤١٩ .
(٦) المرجع السابق ، ص٤١٩ - ٤٢٠ .

يقصد الاحتجاج لإثبات شرع وتحريم حكم يجب كونه مشروعا وقد ثبت أنه لا يجب بأمر الأئمة تحليل ولا تحريم إذا لم يكن ذلك أمرا عن الله ورسوله ﷺ »[١] وقد ثبت عند سلف هذه الأمة عن عدولها أن من السنة «قول الصحابى كنا نفعل كذا على عهد النبى ﷺ لأن ذلك من ألفاظ التكثير مما يفيد تكرار الفعل والقول واستمرارهم عليه، فمتى ما أضيف ذلك إلى النبى ﷺ على وجه كان يعلم ﷺ الفعل فلا ينكره وجب القضاء بكون ذلك شرعا، وقام إقراره له مقام، نطقه بالأمر به»[٢].

كذلك من القضايا الهامة التى اهتم بها الخطيب في مجال الدراسات الحديثية رواية الحديث على المعنى وعلى اللفظ، وروايته معربا، أو غير معرب وروايته ناقصا، وقد أجاز الخطيب رواية الحديث بالمعنى إذا توفرت بعض الشروط[٣]، أما روايته معربا فقد شدد عليها لأنه كان حريصا على ضبط النصوص بما لا يحيل معانيها ويعكس أحكامها[٤] وقد روى في ذلك أقوال العلماء «أعربوا فإن القوم كانوا أعرابا»[٥] وقولهم لمن ذكر عندهم أن ابن سيرين كان يلحن فى الحديث «إن كان ابن سرين يلحن فإن النبى ﷺ لم يلحن»[٦].

وعلى ذلك فمذهب الخطيب في هذه القضية تأدية الحديث على الصواب وعدم اللحن فيه حتى يأتى صحيحا كما جاء عن النبى ﷺ من غير زيادة ولا نقص أما رواية الحديث ناقصا فإن الذى يختاره الخطيب أنه إن كان فيما حذف من الحديث حكم وشرط لا يتم التعبد إلا به فإنه يجب نقله على تمامه ويحرم حذفه، لأن القصد بالخبر لا يتم إلا به[٧]، أما إن كان المحذوف مما لا تعلق له بالمضمون، وليس شرطا فى فهمه فيجوز للراوى روايته على النقصان أو الحذف منه[٨].

---

(١) المرجع السابق، ص٤٢١ .
(٢) المرجع السابق، ص٤٢٣ .
(٣) انظر : الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ، ج٢، ص٣٢، والكفاية في علم الرواية (مرجع سابق) ، ص١٩٨ - ١٩٩ .
(٤) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية (مرجع سابق) ، ص١٨٨، ١٩٨.
(٥) المرجع السابق، ص١٩٥ .
(٦) المرجع السابق، ص١٩٤ .
(٧) المرجع السابق، ص١٩٠ .
(٨) المرجع السابق، ص١٩٢ .

ج – منزلة السنة من الكتاب:

تتعلق منزلة السنة من الكتاب بناحيتين الأولى من حيث الحجية والثانية من حيث الأحكام في كل منهما:

١– منزلة السنة من الكتاب من حيث الحجية:

السنة هى الأصل الثانى من أصول التشريع، تأتى رتبتها في الاعتبار بعد الكتاب من حيث الاحتجاج وتعرف الأحكام(١).

ومما يشهد لتقديم الكتاب على السنة فى الاحتجاج حديث معاذ ابن جبل رضى الله عنه عندما سأله النبى ﷺ (كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال: أقضى بكتاب الله، قال فإن لم تجد؟ قال: فبسنة رسول الله...)(٢) ومن ذلك أيضا ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال للقاضى شريح: (ما استبان لك فى كتاب الله فلا تسأل عنه، فإن لم يستبن فى كتاب الله فمن السنة فإن لم تجد فى السنة فاجتهد رأيك)(٣)، إلى غير ذلك من الأحاديث والآثار الكثيرة التى تبين منزلة السنة من الكتاب مما سيأتى بيانه لاحقا فى مبحث حجية السنة عند الخطيب.

٢– علاقة السنة بالكتاب من حيث الأحكام.

وتتمثل في الأمور التالية:

أ- موافقة السنة للكتاب ومطابقتها لما جاء فيه(٤).

ب- تفسير السنة للكتاب وشرحها لمجمله وتخصيصها لعامه وتقييدها لمطلقه...(٥).

ج- مجئ السنة بأحكام سكت عنها الكتاب وهى إلحاق وقياس على ما جاء فى الكتاب مثل

---

(١) زكي الدين شعبان (مرجع سابق)، ص٧٧.

(٢) محمد بن عيسى الترمذي: سنن الترمذي، ج٣، استانبول: دار الدعوة، ١٤٠١هـ ص٦١٦.

(٣) الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه (مرجع سابق)، ج١، ص٢٠٠.

(٤) زكي الدين شعبان (مرجع سابق)، ص٧٩.

(٥) الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية (مرجع سابق)، ص١٤، ١٥.

ثبوت ميراث الجدة وصدقة الفطر ورجم الزانى المحصن...[1].

د- نسخ السنة لحكم ثبت بالكتاب على مذهب من يجيز نسخ القرآن بالسنة[2].

د - حجية السنة عند الخطيب:

لا خلاف بين المسلمين على أن السنة النبوية حجة بعد الكتاب يجب اتباعها والعمل بها إذا ثبتت صحتها عن النبى ﷺ وذلك لما جاء فى الكتاب العزيز من الأمر بطاعة الرسول ﷺ واتباعه وجعل طاعته طاعة لله تعالى ومن الآيات التى تدل على حجية السنة قوله تعالى ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله...﴾[3]، وقوله تعالى ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾[4] ومن السنة قول الرسول ﷺ (ألا إنى أتيت الكتاب ومثله معه ألا إنى أتيت القرآن ومثله، ألا يوشك رجل شبعان على أريكة يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى، ولا كل ذى ناب من السباع، ولا لقُطة من مال معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها)[5] ومما استشهد به الخطيب في هذا المعنى قول الزهرى «سنن رسول الله ﷺ عندنا مثل كلام الله عز وجل»[6] وقول عطية بن حسان «كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل بالقرآن يعلمه إياها كما يعلمه القرآن»[7] وقول عمر بن الخطاب (أيها الناس لا عذر لأحد بعد السنة فى ضلالة ركبها حسبها هدى، ولا فى هدى تركه حسبه ضلالة، قد بينت الأمور وثبتت الحجة وانقطع العذر)[8] إلى غير ذلك من الأحاديث والآثار التى تفيد حجية السنة ووجوب العمل بها.

---

(١) زكي الدين شعبان (مرجع سابق) ، ص٨١ .
(٢) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٨٤ .
(٣) سورة النساء ، آية (٨٠) .
(٤) سورة الحشر ، آية (٧) .
(٥) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية (مرجع سابق) ، ص٨ .
(٦) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٩٠ .
(٧) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية (مرجع سابق) ، ص١٢ .
(٨) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج١ ، ص١٤٨ .

ويرى الخطيب أن أحدا لا يعرض عن هذه السنة إلا إذا كان ضالا، ومما رواه في ذلك عن أيوب السختيانى أنه قال «إذا حدثت الرجل بالسنة فقال: دعنا من هذا وحدثنا من القرآن فاعلم أنه ضال مضل»[1] وهذه الآيات المحكمات والآحاديث الصحيحة والآثار المستفيضة تؤكد كلها حجية السنة بحيث لايمارى في ذلك إلا جاهل أو مكابر ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة والعياذ بالله السميع العليم.

هـ- بعض الجوانب التربوية فى السنة النبوية:

أظهرت الدراسة فيما تقدم اهتمام الخطيب الكبير بسنة الرسول ﷺ ومدى تمسكه بها، وتمكنه منها، وهو الذى أفنى عمره المبارك في جمعها، ودراستها وتعليمها لطالبيها، وقد حث على تعلم هذه السنة والاجتهاد في جمعها وحفظها كما يحفظ القرآن الكريم[2].

والخطيب في تعظيمه للسنة يعظم أصحابها ويجلهم، فهم أوعية العلم، وأركان الشريعة، وأمناء الله من خلقه، والواسطة بين النبي ﷺ وأمته، المجتهدون في حفظ ملته[3] وقد حث الخطيب المتعلم لسنة الرسول ﷺ على أن يكون من «أكمل الناس أدبا، وأشد الخلق تواضعا، وأعظمهم نزاهة وتدينا، وأقلهم طيشا، وغضبا، لدوام قرع أسماعهم بالأخبار المشتملة على محاسن أخبار الرسول ﷺ وآدابه وسيرة السلف الأخيار من أهل بيته، وأصحابه، وطرائق المحدثين ومآثر الماضين، فيأخذوا بأجملها وأحسنها ويصدفوا عن أرذلها وأدونها»[4].

وإذا كان هذا هو حال طالب العلم علمة، فان حظ طالب الحديث من ذلك أوفر بل إن الطالب ليكفيه شرفا أن يكون اسمه مقترنا باسم الرسول ﷺ ، وهو شرف ينبغى أن يقابله المتعلم بالجد والاجتهاد فى طلب العلم، وبذل الجهد «في تتبع آثار رسول الله ﷺ ، وسنته، وطلبها من مظانها، وحملها عن أهلها والتفقه بها، والنظر في أحكامها، والبحث عن معانيها، والتأدب بآدابها، ويصدف عما يقل نفعه، وتبعد فائدته، من طلب الشواذ والمنكرات،

---

(١) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية (مرجع سابق) ، ص١٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٢ .

(٣) الخطيب البغدادي : شرف أصحاب الحديث (مرجع سابق) ، ص٨ - ١٠ .

(٤) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٧٨ .

وتتبع الآباطيل والموضوعات ويؤتى الحديث حقه من الدراسة والحفظ، والتهذيب، والضبط، ويتميز بما يقتضيه حاله ويعود عليه زينه وجماله»[1].

ويبدو أن تعلم السنن والاشتغال بالآثار لم يكن من المجالات التى تحظى باهتمام المتعلمين على أيام الخطيب، لذلك نجده يقول «ويحسب المرء في هذا الزمان سماع السنن وطلب الحديث»[2]، ويقول «إنك إذا اعتبرت لم تجد بلدا من بلدان الاسلام يخلو من فقيه أو متفقه يرجع أهل مصره إليه ويعولون فى فتاويهم عليه، ونجد الأمصار الكثيرة خالية من صاحب حديث، عارف به مجتهد فيه، وما ذاك إلا لصعوبة علمه، وعزته، وقلة من ينجب فيه من سامعيه... »[3].

والذى يعنينا في هذا الصدد هو تعرف الدور التربوى للسنة النبوية عند الخطيب ومدى اهتمامه بتعلمها، وحثه على طلبها والاجتهاد في جمعها، وتحصيلها، والدعوة إلى فهمها، وتحكيمها، والانتفاع بما جاء فيها من أحكام، وعبادة، وآداب، وتربية وآخلاق. وفيما يلى نلخص أهم الجوانب التربوية فى السنة النبوية، والتى كانت محل عناية واهتمام من الخطيب، مما يبرز الدور التربوى للسنة عنده من جهة، ويؤكد مكانتها كأصل ثان من أصول التربية الاسلامية من جهة ثانية.

١- فضيلة طلب العلم ونشره :

نحت السنة النبوية منحى القرآن الكريم فى رفع منزلة العلم وترسيخ قيمته فى حياة الانسان، قال ﷺ (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)[4] وقال ﷺ: (أيها الناس إنما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما يخشى الله من عباده العلماء)[5]، كذلك جعل ﷺ طلب العلم فريضة فقال: (طلب العلم فريضة على كل مسلم)[6]، وفي ذلك إيجاب لطلب العلم وتحصيله وتأثيم لمن يتقاعس عن التعليم وعن

---

(٥) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية (مرجع سابق) ، ص٦ .
(٢) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ، ج١ ، ص١١٢.
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص١١٣ .
(٤) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٢ .
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص٥ .
(٦) المرجع السابق ، ج١ ، ص٤٥ .

التفقه في الدين وسنة الرسول ﷺ أهم علم يمكن أن يشتغل به طلبة العلم بعد القرآن الكريم، وفي ذلك يقول «ثم الذى يتلو القرآن من العلوم أحاديث رسول الله ﷺ ، فيجب على الناس طلبها إذ كانت أس الشريعة وقاعدتها»[١] وعلى كل مسلم أن يتعلم ما لا يسعه جهله مما فرض الله عليه علمه بحسب ما يقدر عليه من الاجتهاد لنفسه[٢].

والعلم الذى يعنيه الخطيب علم شامل لا يقتصر على العلم الشرعى من كتاب وسنة ولكنه يشمل كل علم يعود بالنفع والخير على المسلمين، وقد ذكرنا فيما سبق تنويه الخطيب بضرورة تجنب طلب العلم لما لا نفع فيه من الشواذ والمنكرات وعلم الكلام والموضوعات مما لا طائل تحته سوى إثارة الفتن والشبهات وزعزعة المعتقد وبلبلة الأفكار، وفي ذلك يقول الخطيب إن الطالب الذى يوفقه الله لتعلم العلم الصحيح ومعرفة الحلال والحرام، والفرائض، والحدود والأحكام، ومعالم الدين ويقصد به وجه الله والدار الآخرة، فإن الله سيوفقه لا محالة للخير الذى يدرك به سعادة الدنيا والآخرة[٣] ويقول إن إدبار العلم، وذهاب الدين، إنما يكون بموت العلماء، وقلة الفقهاء، والمجتهدين، الذين شرفهم الله تعالى بحمل رسالة العلم وتبليغها، ولذلك نجده يروى بسنده عن ابن مسعود قوله: «عليكم بالعلم قبل أن يقبض وقبضه أن يذهب بأصحابه، عليكم بالعلم فإن أحدكم لا يدرى متى يفتقر إليه، أو يفتقر إلى ما عنده، وإنكم ستجدون أقواما يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم، عليكم بالعلم وإياكم والتبدع، وإياكم والتنطع، وإياكم والتعمق وعليكم بالعتيق»[٤].

ويبدو أن هناك من كان يخاصم السنة فى عصر الخطيب ويقدم عليها الرأى والهوى مما لاينبغى فعله وصدوره عن المسلمين الذين يتعين عليهم التمسك بهذه السنة على ما وافق رأيهم أو خالفه[٥] ، ولأن السنن ووجوه الحق غالبا ما تكون على خلاف الرأى والهوى، ومع ذلك لا يجد المسلمون بدا من الانقياد لها والانصياع لأوامرها ونواهيها، إضافة إلى أن صاحب الرأى المذموم لو «شغل نفسه بما ينفعه من العلوم وطلب سنن رسول رب العالمين واقتفى آثار الفقهاء، والمحدثين لوجد فى ذلك ما يغنيه عما سواه، واكتفى بالأثر عن رأيه الذى

---

(١) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ، ج١ ، ص١١١.
(٢) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج١، ص٤٦ .
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٨ - ٣٩ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص٤٣ .
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٥٢ .

رآه...»[1].

٢- الأمر باحترام العلماء والمتعلمين:

لا يستوى العالم والجاهل عند الله، وعند الناس، لقول الله تعالى: ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[2]، ولقول الرسول ﷺ (العلماء ورثة الأنبياء)[3] وقوله ﷺ (ليس من أمتى من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه)[4] وقد حث الخطيب على احترام العلماء وإجلالهم، والتواضع لهم، والتواصى بهم، وبين منزلتهم فيما رواه عن ابن مسعود قال: «المتقون سادة والفقهاء قادة ومجالستهم زيادة»[5] كما حض على الرفق بهم والترغيب فى مرافقتهم والأخذ عنهم والتأديب معهم، مما سنبينه باذن الله تعالى في فصلي آداب العالم والمتعلم عند الخطيب.

يتضح لنا مما ذكرناه -وغيره كثر- أن الخطيب كان من أحرص الناس على احترام العلماء وإجلالهم، وهو نفسه كان أحد العلماء الأعلام الذين أوقفوا حياتهم على طلب العلم، والانقطاع له، فقد مارس التعليم والتدريس فترة طويلة من حياته، وكان رحمه الله من أحرص الناس على الاشتغال بالعلوم النافعة وجمعها وتصنيفها والانتاج فيها، ومن هنا كانت معايشته الصادقة للعلم وللعلماء، وحثه على الجد في الطلب، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: «هكذا هذا العلم يزيد الشريف شرفا ويجلس المملوك على الأسرة»[6] إن العلماء كانوا، ولا زالوا في الذروة من المجد والشموخ والاعتزاز بالنفس والكرامة، بفضل العلم الذى يحملونه في صدورهم، والذى كان سببا في رفع درجاتهم وعلو منازلهم عند الله وعند الناس وهذه قصة عطاء بن أبى رباح مع أمير المؤمنين سليمان بن عبدالملك وابنيه خير مثال

---

(١) الخطيب البغدادي : شرف أصحاب الحديث (مرجع سابق) ، ص٧ .
(٢) سورة الزمر ، آية (٩) .
(٣) نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، ج١ ، ط٣، بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص١٢١ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٢٧ .
(٥) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج١ ، ص٣٢ .
(٦) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣١ .

على قيمة العلم واعتزاز العالم بنفسه وعلمه[1] وهى مثال صادق على إجلال العلماء لعلمهم، كما أنها دليل على أثر العلم في الناس فلم تقف هيئة الانسان ولا خلقته فى طريقه إلى أعلى الدرجات العلمية والمكانة الأدبية المرموقة.

ولا غرابة فالعلم يرفع منزلة المتعلم، ويستر نقصه الخلقى وعيوبه الجسمية، ويضفى عليه حلة من الشرف الرفيع والمهابة التامة، حتى وإن كان صاحب نقص بين، موصوف بالعجز، ومثل عطاء رحمه الله كثيرون تميزوا بالعلم والتفوق فيه ومن هؤلاء الأعمش والأعرج والقصير، والكسيح... الخ.

٣- العلم دليل العبادة:

يعتبر الخطيب أن طلب العلم والاجتهاد فى تحصيله وحفظه والانتفاع به عملا يفوق بعض العبادات التطوعية[2] بل إن العمل عنده يجب أن يكون بعد علم وإدراك وفهم، ولذلك لا تصح العبادات عنده إلا بعد التفقه[3]، لأن «من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[4]، ولهذا الاعتبار فإن «قليل الفقه خير من كثير العبادة»[5] كما يرى الخطيب أن العلم مقدم على العبادة التطوعية، لأن نفعه لا يقتصر على صاحبه مثل العبادة بل يتجاوزه إلى نفع جميع الناس[6]، ومما يدل على أن العلم أفضل من العبادة التطوعية قول الرسول ﷺ وقد خرج ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل، ويرغبون إليه، وفي الثانى جماعة يعلمون الناس، فقال: (أما هؤلاء فيسألون الله إن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما بعثت معلما، ثم عدل إليهم وجلس معهم)[7] وبذلك ضرب النبي ﷺ لنا خير مثل فى تشجيع العلم ونشر التعليم والاشادة بفضل المعلمين،

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ج١ ، ص٣١ .
(٢) الخطيب البغدادي : شرف أصحاب الحديث (مرجع سابق) ص٨٢ - ٨٥ .
(٣) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج١ ، ص١٨ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٩ .
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٤ .
(٦) يوسف القرضاوي : الرسول والعلم . بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص١٦.
(٧) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج١ ، ص١١.

وفي ذلك يقول الخطيب «عليكم بالعلم فإن طلبه لله عبادة»[١] مما يؤكد العلاقة المتينة بين العلم والعمل والعبادة في الاسلام.

نخلص مما سبق إلى أن الاسلام يقرر مبدأ الزامية التعليم، ونشره بين الناس حينما ربط ربطا محكما بين طلب العلم وفرائض الدين، فقال ﷺ : (طلب العلم فريضة على كل مؤمن أن يعرف الصوم والصلاة والحرام والحدود والأحكام»[٢] كذلك روى الخطيب عن ابن المبارك قوله لمن سأله عن العلم الذى يجب على الناس تعلمه؟ يجب «أن لا يقول الرجل إلا بعد أن يسأل ويتعلم، فهذا الذى يجب على الناس من تعلم العلم ونشره، فقال: لو أن رجلا ليس له مال لم يكن عليه واجبا أن يتعلم الزكاة، فإذا كان له مائتا درهم وجب عليه أن يتعلم كم يخرج ومتى يخرج وأين يضع وسائر الأشياء في هذا»[٣]، كما روى الخطيب في الموضوع نفسه عن مالك ابن أنس أنه قال «إن العلم لحسن، فانظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى، ومن حين تمسى إلى حين تصبح، فالزمه، ولا تؤثر عليه شيئا»[٤] ومعنى هذا أن الخطيب يرى أن أفضل العلوم هو ما يحتاج إليه الناس، وهو بهذا أيضا يقرر مبدأ غاية فى الأهمية هو استمرارية التعليم، وأن التعليم يجب أن يكون ملبيا لحاجات المجتمع ومسايرا لروح العصر وتطورات الحياة.

والعلم بهذا المفهوم الامتدادى الشامل ليس علما للعبادة وحدها، بقدر ما هو علم للعمل وللحياة معا، ولا يخفى ما لذلك من أهمية وانعكاس على التعليم وخاصة عندما يعمد امنظرون من أهل الاختصاص إلى وضع المعرفة النظرية موضع التطبيق فأهمية العلم وأثره على النفس والحياة هى التى جعلت المصطفي ﷺ يقول: (فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد)[٥] وهى التى جعلته ﷺ يصف أماكن التعليم بأنها رياض الجنة[٦] التى تغشاها الرحمة وتحل بها السكينة.

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٣.
(٢) المرجع السابق، ج١، ص٤٤.
(٣) المرجع السابق، ج١، ص٤٥.
(٤) المرجع السابق، ج١، ص٤٦.
(٥) المرجع السابق، ج١، ص٢٤.
(٦) المرجع السابق، ج١، ص١٢.

٤-تعليم المرأة :

العلم فى الاسلام حق للانسان سواء كان رجلا أو إمرأة، صغيرا أو كبيرا حرا أو عبدا، وقد مرت معنا نصوص كثيرة تحث الرجال على التعليم، وفيما يلى يذكر الخطيب بعض النصوص الأخرى التى تحث على تعليم النساء والاماء. فذكر أن الزوج مطالب بتعليم زوجته وأمته، وكل من يقع ضمن دائرة ملكه أو سلطانه[١] تأسيا بحديث الرسول ﷺ (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير راع على الناس ومسئول عن رعيته، والرجل راع على أهله ومسئول عن زوجته، وما ملكت يمينه)[٢] بل إن الموضوع من الأهمية بدرجة كبيرة تجعل الخطيب يقول إن على الامام أن يجبر أزواج النساء وسادات الاماء على تعليمهن إذا لم يقوموا بذلك عن طيب خاطر من ذات أنفسهم[٣].

وعلى الامام في هذه الحالة أن يخصص لتعليم الناس أقواما يفرض لهم الأرزاق فى بيت مال المسلمين[٤] وغير ذلك مما يوصى به الخطيب بخصوص تعليم الرجل لأهله وأبنائه وإمائه وكل من يقع في دائرة سلطانه، ويعتبره بعد ولى الأمر من أقدر الناس على تنفيذ ذلك والاشراف عليه.

ويأتى حرص الخطيب على تعليم هذه الفئة من أفراد المجتمع من منطلق حرصه على المحافظة على كل طاقة من طاقات أبنائه، التى يجب رعايتها والاستفادة منها فى بناء الوطن وتقدم المجتمع، وباختصار شديد نقول إن الخطيب بدعوته هذه يهيب بفتح باب العلم والتعليم أمام الجميع وللجميع.

٥ - مستويات العلماء والمتعلمين:

ضرب الخطيب المثل فى مراتب العلماء ومستويات المتعلمين بالحديث الشريف المروى عن رسول الله ﷺ قال: (إنما مثل ما أتانى الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٤٦، ٤٧ .
(٢) المرجع السابق، ج١، ص٤٧ .
(٣) المرجع السابق، ج١، ص٤٦ .
(٤) المرجع السابق، ج١، ص٤٦ .

الماء فنفع الله به الناس فشربوا منها، وسقوا وزرعوا، وطائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعمل، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به)[1] وقد علق الخطيب على هذا الحديث بقوله إن النبى ﷺ قد جمع مراتب الفقهاء والمتفقهين من غير أن يشذ منها شيء، فالأرض الطيبة مثل العالم الذى يفهم ويضبط ما يتعلمه، والأرض الأجادب التى تمسك الماء مثل الذى يحفظ العلم ولا يفهمه، ولكنه يبلغه إلى من هو أعلم منه، وأما الفئة الثالثة من المتعلمين فهى مثل الأرض التى لا تحتفظ بالماء ولا تنبت الكلأ، بمعنى أنها لا تحفظ ولا تفهم، وهؤلاء هم المحرومون من العلم والعياذ بالله[2].

كما ذكر الخطيب تقسيما آخر للامام على بن أبى طالب رضى الله عنه جاء فيه «الناس ثلاثة، فعالم ربانى، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق»[3] ويقول الخطيب إن «هذا الحديث من أحسن الأحاديث معنى، وأشرفها لفظا، وتقسيم أمير المؤمنين على بن أبى طالب -رضي الله عنه- فى غاية الصحة ونهاية السداد، ولأن الانسان لا يخلو من أحد الأقسام الثلاثة التى ذكرها...»[4].

٦ – التنويع والتغيير:

يخشى الخطيب على طلبة العلم من السآمة والملل الذى يؤدى في الغالب إلى صرف انتباههم عن متابعة الدرس، لذلك يحبذ عدم إطالة الدرس بل يكون متوسطا حذر السآمة على الطلبة، وإملالهم وأن يؤدى ذلك إلى فتورهم عن الطلب وكسبه[5] وقد روى في ذلك عن عبدالله بن مسعود بسنده أنه خرج يوما على طلبته فقال: «أما إنى أخبر بمكانكم، فأترككم كراهة أن أملكم، إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة، بين الأيام مخافة السأم

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٤٨ .
(٢) المرجع السابق، ج١، ص٤٩ .
(٣) المرجع السابق، ج١، ص٥٠ .
(٤) المرجع السابق، ج١، ص٥٢ .
(٥) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق)، ج٢، ص١٢٧ .

علينا أو قال: السآمة علينا... »[1] ويقول أبو عبدالله محمد بن يزيد المبرد «من أطال الحديث وأكثر القول فقد عرض أصحابه للملال وسوء الاستماع، ولأن يدع من حديثه فضلة يعاد إليها أصلح من أن يفضل عنه ما يلزم الطالب استماعه من غير رغبة فيه ولا نشاط له»[2].

كما روى الخطيب فى نفس المعنى قول الجاحظ «قليل الموعظة مع نشاط الموعوظ خير من كثير وافق من الأسماع نبوة ومن القلوب ملالة»[3] كذلك يحسن بالمعلمين تنويع الموضوعات أثناء الدرس، وأن لا يعلموا بطريقة واحدة وعلى وتيرة واحدة، حتى لا يمل الطالب من الدرس وتنتفى الفائدة المرجوة ففى ذلك تكمن ميزة المعلم البارع الذى يشد إليه انتباه الطلاب ويستطيع «أن يسمع ويستمع ويتقى الاملال ببعض الاقلاق، ويزيد إذا استملى من العيون استزادة، ويدرى كيف يفضل ويصل، ويحكى ويشير، فذاك يزين الأدب كما يزين بالأدب»[4].

ومعروف أن استمرار المعلم في الدرس مدة طويلة، وعدم تنويعه يقلل من حماس الطلبة للتعليم، وبالتالى يقلل من الاستفادة من الدرس، لذلك رأينا الخطيب يأمر باتباع طريقة التنويع فى التعليم، وهى الطريق التى تعتمدها اليوم المؤسسات التربوية والتعليمية فى مناهجها وطرقها التعليمية وهى بذلك من أفضل الطرق التى تعمل على تثبيت ما يتلقاه الطالب من معلومات.

٧- العلم سبيل العمل:

العلم فى الاسلام دليل للعمل كما هو دليل للإيمان، قال الله تعالى : ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله...﴾[5] وقال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[6] ، قال البخارى العلم قبل القول والعمل لقوله تعالى ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ ، فبدأ بالعلم، وقد أراد بذلك أن

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢٧ .
(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢٧ .
(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢٨ .
(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢٩ .
(٥) سورة محمد ، آية (١٩) .
(٦) سورة فاطر ، آية (٢٨) .

العلم شرط في صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به، فهو يتقدم عليهما لأنه مصحح للنية المصححة للعمل[1]، وعلى ذلك فالعلم شرط ضروري للعمل لكي يصح ويستقيم على أوامر الله تعالى سواء كان هذا العمل عبادة لله أم كان معاملة للناس[2].

إن الاقتصار على الالمام بالمعرفة النظرية دون الالتزام بالتطبيق نقص فى نوعية العلم يفقد صاحبه صفة العقل والتفكير السليم[3] ويقول الخطيب بهذا الخصوص إن العلم لا قيمة له ما لم يعمل به، وهو في ذلك مثل المال الذى لا ينفق فى سبيل الله[4] أى أن العلم والعمل متكاملان «فالعلم شجرة والعمل ثمرة»[5] وعلى الانسان أن يجمع بينهما وإن قل نصيبه منهما[6].

٨ – التربية عن طريق القدوة :

تعتبر القدوة وحسن التأسي والاتباع من أهم الطرق التربوية عند الخطيب، الذى يرى أن المتعلم لا يتعلم العلم فقط وإنما يتعلم معه الأدب والأخلاق وجميل التربية، خاصة عندما يكون المعلم أسوة حسنة لطلبته، وقد روى الخطيب في ذلك عن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد أنه قال :«قال لى أبى: يابنى ايت الفقهاء والعلماء وتعلم منهم وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإن ذلك أحب إلي لك من كثير الحديث»[7].

ويقول الخطيب إن قليل العلم مع التأسى كان له أثره على ورع العالم وتقواه، وأن الرجل ليتعلم العلم اليسير فيسود به أهل زمانه، ويعرف أثره فى صدقه، وورعه، بخلاف بعض متعلمى زمانه، الذين يحفظون آلاف الأحاديث ومع ذلك لا ينعكس علمهم على

---

(١) أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي : شرح السنة . ج١ (تحقيق شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش) - (ب.ت) ، ص٢٧٨ .
(٢) يوسف القرضاوي (مرجع سابق) ،ص١٦ .
(٣) عبدالفتاح جلال (مرجع سابق) ، ص١٨ .
(٤) الخطيب البغدادي : اقتضاء العلم العمل (مرجع سابق) ، ص١٦ .
(٥) المرجع السابق ، ص١٤ .
(٦) المرجع السابق ، ص١٤ .
(٧) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ، ج١، ص٨٠ .

سلوكـــهم[1] وهذا النوع من المعلمين والمتعلمين غير جدير بالاتباع، ولا الاحترام ولا ظل له ولا هدى يقتدى به بقدر ما يجب الحذر منه والابتعاد عنه.

وبعد فهذه بعض الجوانب التربوية فى السنة النبوية وهى غيض من فيض كما يقال، وهى ميادين غنية تناولت إلى جانب ما ذكرنا الأصول التربوية ومبادىء التدريس وأهمية العلم ووجوب تعليمه إلى جانب مسئولية المعلم والمتعلم ودورهما فى العملية التربوية مما سنتناوله باذن الله في الفصول التالية، وقد أسهبت بعض الشيء في تناول الجوانب التربوية المستنبطة من السنة النبوية نظرا للطبيعة التأصيلية للبحث من جهة ولتخصص الخطيب رحمه الله فى ميدان السنة من جهة ثانية...

ثالثا: الاجماع:

الاجمـاع هو الأصل الثـالث من أصـول التـشـريع الاسـلامى، وهو «نوع من أنواع الاجتهاد، لأن الاجتهاد إما فردى وهو القياس وإما جماعى وهو الاجماع»[2].

١ - تعريف الاجماع:

الاجماع في اللغة الاتفاق[3] والعزم والتصميم على الأمر وانعقاد النية على فعله[4] ومنه قـوله تعـالى: ﴿فأجمعوا أمركم﴾[5]. وهو في اصطلاح الأصـوليين «اتفـاق جـمـيع مجتهدى أمة محمد ﷺ بعد وفاته فى عصر من الأعصار على أمر من الأمور...»[6].

---

(١) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية (مرجع سابق) ، ص٦ .

(٢) بدران أبو العينين بدران (مرجع سابق) ، ص١١١ .

(٣) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي : القاموس المحيط ، ج٣، بيروت: دار الجيل (فصل الجيم باب العين)، (ب.ت)، ص١٥ .

(٤) الشوكاني (مرجع سابق) ، ص٧١ .

(٥) سورة يونس ، آية (٧١) .

(٦) الشوكاني (مرجع سابق) ، ص٧١ . وأبو اسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي : اللمع في أصول الفقه، (خرج أحاديثه وعلق عليه يوسف عبدالرحمن المرعشلي) ، ط١، بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، ص٢٤٥ .

=

أما الاجماع عند الخطيب «فيعرف بقول، وبفعل، وبقول وإقرار وبفعل وإقرار»[١]، وهو يعنى بالقول اتفاق المجتهدين على الحكم قولا وتصريحا، وأما الفعل فيعنى فعل المجتهد وعمله بالحكم، وأما القول والاقرار فهو أن يقول البعض قولا فلا يعترض عليه الآخرون، فيكون سكوتهم إقرارا منهم للحكم وأما الفعل والاقرار، فهو أن يفعل البعض عملا فلا ينكر عليه الباقون عملهم، فيقوم ذلك مقام الموافقة على الحكم والاقرار به[٢] ويتضمن تعريف الخطيب السابق نوعين من الاجماع هما:

الاجماع الصريح سواء كان بالقول أو الفعل، والاجماع السكوتى، كما ينقسم الاجماع من حيث المجمعين إلى قسمين «أحدهما اجماع العامة... والثانى اجماع الخاصة... فمن جحد الاجماع الأول استتيب فإن تاب وإلا قتل ومن رد الاجماع الثاني فهو جاهل...»[٣].

ولا يفرق الخطيب بين اجتهاد واجتهاد بناء على صفة المجتهدين، وإنما يكفيه توفر شرط الاجتهاد فيمن يتصدى له، ولذلك «يعتبر فى صحة الاجماع اتفاق كل من كان من أهل الاجتهاد سواء كان مدرسا مشهورا، أو خاملا مستورا، ولا فرق بين أن يكون المجتهد من أهل عصرهم أم لحق بهم من أهل العصر الذى بعدهم وصار من أهل الاجتهاد عند الحادثة...»[٤].

٢ - حجية الاجماع عند الخطيب:

الاجماع حجة من حجج الشرع ودليل من أدلة الأحكام[٥] وقد اختلف العلماء فيمن يعتبر إجماعه حجة[٦] ويميل الخطيب إلى عدم قصر الاجماع على أهل بلدة دون أخرى، ولا

= وسيف الدين أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد الآمدي : الاحكام في أصول الاحكام. ج١، (حققه أحد الافاضل)، القاهرة : مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ص١٧٩، ١٨٠ .

(١) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج١، ص١٧٠ .
(٢) المرجع السابق، ج١، ص١٧٠ .
(٣) المرجع السابق، ج١، ص١٧٠ .
(٤) المرجع السابق، ج١، ص١٧٠ .
(٥) الشيرازي (مرجع سابق)، ص٢٤٥ .
(٦) انظر : محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية، ج٢، القاهرة : دار الفكر العربي، ١٩٨٧م، ص٢٩١ .

أهل زمان دون آخر، وفي ذلك يقول: «إجماع أهل الاجتهاد في كل عصر حجة من حجج الشرع ودليل من أدلة الأحكام مقطوع به... ولا يجوز أن تجتمع الأمة على خطأ»[١] لقول الرسول ﷺ (لا تجتمع أمتى على ضلالة)[٢]، وقوله (إن يد الله على الجماعة)[٣].

ويعتبر الاجماع عند الخطيب إجماع الصحابة أولا ثم التابعين ثانيا وتابعيهم من أئمة الهدى والدين وفي ذلك يروى عن أبى حاتم الرازى أنه قال: «العلم عندنا ما كان عن الله تعالى من كتاب ناطق ناسخ غير منسوخ، وما صحت به الأخبار عن رسول الله ﷺ مما لا معارض له، وما جاء عن الألباء من الصحابة مما اتفقوا عليه، فإذا اختلفوا لم يخرج من اختلافهم، فإذا خفى ذلك ولم يفهم فعن التابعين، فإذا لم يوجد عن التابعين فعن أئمة الهدى من أتباعهم»[٤].

ومن الأدلة على حجية الاجماع عند الخطيب ما يذكره من الوسطية لأمة محمد ﷺ كما فى قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس...﴾[٥] ويقول الخطيب إن الوسط هو العدل وهو الخير[٦] ويقول: «إذا أخبر الله تعالى أن الأمة عدل لم يجز عليهم الضلالة، لأنه لا عدل مع ضلالة»[٧] وقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول﴾[٨] «فدل بذلك على أن الرد يجب في حال الاختلاف ولا يجب في حال الاجماع»[٩] لأن الاجماع حجة من حجج الشرع، يجب المصير إليه والعمل به[١٠] إذا صح باتفاق العلماء من أهل الاجتهاد، ولا عبرة بأقوال المنكرين له[١١] وهم فئة فاسدة اتبعت غير سبيل المؤمنين، وعليه يجب على المسلم الذى يتضح له الحق أن

---

(١) الخطيب البغدادي (مرجع سابق)، ج١، ص١٥٤.
(٢) المرجع السابق، ج١، ص١٦١.
(٣) المرجع السابق، ج١، ص١٦٩.
(٤) المرجع السابق، ج١، ص١٧٢.
(٥) سورة البقرة، آية (١٤٣).
(٦) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج١، ص١٦٠.
(٧) المرجع السابق، ج١، ص١٦٠.
(٨) سورة النساء، آية (٥٩).
(٩) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج١، ص١٦٠.
(١٠) المرجع السابق، ج١، ص١٦٨.
(١١) المرجع السابق، ج١، ص١٥٤.

ينقاد ولا يخالف سواء استند إلى «نصوص وعلم من الدين بالضرورة أو استند إلى نظر عقلى اجمعت عليه الأمة قاطبة فأصبح سبيلها»[1].

٣ – الدور التربوى للاجماع عند الخطيب:

الاجماع عند الخطيب أصل من أصول التشريع الاسلامى، غايته رعاية مصالح العباد، كلما جد جديد في أحوال المجتمع، أو ألجأت الأمة ظروف حياتها وتطورات عصرها إلى معرفة حكم الاجماع فى أمر من أمور الدين أو الدنيا لم يرد حكمه في القرآن الكريم أو السنة المطهرة وللخطيب كما أوضحنا رؤية واضحة حول الاجماع وقيمته فى حياة المجتمع الانسانى، بحيث لا يقف الاجماع فى رأيه عند عصر بعينه، أو تختص به أمة دون بقية الأمم، لسبب بسيط هو أن الاجماع إنما شرع لرعاية مصالح الأمة وتلبية احتياجاتها فى كل زمان ومكان، رحمة من الشارع سبحانه وتعالى بعباده، ولطفا منه بخلقه وتيسيرا عليهم.

وقد تنبهت بعض جماعات المسلمين[2] إلى أهمية الاجماع التربوية ووجوب العمل به كلما جدت الحاجة إلى تعرف حكم الله فى أمر من أمور الدنيا أو الآخرة، وليكون البحث في مختلف شئون الفرد والمجتمع حسب ما تمليه المتغيرات في كل عصر ومصر وما تفرضه ظروف الاجتماع البشرى بحاجاته المختلفة، وبحيث ينظر المجمعون فى واقع الأمة ومستقبلها وما يصلحها في حالها ومآلها ويقودها في دروب التقدم والعمران وهو ما يرتب واجبا عظيما على علماء المسلمين وفقهائهم من أهل الاجتهاد لاستنباط الأحكام ووضع التصورات والحلول المناسبة للمشكلات التى تعترض سبيل حياتهم، وقد أكد الخطيب على هذا المعنى عندما أوجب الاجماع وبين دوره في رعاية مصالح الناس الحقيقية.

ولقد بينا فى مبتدأ الحديث عن الاجماع أنه نوع من أنواع الاجتهاد، ونضيف هنا أن الاجتهاد من أهم وظائف العقل الناضج وآثاره وبه «تزدهر العلوم، وترقى المعارف وتصنع الحضارة والتقدم، ولو قفل باب الاجتهاد وإبداء الآراء الصائبة لتعطلت العقول وشل التفكير

---

(١) محمد بلتاجي : دراسات اسلامية . القاهرة : مكتبة الشباب بالمنيرة، ١٩٨٢م ، ص٤٢.

(٢) صبحي الصالح : معالم الشريعة الاسلامية . ط١ ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٥م، ص٧.

وجمدت الحياة وانقرض التطور»[1] ، «والتربية البناءة هي التي تتيح للعقل فرص النمو والنضج والعطاء وتشجعه باستمرار على البوح بمكنوناته، وخباياه والتعبير عما يعج به من أفكار وآراء قد يكون لها أكبر الفوائد البشرية...»[2].

ولعل من أبرز مزايا التربية النبوية فتحها الباب على مصراعية في وجه الاجتهاد العقلى بل إنها جعلت للمخطئ أجرا على اجتهاده، وذلك تشجيعا منها على مداومة الاجتهاد والتفكير وإبداء الآراء، وإن كانت خاطئة، فالخطأ يقود إلى الصواب، عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»[3] ولم نجد سنة من السنن أو حتى نظرية من النظريات القديمة أو الحديثة تجزى المجتهد على خطئه كالسنة النبوية، نعم قد تجازيه على إصابته ولكنها لا تكافؤه على الخطأ إن لم تعاقبه عليه[4].

وإذا كان كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هما أوعية العلم التى يستنبط منها الفقهاء الأحكام فإن أوعية العلم لغير المتخصصين من طلاب العلم تتمثل في كل وسيلة يثقون في نقلها السليم لأحكام الله وسنة رسوله ﷺ ، وذلك من منطلق أن التعرف على الأحكام فرض على كل مسلم بحسب الاستطاعة، فقد كان هذا هو الواجب فى العصور الاسلامية الأولى، وهو ما يجب أن يكون عليه كل مسلم في هذا العصر وكل عصر لأن المسلم مطالب ببذل الجهد والتعرف على الأحكام فى مظانها فإن أدى ذلك على الوجه المطلوب فقد أخلى مسئوليته، وهو بعد ذلك معذور، مأجور إن شاء الله تعالى.

ولهذا المصدر من مصادر التربية الاسلامية أهميته البالغة اليوم في مجال العلوم التربوية وغيرها، إذا أدركنا إمكانية إجماع مجتهدى العصر من خلال الهيئات الدولية والعلمية على القوانين والنظريات والصيغ المختلفة التى تساهم فى تطوير التعليم وترقيته،

---

(١) عبدالحميد الصيد الزنتاني : أسس التربية الاسلامية في السنة النبوية . ليبيا - تونس: الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٤م، ص٥٢٣.

(٢) المرجع السابق ، ص٥٢٣ .

(٣) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج١، ص١٩١ .

(٤) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق) ، ص٥٢٣ .

إضافة إلى أهمية الاجماع فى تماسك الأمة ووحدتها[1] ، وتطويرها بفتح أبواب الاجتهاد أمامها لتأخذ ما يناسبها من وسائل العلم والتقدم الحضارى مسترشدة في كل ذلك بما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد ﷺ ودور الاجماع التربوى كمصدر ثالث من مصادر التربية الاسلامية دور جليل، غايته رعاية مصالح الأمة في كل زمان ومكان، حيثما جد جديد يستدعى النظر والبحث في أمر من أمور الدنيا أو الآخرة لم يرد حكمه في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ وعلى الأمة المحمدية ألا تتخلى عنه عملا على تحقيق التكامل المعرفى والتعاون العلمي البناء فيما بين دولها وشعوبها فى عالم يسعى إلى الاجتماع والتعاضد بكل أشكاله.

رابعا: القيـــاس:

القياس هو المصدر الرابع من مصادر التربية الاسلامية عند الخطيب البغدادي وهو مصدر عقلى تتبعى.

١ - تعريف القياس:

القياس في اللغة تقدير الشيئ على مثاله[2] ، كما يطلق القياس على المساواة،لأن تقدير الشيئ بما يماثله تسوية بينهما[3] وفي هذا المعنى يقول الخطيب «القياس مثاله مثال الميزان، إذ يوزن به الشيئ من الفروع ليعلم ما يوازنه من الأصول، فيعلم أنه نظيره أولا يوازيه فيعلم أنه يخالفه»[4]. أما القياس فى الاصطلاح فله تعريفات كثيرة منها تعريف الآمدى الذى يقول فيه بأن القياس مساواة بين الآصل والفرع فى العلة المستنبطة من حكم الأصل[5] كما عرفه الغزالى فى المستصفى بأنه حمل معلوم على معلوم في إثبات حكم لهما

---

(١) فاطمة محمد السيد علي : الفكر التربوي عند الامام الشافعي - رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة الى جامعة المنوفية، كلية التربية ، قسم أصول التربية ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص١٢٢.

(٢) الفيروز أبادي (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص٢٥٣ .

(٣) الآمدي (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص٣ .

(٤) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج١ ، ص١٧٨ .

(٥) انظر : الآمدي (مرجع سابق) ، ج٤ ، ص٤ .

أو نفيه عنهما، بأمر جامع بينهما[1] كما عرفه البعض بأنه تعدية الحكم من الأصل إلى الفرع لعلة متحدة لا تدرك بمجرد اللغة، أى إثبات حكم الأصل في الفرع أو هو إثبات مثل حكم معلوم في آخر لاشتراكهما في علة الحكم[2] وعرفه آخرون بأنه «إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه لاشتراكهما فى علة الحكم»[3].

ويرى الخطيب البغدادى أن القياس هو فعل المجتهد وفي ذلك يقول: «اعلم أن القياس فعل القائس، وهو حمل فرع على أصل في بعض أحكامه لمعنى يجمع بينهما، وقيل هو الاجتهاد، والأول أجمع لحد، لأن الاجتهاد هو بذل المجهود في طلب العلم فيدخل فيه حمل المطلق على المقيد وترتيب الخاص على العام وجميع الوجوه التى يطلب منها الحكم وليس شيئ من ذلك بقياس»[4] على أن الاجتهاد أعم من القياس، و القياس داخل فيه[5] لأن الاجتهاد قد يكون بالقياس وغيره، ثم إن الاجتهاد لا يعنى فى عرف العلماء أكثر من بذل الجهد، واستفراغ الوسع فى طلب الحكم في حين قد يكون القياس من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى استفراغ الجهد أو بذل الوسع وقد بين ذلك العلماء وذكروا أن القياس أهم مباحث الاجتهاد[6].

كذلك اختلف العلماء حول الرأى والقياس إلا أن الذى يبدو من اختلافهم هو أن الرأى أعم عندهم من القياس، لأن الرأى تفكير، أما القياس فيعتبر إلحاقا[7] والقياس مصدر من مصادر الأحكام الشرعية والعقلية كما رأينا وهو مصدر لا يصار إليه إلا إذا لم يكن هناك أثر من كتاب أو سنة أو إجماع، عن عمر بن عبدالعزيز قال: «لا رأى لأحد مع سنة سنها

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي : المستصفي من علم الأصول . ج٢ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، (ب.ت) ، ص٢٢٨ .

(٢) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح الامام أبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري. ج١٣، دمشق : دار الفكر ، (ب.ت) ، ص٢٩٣ .

(٣) عمر سليمان الأشقر : القياس بين مؤيديه ومعارضيه . ط١، الكويت : الدار السلفية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. ص٥٢ .

(٤) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج١ ، ص١٧٨ .

(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٧٨ .

(٦) محمد بن ادريس الشافعي : الرسالة (تحقيق أحمد محمد شاكر) ، بيروت : المكتبة العلمية (ب.ت)، ص٤٧٧ .

(٧) عمر سليمان الأشقر (مرجع سابق) ، ص٢٣ .

رسول الله ﷺ»[1] وعن زفر بن الهذيل قال: «إنما نأخذ بالرأى ما لم يجيئ الأثر فإذا جاء الأثر تركنا الرأي وأخذنا بالأثر»[2] وعليه فإن المصير إلى القياس لا يكون إلا بعد فقد النص وإن كان الخطيب لا يشترط انعدام النص لكى يلجأ القائس إلى القياس وإنما يشترط فقط عدم مخالفة القياس للنص، فإذا تحقق ذلك صح القياس عنده مع وجود النص وعدمه[3].

٢ - أركان القياس:

للقياس أربعة أركان تكاد معظم المراجع تتفق عليها، وهى كما جاءت عند الخطيب[4] «الفرع والأصل والعلة والحكم. فأما الفرع فهو ما ثبت حكمه بغيره، وأما الأصل فهو ما عرف حكمه بلفظ تناوله أو ما عرف حكمه بنفسه وأما العلة فهى المعنى الذى يقتضى الحكم، فيوجد الحكم بوجوده، ويزول بزواله، وأما الحكم فهو الذى يعلق على العلة من التحليل والتحريم والايجاب والاسقاط» ويقول الخطيب إن القياس الصحيح هو الذى يكون على أصل ثابت من قرآن أو سنة أو إجماع ويستشهد على ذلك بقول أحمد بن حنبل « إنما هو السنة والاجماع وإنما القياس أن تقيس على أصل، فأما أن تجيئ إلى أصل فتهدمه، ثم تقول هذا قياس فعلى أى شيئ كان هذا القياس؟ »[5].

٣ - الخطيب بين مؤيدى القياس ومعارضيه:

أنكر القياس جماعة من العلماء وبالغوا فى نفيه وتلمسوا الحجج والأدلة لمنعه، بينما أسرف آخرون فى القول بجوازه وإمكان تحققه عقلا وشرعا وللخطيب تفصيل فى حكم من يثبت القياس فى التوحيد والأحكام إذ يقول «القياس على ضربين ضرب منه فى التوحيد وضرب فى الأحكام الشرعية، فالقياس في التوحيد على ضربين، ضرب هو القياس الصحيح وهو ما استدل به على معرفة الصانع تعالى وتوحيده والايمان بالغيب، والكتب وتصديق الرسل، فهذا قياس محمود فاعله مذموم تاركه، والضرب الثانى من القياس في التوحيد هو

---

(١) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٢٠٨.
(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٠٩ .
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٠٥ .
(٤) انظر : المرجع السابق ، ج١ ، ص٢١٠ .
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٠٤ .

القياس المذموم الذى يؤدى إلى البدعة والالحاد، نحو تشبيه الخالق بالخلق.. وأما الضرب الثانى من الأصل، وهو المتعلق بأحكام الشريعة فهو على وجهين أيضا أحدهما قياس الشيئ على نظيره، فذلك محمود والآخر قياس الشيئ على غير نظيره وشبيهه فذلك مذموم»[١]

وقد أورد الخطيب أقوال المؤيدين والمعارضين[٢]، وخلص إلى إثبات القياس عقلا وشرعا، وأوجب الرجوع إليه، عندما لا يوجد حكم النازلة في الكتاب أو السنة أو الاجماع[٣]، وبذلك يحمل القياس المنهي عنه على القياس المذموم، والرأى المرجوح، وهو الرأى الذى يخالف مصادر الاسلام الثابتة[٤]، أما القياس المبنى على الدليل الصحيح والحجة القوية فهو مطلب عزيز وحاجة ماسة من حاجات المجتمع المسلم فى كل زمان ومكان، كما أنه ضرورة من ضرورات الحياة المتطورة التى يقابل المجتمع بها مستجدات الأحداث والمتغيرات لذلك نستطيع أن نتبين ما يظهر أنه تعارض بين المؤيدين والمعارضين للقياس إذا أدركنا المقصود بالرأى الباطل الذى ليس من الدين والرأى الحق الذى لا مندوحة عنه لأحد المجتهدين[٥]، وقد سوغ سلفنا الصالح العمل بالقياس والفتيا عند الاضطرار إليهما[٦]، ولا شك أن الرأى الباطل هنا هو التشاغل بالأغلوطات ورد الفروع بعضها إلى بعض دون ردها إلى أصول السنن والاسغراق في ذلك كله إلى درجة تعطيل السنن[٧].

وعليه يعتبر القياس أحد مصادر التشريع الاسلامى المعول عليها في الأحكام والمصالح والمعاملات بين الناس، ولا يوجد كما رأينا شئ فى الشريعة على خلاف القياس

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٠٩.
(٢) انظر : المرجع السابق، ج١، ص١٧٩ - ١٨٥.
(٣) المرجع السابق، ج١، ص٢٠٤.
(٤) المرجع السابق، ج١، ص٢٠٩.
(٥) شمس الدين أبو عبدالله المعروف بابن قيم الجوزيه : أعلام الموقعين عن رب العالمين. ج١، (راجعة وقدم له وعلق عليه طه عبدالرؤوف سعد)، بيروت: دار الجيل، ١٩٧٣م، ص٦٦-٨٥.
(٦) أبو إسحاق ابراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي الغرناطي : الاعتصام، ج٢، بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٢٨٥، ٢٨٦.
(٧) انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري. (مرجع سابق)، ج١٣، ص٢٨٩ - ٢٩٠.

الصحـــيح[1].

٤ - حجية القياس عند الخطيب:

يرى الخطيب أن «القياس حجة فى أثبات الاحكام العقلية وطريق من طرقها.. كما أنه حجة فى الشرعيات وطريق لمعرفة الاحكام، ودليل من أدلتها من جهة الشرع»[2] وقد أسلفنا فيما سبق أنه لا قياس مع نص ثابت[3] وأن الصحابة والتابعين إنما كانوا يأخذون بالقياس والرأى عندما لم يجدوا الأثر[4] فحجية القياس ثابتة عند كثير من جماهير الصحابة والعلماء والفقهاء الذين عرف عنهم الاجتهاد والقياس على الأصول فيما لم يجدوا فيه نصا ومن أدلة القياس في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[5]، قالوا: وأولو الأمر العلماء، والاستنباط هو القياس[6].

أما الدليل من السنة فقد استعمل الرسول ﷺ القياس فى الأحكام ومن أمثلة ذلك قوله ﷺ للخثعمية التى سألته عن جواز حجها عن أبيها الذى توفي قبل أن يوفى بنذره الذى نذره وهو الحج: «أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيتيه أكان ذلك بنفعه؟ قالت: نعم، قال فدين الله أحق»[7] وفي هذا الحديث قياس لدين الله على دين العباد وأخيرا نذكر دليل القياس من الاجماع فقد ذكر النووى رحمه الله في معرض تعليقه على حديث «أرأيتم لو أنه وضعها في حرام»[8] أن في ذلك جواز القياس، وهو مذهب العلماء كافة ولم يخالف فيه إلا أهل الظاهر[9] وطوائف من المعتزلة، والشيعة الامامية.

---

(١) ابن قيم الجوزيه (مرجع سابق)، ج١، ص٢٩٣.

(٢) الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه (مرجع سابق)، ج١، ص١٧٨.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٢٠٨.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٢٠٩.

(٥) سورة النساء، الآية (٨٣).

(٦) الشوكاني (مرجع سابق)، ص٢٠١.

(٧) أبو عمر يوسف بن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله. ج٢، دمشق، دار الفكر (ب.ت)، ص٨٢.

(٨) أحمد بن حنبل (مرجع سابق)، ج٥، ص١٦٧.

(٩) ابن عبدالبر (مرجع سابق)، ج٢، ص٧٧.

نخلص مما سبق إلى توسط الخطيب في الأخذ بالقياس وعدم غلوه فيه كما غلا الأولون فى التوسع فى إثبات القياس أو نفيه، وإنما هو من ذلك الفريق المتبع الذى يؤمن بحجية القياس حيث لا يوجد النص، وهذا هو قول المحققين من العلماء وسلف الأمة الصالحين.

٥ - الدور التربوى للقياس عند الخطيب:

أوضحنا فيما سبق أن القياس حجة شرعية وعقلية، يأتى في المرتبة الرابعة بعد الكتاب والسنة والاجماع، وهو في الوقت نفسه المصدر الرابع من مصادر التربية الاسلامية وله فوائد جمة في العملية التربوية بصفة خاصة، كما أنه مجال فسيح للاجتهاد في مختلف العلوم النفسية والتربوية، وغيرها إذ يستخدم في العلوم التجريبية على نطاق واسع كما يستخدم في التربية عند اشتقاق وتطبيق القوانين العلمية[١] وقد اهتم الخطيب بالقياس كما أسلفنا وبين أنه مصدر شرعي وتربوى، لا غنى للمجتهد عنه كما أنه أسلوب من أساليب التعليم الهامة، وذلك فيما رواه الخطيب عن رقبة بن حماد قال: «كنت أسائل إبراهيم عن الشيئ فيعرف في وجهى أنى لم أفهمه، فيقيسه لى حتى أفهمه، وأسأله عن الشيئ فيعرف في وجهى أنى لم أفهمه، فيقول: ليس في كل شيئ يجئ القياس»[٢].

وهذا النص يظهر مدى التفاعل بين المعلم والمتعلم حتى لكأن المعلم مرآة لطلبته تنعكس على عقله ووجدانه أحاسيسهم ومشاعرهم فيتعرف، ما يدور في نفوسهم، وهو أمر بالغ الأهمية في مجال التربية والتعليم كما أن من المجالات الهامة التى توضح أثر القياس ما يكون نافعا في مجتمع من المجتمعات، ويمكن أن يكون مفيدا في مجتمع آخر وعلى هذا يكون القياس منهجا عقليا وطريقا شرعيا يجب الاستفادة من معطياته في مجال الابحاث والدراسات النظرية والتطبيقية بخاصة، مما يؤكد أهمية القياس ودوره فى البحث والاجتماع، إضافة إلى فوائده الكثيرة في مجال العملية التربوية والتى يمكن تلخيصها في النقاط التالية[٣]:

أ - إعطاء القياس عمقا وبعدا خاصين لأطراف العملية التربوية والتعليمية.

---

(١) فاطمة محمد السيد علي (مرجع سابق) ص١٣٠- ١٣١ .

(٢) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج١ ، ص٢٠٤ .

(٣) انظر : فاطمة محمد السيد علي (مرجع سابق) ، ص١٣٠ - ١٣١ .

ب- دور القياس في رفد العملية التعليمية بالخبرة فى مجال المشاهدة الموضوعية والتجربة الواقعية.

ج- دور القياس في محاربة الجمود والتقليد.

د- أثر القياس على المنهجية والموضوعية العلمية التى تحول بين العالم وسلوك طريق غير الحق، فلا يتشبث برأيه مع علمه بخطئه بل يرجع عن الخطأ إذا استبان له وجه الصواب[1].

نخلص مما سبق إلى أن القياس وسيلة من أهم «الوسائل العقلية العلمية التى يتكامل بها الجانب الحسي والمعنوى وذلك لاستنباط النظريات من قواعدها، واستنتاج الأحكام من أصولها، واستخراج النتائج من مقدماتها، واستثمار القياس في الدراسات التحليلية المقارنة في شتى ميادين العلم والمعرفة»[2]، كما أن له «أهمية بالغة فى وضع النظم والتشريعات والقوانين التى تنظم حياة الأفراد وتبين لهم حقوقهم وواجباتهم، وتصلح شأن المجتمعات، وتحافظ على كيانها، وتصون عقيدتها وأخلاقها وتراثها الثقافي والحضارى والاجتماعى وتحمى ثروتها واقتصادها وامكاناتها البشرية والطبيعية»[3].

تلك هى أهم المصادر التربوية فى الاسلام، والتى حرص الخطيب البغدادى على تناول أهم الجوانب التربوية من خلالها حتى يشيد المتعلم بناءه المعرفى والعلمى على أسس سليمة معتمدة على الكتاب والسنة والاجماع والقياس الصحيح ونحن نجد أن القرآن سجل الحياة الاسلامية وهو عقل الامة ونورها وغذاؤها الروحى، والمعين الذى لا ينضب، وفيه ما نحافظ به على ذواتنا ووجودنا الحقيقى مع قابلية التجديد والتطوير أما السنة وهى المصدر الثانى للتربية الاسلامية فإن فيها من المبادئ التربوية والهدى ما نسترشد به فى مناهجنا وأساليبنا التعليمية وغيرها بالاضافة الى ما ترفد به أصول الاجماع والقياس هذه التربية من توجيهات وأهداف ومبادئ، وطرق وقيم ثابتة تميز التربية الاسلامية عن باقى التربيات في القديم والحديث ويبدو لمن يدرس مصادر التربية الاسلامية السابقة مدى التماسك العجيب الذى يشهد لهذه التربية بسمو المصدر وثباته.

---

(١) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢ ، ص٢٠٠ ، ٢٠١ .
(٢) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق) ، ص٥٣٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص٥٣٥ .

وقد أسلفنا في بداية هذا الفصل حث الخطيب على الاهتمام بالقرآن الكريم حفظا وفهما وكيف أنه اشترط تعليمه للطلبة المبتدئين[1] ، أما العلم الذى يتلو القرآن في الأهمية فهو الحديث الشريف[2] وبعد ذلك ينطلق المتعلم في تحصيل العلوم كيفما شاء على أن تكون العلوم شريفة ونافعة. ويبدو لنا والله أعلم أن أغلب نشاط رجال العلم فى مجال التربية والتعليم قد اقتصر على المصادر الثانوية أو الجانبية للتربية الاسلامية الأصيلة الخالدة. لذلك نرى أن من الواجب على العلماء والمربين والباحثين إعطاء دور أكبر للمصادر الأصلية الثابتة وبالذات في مجال التربية والتعليم، بحيث يستلهمونها في مجالات نظم التعليم وأهدافه، ومناهجه، وطرق تدريسه، وما يقومون به من دراسات وأبحاث علمية إذا أرادوا الخروج بنتائج إيجابية تستند الى هدى الكتاب والسنة.

وأخيرا نقول إن التعليم في هذه المصادر يشكل «أساسا صالحا لتقييم النظريات والأفكار والمبادئ التربوية من حيث خطها وأهدافها، كما أنه لا يتعارض مع مستحدثاتها، وما تقدمه للحياة من تفصيلات تخدم عمليات التربية وبناء الانسان فى حدود ما يوافق الايمان والفضيلة والنفع العام».[3]

يتضح مما سبق أن للتربية الاسلامية مصادر يجب الرجوع إليها، والصدور عنها لأنها الأصول الجذرية للتربية الاسلامية، وهى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والاجماع والقياس، وكل منها مصدر ثر لا ينضب للتربية الاسلامية، فالقرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة هما المصدران الأصليان، اللذان تتمحور حولهما الدراسات النفسية والتربوية، وغيرها عند الخطيب، أما الاجماع فهو المصدر الثالث من مصادر التربية الاسلامية عنده، وقد بينا دوره التربوى وأثره في الفكر والثقافة الاسلامية بصفة عامة أما القياس فهو المصدر الرابع من مصادر التربية الاسلامية ويستخدم على نطاق واسع فى العلوم التربوية وغيرها من مجالات الحياة العلمية والنظرية.

وفي الفصل التالى نتناول بإذن الله الإطار الفكرى للتربية عند الخطيب وهو الإطار الذى يمثل نظرته إلى الخالق سبحانه وإلى الكون والانسان والمجتمع إضافة الى مفهوم التربية وأهدافها كما يراها الخطيب.

---

(١) الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١ ، ص١٠٨.

(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص١١١.

(٣) حامد عبده الهوال (مرجع سابق) ، ص٦٨ .

الفصل الخامس

الإطار الفكري لمفهوم التربية وأهدافها عند الخطيب البغدادي

ويتضمن هذا الفصل الموضوعات التالية :

- تمهيداً

أولاً : الإطار الفكري للتربية عند الخطيب.

ثانياً : مفهوم التربية عند الخطيب.

ثالثاً : الأهداف التربوية عند الخطيب.



الفصل الخامس

الإطار الفكرى لمفهوم التربية وأهدافها عند الخطيب البغدادي

تمهيـــــد:

ينبثق الأساس الفلسفي للتربية الاسلامية من نظرة الاسلام الى الخالق سبحانه، والى الكون والانسان والمجتمع، ولما كان الهدف من هذا المبحث هو بيان الاطار الفكرى للتربية عند الخطيب، لذا فقد عنينا ببيان ما يمكن أن نعتبره تصوراً للكون والانسان والمجتمع، ليكون هذا الاطار أو التصور سياجا يحمى الانسان المسلم فى أصالته الفكرية والسلوكية من جهة، ويقيه قصر نظر العقل الانسانى فى التصور وصحالة التفكير من جهة ثانية، وقد راعينا في ذلك كله عدم اقحام الجزئيات أو استقصائها، كما حاولنا في نفس الوقت ربط السلوك العام بالمفهوم الشامل لهذا التصور، حتى يكون لذلك المفهوم آثاره السلوكية، وجوانبه التطبيقية فى واقع الحياة[1].

وسنحاول فيما يلى الالمام بجوانب هذه النظرة كما تبدو في فكر الخطيب، بادئين بالأساس الأول لكل الجوانب، وهو أساس فلسفة الحياة كلها كعقيدة وكدين، وهوالخالق سبحانه، ثم الكون، ثم الانسان، ثم المجتمع وأخيرا نتناول مفهوم التربية وتعريفها وأهدافها عند الخطيب البغدادى.

أولا: الإطار الفكرى للتربية عند الخطيب:

١- الخالق جل جلاله:

الايمان بالله تعالى هو أساس العقيدة الاسلامية، ولذا لا تكاد تخلو سورة من القرآن الكريم من اسم الله، بل يتكرر ذكره سبحانه أكثر من مرة فى السورة الواحدة وما ذلك إلا لأن الانسان يجئ إلى هذه الدنيا «وعنده إحساس عميق يظل يلازمه طيلة حياته، بأن هناك قوة

---

(١) انظر : عابد توفيق الهاشمي : مدخل إلى التصور الاسلامي للانسان والحياة، ط١، عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص١٠ .

عليا تسيطر عليه وتدفع به، وبحياته، وبحياة مجتمعه... إلى حيث تريد هى لا إلى حيث يريد هو »[1] وتمثل كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» الشرط الذى لا يتحقق الاسلام إلا به، وهى إضافة إلى أنها تثبت الألوهية والتوحيد المطلق لله تعالى، تثبت أيضا النبوة للرسول ﷺ ولجميع الانبياء والرسل عليهم السلام ممن جاء ذكرهم فى القرآن الكريم.

وقد ذكرت آيات قرآنية كثيرة أسماء وصفات تمثل ذات الله، وقدرته وحكمته، وكلها تؤكد سمة رئيسية تمتاز بها العقيدة الاسلامية هى الوحدانية، والقدرة، والارادة، والتفرد، وغير ذلك من الأسماء والصفات التى «تصور الله غنيا بنفسه أبديا، واسع القدرة والمعرفة محيطا بكل شيئ وأنه الحق وحده»[2].

وقد أسلفنا مذهب الخطيب فى موضوع الصفات، وذكرنا أن مذهبه فيها الاقرار بها وإمرارها كما جاءت، من غير تعطيل ولا تشبيه، ولا تمثيل ولا تكييف، وهو المذهب الوسط بين الغالين والمقصرين، وفي ذلك يقول: «أما الكلام فى الصفات فإنما روى منها فى السنن الصحاح، مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفى الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله، وحققها قوم من المثبتين، فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف، والفصل إنما هو سلوك الطريقة المتوسطة بين الأمرين، ودين الله بين الغالى فيه والمقصر عنه، والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرع الكلام في الذات، ويحتذى فى ذلك حذوه ومثاله، وإن كان معلوما أن إثبات رب العالمين، إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فإذا قلنا: لله يد وسمع وبصر، فإنما هى صفات أثبتها الله تعالى لنفسه ولا نقول إن معنى اليد القدرة، ولا أن معنى السمع والبصر العلم، ولا نقول إنها جوارح، ولا نشبهها بالأيدى والاسماع والأبصار التى هى جوارح، وأدوات للفعل، ونقول إنما وجب إثباتها لأن التوقف ورد بها ووجب نفى التشبيه عنها »[3] لقوله تعالى: ﴿... ليس كمثله شئ وهو السميع

---

(١) عبدالغني عبود: العقيدة الاسلامية والآيديولوجيا المعاصرة. ط١، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٦، ص٢٥.

(٢) عباس محمود العقاد: الفلسفة القرآنية المجلد السابع من المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد. ط١، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤م، ١١٥.

(٣) الذهبي (مرجع سابق)، ج٣، ص١١٤٢- ١١٤٣.

البصـــير﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾[2].

٢ - الكون:

كان الكون وما زال مسرحا لتأملات الانسان وتساؤلاته، كما كان ولا زال مجالا لبحث هذا الانسان وحب استطلاعه، وقد تنوعت الحضارات فى فهم الكون ومظاهره، ولهذا اختلفت المذاهب والفلسفات وتباينت الأمم والمجتمعات في فهمها للكون وتصوراته.

وللاسلام تصور واضح عرضه القرآن الكريم في العديد من الآيات التى تدور حول الكون ومظاهره، وتعطى فى جملتها صورة رائعة لهذا الكون الذى جعله الله مسرحا للانسان، ومجالا لنشاطه وتفكيره[3].

ويشمل الكون كل العوالم سواء منها ما كان عالما مشهودا فى العيان، معروفا للانسان من خلال الحواس والمدركات، أو ما كان عالما مغيبا، لا تدركه الحواس، ولا تحيط به وسائل الادراك العادية[4] وتعتبر معرفة العالم الثانى من خصوصيات علم الله تعالى، وليس من خصوصيات علم الانسان لقوله تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً* إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا* ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شئ عددا﴾[5] ولقوله تعالى: ﴿قل لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون﴾[6].

وطريق الانسان إلى معرفة هذا الكون بعوالمه، وفهمه للحكمة من وجوده، هو العلم الذى أمر الله به «وهو جملة المعارف التى يدركها الانسان بالنظر في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء.. ويشمل الكون هنا كل موجود في هذا الكون ذى حياة أو

---

(١) سورة الشورى ، آية (١١) .

(٢) سورة الاخلاص ، آية (٤) .

(٣) عبدالحكيم قاسم : الآيديولوجيا والتربية بين المسيحية والاسلام، القاهرة : دار الفكر العربي، ١٩٨٤م، ص١٣ .

(٤) أحمد محمد جمال : محاضرات في الثقافة الاسلامية ، ط٣ ، القاهرة : مؤسسة دار الشعب، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م ص٧١ .

(٥) سورة الجن ، آية (٢٦ - ٢٨) .

(٦) سورة النمل ، آية (٦٥) .

غير ذى حياة»[1]. قال تعالى: ﴿أو لم ينظرون في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شئ﴾[2] وقال تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[3]. فالاسلام يؤكد أن العلم يتناول كل ما هو موجود، وهو علم أعم وأشمل من العلم الذى يراد للفرائض والشعائر التعبدية «لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام، إذ كان خير عبادة لله أن يهتدى الانسان إلى سر الله في خلقه وأن يعرف حقائق الوجود في نفسه ومن حوله...»[4].

ولقد أدرك الخطيب كل ذلك، ووعى أهمية هذا العلم، ودوره في تحقيق السعادة للانسان في الدنيا والآخرة، فذكر الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار المروية عن علماء الأمة، والتى تحث الانسان على طلب العلم، وترغبه فى التحصيل، وتبين له أهمية المعرفة في التعرف على الوجود، ومكانة العلم الرفيعة من الايمان الصادق، والدين الصحيح، فروى بسنده عن عبدالله بن مسعود قال: «من خرج يطلب بابا من العلم ليرد به ضالا إلى هدى، أو باطلا إلى حق، كان كعبادة متعبد أربعين سنة»[5] وقال ﷺ: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»[6] كما قال ﷺ : «من خرج يطلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع»[7] وغير ذلك من الأحاديث، والآثار العلمية التى ذكرها الخطيب في بيان فضل العلم والمعرفة، مما لا يتسع المجال لحصره.

وقد جاء ذكر الكون في مصادر الاسلام الحنيف معبرا عن غايات تربوية حرص الاسلام

---

(١) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية . ط٢ ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٦٩م، ص٧٤.
(٢) سورة الاعراف ، آية (١٨٥) .
(٣) سورة البقرة ، آية (١٦٤) .
(٤) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية (مرجع سابق) ، ص٧٥ .
(٥) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج١ ، ص١٤ .
(٦) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٤ .
(٧) الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث (مرجع سابق) ، ص٨٠ .

على معرفتها منها[1].

أ - بيان الهدف من الحياة وهو إخلاص العبودية لله.

ب - تعريف الانسان بخالقه سبحانه.

ج - بيان حكمة الله في الخلق وسننه في الجود.

د - الايمان بعالم الغيب.

هـ- قيام الكون على الحق وانتفاء صفة العبثية والصدفة في خلقه ووجوده[2].

و - الدعوة إلى التأمل والبحث والنظر في ملكوت السماوات والأرض. وهكذا يلفت الاسلام نظر الانسان إلى الكون ويوجهه للبحث فى آفاقه ويأمره بتدبر سننه وآياته، لكى يتجه هذا الانسان بعقله وجوارحه وسلوكه وكل معطيات حياته إلى عبادة ربه وطاعته وإلى العمل المثمر فى إعمار الكون وتحقيق شريعة الله وعدالته في الحياة والمجتمع.

٣- النظرة إلى الانسان:

الانسان في نظر الاسلام مخلوق مكرم مسؤل «خلقه -الله- فى أحسن تقويم، وتولاه بالالهام والتعليم، وحلاه بالعقل الكريم، والقلب السليم، وأعده لشرف خلافته في الأرض»[3] ويمكن أن نلخص نظرة الخطيب إلى الانسان في جملة نقاط تتناول طبيعة الانسان وتميزه بالعقل والذكاء وقابليته للتعليم والتفاوت بين الناس في المواهب والقدرات وتميز الانسان بالمسؤلية والتكليف وفيما يلى توضيح ذلك:

أ- طبيعة الانسان:

خلق الله الانسان بطبيعة مزدوجة، يشده جانب المادة منها إلى الأرض وإلى الحياة

---

(١) انظر : علي خليل مصطفى أبو العينين : فلسفة التربية الاسلامية في القرآن الكريم. ط٣، المدينة المنورة : مكتبة إبراهيم الحلبي ، ١٤٠٨هـ، ص٧٥، ٧٦. عبدالرحمن النحلاوي: أصول التربية الاسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع. ط١، دمشق: دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٣٨ - ٤٢ .

(٢) انظر : سورة الاحقاف ، آية (٣) : سورة القمر ، آية (٤٩) : سورة الانبياء آية (١٦) .

(٣) عثمان جمعه ضميرية : التصور الاسلامي للكون والحياة والانسان ، الكويت : دار الارقم، ١٩٨٢م، ص٩١ .

بمطالبها المادية وغيرها، بينما يسمو به جانب الروح فيها إلى الآفاق والمثل العليا[1]، قال تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون* فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[2] والذي ينبغي التأكيد عليه أن هذه الازدواجية لا تعني التعارض أو الانفصال بين جانب الروح وجانب الجسد في الانسان، بل هي فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ولذلك فالروح والجسد مكونان أساسيان مترابطان ومتداخلان في شخصية الانسان[3]، وقد تنبه الخطيب رحمه الله إلى هذا الترابط والتكامل في طبيعة الانسان ولذلك نجد عنده اهتماما بجوانب الروح والجسد والقلب والنفس وهي كما هو معروف «حقائق التكوين المعنوي في الانسان»[4].

وسنفصل اهتمام الخطيب بجوانب الشخصية الانسانية في فصل التعلم وسنذكر من النصوص والأدلة والشواهد ما يغنينا عن الاعادة والتكرار ومهما يكن من شيئ فقد وجه الخطيب نظر المتعلم «الانسان» إلى ضرورة العناية المتوازنة بجوانب الشخصية سواء منها المادية والمعنوية لكي ينمو الانسان نموا مطردا يكفل له سلامة الشخصية ونجاحها في الحياة[5].

ب – العقل:

العقل عند الخطيب عقلان، عقل غريزي جبلي يولد به الانسان، وعقل مكتسب نتيجة نمو خبرات الانسان، واحتكاكه بموروثات البيئة والمجتمع[6] والعقل عند الخطيب في الحالتين «نور وبصيرة، منزلته من القلوب منزلة البصر من العيون، وقيل هو قوة يفصل بها بين حقائق المعلومات، وقيل هو العلم الذي يمتنع به فعل القبيح، وقيل هو ما حسن معه التكليف»[7]

---

(١) يوسف القرضاوي : الايمان والحياة . ط٦، القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص٧٠.

(٢) سورة الحجر ، آية (٢٨ ، ٢٩) .

(٣) علي خليل مصطفى أبو العينين : فلسفة التربية الاسلامية في القرآن الكريم . (مرجع سابق)، ص٨١، ٨٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص٨٢ .

(٥) انظر : الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص٨٨ – ١٢١ .

(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٩ .

(٧) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٠ .

وهو يرى أن العقل سراج الباطن وملاك الظاهر وهو زينة الانسان، ومناط صلاح حياته، وأستقامة أموره[1]، كما أن العقل أساس الفضيلة وينبوع الأدب وهو أشبه شيئ بشجرة «أصلها غريزة وفرعها تجربة، وثمرتها حمد العاقبة، والاختيار يدل على العقل كما يدل توريق الشجرة على حسنها، وما أبين وجوه الخير والشر فى مرآة العقل إن لم يصدها الهوى»[2].

وهذا يبين نظرة المسلمين الى العقل فهم لم يكتفوا بتمجيده، والتنويه بدوره في تكريم الانسان وتشريفه، «بل صار الاهتمام بالعقل وتقدير دوره في الحياة سمة تميز أتباع الاسلام في كل عصر ومكان»[3]، ولا غرابة في ذلك فالعقل كما رأينا وسيلة تكريم وهو محل التكليف كما أنه وعاء العلم وأداة حفظه وازدهاره.

ج - الذكــــاء:

الذكاء قدرة ميسرة للتعلم تساعد الانسان على سرعة الفهم والاستيعاب، وهو عند الخطيب علامة من علامات تكريم الله للانسان، وتفضيله له وهو إمارة على سعادة الانسان كما أنه وسيلة لبلوغ أهدافه وتحقيق غاياته[4] والذكاء فى الانسان طبع موروث عند الخطيب أكثر منه تطبع واكتساب، فهو استعداد فطرى مغروز فى الانسان[5]، وفي ذلك يستشهد الخطيب بقول الشافعى «الطبع أرض، والعلم بذر، ولا يكون العلم إلا بالطلب، فإذا كان الطبع مائلا[6] زكا ريع العلم، وتفرعت معانيه»[7] كما أن الذكاء أحد ثلاث خصال هامة لطالب العلم فمتى توفر الذكاء وصح من الطالب العزم «وكان فهيما ووفقه الله»[8] للطلب استطاع أن يحقق تعلما جيدا.

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص٢١.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٢١.

(٣) حسن إبراهيم عبدالعال: مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية، التربية والطبيعة الانسانية. الرياض: دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١١٦.

(٤) الخطيب البغدادي (مرجع سابق)، ج٢، ص٩٥.

(٥) المرجع السابق، ج٢، ص٩٥.

(٦) أي مساعدا ومعينا على التعلم.

(٧) المرجع السابق، ج٢، ص٩٥.

(٨) المرجع السابق، ج٢، ص٦.

ويرى الخطيب أن الذكاء كما أنه نعمة من الله، فان الغباء وقلة الفهم نقمة من الله، وخسارة كبيرة، تلحق بالانسان، ولا ينفع معها كثرة التفهيم، ولا المداومة على التعليم[١]، وفي ذلك يقول «كما أن الأرض السبخة القاحلة لا تنتفع بالمطر ولو كان غزيرا فكذلك حال البليد الذى لا ينتفع من التعليم ما لم يكن لديه طبع فيه وفهم يوفقه الله إليه»[٢] ولذلك فلا شيئ ينفع فى التعلم «إلا الطبع والحرص ومداومة النظر وكثرة الدرس ومرجع هذا كله إلى الطبع»[٣].

د- الفروق الفردية:

الفروق الفردية ظاهرة من الظواهر الرئيسية في الحياة، وهى «التى تضفي على المجتمع الانساني خصوصيته، وتفاوته، وتباينه، وتداخله»[٤]، وقد فطن العرب قديما إلى أهمية هذه الفروق وأثرها في الحياة يقول الأصمعى «لن يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا»[٥]، كما أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة فى قوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين﴾[٦] وقد أدرك الخطيب أثر الفروق الفردية في تفاوت الناس، واختلافهم في القدرات، والمواهب، فذكر أن الناس يتفاوتون في استعدادهم، ومواهبهم العقلية، مثلما يختلفون في الخصائص، والسمات النفسية والجسمية[٧] ومعنى ذلك مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين، حتى تحقق العملية التعليمية أهدافها، باتاحة الفرصة لكل متعلم، حتى يتعلم وفق استعداده، وقدراته الفردية الخاصة.

ويقع عبء ذلك على المعلم الذي يتعين عليه تقدير مواهب الطلاب وقدراتهم ومدى الاختلاف بينهم وذلك بالرفق والحلم والمداراة والاحتمال[٨]، فعلى المعلم إذاً والحال هذه أن

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص٩٥.
(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٩٥.
(٣) الخطيب البغدادي: الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق)، ج٢، ص٢٧٩.
(٤) فؤاد البهي السيد: الذكاء. ط٤، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٦م، ص٤٢.
(٥) المرجع السابق، ص٢٠.
(٦) سورة هود، آية (١١٨).
(٧) الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه (مرجع سابق)، ج٢، ص١٠٧.
(٨) انظر: المرجع السابق، ج٢، ص١٥٠.

يدرك الفروق بين الطلاب، ويعمل على تلافيها، أو التقليل من تأثيرها، «بأن يكون بمنزلة الطباخ الحاذق الذى يعمل لكل قوم ما يشتهون من الطعام، وكذلك ينبغى للعالم أن يحدث كل قوم بما تحتمله قلوبهم، وعقولهم من العلم»[1] لما جاء عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: «إن الرجل ليحدث فيسمعه من لا يبلغ عقله فهم ذلك الحديث، فيكون عليه فتنة»[2] ولهذا نهى الرسول ﷺ عن «الغلوطات»[3] وهي دقيق المسائل، وعويص المشكلات، مخافة الفتنة، وسوء الفهم، من بعض الناس، رحمة بالأمة وشفقة عليها.

هـ - المسئولية:

يقرر القرآن الكريم في آيات كثيرة مسئولية الانسان عن أعماله، وتصرفاته، قال تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً* إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾[4]، وقال تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾[5] ففى الاسلام يعتبر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دليلا على صدق إحساس المرء بالايمان وتحمل المسئولية تجاه الآخرين ويتطلب ذلك أن يكون المرء «ملتزما فى أقواله وأفعاله بما يأمر به، ومتجنبا فى سلوكه وتصرفاته لما ينهى عنه»[6] وقد توعد الرسول ﷺ من يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر في أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: «والذى نفسي بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه فتدعونه فلا يستجاب لكم»[7] وهكذا يعتبر الاسلام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أساسا قويا من أسس الايمان الكامل التى يتوعد تاركها بالعقاب وعدم استجابة الدعاء، والعياذ بالله.

ويرى الخطيب أن المسئولية سلطة إجتماعية يحاسب عليها ولذلك يجب الوفاء بها

---

(١) الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢ ، ص١١٠ .
(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٩ .
(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١١ .
(٤) سورة الإسراء ، آية (١٣ ، ١٤) .
(٥) سورة المدثر ، آية (٣٨) .
(٦) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق) ، ص٧١٠ .
(٧) أحمد بن حنبل (مرجع سابق) ، ج٥ ، ص٣٨٨ .

وأداء حقها[1] حتى تحافظ على توازن العلاقات بين الفرد والمجتمع بل وبين الفرد والبيئة، كما أن المسئولية عمل والتزام بالمحافظة على الحقوق ورعايتها، وهى ترشيد لسلوك الانسان وطريق إلى هدايته وحفظه من الانحراف والمفاسد، وتقى حياته من الأكدار والعلل والشوائب والأمراض الاجتماعية[2] وقد جاء في الحديث الشريف، فيما رواه الخطيب بسنده أن الرسول ﷺ قال: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته...»[3]، وهكذا نرى أن الانسان مسئول مسئولية فردية وجماعية، وتعد هذه المسئولية أهم «ما يميز الانسان عن غيره من الكائنات، فكل الكائنات عدا الانسان تخضع لسنن كونية وتسير وفق قوانين لا يمكنها الخروج عليها، ومن ثم كانت غير مسئولة عما يصدر عنها من أعمال، فقد أعفاها التخسير من المسئولية، أما الانسان فيحتمل تبعة أعماله لاتصافه بصفات تجعله مسؤلا عن أعماله وامتلاكه لقدرات واستعدادات لا يمتلكها غيره من الكائنات المسخرة في هذا الكون»[4].

نخلص مما سبق إلى أن طبيعة الانسان تتكون من مادة وروح وهى طبيعة واحدة وإن تكونت من مجموعة قوى الجسد والعقل والقلب والنفس والروح، وهذه القوى ذاتها هي التى تشكل على نحو ما ذات الانسان وشخصيته ومع ذلك فليس الانسان نتاجا لواحدة منها وإنما هو نتيجة جدلية لتكاملها مجتمعة.

٤- النظرة إلى المجتمع:

تولى الاسلام من أول يوم نزل فيه القرآن الكريم أمر تنظيم المجتمع الاسلامي، والأخذ بيده في طريق الارتقاء والنماء، باسلوب متميز، فريد، لم تعرفه مجتمعات الحضارة قبل ذلك أو بعده، وهو أسلوب يجمع بين الفردية والجماعية، ويحقق للانسان الصلاح في الدنيا والآخرة، ومن أجل إقامة هذا المجتمع بدأ الاسلام بتحرير الوجدان البشرى من عبادة أحد غير الله أو الخضوع له[5]، وقد ترتب على هذا التحرر الوجداني مبدأ آخر هو مبدأ المساواة بين

---

(١) انظر : الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٤٧ .
(٢) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق) ، ص٧١٠ .
(٣) لخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٤٧ .
(٤) حسن عبدالعال : مقدمة في فلسفة التربية (مرجع سابق) ، ص١٨٧ .
(٥) سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الاسلام . بيروت : دار الشروق، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص٣٧، ٣٨ .

أفراد المجتمع الأنساني[1] وقد اهتم الخطيب بمبدأ المساواة هذا، فطالب أولياء الأمور من آباء وأزواج ومسؤلين أن يبذلوا ما في وسعهم لتربية وتعليم ورعاية من يولون أمرهم، لذلك نجده يطالب بتعليم الابناء والزوجات والاماء، حتى لا يفقد المجتمع الاسلامي بعض طاقاته[2].

ويمكن أن نلخص نظرة الخطيب إلى المجتمع في النقاط التالية:

أ- حث المواطن على التعليم :

هناك ميدان حيوى أغفله بعض المصلحين، أو هم قلما فكروا فيه، مع ما له من أهمية كبرى في مستقبل الفرد، وسعادته، ورخاء المجتمع، ورفاهيته، ونقصد به تعليم الرجل لأهله، وإمائه، فضلا عن أبنائه، وكل من يقيم فى بيته أو يقع ضمن دائرة مسؤلياته، وقد روى الخطيب أحاديث شريفه وآثارا جليلة في هذا الموضوع منها ما رواه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير راع على الناس ومسؤل عن رعيته، والرجل راع عن أهله ومسؤل على زوجته، وما ملكت يمينه»[3] كما روى الخطيب بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال لرجل «أدب ابنك، فإنك مسؤول عن ولدك ما علمته، وهو مسؤل عن برك وطاعته لك»[4] وكان العلماء يرون أن من واجب الرجل إكراه ولده على التعليم[5]، كما كانوا يتألفون أبناءهم على طلب العلم فيمنحونهم الهدايا ليغرونهم بالتعليم، ويحببونهم في العلم، وقد روى الخطيب في ذلك عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: «قال لى أبي: يا بني أطلب الحديث فكلما سمعت حديثا وحفظته فلك درهم فطلبت الحديث على هذا»[6] وكان غير واحد من العلماء يحتقر أهل الجهل، ويقول: لا جزاهم الله عن الأسلام خيرا[7] بل إن من العلماء من كان لا يرى بأسا من صفع الشيخ الكبير على قفاه إذا كان ممن لا يطلبون العلم ولم تكن له همة فيه[8].

---

(١) حسن إبراهيم عبدالعال : التربية الاسلامية في القرن الرابع الهجري (مرجع سابق) ، ص٤٦.

(٢) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٤٧ .

(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٤٧ .

(٤) المرجع السابق ، ج ١، ص٤٧ .

(٥) الخطيب البغدادي : شرف أصحاب الحديث (مرجع سابق) ، ص٦٦ .

(٦) المرجع السابق ، ص٦٧ .

(٧) المرجع السابق ، ص٦٧ .

(٨) المرجع السابق ، ص٦٧ .

ولما كان العلم شرطا أساسيا فى صحة العبادة، وسلامة العقيدة، فقد جعل الله الناس مكلفين «بالتعليم، وهو حق لهم يجب أن يوفره المجتمع، ولا فرق في ذلك بين الذكور والاناث، وهكذا يجب أن تتاح الفرصة أمام أفراد المجتمع للحصول على العلم والأدب والثقافة، حسبما يشاء الفرد في حدود الاطار العام للحياة»[١] وحسب ما تمكنه منه قدراته واستعداداته وقد حرص الخطيب على تعليم فئة العامة وتبصيرها بشؤون دينها، حتى تنال حظها من الرعاية والتعليم، فأوصى بضرورة تخير من يتولى فتوى العامة وتعليمها فإن كان المفتي ممن يصلح للفتوى أقره ولي الأمر وإن «لم يكن من أهلها منعه منها وتقدم إليه بأن لا يتعرض لها وأوعده بالعقوبة إن لم ينته عنها»[٢].

ب - الحث على العمل.

يرى الخطيب أن المجتمع مكون من أفراد، لكل واحد منهم دور يضطلع به في حياة المجتمع، كما يرى أن أساس العمل في المجتمع هو تحقيق التكامل والتواصل بين أفراده، في كل صورة من صور العمل وأشكاله[٣]، وقد أوجب الإسلام «على الفرد أن يحسن عمله، وأن يتعاون مع الآخرين لمصلحة الجماعة، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأوجب على المجتمع حماية الضعفاء، ورعاية مصالحهم، والعناية بالفقراء، وتوفير الرزق لهم»[٤].

ولقد أولى الخطيب العمل أهمية خاصة ورتب نجاح التعليم على نواحي التطبيق وله في ذلك كتاب فريد هو «اقتضاء العلم العمل» وقد سبقت الاشارة إلى أهمية هذا الكتاب التربوية الذى يرى الخطيب فيه وفى غيره من مصنفاته أن أهم مميزات التربية الاسلامية خاصية التطبيق العملى الذى يجعل الأخلاق أكثر من «مجرد نصائح ومواعظ وإرشادات وحكم خلقية، بل هى مثل عليا وقيم سامية وقواعد نبيلة قابلة إلى أن تتجسد في الاتجاهات والمواقف والتصرفات السلوكية للانسان في حياته اليومية تجاه ربه ونفسه وأهله وأقاربه وأعضاء جماعته والناس أجمعين»[٥].

---

(١) علي خليل مصطفى أبو العينين (مرجع سابق)، ص١٤٤ .

(٢) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق)، ج٢ ، ص١٥٤ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ج٢ ، ص٦٨ .

(٤) حسن عبدالعال (مرجع سابق)، ص٥١ .

(٥) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق)، ص٧٤٦ .

وقد ربط الخطيب بين هذه الأخلاق الايجابية وبين الايمان والعلم والعمل عندما نظر الى العلم من أجل العمل ونفع الانسان والمجتمع، فالعلم للعمل وللفهم والتطبيق وليس للحفظ الآلي المجرد من الدراية والفهم[1] ، نلمس هذا بوضوح عند الخطيب حتى ليمكن القول بأن هدف الأهداف في التربية الخلقية عنده هو مرعاة الجمع بين النظرية والتطبيق بمعنى أن يكون العمل شرطا أساسيا لجدوى ما يتعلمه الانسان لنفعه ولصالح مجتمعه، وقد حذر الخطيب طالب العلم الذى يزهد في العمل، مبينا له خطر إهمال النواحى التطبيقية ومذكرا إياه بأن الله تعالى سائله عن علمه فيم طلبه ومجازيه على عمله به، كما جاء ذلك مصرحا به فى السنة النبوية[2] مشيرا بذلك إلى الحديث المروى عن الصنابحى عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه وشبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن علمه ماذا عمل فيه»[3].

ويقول الخطيب إن العمل هو الذى ينفى عن الانسان حجة العلم ويخلى مسئوليته من التقصير كما جاء فى الأثر المروى عن علي بن أبى طالب قال: «قال رجل: يا رسول الله، ما ينفى عنى حجة الجهل؟ قال: العلم، قال: فما ينفى عنى حجة العلم؟ قال: العمل»[4] ولذلك لم يكن العلماء يعدون الشخص عالما إلا إذا عمل بعلمه، ومما رواه الخطيب في ذلك قول علي بن أبي طالب «يا حملة العلم اعملوا به، فإنما العالم من عمل بما علم ووافق علمه عمله»[5].

ج – واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

لقد ربط الاسلام -كما سنرى في التربية الخلقية- بين الأخلاق من جهة والعقيدة والتشريعات من جهة ثانية، كما ربط أيضا بين الأخلاق الفردية، والأخلاق العامة للمجتمع، ورفض التفرقة بينهما، كما تفعل بعض المجتمعات اليوم[6] ، وقد نبه الاسلام إلى خطر إهمال

---

(١) الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٨٧ .
(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٨٨ .
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٨٩ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص٨٩ .
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص٩٠ .
(٦) نعمان عبدالرزاق السامرائي : مباحث في الثقافة الاسلامية ، ط١ ، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٥٥ .

واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كسلطة اجتماعية وقائية مهمتها المحافظة على الأخلاق الفردية والاجتماعية لصالح الأمة وترابطها، وقد جاء في الحديث أن الرسول ﷺ قال: «لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم عدوكم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم»[١] كما حدد الحديث الشريف مراتب الرقابة الاجتماعية في الحديث الذى رواه الامام أحمد بسنده عن الرسول ﷺ قال: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان»[٢].

وهكذا نرى أن الخطيب من خلال دعوته إلى وجوب التأسي بسنة الرسول ﷺ، يحرص على أن يكون كل من الفرد والمجتمع صالحا، ونافعا لنفسه، ولأمته، حتى يقوم بناء الحياة على أسس تدفع بالمجتمع إلى التجدد والنمو والترقي، كما تحرر طاقات أفراده وتدفع بها إلى الانشاء والانطلاق والبناء والتعمير.

د - العلاقات الاسرية:

تعتبر الأسرة اللبنة الأساسية في البناء الاجتماعي، لذلك اهتم الخطيب بالعلاقات الأسرية داخل الاطار الأسرى وخارجه، وهو يرى من ضمن العلاقات التى تشد البناء الاجتماعي وتزيد من تماسكه علاقة الآباء بالأبناء، والزوج بزوجته، والفرد بأصحابه، والجار بجيرانه وقد ذكر الخطيب - كما سنرى في التربية الاجتماعية- وجوب رعاية الأبناء لآبائهم والبر بهم والاحسان إليهم، والرفق والمواساة لهم[٣]، بالاضافة إلى ضرورة الرعاية للعلاقات داخل إطار المجتمع الكبير من حيث علاقة الفرد بالافراد، أو المؤسسات الاجتماعية والتعليمية التى توجد في المجتمع من حوله، وبذلك يكون الخطيب قد أولى العلاقات الاسرية والاجتماعية رعاية واهتماما كبيرين.

وبعد فإن الخطيب لم يقصد من وراء نظرته هذه إلى الكون والانسان والمجتمع إلى مجرد المعرفة العامة والالمام ببعض العلوم النظرية من خلافها «بل -نظنه والله أعلم - أراد أن

---

(١) أحمد بن حنبل (مرجع سابق)، ج٥، ص٣٨٨.
(٢) المرجع السابق، ج٣، ص٤٩.
(٣) انظر: الخطيب البغدادي (مرجع سابق)، ج٢، ص٢٢٩ - ٢٣٢.

تتحول هذه المعرفة إلى حركة فكرية وعاطفية، ثم إلى قوة دافعة لتحقيق مدلولها في عالم الواقع»[1]. نلمس ذلك فيما رواه الخطيب بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: «كان رسول الله ﷺ يقول: اللهم إنى أعوذ بك من أربع: من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع»[2].

وإذا كان الانسان هو المحور الأساسى الذى تدور عليه التربية والتعليم، فعلينا أن نسعى لفهم هذا الانسان ككل متكامل، وذلك بدراسته من مختلف الجوانب الجسمية والفكرية والروحية والخلقية والعقلية ويتطلب الحديث عن هذه الجوانب الالمام بمفهوم التربية عند الخطيب ثم توضيح الأهداف التربوية لتحديد وبلورة الجوانب التربوية فى الفكر التربوى عند الخطيب وهو ما يلي بإذن الله تعالى.

ثانيا: مفهوم التربية عند الخطيب البغدادى:

إن التربية الاسلامية كعلم قائم على أسس إسلامية، تفرض علينا أن نتناول بايجاز مفهوم هذه التربية، وتعريفها فالتربية الاسلامية «علم تربوى يشمل ما نفهمه من مصطلح التربية الاسلامية، ونعنى بهذا المصطلح الآراء التربوية، والممارسات المستمدة من الكتاب الكريم والسنة الشريفة، كما ينضوى تحت التربية الاسلامية ما نفهمه من التربية عند المسلمين، ونقصد بهذا المصطلح الآراء والنظريات التربوية التى يقدمها لنا المفكرون الاسلاميون -خاصة الفقهاء والمحدثين- وللتربية الاسلامية بهذا المعنى مصدران: الأول: الكتاب الكريم والسنة الشريفة، ويجب الالتزام بهما دون تفريط أو تقصير. والثانى: اجتهادات المسلمين من أولى العلم فقهاء وحدثين... وهذا المصدر قابل للانتقاء والاختيار منه، إذا أدى الاختيار والانتقاء إلى التوافق مع نص شرعي، أو أدى إلى تحقيق مصلحة للمسلمين»[3].

---

(١) عبدالرحمن النحلاوي (مرجع سابق)، ص٢٩.

(٢) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢ ، ص٨٨.

(٣) عبدالبديع عبدالعزيز عمر الخولي (مرجع سابق)، ص١٤.

والتربية الاسلامية بهذا المفهوم عملية شاملة تتم من خلال احتكاك الفرد وتفاعله بالآخرين[(١)] سواء عن طريق الاسرة أو المدرسة أو الشارع أو السوق أو الاصدقاء أو مكان العمل، وفي كل مكان يتم فيه احتكاك بين الفرد وغيره من الناس وهذا يعنى أن التربية عملية مرادفة للحياة، بل هى الحياة بعمقها وتجددها وشمولها، لذلك قالوا: التربية هى الحياة وليست الاعداد للحياة[(٢)].

وهذا المفهوم الشامل للتربية الاسلامية هو بعينه مفهوم التربية عند الخطيب، الذى يعتبر التربية عملية مستمرة، تهدف إلى تعليم الفرد وتأديبه بأدب الاسلام، ولذلك نجده يحث طلبة العلم على التعلم وألا ينقطعوا عن طلب العلم ما دام فيهم نفس يتردد وفي هذا المعنى يذكر الخطيب أمر الله للنبي ﷺ بطلب الاستزادة من العلم، قال تعالى: ﴿وقل رب زدنى علماً﴾[(٣)] إذ لم يأمر الله رسوله بطلب الاستزادة من شيئ إلا العلم للدلالة على مكانته، كذلك روى الخطيب أن الخليفة العباسي المأمون قال: «والله لأن تموت طالبا للعلم خير من أن تعيش قانعا بالجهل، فقال له منصور ابن مهدى: وإلى متى يحسن بى طلب العلم؟ قال: ما حسنت بك الحياة»[(٤)] ويقول: «نظر سقراط إلى رجل يحب النظر فى الفلسفة ويستحى، فقال له: يا هذا تستحى أن تصير في آخر عمرك أفضل مما كنت في أوله؟»[(٥)] كما يقول إن رجلا سأل عبدالله بن المبارك: «إلى كم تكتب العلم؟ فقال له: لعل الكلمة التى أنتفع بها لم أسمعها

---

(١) عبدالغني عبود : الآيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنة ط٣ ، القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٨٠، ص٢٤ .

(٢) Dewey, John: Democracy and Education, An Introduction to the Philosophy of Education; The Free Press, A Division of Macmillan Publishing Co. Inc. New York, Collier Macmillan Publishers, London,1944, p.2&
Dewey, John: Education To-day; G.p. putman's Sons, New York, 1940, p.6.

(٣) سورة طه ، آية (١١٤) .

(٤) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص٨٦ .

(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٨٦ .

بعـــد»[١] وكان أحمد بن حنبل يقول: «أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر»[٢].

نخلص مما سبق إلى أن مفهوم التربية عند الخطيب هو مفهوم التربية الاسلامية المستمرة المتكاملة الشاملة، في كل زمان ومكان يحدث فيه احتكاك وتفاعل، ومن ثم تعلم بين الانسان وغيره.

أ-تعريف التربية:

للتربية تعريفات متعددة، نظرا لتعدد وجهات النظر إلى الأهداف المتوخاة منها، على أن الذى يعنينا منها هو تعريف علماء المسلمين لها، لأننا إنما ندرس التربية الاسلامية، وليس أعرف بها من أهلها، يقول ابن مسكويه «ت ٤٢١هـ» التربية هى: أدب الشريعة، والأخذ بوظائفها وشرائطها حتى يتعودها الطفل[٣]، ويقول الامام البيضاوى «٧٩١هـ» «أصل الرب بمعنى التربية، وهى تبليغ الشيئ إلى كماله شيئا فشيئا»[٤] ويقول آخرون ان التربية عملية التناول الواعى للانسان وللجماعة لتنشئتها على الاسلام عقيدة، وعبادة وسلوكا، وروحا، تنشئة علمية، وعملية فكرية، وسلوكية، تنشئة تتمثل في كل معطيات الاسلام ومتغيرات العصر ومتطلباته واجتهاداته[٥] ويقول آخرون التربية الاسلامية حيثية إيمانية وهى تربية من خَلَقَ لمن خُلِقَ[٦] كما يقول آخرون إنها عملية النمو «التى يمر خلالها الانسان من طفولته إلى نضجه، تدريجيا، ليتكيف مع بيئته العضوية والاجتماعية...»[٧]. ويمكن أن نقـرر أن التربية عند الخطيب تعنى التعليم الذى يؤدى غالبا إلى تنمية شخصية المتعلم ونضجها وبلوغ كمالها.

---

(١) الخطيب البغدادى: شرف أصحاب الحديث (مرجع سابق)، ص٦٨.
(٢) المرجع السابق، ص٦٨.
(٣) أحمد فؤاد الأهوانى (مرجع سابق)، ص٢٢٧.
(٤) عبدالرحمن عميرة: منهج القرآن في تربية الرجال. ط١، جدة: شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ، ص٦.
(٥) أحمد محمد جمال: نحو تربية إسلامية. ط١، جدة: تهامة، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠، ص١٤.
(٦) محمد متولى الشعراوى: منهج التربية فى الاسلام. القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٧٦م، ص٨.
(٧) عبدالغنى عبود: التربية ومشكلات المجتمع. ط١، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٨٠م، ص٢٥.

ب – بين التربية والتعليم :

ومهما كان الرآى بأن التربية غير التعليم[1] فان التربية كما نفهمها اليوم عملية معقدة، مركبة يتفاعل فيها الانسان مع الأسرة والمدرسة والأصدقاء والشارع ومحل العمل، كما يتفاعل فيها بميوله واتجاهاته وقدراته واستعداداته ومع البيئة والمجتمع والتراث بواقعه وتطلعاته وفلسفاته وحاجاته ومشكلاته، لذلك كانت مسؤلية التربية كبيرة جدا إذا ما أردنا للانسان أن يصل إلى أقصى درجات نموه ونجاحه في شتي الميادين ومنها بالطبع ميدان التربية والتعليم.

ثالثا: الأهداف التربوية عند الخطيب البغدادى:

بعد هذا العرض الموجز لمفهوم التربية، وبيان أهم جوانب إطارها الفكرى عند الخطيب، لعله من المناسب أن نتناول بإيجاز أيضا أهم الاهداف التربوية التى تعد تلخيصا لجوانب كثيرة في فكر الخطيب التربوى. وتعتبر هذه الأهداف بمثابة البوصلة التى فى ضوئها تسير العملية التربوية والتعليمية بأكملها، لكونها نقطة الانطلاق في تحديد المنهج التعليمي «الدراسي» واختيار الفرص التعليمية والطرق والأساليب التدريسية المناسبة[2] مما سنعرض له بالتفصيل في الفصول التالية من هذا البحث بأذن الله تعالى.

والذى يعنينا في هذا المبحث هو بيان الأهداف التربوية التى نادى بها الخطيب خلال العديد من الآراء والأفكار التى تدعوا إلى تقوى الله تعالى والاخلاص له وتهذيب النفس وتعليمها وتربيتها عقليا وخلقيا واجتماعيا وجسميا، وتعليم النفس وتنمية المعرفة وتطبيق العلوم والانتفاع بها، ولذلك نجد أن التربية عند الخطيب تقوم على عدة أسس وقواعد ثابتة، منها اتباع تعاليم الاسلام، والالتزام بمنهجه القويم، والربط العضوى الوثيق بين التربية والتعليم، وتعظيم العلم، واحترام العالم، والرفق بالمتعلم، إلى جانب توخي الصدق، والدقة، والحرص على طلب الحق، والثبات عليه، كما تقوم على الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة، بحيث يكون المعلم والمربي حسن السيرة مستقيم السلوك، قدوة في نفسه ومسلكه وأفعاله، وأقواله

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤.

(٢) إبراهيم محمود حسين فلاته: العملية التربوية في المدرسة الابتدائية، أهدافها، وسائلها، وتقويمها. ط١، مكة المكرمة: مطابع الصفا، ١٤٠٤هـ / ١٤٠٥هـ، ص٢٦.

مصداقا لقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون﴾[1] «فذم -سبحانه- القول بغير عمل وقضى بإثم من يقول خيرا ويفعل خلافه»[2].

وهكذا نرى أن فلسفة الخطيب التربوية إنما تقوم على الاتباع وليس الابتداع، وأن غاية العلم عنده أن يكون تعلمه خالصا لله تعالى، وأن يكون العمل به موافقا لما جاء عن الله، ورسوله ﷺ[3] كما أن هدف التربية الأول عند الخطيب هو إخلاص العمل والعبودية لله تعالى، وهو هدف عام نلمسه بوضوح في جميع كتابات الخطيب وأفكاره وآرائه، كما أنه هدف يتلاءم و«الحياة العملية، لأن غاية التربية صلاح الانسان في هذه الحياة الدنيا، وكذلك صلاح عمله وسلوكه وعمران أرضه ورخاء إخوانه وقوة مجتمعه»[4] والواقع أن هناك أهدافا عديدة تنطوي تحت هذا الهدف العام وتتفرع عنه، وهي «تتأثر بالعوامل المختلفة، وتتشكل تبعا لها، إلا أنها تصل في النهاية إلى الهدف النهائي العام»[5].

ويمكن أن نلخص أهم الأهداف التربوية عند الخطيب فيما يلي[6]:

١ - سلامة العقيدة من الانحراف والضلال.
٢ - تقوى الله تعالى والاخلاص له في السر والعلن.
٣ - إخلاص النية لله في طلب الحق ونصره وتثبيته.
٤ - نشر العلم ومحاربة الجهل وأهل البدع والأهواء.
٥ - التواضع لله وعدم التفاخر أو المباهاة بالعلم وكثرة الاتباع.
٦ - النهي عن المكابرة والمماراة.
٧ - التحلي بالأخلاق الفاضلة والعادات الحسنة.

---

(١) سورة الصف، آية (٢، ٣).
(٢) فاروق منصور: «المنهج النبوى فى العملية التعليمية». مجلة التربية. اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم -العدد الرابع والستون رجب ١٤٠٤هـ/ إبريل١٩٨٤م، ص١٤٠.
(٣) الخطيب البغدادى: الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢، ص٢٥، ٢٦.
(٤) عبدالحميد الهاشمى (مرجع سابق)، ص٣٨٥.
(٥) على خليل مصطفي أبو العينين (مرجع سابق)، ص١٤٤.
(٦) انظر: الخطيب البغدادى: الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع (مرجع سابق)، ج١، ص٨١، ٨٣، ٨٥، ٨٧-٩٠. والفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢، ص٢٥-٢٨، ٨٩. وغيرها.

٨ - الحث على العمل والتطبيق لما يتعلمه الانسان لصالح الفرد وتقدم المجتمع.

٩ - الزهد في المكاسب المادية والمظاهر الاجتماعية الخداعة.

١٠- التوسط والاعتدال في كل أحوال المرء وشؤنه.

١١- النصح لله ولرسوله ولجميع المسلمين.

نخلص مما سبق إلى أن الاطار الفكرى للتربية عند الخطيب يمثل نظرته إلى الخالق سبحانه وإلى الكون والانسان والمجتمع، فالله هو خالق الكون والانسان ولا يتحقق الاسلام إلا بتوحيده والايمان به والاخلاص فى عبادته، وقد جاءت آيات القرآن الكريم بذكر أسماء الله وصفاته، مؤكدة تميزه سبحانه وغناه بذاته، وأنه ليس كمثله شيئ وهو السميع البصير أما الكون فهو المكون الثانى الذى يكمل تصور الخطيب للاطار الفكرى الذى يمثل تفاعل الانسان مع محيطه، وهو جانب حيوى، كان ولا يزال مثار اهتمام الانسان وبحثه ودهشته واستفهامه وقد رأينا أن الكون عند الخطيب ميدان للعلم، وعن طريق العلم يمكن معرفته بعوالمه، كما أنه طريق إلى معرفة الله سبحانه وطاعته وخشيته والسعى فى الأرض بما ينفع الناس ويحقق شريعة الله وعدالته فى الحياة.

وبالنسبة لنظرة الخطيب إلى الانسان فهى نظرة تتميز بالمسؤلية، والتكريم والتشريف والالهام والتعليم وتتضح هذه النظرة من خلال النظرة إلى طبيعة الانسان وتميزه بالعقل والذكاء وقابلية التعلم والتفرد في المواهب والقدرات الشخصية والقدرة على تحمل المسئولية أما نظرة الخطيب إلى المجتمع فتتضح لنا من خلال مناداته بمبدأ المساواة بين الناس في التعليم والحث على حسن التربية والتوجيه ومراعاة العلاقات داخل الاسرة وخارجها، والحض على العمل وبالنسبة لمفهوم التربية عند الخطيب فقد بينا أنه هو نفسه مفهوم التربية الاسلامية فى عمومه وشموله وتكامله واستمراره، كما بينا أن التربية عنده عملية مستمرة تتم من خلال احتكاك الفرد وتفاعله بالآخرين.

وأخيرا... رأينا أن الاهداف التربوية عند الخطيب البغدادى تمثل الاطار المحدد للجوانب التربوية فى فكره، وتتلخص في الاخلاص لله تعالى وخشيته وتقواه وهو هدف عام يتلاءم مع الحياة العملية ولا يصادمها لأن غاية التربية صلاح الانسان في هذه الحياة وكذلك صلاح عمله وسلوكه وعمران أرضه ورخاء إخوانه وقوة مجتمعه.

وبعد ان تناولنا فى الفصلين السابقين من هذا الباب أهم مصادر التربية الاسلامية وإطارها الفكرى كما تحدده كتابات الخطيب يحسن بنا أن نتطرق الى ميادين التربية عند الخطيب، وهى ميادين غنية بمادتها ومن هنا كان اهتمام الخطيب بها وعطاؤه فيها.

الفصل السادس

ميادين التربية الإسلامية
عند الخطيب البغدادي

ويتضمن هذا الفصل الموضوعات التالية :

- تمهيداً

أولاً : التربية العقليـــة .

ثانياً : التربية الخلقيـــة .

ثالثاً : التربية الإجتماعية .



الفصل السادس

ميادين التربية الاسلامية عند الخطيب البغدادي

تمهيــــــــد:

يتعين علينا بادئ ذي بدء أن نبدد وهما قد يطوف برؤس البعض ممن يزعمون أن الدين ليس إلا مجموعة من الشعائر التعبدية، تتعلق بتنظيم العلاقة بين الخالق والمخلوق، ولا شأن لها بأمور المعاملات الانسانية، والواقع أن خير الانسانية لن يتم إلا بامتزاج أحوال الدين بالدنيا، واشتباك أسباب الآخرة بالأولى[1] وتعتبر علوم هذا الدين هي المنظم لذلك كله، والوافي بعامة مجالات النشاط البشري، ومن بينها ولا شك مجال التربية والتعليم. وقد لمع في سماء العلم نجوم من العلماء المسلمين، الذين أضاؤا للبشرية طريقها، ومهدوا لازدهار العلوم وتقدمها، ومن هؤلاء العلماء الأجلاء الخطيب البغدادي، أحد أعلام مدرسة الفقهاء، والمحدثين، التي أسهمت في «ترسيخ أقدام أهل السنة من رجال الفقه والحديث...»[2]

وقد أسلفنا القول بريادة الخطيب التربوية، وعلو مكانته العلمية، وتعدد جوانب فكره، وبالتالي أهمية دراسة فكره التربوي، من خلال دراسة أهم الميادين التربوية التي يزخر بها فكره، وقد رأينا أن التربية عنده عملية شاملة متكاملة، تشمل كل جوانب الانسان، بحيث لا يطغى جانب منها على الجانب الآخر، كما أنها تربية مستمرة باستمرار حياة الانسان على الأرض. وإذا كان الخطيب -شأنه شأن الكثير من علماء المسلمين- لم يكتب في التربية بطرق قاصدة، كما هو المجال اليوم لدى الكثير من الباحثين، فإنه قد ضمن فكره العديد من القواعد والمبادئ والأفكار التربوية، التي نستطيع في ضوئها ، وفي ضوء المعطيات التربوية الحديثة أن نستنبط نسقا تعليميا متكاملا عن فكره التربوي من خلال مجموعة من الأطر أو الميادين، التي تتناول المراحل النمائية المختلفة للفرد.

وقد أوضحنا من خلال دراستنا لمؤلفات الخطيب وما جاء فيها من آراء وأفكار تربوية

---

(١) عبدالفتاح أحمد فؤاد : في الأصول الفلسفية للتربية عند مفكري الاسلام. ط١، الاسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٨٣م، ص٥٩.

(٢) حسان محمد حسان وزميلته (مرجع سابق)، ص١٢٣ من دراسة حسان محمد حسان (مدارس التربية في الحضارة الاسلامية).

وتوجيهات تعليمية وقواعد تهذيبية أن الخطيب كان يركز في أفكاره وآرائه على عدة اعتبارات من أهمها:

١ - الحث على طلب العلم ونشر التعليم .

٢ - التأكيد على الجوانب العلمية والتطبيقية .

٣ - مراعاة قدرات الفرد واستعداداته وإمكاناته الخاصة.

٤- اتفاق الآراء والأفكار التربوية عند الخطيب مع ما تنادى به مصادر الاسلام الأصيلة وهي الكتاب والسنة والاجماع والقياس.

٥ - إخلاص العلم والعمل لله تعالى .

٦ - التربية عند الخطيب عملية مستمرة هدفها نمو الانسان ومساعدته على الترقي والكمال الانساني بصورة متوازنة متكاملة وفق قدراته واستعداداته وظروف الحياة في المجتمع الذي يعيش فيه. وتأسيساً على ذلك نستطيع القول إن أهم ميادين التربية الاسلامية عند الخطيب والتي رأى إمكانية إعداد الفرد من خلالها هي :

أولاً : التربية العقلية .

ثانياً: التربية الخلقية .

ثالثاً: التربية الاجتماعية .

وفيما يلي نتحدث عن كل ميدان من هذه الميادين وذلك بشيئ من التفصيل .

أولاً : التربية العقلية :

العقل نعمة من أكبر نعم الله تعالى على الانسان، وهو وسيلة تكريمه وتكليفه وتشريفه لذلك جاءت تعاليم الاسلام مخاطبة للعقل «موجهة له متخذة منه حجة على الانسان»[(١)] ويقصد بالعقل هنا ملكة التفكير والتدبير التي ميز الله بها الانسان دون غيره من سائر الكائنات بفضل ما أودع الله فيه «من قدرة على الاختيار والارادة والادراك والفهم، والتمييز»[(٢)] .

ولما كان الانسان كما نعلم وحدة مترابطة تتكامل فيها الجوانب الجسدية والروحية

---

(١) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق) ، ص٥١١ .

(٢) المرجع السابق ، ص٥١٣ .

والعقلية، فإن مهمة التربية العقلية يجب أن تكون العمل على تنمية هذه الجوانب وترقيتها حتى يتحقق للمرء جو متوازن يتلاءم مع ميوله وحاجاته وتطلعاته بأسلوب مثالي واقعي يتيح له النمو بأبعاده المادية والروحية والأخلاقية والعقلية والاجتماعية، من أجل ذلك كان اهتمام الاسلام بالعقل والتنويه بمكانته وعلو قدره، حتى قال بعض العلماء إن الذي يستقصي جهده في طلب الحق ثم لم يصل إليه، ومات طالباً له غير واقف عند الظن مات وهو ناج[1] وقد أوصى الاسلام بتنمية العقل «وإذكاء قدراته واستعداداته بطلب العلم وتحصيله المستمر ما أمكن السبيل»[2] وهناك العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدعو المسلم إلى إعمال العقل، وإلى التدبر والتأمل والتفكير ليس من أجل الوصول الى حياة سعيدة فحسب وإنما أيضاً لكون العقل طريقاً موصلاً إلى الايمان الصحيح. ومن هذا المنطلق العقلي والعملي والايماني كان اهتمام الخطيب البغدادي بالعقل كأحد مقومات الشخصية الانسانية المتكاملة، وكأداة للمعرفة تساعد الانسان على إدراك الحقائق وفهم العلاقات المتشابكة بين الانسان وتلك الحقائق بفضل إدراك الانسان للمعرفة التي تبدأ بالإحساس وتكتمل «بالادراك العقلي للمعاني»[3]. وسنتناول فيما يلي أهم أهداف التربية العقلية عند الخطيب.

١ - أهداف التربية العقلية عند الخطيب :

تتلخص أهداف التربية العقلية بصفة عامة في مساعدة الفرد على النمو المضطرد وإعداده للحياة إعدادا متزنا وتنمية قدراته على التفكير السليم والنظر والتأمل حتى يستطيع أن يحكم على الأشياء حكما قوامه العدل والحق والصدق[4]. ونستطيع أن نتبين من خلال دراستنا للمضامين التربوية السابقة أهم الأهداف التربوية العقلية عند الخطيب ومن

---

(١) محمد أمين المصري : لمحات في وسائل التربية الاسلامية وغاياتها، ط٤، بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص١٢٥ .

(٢) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق) ، ص٥١٤ .

(٣) حسن عبدالعال : مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية (مرجع سابق) ص١٣٠ .

(٤) سيد سابق ومحمد عثمان علي عدلان: «التربية العقلية في الاسلام» . بحث مقدم لندوة الخبراء التربويين المنعقدة في مكة المكرمة بين ١١-١٦/٦/١٤٠٠هـ - بحوث ندوة خبراء أسس التربية الاسلامية ، ط٢. مكة المكرمة، ١١ الى ١٦ جمادى الثاني ١٤٠٠هـ، ص١.

هذه الأهداف:

أ - تربية المرء على مراقبة الله عز وجل والاخلاص له في العبادة والقول والعمل.

ب - التحلي بالآداب والاخلاق الفاضلة وتعويد النفس عليها والاحتكام إليها.

جـ - تنمية وسائل المعرفة وتطويرها وتثقيف العقل وتهذيب الشخصية المسملة وشحذ الهمم لمواصلة التقدم العلمي والفكري على مختلف الاصعدة العلمية منها والعملية.

د - العمل على زيادة التحصيل العلمي والمعرفي بصورة مستمرة، يروي الخطيب عن المأمون أنه قال : «والله لأن تموت طالبا للعلم خير من أن تعيش قانعاً بالجهل».[١]

هـ - وأخيراً وليس آخراً تنمية الاتجاهات العقلية البناءة مثل الاعتماد على الحجة والبرهان والابتعاد عن التقليد الاعمى وعن الجمود الفكري والحث على الموضوعية وحب العلم والاطلاع والبعد عن الجهل والتعصب، والامر بتقوى الله والتزام الدقة والامانة والصدق.

إن التربية العقلية إنْ هي «اقتصرت على الناحية العقلية وحدها ولم تتعد محيط التفكير والبحث فانها تكون جزئية وناقصة ولا تسهم في بناء الشخصية المتكاملة إلا بقدر ضئيل»[٢] ولذلك لا يعد الخطيب مجرد العلم واكتساب المعارف هدفا نهائيا، بل لابد أن يعمل الانسان على تنمية الصفات الاخلاقية والآداب الاجتماعية المؤثرة في حياته، وهو ما سنتناوله في التربية الخلقية والاجتماعية في الصفحات التالية باذن الله .

٢ - جوانب التربية العقلية عند الخطيب :

لقد اهتم الخطيب بعملية الادراك باعتبارها وسيلة المرء إلى الاحساس لفهم وقائع البيئة التي يعيش الانسان فيها، ويتم الاحساس بواسطة الحواس الخمس التي يعتبرها الخطيب من وسائل المعرفة عند الانسان[٣] ويجب أن نفرق هنا بين الادراك والإحساس، فإذا كان الحس هو استجابة بعض أجزاء الجسم «الحواس» للمؤثرات الخارجية، فإن «الادراك هو

---

(١) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج٢، ص٨٦ .

(٢) محمد جمال صقر : اتجاهات في التربية والتعليم القاهرة : دار المعارف، ١٩٦٥م، ص٢٠.

(٣) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص١٩ .

العملية التي تتم بها معرفة ماحولنا من أشياء عن طريق الحواس، وهي عملية مركبة لا تستطيع الحواس وحدها أن تقوم بها »[1] وفي هذا المعني يقول الخطيب: « أما الحس فيدرك به العلم الواقع من الحواس وهو علم ضروري غير مكتسب لأن دخول الشك عليه غير جائز »[2].

ومعنى هذا أن الحواس طريق إلى المعرفة، والانسان عندما يدرك الأشياء فإنما يدركها بعقله لا بحواسه، ورأى الخطيب في العقل أنه القوة، التي يفصل الانسان بها بين حقائق المعلومات[3] ولا يمكن الفصل بين الحقائق إلا بإدراكها وإدراك ما بينها من علاقات وروابط متشابكة. أما الجانب الثاني الذي نلمسه في الفكر التربوي عند الخطيب فهو عنايته الكبيرة بعملية الحفظ باعتبارها أهم خصائص النمو العقلي، وهي قدرة عليا من قدرات العقل التي اهتم بها الخطيب وعدّها من عوامل التعلم المساعدة التي تتم وفق طرق وأساليب معينة يراعى فيها التوزيع والتنويع وراحة المتعلم وحالته النفسية وكمية المادة المتعلمة والقدرة على الحفظ، إلى غير ذلك من شروط التعلم وعوامله التي سنتناولها بإذن الله في فصل التعلم التالي.

٣ - وسائل المعرفة العقلية عند الخطيب :

ذكرنا فيما سبق أن الخطيب يعتبر وسائل المعرفة جسوراً إلى العالم الخارجي بكل خصائصه ومكوناته، وقد ذكر الخطيب أقسام هذه الوسائل وهي الحواس والعقل ومعرفة الكتاب والسنة والاجماع واللغة والعبرة أو ما يمكن أن نقول عنه « العلم » بمناهجه ووسائله.[4]

أ - الحواس :

حدد الخطيب ماهية الحواس في نقل الاحساس فقال الحواس هي : ما يدرك به «العلم الواقع عن الحواس».[5]

---

(١) حسن عبدالعال : مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية (مرجع سابق) ، ص١٧٥ .

(٢) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج٢، ص٢٠ .

(٣) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٢٠ .

(٤) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص١٩ .

(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٠ .

ب – العقـــــل :

العقل عند الخطيب عقلان غريزي ومكتسب[1] فأما الغريزي فهو العقل الفطري الذي يولد به كل إنسان ويتصف بالجبلّية والبساطة بحكم عوامل الوراثة أما العقل المكتسب فهو الذي يتضح لدى الانسان بفضل احتكاكه وتفاعله بالبيئة والمؤثرات فيها ، وهو يرى أن العقل في الحالتين «إلهام وبصيرة وهو من القلوب بمنزلة النور من العيون، وقيل هو قوة يفصل بها بين حقائق المعلومات وقيل هو العلم الذي يمتنع به فعل القبيح ، وقيل هو ما حَسَّنَ معه التكليف»[2] وقد بين الخطيب أهمية العقل ودوره كأداة للمعرفة، فهو نور يكشف للمرء دروب المعرفة وهو حد يفصل بين الحسن والقبيح، وهو يرى أن العقل في الانسان أصل والتجربة فرع.[3]

٤ – معوقات استخدام العقـــل عند الخطيب :

أ – التقليد الأعمـــى :

حث دين الاسلام على تحرير العقل من الهوى وتخليصه من تأثيرات الزيغ، والانحراف، كما حذر من التقليد الأعمى لسنن الآباء والأجداد قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[4]. وللخطيب رحمه الله رأى في التقليد حيث يقول: «التقليد هو قبول القول من غير دليل»[5] والتقليد عند الخطيب على ضربين، عقلي وشرعي، فأما العقلي فلا يجوز فيه التقليد.. وأما الشرعي فهو الذي يجوز فيه التقليد وبصورة خاصة للعامي، أما العالم فلا يجوز له التقليد لامتلاكه أدوات البحث عن الحقيقة الموصلة إلى الحكم المطلوب.[6]

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٩ .
(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٢٠ .
(٣) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢١ .
(٤) سورة البقرة ، الآية (١٧٠) .
(٥) الخطيب البغداد (مرجع سابق) ، ج ٢ ، ص٦٨ .
(٦) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٦٨، ٦٩، ٤٨ .

ب - اتباع الظـــــن والهوى :

كان طلب الحق واتباع تكاليف الشرع رائد المسلمين في أقوالهم وأفعالهم، لذلك كان قائلهم يقول : «أيها الناس من علم منكم علما فليقل به ومن لم يعلم ، فيقول : لا أعلم، والله أعلم فان من علم المرء أن يقول لما لا يعلم الله أعلم»[1] وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : «العلم ثلاثة: كتاب ناطق وسنة ماضية ولا أدري»[2] وقد بلغ استحسان أهل العلم «للا أدرى» حدا جعل البعض منهم يقول: «لقد حسنت عندي لا أدري حتى أردت قولها فيما أدرى»[3].

ومن هذا المنطلق نجد الخطيب يوجه العالم إلى أن «يكون نطقه بعلم وإنصاته بحلم.. »[4] وأن «لا يتكلم على ما لا يقع له علمه.. فإن الجواب لا يصح عما لم يفهمه.. »[5] عملاً بقوله تعالى : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلاً ﴾[6] وعلى كل حال فإن الخطيب ينكر التقليد ولا يرى للمقلد ميزة عن البهيمة، وفي ذلك يقول : «لا فرق بين جاهل يقلد وبهيمة تنقاد».[7]

ج - ضحالة المعرفــــة :

من العوامل التي تحد من قدرة العقل على التفكير السليم «قصور المعرفة لدى الفرد مما يجعله يقبل صحة قضايا بدون تثبت ولا توكيد»[8]، وقد اعتبر الخطيب عمق المعرفة حماية من الله للإنسان يعصمه بها من الانحراف [9] فضلاً عن رفعه بها درجات يوم القيامة، قال تعالى : ﴿... يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما

---

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص١٧١ .
(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٧٢ .
(٣) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص١٧٤ .
(٤) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٣١ .
(٥) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٣٧ .
(٦) سورة الاسراء ، آية (٣٦) .
(٧) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج٢ ، ص٥ .
(٨) حسن عبدالعال (مرجع سابق) ، ص١٩١ .
(٩) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج ٢ ، ص٧١ .

تعلمون خبير﴾[1] فالله سبحانه وتعالى قد أمر نبيه محمداً ﷺ بطلب الاستزادة من العلم ولم يأمره بطلب الاستزادة من شيء سواه، قال تالى : ﴿وقل رب زدني علماً﴾[2] وقد دعا الخطيب طلبة العلم إلى أن يتميزوا عمن رضى لنفسه بالجهل ولم يكن فيه معنى يلحقه بأهل الفضل، وينظر فيما أذهب فيه وقته، وقطع به أكثر عمره، من كَتْب حديث رسول الله ﷺ وجمعه، ويبحث عن علم ما أمر به من معرفة حلاله، وحرامه، وخاصه، وعامه، وفرضه، وندبه، وإباحته، وحظره، وناسخه، ومنسوخه، وغير ذلك من أنواع العلوم قبل فوات إدراك ذلك فيه».[3]

وفي هذا الصدد يروي الخطيب عن المأمون أنه قال: « والله لأن تموت طالباً للعلم خير من أن تعيش قانعاً بالجهل، فقال له منصور ابن مهدي: وإلى متى يَحْسُنُ بي طلب العلم؟ قال: ما حَسُنَت بك الحياة».[4] فاذا فطن العقل إلى هذه العوائق التي تعرقل سيره واستطاع التخلص منها ضمن لنفسه أن تكون أحكامه صحيحة، بعيدة عن الزيغ، و «هذا العقل الذي تجرد من الهوى وخلص من آثار التقليد هو الذي يخاطبه الاسلام ويكلفه، ويدعوه إلى أن ينزع عنه ربقة الأهواء ويحذره الضلال الذي يمكن أن يقع فيه إذا اتبع الهوى أو عطل قواه باتباع أعمى، ومثل هذا العقل في نظر الاسلام يستطيع أن يبحث ويستطيع أن يكشف الحقيقة ويصل إليها».[5]

هذه هذ توجيهات الاسلام وهو دين عقلي، لأنه يحث على استعمال العقل كما لم يحث دين آخر ويحض على التفكير والتدبر والتبصر. ويدعو الانسان إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض علّه يصل إلى أسرارها الحقيقية وإلى الايمان الصادق واليقين، كل ذلك بهدف تربية ملكة النظر والتدبر ، وتربية الطاعة وتقويم الوجدان غير أنه لا يهدف نحو تربية الطاعة العمياء والخضوع الآلي الذي يجعل الانسان يتحرك كما تتحرك الآلة أو كما تتحرك الأنعام من غير وعي وتدبر ولكنه يحاول النهوض بالعقل حتى يبلغ غايته من كمال المعرفة وشرف الغاية وسمو الهدف وصدق العمل والاخلاص فيه، حتى يعمل المرء الخير لأنه أدرك

---

(١) سورة المجادلة آية (١١) .

(٢) سورة طه ، آية (١١٤) .

(٣) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج ٢ ، ص٧٨ .

(٤) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٨٦ .

(٥) محمد أمين المصري (مرجع سابق) ، ص١٢٤ .

مافيه من خير ويتجنب الشر لأنه وعى مافيه من شر لا لأن الآباء والأجداد قد فعلوا هذا العمل أو ذاك!

وقد هدف الاسلام إلى تربية العقل عن طريق تربية الوجدان كما هدف إلى تربية قوى الانسان كلها من عقل وقلب وعاطفة من أجل أن يتكامل عملها جميعها في قوة الايمان وفي تربية الشخصية الانسانية السوية، وبالتالي في تكوين الجماعة الانسانية الخيرة والنهوض بالعالم من خلال الرقي بمجتمعاته.

٥ – موازين البحث الموضوعي في التربية العقلية عند الخطيب :

من خلال دراستنا للمضامين التربوية عند الخطيب نجد أنه وضع «عدة موازين ومعايير وشروط ينبغي مراعاتها في البحث العقلي حتى يتم اكتساب العلوم والمعارف وتنميتها ونشرها على الاساس السليم المفيد للانسان في دينه ودنياه».[(١)]

وفيما يلي تذكر أهم موازين البحث العقلي «الموضوعي» عند الخطيب:[(٢)]

أ – إخلاص النية لله تعالى .

ب – الموضوعية والتزام الأمانة العلمية .

ج – التسامح وعدم الفحش في القول أو العمل.

د – قلة الكلام وتركيزه .

هـ – تجنب الغضب .

و – التثبت والدقة .

ز – التواضع وعدم الغرور .

ح – حسن صياغة السؤال وإعداد الجواب وما يتعلق بهما من كراهة واستحباب.

ط – الوضوح .

ي – استخدادم القياس.

وسوف يأتي بيان هذه الموازين في فصل أدب العالم.

---

(١) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق) ، ص٥٣٠ .

(٢) انظر : الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج٢ ، ٢٦-٣٧، ٥٧ - ٨٢، ١٦٥- ١٧٠ .

٦ - أساليب التربية العقلية عند الخطيب :

تشمل أساليب التربية العقلية عند الخطيب : (١)

أ - أسلوب النظر والجدل .

ب - أسلوب السؤال .

ج - أسلوب الممارسة والتطبيق .

د - أسلوب العقل المفتوح .

وهي أساليب اهتم الخطيب بها وتناولها في أكثر من موضوع من كتبه ولأهميتها فقد أفردت لها مبحثاً خاصا في الفصل الخاص بطرق التعليم .

ثانيا : التربية الخلقيـــة :

اهتمت الأديان عامة والدين الاسلامي خاصة بالأخلاق وجعلتها «أساس التمييز والتقييم الحقيقي بين الناس»(٢) بعد تقوى الله تعالى بل إن الدين الاسلامي ذهب إلى أبعد من ذلك عندما لم يكتف بالدعوة إلى الاخلاق وإنما ربط الاخلاق بالعقيدة لتكون «مرتكزة إلى أصل ثابت تستمد منه قوتها وبقاءها، ولا تكون حاجة جمالية كمالية يتصف بها من يشاء ويهجرها من يريد».(٣) لذلك ربط الاسلام ربطا عضوياً محكما بين الإيمان والأخلاق وبين أن عمق الايمان وأصالته في النفس تكون بقدر رسوخ الأخلاق الكريمة الفاضلة وقوة فاعليتها وسلامتها(٤)، «فالصلة بين الدين الاسلامي والأخلاق عظيمة، تبلغ حد التوحيد بينهما، فالدين وسيلة لتكوين الخلق، والأخلاق مستمدة من الدين».(٥)، لذلك احتلت الأخلاق في الاسلام مكانة عالية متميزة لا مثيل لها في غيره من الشرائع أو الأديان، فهي في نظر الاسلام هدف أسمى يجب أن ترقى إليه الانسانية لتكوين الشخصية السوية.

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ج١: ص٢٢٩-٢٣٥، ١١ ،١٢، ج٢: ص٧- ١٠، ٢١-٥٨ . الخطيب البغدادي : اقتضاء العلم العمل (مرجع سابق) ، ص١٤- ٣٢ .

(٢) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق) ، ص٦٨٦ .

(٣) نعمان عبدالرزاق السامرائي (مرجع سابق) ، ص٥٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص٥٢ .

(٥) أحمد فؤاد الأهواني (مرجع سابق) ، ص١١٧ .

ونظراً لتأثير الاخلاق البالغ في السلوك الانساني، لذلك إذا أريد إصلاح الانسان وتهذيبه «وجب أولا إصلاح خلقه لأنه الأصل وسائر أعماله فروع، ومعروف أنه متى صلح الأصل صلح الفرع، هذا هو منهج الاسلام في الاصلاح يبدأ من النفس فيهذبها، ويدفع عنها الخلق القبيح ويأمرها بالخلق الكريم ويربيها على الفضائل ليصل من خلال ذلك إلى المجتمع الكريم..»[1]

ونحن إذا درسنا الأخلاق وفق هذا المفهوم وجدنا الكثير من المبادئ والأهداف التربوية والاخلاقية العليا عند الخطيب، وهي أهداف ترمي إلى إعداد الفرد بصورة متوازنة، تؤصل الاخلاق في وجدانه وتصقل شخصيته وتنميها وفق معايير الأخلاق الاسلامية الحميدة.

١ – أهداف التربية الخلقية عند الخطيب :

يمكن تحديد أهم أهداف التربية الخلقية عند الخطيب في ضوء المضامين التربوية والأحاديث النبوية الشريفة التي حوتها كتب الخطيب، فيمايلي:

أ – بناء العلاقة بين الفرد وخالقه سبحانه على أساس متين من تقوى الله تعالى وخشيته في السر والعلن.

ب – إخلاص العمل لله تعالى طلبا لسعادة الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

ج – توجيه السلوك الأخلاقي ليكون مطابقاً لما جاء به الاسلام من تعاليم وهدي وأخلاق.

د – غرس الأخلاق الفاضلة والصفات الكريمة والآداب العالية، وترسيخها في نفس طالب العلم بخاصة والمسلم بعامة.

هـ – تربية الاحساس بالمسؤلية لدى الفرد المسلم والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

و – وجوب التعلم والعمل على تحقيق الجوانب التطبيقية في العلم والحياة .

ز – تقوية إرادة الفرد وتهذيب طبائعه باتباع الطرق السوية المشروعة دينيا وخلقياً وتربوياً واجتماعياً.

ويمكن إجمال أهداف التربية الخلقية عند الخطيب في تربية الخلق والارادة معا، بحيث يتزود الفرد بالصالح من الأعمال والأقوال والعادات، ويكتسب بالتدريج شخصية قوية، طائعة لله، تعمل عن إرادة ووعي ما تراه حسنا وتتجنب ما تراه سيئاً.

---

(١) نعمان عبدالرزاق السامرائي (مرجع سابق) ، ص٥٤، ٥٥ .

٢ - جوانب التربية الخلقية عند الخطيب :

من الصفات الاخلاقية الفاضلة الحميدة التي نلمسها بوضوح في كتابات الخطيب، صفات الصدق والتقوى والحلم والرفق والأناة والدقة وحب العمل والاخلاص لله، والامانة والالتزام بالموضوعية والحيدة في طلب الحق ونصره والتثبت في طلب العلم، وتمحيصه، ويتضح اهتمام الخطيب بهذه الأخلاق وغيرها من خلال موضوعات هذا البحث فإلى جانب ما ذكرنا هناك العديد من المبادئ والقواعد الأخلاقية التي يتناولها هذا المبحث، وسوف نتكلم عليها حسب ورود مناسباتها. أما أهم جوانب التربية الخلقية، عند الخطيب فيمكن إجمالها في الموضوعات التالية: الفرد ومسؤليته الخلقية، الصفات الأخلاقية المحمودة، أساليب التربية الخلقية، وأخيراً أهداف التربية الخلقية، وفيما يلي تفصيل ذلك :

أ - الفرد ومسؤليته الخلقية :

تحرص التربية الاسلامية على تنشئة الفرد المسلم على الأخلاق القويمة والصفات الحميدة، تنمية لروح المسيولية فيه تجاه ربه ونفسه ومجتمعه والناس أجمعين.[١]

ويعتبر العقل أحد أدوات المعرفة التي أولاها الخطيب -كما رأينا- عناية خاصة نظراً لدوره وأثره في القدرة على الادراك والفهم والتمييز، كما أن حرية الارادة والاختيار من موجبات تحمل المسئولية. ولقد قرر الخطيب مسئولية الانسان تجاه أعماله ونتائجها من خلال الشواهد الكثيرة التي أوردها من القرآن الكريم والسنة النبوية وكلها تفيد ضرورة تحمل الفرد لمسئوليته الخلقية ، قال الله تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾[٢] ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والأمير راع على الناس ومسئول عن رعيته والرجل راع على أهله ومسئول عن زوجته وما ملكت يمينه».[٣]

وهذا «الشعور بالمسئولية يربى في الانساني الوعي واليقظة الدائمة والبعد عن المزالق وعدم الاستسلام للأهواء والعدالة والبعد عن الظلم والبغي، والاستقامة في كل سلوك الانسان وشئونه».[٤] كما أنه يكسب الفرد «الشعور بالمسئولية نحو نفسه ونحو الغير، ثم نحو

---

(١) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق) ، ص٦٧٠ .

(٢) سورة المدثر ، آية (٣٨) .

(٣) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج١، ص٤٧ .

(٤) عبدالرحمن النحلاوي (مرجع سابق) ، ص٣٦ .

الجماعة التي هو عضو فيها. وهذا الشعور بالمسئولية والتبعية المتبادلة هما الدعامة الأولى لتكوين التضامن المنشود بين أفراد المجتمع الواحد وهما في الواقع أساس كل تقدم».[(١)]

ويرى الخطيب أن التربية السلوكية السوية تتطلب إصلاح النفس وتهذيبها، وإلزامها بالقيم والمعايير الخلقية وذلك بتحمل الانسان مسئوليات كاملة ومراقبة الله في السر والعلن. قال ﷺ : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه...»[(٢)]. ويروى الخطيب عن أبي حنيفة أنه قال: «من تكلم في شئ من العلم وهو يظن أن الله لا يسأله عنه كيف أفتيت في دين الله؟ فقد سهلت عليه نفسه ودينه»[(٣)]. ومن هنا تتأكد المسئولية الخلقية للفرد، وهي مسئولية من شأنها أن تغرس في نفس الانسان الفضائل وتقوي فيه الوازع الديني عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما تعود المرء على نقد نفسه ومراجعتها وتصحيح أخطائها والاقلاع عنها وحسن التوبة والاسراع بها.

ب – الصفات الخلقية المحمودة :

يعتبر الخطيب أن الايمان الصادق والتقوى الكاملة هي أس الفضائل والأخلاق الحميدة ولذلك كان على العالم أن يجعل تقوى الله تعالى نصب عينيه في كل وقت[(٤)] «وأن يتخير من الأخلاق أجملها ومن الآداب أفضلها فيستعمل ذلك مع البعيد والقريب والأجنبي والنسيب، ويتجنب طرائق الجهال وخلائق العوام والأراذل»[(٥)]. وقد روى الخطيب أحاديث وآثاراً عديدة في فضائل الأخلاق والحث على التحلي بها منها الحديث المروي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً»[(٦)]، وقوله ﷺ : «بعثت لأتمم مكارم الاخلاق»[(٦)]، وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم»[(٧)]، وقوله ﷺ في الحديث المروي عن معاذ بن جبل : «اتق الله حيثما كنت

---

(١) محمد جمال صقر (مرجع سابق)، ص٩.
(٢) أحمد بن حنبل (مرجع سابق)، ج٣، ص٤٩.
(٣) الخطيب البغدادي (مرجع سابق)، ج ٢، ص١٦٨.
(٤) المرجع السابق، ج ٢، ص٢٥.
(٥) المرجع السابق، ج ٢، ص١١٠.
(٦) المرجع السابق، ج ٢، ص١١٠.
(٧) المرجع السابق، ج ٢، ص١١٠.

واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»[1] . ويقـول وهب بن منبّه : «الايمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وجماله الفقه»[2]

من هذه الأقوال وغيرها نجد أن الأخلاق سلوك تتفاعل في تشكيله العقيدة والعقل والعاطفة والارادة والانفعال والتوجيه والعادة المألوفة، والخطيب عندما يؤكد على الأخلاق الايجابية يشير في الوقت نفسه إلى قضية هامة وهي قبوله لمبدأ اكتساب الأخلاق «بالتربية والتعليم والتوجيه والارشاد والرياضة النفسية ...»[3] وهذا معنى قوله الذي أسلفناه والذي يلزم فيه الفقيه بأن يتخير من الأخلاق أجملها ومن الأداب أفضلها.[4]

وفيما يلي نذكر أهم الأخلاق الحميدة التي يرى الخطيب أنها كفيلة بإصلاح الفرد والمجتمع، وهو بذكره لها يُبَيِّنُ الأخلاق المذمومة التي دعت السنة النبوية صراحة أو ضمنا إلى نبذها واتقائها وفيما يلي أهم هذه الأخلاق:

١ - تقوى الله تعالى والاخلاص له :

التقوى رأس الحكمة وأساس الاستقامة في الحياة، وهو ثمرة الايمان الصحيح والاسلام الكامل، وهو وحده معيار التفاضل والتمايز بين الناس، قال الله تعالى : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[5] ، «والأخلاق التي تفتقر إلى التقوى الحقيقية النابعة من القلب الموجهة للخالق وحده، هي أخلاق ظاهرية مخادعة سرعان ما يكتشف زيفها..».[6] وقد حث الاسلام على التحلي بالأخلاق الفاضلة وبين أن الايمان عريان ولباسه التقوى[7] ، وقد وجه الرسول ﷺ المسلم إلى التمسك بتقوى الله تعالى وأن تكون المعاملة بين الناس بالبر وحسن الخلق، جاء في الحديث المروي عن معاذ بن جبل أن الرسول ﷺ قال : «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن».[8]

---

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٢٥ .
(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٢٥ .
(٣) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق) ، ص٦٥٣ .
(٤) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج ٢، ص١١٠ .
(٥) سورة الحجرات ، آية (١٣) .
(٦) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق) ، ص٦٩٢ .
(٧) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج٢، ص٢٥ .
(٨) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٥ .

أما الاخلاص فهو خصلة محمودة سواء في النوايا أو الأقوال أو الأفعال، وهو سر الايمان بالله تعالى والعبادة الخالصة له، وقد أكد الخطيب على خلق الاخلاص باعتباره أحد دعائم التربية الخلقية الإيمانية[1] لذلك يرى أن المتعلم مطالب بإخلاص النية في التعلم وأن يقصد وجه الله تعالى فيما يتعلمه[2] ويؤكد ذلك المعنى بشواهد منها قول حماد بن سلمة «من طلب الحديث لغير الله مُكرَه به»[3]، وقول جعفر بن حيان: «ملاك الأعمال النيات، فإن الرجل يبلغ بنيته ما لا يبلغ بعلمه»[4]. ويقول الخطيب إن الذي يطلب العلم وهو مخلص النية قاصداً بعلمه وجه الله تعالى حري بأن يفوز بسعادة الدنيا والفلاح في الآخرة، وعلى العكس من ذلك الذي يطلب العلم سمعة وتفاخراً ورياء فإنه ليس له من علمه سوى الخسارة في الدنيا وفي الآخرة عذاب الله الشديد.[5]

إن الاخلاص في طلب العلم ونشره يقتضي بذله لمن يطلبه، ولذلك كان الذي لا يعلم الناس إلا بمقابل إنساناً منبوذاً، مُتَوَعدا من الله ورسوله ﷺ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض الدنيا- وقال أبو نعيم: عرضا من الدنيا- لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[6]

٢ - التواضـــــع :

التواضع خلق العلماء وصفة محمودة من صفات الأتقياء، وهو خلق رفيع يكون في مودة المسلم وفي رفقه ومعرفته لقدره، وهو أبعد مايكون عن خلق التذلل والمسكنة والمهانة «لذلك فإن خلق التواضع يعلى من شأن المسلم ويرفعه عن رذيلة الكبر والغطرسة من جهة، وعن رذيلة الخنوع والمذلة من جهة أخرى»[7]. وقد أمر الله عز وجل رسوله الكريم ﷺ بالتحلي بخلق التواضع، لأنه مصدر رضا الله تعالى ومنبع الخير والفلاح في العلاقات بين

---

(١) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٨١.
(٢) المرجع السابق ، ج١، ص٣١٥ .
(٣) المرجع السابق ، ج١، ص٨٥ .
(٤) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢، ص٨٨ .
(٥) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٨٣ .
(٦) المرجع السابق ، ج ١ ، ص٨٤ .
(٧) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق) ، ص٧٠١ .

الناس، عن سعيد أبي البختري الطائي قال: أخبرني أبو كبشة الأنماري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما نقص مال من صدقة، ولا تواضع أحد إلا رفعه الله عز وجل»[١] ويقول حماد بن زيد «ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعا لله تعالى»[٢]، ويقول الفُضَيل بن عياض: «إن الله تعالى يحب العالم المتواضع ويبغض العالم الجبار، ومن تواضع لله وَرَّثَهُ الله الحكمة»[٣]، ويقول عبدالله بن المعتز: «المتواضع في طلاب العلم أكثرهم علما، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء»[٤]، وكان الامام أحمد بن حنبل لا يقبل أن يُرفع مجلسه عند من يتعلم منه وإنما يجلس بين يديه ويقول: «أمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه».[٥]

وهكذا ينبغي أن يكون خلق التواضع السمة المميزة لأهل العلم وغيرهم من المؤمنين وقد روى الخطيب عن عمر بن الخطاب أنه قال: «تعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تَعَلَّمون منه ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم»[٦]. كما كان أهل العلم يستعظمون قيام العالم بالتحديث في بلد يوجد فيها من هو أعلم منه، وعدوا ذلك من حمق المرء وسفهه، روى الخطيب عن يحيى بن معين أنه قال: «إن الذي يحدث بالبلدة وبها من هو أولى بالتحديث منه أحمق»[٧]، ويقول ابن عيينة: «اذا حدثت في بلدة فيها مثل أبي مسهر فيجب لحيتي أن تحلق».[٨]

وغير ذلك من الشواهد والأدلة الكثيرة التي تُبَيِّنُ تواضع العلماء وتقديرهم للعلم وإكبارهم لمن يتعلمون منه، كما أن طلبة العلم لم يكونوا بأقل حظاً من ذلك فلقد كانوا يحفظون للعلماء قدرهم ويعرفون لهم فضلهم ومكانتهم.

٣ - الحلم:

الحلم من أبرز الصفات الخلقية التي يجب على المسلم أن يتحلى بها وخاصة إذا ما

---

(١) الخطيب البغدادي (مرجع سابق)، ج١، ص٣٥١.
(٢) الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه (مرجع سابق)، ج ٢، ص١١٣.
(٣) المرجع السابق، ج ٢، ص١١٣.
(٤) الخطيب البغدادي: الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص١٩٨.
(٥) المرجع السابق، ج ١، ص١٩٨.
(٦) المرجع السابق، ج١، ص٩٣.
(٧) المرجع السابق، ج١، ص٣١٩.
(٨) المرجع السابق، ج ١، ص٣١٩.

لبس هذا الحلم رداء العلم ولباس التقوى والتسامح والعطف والتجاوز وكظم الغيظ ومن صفات الحلم أن يكون المرء لين الجانب طيب الكلمة لأن «من لانت كلمته وجبت محبته»[1]، عن حبيب بن حجر العبسي قال: «كان يقال : ما أحسن الايمان ويزينه العلم وما أحسن العلم ويزينه العمل، وما أحسن العمل ويزينه الرفق، وما أضيف شيئ إلى شيئ مثل حلم إلى علم»[2]، إن الحلم «يقوي روابط المودة والتعاطف بين الناس ويشجع بينهم الطمأنينة والثقة والأمن النفسي ويحفزهم على التعاون والتآزر والتكامل»[3]. وقد حثت السنة النبوية على الاتصاف بخلق الحلم وما يرتبط به من عفو وتسامح وكظم غيظ ولين جانب ورفق ومواساة، وذلك لأهميته في البناء الاجتماعي وربط الأفراد بعضهم ببعض بروابط المحبة والتصافي والمودة والعطف.

٤ – الرفـــق :

الرفق صفة من أبرز الصفات الأخلاقية التي يجب على المسلم أن يتصف بها وإذا كان الرفق مطلوبا في كل شيئ فهو في حق أهل العلم أولى لأنه من باب وضع الشيئ في مكانه. وقد أكد الخطيب على خلق الرفق وطالب كلا من العالم والمتعلم بضرورة التحلي به، لأنه منبع كل خير ولأنه صفة من صفات الله العظمى، روى الخطيب عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطى على العنف»[4]، وعن جرير بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ : «من يُحْرَمْ الرفق يُحْرَمْ الخير»[5].

والواقع أن الرغبة في العلم كانت تدفع بعض طلبته إلى إضجار العلماء بكثرة الأسئلة والإلحاح في الاستزادة من العلم، الأمر الذي يتسبب في تبرم العلماء وضيقهم بمثل هؤلاء الطلاب ومن العلماء من كان يسيئ معاملة الطلاب ومنهم من كان يكتفي بالتلويح واتباع اسلوب التهديد على أمل أن يكف الطلاب عن مظايقته في كل وقت وحين وفي ذلك يروي الخطيب عن محمد بن سيرين أنه قال لرجل ألح عليه في مسألة وهو يهم بالقيام من مجلسه

(١) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج٢، ص١١٤ .

(٢) الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٩٤ .

(٣) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق) ، ص٦٩٧ .

(٤) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج ٢ ، ص١٣٧ .

(٥) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج ١ ، ص٣٥٤.

«إنك إن كلفتني مالم أطلق ساءك ما سرك مني من خلق».[1]

ولذلك يقول الخطيب : يجب أن لا يتمادى الطالب في الالحاح على العالم، بل يكتفى بما حصله على أمل أن تتاح له فرصة ثانية في مجالس تعليمية تالية وفي ذلك يقول: «إذا أجاب المحدث -المعلم- الطالب إلى مسألته وحدثه، فيجب أن يأخذ العفو ولا يضجره»[2] وعلى المحدث الرفق والمداراة والاحتمال[3] لما جاء عن سفيان بن وكيع قال: قال أبي «من أراد أن يحدث فليصبر وإلا فليسكت».[4] وفي الموضع نفسه يقول الخطيب إن على العالم أن يستقبل الطلبة بالترحاب والبشر وإظهار المحبة والود[5] وأن لا يتميز عنهم ويحسن الخلق والرفق بهم[6] لأن ذلك «مما يصفى منهم المودة ويلقي في قلوبهم المحبة»[7] كذلك ينبغي للعالم «أن يعود لسانه لين الخطاب والملاطفة في السؤال والجواب».[8]

٥ - النصيحة :

تعد النصيحة المخلصة من أهم الواجبات الدينية التي يجب الوفاء بها، كما أنها من أسمى الصفات الخلقية التي يتعين على المسلم أن يتحلى بها في خلقه ومعاملاته وقيامه بمسئولياته تجاه أهله ومجتمعه[9]، وقد أولت السنة التناصح أهمية خاصة عندما جعلته عنوان الدين الصحيح، روى الخطيب بسنده عن سليمان بن الأشعث حديثا طويلا جاء فيه أن رسول الله ﷺ قال : «إنما الدين النصيحة»[10] وعن ابن عباس أنه قال : «إخواني تناصحوا في العلم فإن خيانة الرجل في العلم أشد من خيانة المال»[11]، وغير ذلك من الأحاديث

---

(١) المرجع السابق، ج ١، ص٢١٥ .
(٢) المرجع السابق، ج ١، ص٢١٤ .
(٣) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق)، ج٢، ص١٥٠ .
(٤) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٣٥٥ .
(٥) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق)، ج٢، ص١١٦ .
(٦) المرجع السابق، ج٢، ص١١٧ .
(٧) المرجع السابق، ج ٢، ص١١٨ .
(٨) المرجع السابق، ج ٢، ص١١٣ .
(٩) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق)، ص٧١١ .
(١٠) الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢، ص٢٩٠ .
(١١) المرجع السابق، ج ٢، ص١٥٠ .

والآثار التي تدل كلها على أهمية النصيحة والتناصح، وضرورة التخلق بها أداء للواجب في إصلاح الفرد والمجتمع.

٦ - الصـــــدق :

الصدق صفة من صفات المؤمنين وهو خلق من أخلاق الرسل والأنبياء والصالحين، وهو طريق إلى الجنة وعامل في طمأنينة النفس وراحة الضمير، لذلك أكدت التربية الاسلامية على خلق الصدق في جميع أقوال المرء وأفعاله «وفي سريرته وعلانيته، تجاه ربه تعالى ونفسه وأهله والناس أجمعين»(١)، وقد جرم الرسول ﷺ الانسان الذي لا يتحرى الصدق، وعده آثما كذابا، عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ قال: «من روى عني حديثا يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»(٢).

إن هذا التحذير الشديد اللهجة والقاطع في توكيده يحتم على الانسان وجوب تجنب الكذب ورواية الغرائب والمناكير(٣) ويقول الخطيب إن على العالم «أن لا يروى شيئا من الاخبار المصنوعة والأحاديث الباطلة الموضوعة، فمن فعل ذلك باء بالاثم المبين ودخل في جملة الكذابين»(٤). ومن الأحاديث والآثار التي يسوقها الخطيب حول ضرورة تحري الصدق واجتناب الكذب الحديث المروي عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن أحدكم ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب صدِّيقاً، ويكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب كذابا»(٥)

ولقد كان من نتائج الحرص من الكذب والتحوط في الدين أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا عندما يحدثون يبدون وكأنهم يعانون من سكرات الموت أو الآلام المبرحة من شدة ما ينتابهم خوف الكذب على الله ورسوله ﷺ، وهذا عمرو بن ميمون فيما يرويه الخطيب عنه يقول: «ما سمعت قط عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وهو يحدث يقول: قال رسول

---

(١) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق)، ص٦٩٩.
(٢) الخطيب البغدادي (مرجع سابق)، ج٢، ص٩٨.
(٣) المرجع السابق، ج ٢، ص١٠٠.
(٤) المرجع السابق، ج ٢، ص٩٨.
(٥) المرجع السابق، ج٢، ص٧.

الله ﷺ : إلا مرة فنظرت إليه- وقد حل إزاره وانتفخت أوداجه واغرورقت عيناه- فقال: أو فوق ذلك أو دون ذلك أو قريب من ذلك أو شبه ذلك»[١] ومن أجل المحافظة على خلق الصدق يرى الخطيب أن الأولى بالعالم ألا يحدث إلا من كتابه ليسلم من الوهم والغلط وليكون بعيداً عن الخطأ.[٢]

٧ - الدقـــة والتوثيـــق :

يحرص الاسلام على صدق المصدر وصفائه وأن لا يؤخذ العلم إلا من أهله. ولذلك فقد تشدد العلماء في موضوع التوثيق والدقة والضبط ورأوا لذلك الأمر أخذ العلم عن أهله وترك الرواية والسماع ممن لا يعرف أحكام الرواية وإن كان مشهوراً بالصلاح والعبادة، فضلاً عن وجوب تجنب السماع من أهل البدع والأهـــواء[٣] ، روى الخطيب عن أيوب السختياني أنه قال: كان لي جار «بالبصرة ماأكاد أقدم عليه بالبصرة أحدا لو شهد عندي على فليس أو تمرتين لم أجز شهادته»[٤] ، ومعنى هذا أن أيوب رحمه الله يركز على أهمية الدقة والضبط، ولما كان جاره لا يضبط الأمور ولا يتحرى الدقة فيها مع كونه صالحا حسن السيرة لذلك لم يره جديراً باعتماد قوله وانفاذه حتى وإن كان قوله بخصوص تمرتين فما بالك بقوله في أمور الدين؟

كذلك تكره الرواية عن المستاهلين في أمور التوثيق والضبط[٥] عن مالك بن أنس أنه قال : «لا يؤخد العلم عن أربعة ويؤخذ ممن سوى ذلك، لا يؤخذ من سفيه مُعْلَن بالسفه وإن كان أروى الناس، ولا يؤخذ من كذاب يكذب في أحاديث الناس إذا جرب ذلك عليه، وإن كان لا يتهم أن يكذب على رسول الله ، ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من شيخ له فضل وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدّث»[٦]. وهذا التوثيق وتلك الدقة كانا حافزين للعالم للأخذ من أكثر من شيخ حرصا من العلماء على غربلة الحديث وتمييز صحيحه من سقيمه،

---

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٨ - ٩ .
(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص١٠ .
(٣) المرجع السابق ، ج ١ ، ص١٣٨ .
(٤) المرجع السابق ، ج ١ ، ص١٣٩ .
(٥) المرجع السابق ، ج ١ ، ص١٤٠ .
(٦) المرجع السابق ، ج ١ ، ص١٣٩ .

فكان بعض طلبة العلم يستحبون سماع الحديث الواحد «من الشيخين والأكثر ويرى أن ذلك الفعل أصوب وإلى ثبوت المروي وصحته أقرب»[1] وكان محمد بن سيرين يقول «التثبت نصف العلم»[2] ولذلك كان الصحابة يتمنى كل واحد منهم لو أن صاحبه كفاه الفتوى تورعاً، وخوفا من الوقوع في الخطأ[3] وعلي كل حال فقد كان هذا هو موقف العلماء من المسائل الشرعية، أما الفتوى فيما يتعلق بحياة الناس وأمور معاشهم فليس الحال فيها كذلك لقول الرسول ﷺ : «أنتم أعلم بشئون دنياكم»[4].

٨ - احترام العالم وتوقيره :

يعد تعظيم العلماء تعظيماً للعلم الذي يحلمونه في صدورهم ولذلك كان من سنة السلف الصالح تقدير أهل العلم وتوقيرهم والثناء عليهم، وقد روى الخطيب في ذلك أقوالا كثيرة منها «أن عطاء بن أبي رباح كان إذا حدث عن ابن عباس قال : حدثني الحَبْرُ »[5] وعن مسروق« أنه كان إذا حدث عن عائشة قال : حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله المبرأة»[6] وكان وكيع يقول: «حدثنا سفيان أمير المؤمنين في الحديث»[7]. وفي الحديث الشريف عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : «البركة مع الأكابر»[8]، وعن زر عن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ :«ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا »[9].

ومن هذه الأقوال وغيرها ترى أن العلم في الاسلام كان سلوكا حيا يتمثل في أخلاق العلماء وينعكس على أفعالهم وأقوالهم، وقد بلغ المسلمون من إجلالهم للعلم وتقديرهم للعلماء أن أحدهم كان لا يتقدم في سيره من هو أكبر منه سنا أو أكثر علما، احتراما منهم

---

(١) المرجع السابق، ج ٢ ، ص٢١٥ .

(٢) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية (مرجع سابق) ، ص١٦٦ .

(٣) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج ٢ ، ص١٦٦ .

(٤) مسلم بن الحجاج القشيري صحيح مسلم : كتاب الفضائل ، ج ٢ ، استانبول: دار الدعوة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص١٨٣٦ .

(٥) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢، ص٨٥ .

(٦) المرجع السابق، ج ٢ ، ص٨٥ .

(٧) المرجع السابق، ج ٢ ، ص٨٦ .

(٨) المرجع السابق، ج ١ ، ص١٧٠ .

(٩) المرجع السابق، ج ١ ، ص١٨٢ .

وتقديراً للعلماء ، وقد روى الخطيب في ذلك عن إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة عن أبيه أنه قال : «رأيت الحسن بن عمار وأبي انتهيا إلى قنطرة فقال لأبي، تقدم ، فقال: أتقدم: ؟ تقدم أنت، فانك أفقهنا وأعلمنا وأفضلنا»[1] وكان يحيى بن يحيى واسحاق بن راهوية «يعودان مريضا فلما حاذيا الباب، تأخر إسحاق وقال ليحيى ، تقدم، فقال يحيى لإسحاق تقدم أنت، قال يا أبا زكريا أنت أكبر مني قال نعم، أنا أكبر منك وأنت أعلم مني فتقدم إسحاق».[2]

كذلك من آداب الاحترام التي يوجه الخطيب إليها طلبة العلم ويؤكد على ضرورة تحليهم بها توقير العالم بالقيام له وتعظيمه في خطابه بنسبته إلى العلم، وتفديته بالنفس[3]. فقد جاء في الحديث الشريف عن أبي سعيد الخدري «أن بني قريضة لما نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، أرسل إليه رسول الله ﷺ فجاء على حمار ، فلما دنا من المسجد ، قال رسول الله ﷺ : قوموا إلى سيدكم أو إلى خيركم»[4]

ولما كان القيام مدعاة إلى الغرور والكبر من بعض الناس فقد علمنا الرسول ﷺ السلوك الذي ينبغي اتباعه تفاديا للوقوع في المحذور، ومن ذلك ما رواه الخطيب حول حديث الرسول ﷺ : «من أحب أن يُمَثِّلَ له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار» وقد علق الخطيب على ذلك بقوله: «كل من أحب أن تقوم له فلا تقم وكل من قمت إليه لك فيه تفرج»[5]، وعلى كل حال فإن من أسباب ضياع بركة العلم والعياذ بالله وعدم انتفاع كثير من طلبته بما يتعلمون ما يرجع في بعض أسبابه إلى عدم احترام العلم وتوقير أهله، وذهاب هيبته وأثره من النفوس مما أضعف تأثيره في توجيه المتعلم، وهو ما لم يكن حاصلا في عصور صدر الاسلام الأولى حيث بارك الله في العلم وأزكى من أثره وتأثيره في حياة الأفراد والمجتمعات حتى بلغت الامة الاسلامية شأوا بعيداً في تقدم العلم والحضارة إبان أعصر ا زدهارها الأولى

---

(١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص١٧١ .
(٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص١٧١ .
(٣) المرجع السابق ، ج ١ ، ص١٨٣ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٨٥ .
(٥) المرجع السابق ، ج ١ ، ص١٨٧ .

وامتداد ظلها على أكبر مساحة وأكثرها أهمية وخطرا في العالم المتمدين أنذاك.

٩ – تجنب الغضب :

الغضب انفعال حاد يغطي البصيرة ويحد من قدرة العقل على رؤية الأمور كما يجب وبالتالي إصدار الأحكام الصحيحة عليها، وقد أكدت السنة النبوية على ضرورة مجاهدة النفس وضبط جماح الغضب والتحكم في الانفعال حتى لا يرتكب الانسان خطأ يندم عليه طول حياته وقد روى الخطيب عن بعض الأنصار أنه قال: «رأس الحمق الحدة ورائده الغضب ومن رضى بالجهل استغنى عن الحلم، الحم زِيْنٌ ومنفعة والجهل شِيْنٌ ومضرة..»[١] ويقول عبدالله بن المعتر: «شدة الغضب تُعَثِّرُ المنطق، وتقطع مادة الحجة وتفرق الهم..»[٢]، ويوجه الخطيب العالم إلى تجنب الصياح والفُحْشِ في الخصومة واللجاج لأن ذلك عنده «من أخلاق السفهاء ومن لا يتأدب بآداب العلماء».[٣]

وبعد فهذه جملة من الصفات والأخلاق المحمودة والتي أوردناها مورد المثل، ولم نهدف منها إلى حصر هذه الصفات أو استقصائها، وإلا فهناك بالتأكيد عشرات الأمثلة التي يزخر بها فكر الخطيب التربوي، ويشتمل على آداب هذه التربية وأهدافها، هذا بالاضافة إلى الأخلاق والصفات الحميدة الأخرى ومنها الحياء، والصبر والمروءة والاستقامة والقناعة والكرم والشجاعة وغيرها، وهي صفات تتكامل مع مختلف جوانب هذا الفكر، ومضامينه التربوية لتشكل في النهاية صورة الفكر التربوي عند الخطيب.

٣ – أساليب التربية الخلقية عند الخطيب :

اعتمدت التربية الخلقية عند الخطيب أساليب تربوية ألمحنا إلى بعضها، ويمكن أن نجملها هنا في الأساليب التالية :

أ – الأسوة الحسنة.

ب – العبادة.

---

(١) الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه (مرجع سابق)، ج٢، ص٣٦.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٣٦.

(٣) المرجع السابق، ج٢، ص٣٥.

ج - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

د - الممارسة والتطبيق .

هـ - الوعظ والتذكير .

و - ضرب الأمثال .

وهي أساليب اهتم بها الخطيب وعول عليها كثيراً في تقويم الخلق وتعديل السلوك على ما بينا وتعد من الظهور والوضوح بحيث لا نحتاج إلى استعراضها كلها، خاصة وأن الخطيب لم يكد ينسى شيئاً من تفاصيل السلوك السوى والخلق القويم ، والأدب الرفيع الذي يعمل على حسن التربية، وكما ل الأدب والتهذيب إلا بينه وأرشد إليه.

ثالثا : التربية الإجتماعيـــة :

التربية ضرورة إجتماعية للمحافظة على إنسانية الأجيال وتواصلها ، وبدون هذه التربية، قد تذبل المجتمعات وقد تذوب وتضمحل بل وتزول من الوجود[1] ، ويعد الجانب الاجتماعي في التربية الاسلامية أحد الجوانب الهامة التي تعمل على تشكيل الانسان المسلم، وإعداده الإعداد المتوازن ليكون إنساناً صالحاً عابداً لله تعالى عاملاً بما يرضي الله ورسوله ﷺ ، منتجا ، نافعاً لنفسه ولمجتمعه، من خلال تربيته وغرس الفضائل الاجتماعية فيه.

وتعتبر التربية الاجتماعية بما تتضمنه من دوائر وعلاقات إجتماعية، وما تسعى إلى تحقيقه من أهداف تربوية وغايات انسانية نبيلة أحد المجالات التي اهتم بها الخطيب وفيما يلي نستعرض أهم أهداف التربية الاجتماعية عند الخطيب مع ذكر أهم دوائر العلاقات والآداب الاجتماعية المرعية :

١ - أهداف التربية الاجتماعية عند الخطيب :

نستطيع تلخيص أهم الاهداف الاجتماعية المتضمنة في التربية الاجتماعية عند الخطيب فيما يلي: [2]

---

(١) محمد لبيب النجيحي : الاسس الاجتماعية للتربية . ط٧، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٨م، ص١٢ .

(٢) انظر : الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ، ج١، ص٨٧- ٩٠، ج٢، ص٢٢٨-٢٤٢. الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢، ص٢٥- ٢٨.

أ - بناء العلاقات الاجتماعية الحميمة بين أفراد الأسرة المسلمة على أساس من تقوى الله تعالى ومن الحب والمودة والعطف والتضحية والتسامح والبر.

ب - الحث على بر الوالدين والاحسان اليهما.

ج - الحث على العمل والاسهام في تطوير الفرد والمجتمع من خلال العمل الشريف.

د - حفظ التراث وتنميته سواء على المستوى الأخلاقي أو الاجتماعي أو الاقتصادي.

هـ - تنمية الاحساس بروح المسئولية الفردية والجماعية والتأكيد عليهما في بناء الأمة.

و - العمل على إعداد الانسان إعدادا متوازناً يشمل كل جوانب حياته العقلية والاجتماعية والخلقية والانفعالية دونما إفراط أو تفريط.

٢ - دوائر العلاقات الاجتماعية عند الخطيب:

تعد العلاقات الاجتماعية أحد المرتكزات الأساسية الهامة التي يعرف من خلالها مدى صلاح الشخصية الانسانية واتزانها من فسادها، واضطرابها، كما أن «العلاقات الاجتماعية هي الوشائج المتشابكة التي تربط الفرد بالآخرين سواء أكانوا أعضاء أسرته أو حيه أو عشيرته أو مجتمعه الكبير أو البشرية عامة، وتشده إليهم وتحمله تجاههم واجبات لابد من أدائها ومسئوليات لا مناص من القيام بها، وتجعل له عليهم حقوقا لابد من الإيفاء بها، وتحدد له دوره الاجتماعي الذي يجب أن يلعبه بفعالية حتى يشارك في تطوير الحياة الاجتماعية مشاركة إيجابيه».[(١)]

وفيما يلي نناقش بشيئ من الإيجاز دوائر العلاقات الاجتماعية التي اهتم الخطيب بها ورأي أنها كفيلة بحسن التكيف النفسي والاجتماعي للفرد مع البيئة والمجتمع ونجاحه فيه.

أ - التوجيه المهني للتربية عند الخطيب :

الأصل في العمل عند الخطيب أنه ثمرة العلم[(٢)]، وهو في الوقت نفسه تكريم للانسان وتشريف له، ومن كرامة هذا الانسان «أن يصونها بالعمل، فإن الاستجداء يتدلى بصاحبه

---

(١) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق) ص٧٧٩- ٧٨٠ .

(٢) الخطيب البغدادي : اقتضاء العلم العمل (مرجع سابق) ، ص١٤ .

ويذهب بهيبته وينحط به إلى الحضيض النفسي».[1] وقد أورد الخطيب أحاديث كثيرة تدعو إلى العمل وتحث على تطبيقه فهو يرى أن «العلم والد والعمل مولود والعلم مع العمل والرواية مع الدراية»[2] ومما رواه في هذا المعنى أن الرسول ﷺ كان إذا نظر إلى رجل فأعجبه قال: «هل له حرفة؟ فإن قالوا: لا، قال: سقط من عيني، قيل وكيف ذاك يارسول الله؟ قال: لأن المؤمن إذا لم يكن ذا حرفة تعيش بدينه..»[3] وفي هذا الحديث تقرير لقاعدة هامة في الاسلام «وهي أن كرامة الانسان تدعو لأن يعمل لا أن يترك العمل، وهو ما ابتلى به بعض المسلمين في العصور التي لم يبق فيها من الاسلام إلا القليل...».[4]

وقد أدرك الخطيب قيمة العمل وأهميته للانسان، وهو في حثه على العمل يسترشد بأقوال رسول الاسلام عليه الصلاة والسلام وهدي الصحابة والعلماء الصالحين، فقد روى عن الثوري أنه قال: «عليك بعمل الأبطال، الكسب من الحلال والانفاق على العيال»[5]، كما روى الخطيب عن سفيان الثوري أنه «كان إذا أتاه الرجل يطلب العلم سأله: هل لك وجه معيشة؟ فإن أخبره أنه في كفاية، أمره بطلب العلم وإن لم يكن في كفاية أمره بطلب المعاش»[6]، وكان عبيد بن جناد يقول لأصحاب الحديث «ينبغي للرجل أن يعرف من أين مطعمه وملبسه ومسكنه وكذا وكذا ثم يطلب العلم».[7] ويقول الخطيب إن الطالب إذا لم يكن له من يتولى الانفاق على أهله وعياله، مطالب بالتكسب والعمل وأن لا ينقطع عن معيشته ويشتغل بطلب العلم عن الاحتراف لنفسه ولعياله[8]، فقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح»[9].

---

(١) محمد الشاذلي النيفر: «أسس التربية الاجتماعية في الاسلام» بحث مقدم لندوة خبراء أسس التربية الاسلامية المنعقدة في مكة المكرمة، في المدة من ١١- ١٦/٦/١٤٠٠هـ، ص٥.

(٢) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ص١٤.

(٣) الخطيب البغدادي: الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٩٨.

(٤) محمد الشاذلي النيفر (مرجع سابق)، ص٥.

(٥) الخطيب البغدادي: (مرجع سابق)، ج١، ص٩٨.

(٦) المرجع السابق، ج ١، ص٩٨.

(٧) المرجع السابق، ج ١، ص٩٨.

(٨) المرجع السابق، ج ١، ص٤٧.

(٩) المرجع السابق، ج٢، ص٤٧.

من هذه الأقوال وغيرها نجد حث الخطيب على العمل وبيان دوره في حياة الفرد والمجتمع، وقد بينا فيما تقدم أهمية العمل بالنسبة للعلم وأن العمل مقدم على الطلب فيما لا تتوقف عليه أعمال العبادات، ونضيف هنا أن التوفيق بين العمل وطلب العلم مبدأ يأمر به الخطيب وهو من الأهمية عنده بمكان كبير، كما أوضحنا ، ويبدو أن ظروفا معيشية واجتماعية معينة فرضت نفسها على طلبة العلم في زمان الخطيب، جعلت من الصعب على الطلبة التوفيق بين الطلب والانقطاع للعمل، وقد انعكس ذلك الواقع على المستوى الاجتماعي لطلبة العلم، حيث كان الطلبة يعيشون عيشة ضنكا جعلت البعض يصف طلب العلم بحرفة المفاليس[1] ويقول آخرون «لا تدخل هذه المحابر بيت رجل إلا أشقى أهله وولده»[2]

والحق أن هذه الأقوال وغيرها إنما أراد بها قائلوها النصح لأصحاب الحديث الذين يشتغلون بالعلم عن معاشهم، فيصبحون عالة على المجتمع وهو ما لا يقره الاسلام، وخلاصة الأمر أن المرء مطالب بأن يأخذ من العلم بقدر الطاقة وأن يحترف في نفس الوقت خوف الحاجة والفاقة.[3]

ب – طلب العلم والتبعات الأسرية :

تقدم معنا ما ذكره الخطيب من أقوال العلماء في طلبة العلم الذين شغلتهم كتابة الحديث والعناية به عن كسب معاشهم، ولما كان ذلك العمل من شأنه أن يحرم أهل الطالب من رعايته لهم فإن الخطيب يفضل حياة العزوبة لمن سيكون ذلك مآله حتى لا يشقى أهله، فيقول «المستحب لطالب الحديث أن يكون عزبا ما أمكنه ذلك، لئلا يقتطعه الاشتغال بحقوق الزوجيه، والاهتمام بالمعيشة».[4]

وقد طبق الخطيب هذا المبدأ على نفسه، فلم يؤثر عنه أنه تزوج في حياته حتى لقى الله من غير أن يشغله شاغل أو يصرفه عائق عن طلب العلم وتحصيله[5] ، ولا غرو أن هذا

---

(١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص١٠٠ .
(٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص١٠١.
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٩٩ .
(٤) المرجع السابق، ج١ ، ص١٠١ .
(٥) المرجع السابق ، ج ١ ، ص١٠١ ، ١٠٢ .

العمل من الخطيب وإن كان بهدف التفرغ لطلب العلم، إلا أنه مخالف لسنة الرسولﷺ، وخاصة في حق القادر على الزواج، كما أنه عمل مصادم للفطرة التي فطر الله الناس عليها وهو عمل لا يمكن اعتباره ضد طلب العلم على طول الخط بدليل ذلك العدد الكبير من العلماء الأجلاء الذين استوفوا العلم وبنوا مع ذلك حياة أسرية ساعدتهم على طلب العلم وزيادة التحصيل ولا يغني عن موقف الخطيب رحمه الله من هذه القضية ما ذكره من أقوال العلماء التي تؤكد وجهة نظره في العزوبة لطالب العلم الذي ينبغي له أن لا يتردد في اختيار الوحدة وتفضيل حياة العزوبة على الارتباط بالزوجة والأولاد ، ومما يرويه الخطيب في ذلك قول سفيان الثوري «إذا تزوج الرجل ركب البحر، فإذا ولد له كسر به».[1]

ويقول الخطيب مؤيداً تلك الفكرة أن الطالب إذا كان «عزبا فآثر الطلب على الاحتراف فإن الله تعالى يعوضه ويأتيه بالرزق من حيث لا يحتسب»[2] ، وقد جاء عن إبراهيم النخعي أنه قال : «من ابتغى شيئا من العلم يبتغي به وجه الله آتاه الله منه ما يكفيه».[3] وليس في قول الخطيب السابق ما يتناقض مع مبدأ العمل الذي حث عليه، لأن تفضيل طلب العلم هنا محمول على أهمية التفرغ للعلم بالنسبة لمن لا تضطره ظروف معيشته إلى العمل والاحتراف الذي قد يبتعد به عن أجواء التعليم، بل إن الخطيب نفسه يدعو صراحة إلى ضرورة الجمع بين طلب العلم والعمل وذلك بأن يخصص الطالب جزءا من وقته ولو كان يسيرا للعمل في مجالات الحياة كالتوريق وغيره.[4]

نخلص مما سبق إلى أن الوفاء بالحقوق الأسرية والزوجيه من المهام الواجب رعايتها عند الخطيب حتى وإن كانت على حساب طلب العلم الذي جعله الله فريضة على كل مسلم ومسلمة، لذلك ليس من المقبول أن يترك الرجل زوجته وأولاده يشقون في دروب الحياة ويذهب هو متحللا من جميع مسؤلياته، لطلب العلم، وهذه المعادلة الصعبة هي التي حدت بأحد العلماء إلى القول بأن الطالب لن يصبر على هذه الحالة الصعبة إلا إذا «آثر العلم على ماعداه ورضى به عوضا من كل شيئ سواه»[5] ولذلك كان من العلماء من يفضلون التضحية

---

(١) المرجع السابق ، ج١، ص١٠٣ .

(٢) المرجع السابق ، ج١، ص١٠٤ .

(٣) المرجع السابق ، ج١، ص١٠٤ .

(٤) المرجع السابق ، ج١، ص١٠٤ .

(٥) المرجع السابق ، ج١، ص١٠٥ .

بترك طلب العلم والارتحال في سبيله، حتى يتفرغوا لرعاية أسرهم وأبنائهم وذو يهم، إدراكا منهم لأهمية الدور الذي يؤدونه في خدمة المجتمع والمحافظة على وحدة بنائه. لقد أدرك هؤلاء العلماء عظم المسئولية الاجتماعية الملقاه على عواتقهم، فصدق فيهم المثل القائل «من عَلِمَ ما طلب هان عليه ما بذَلَ».[1]

ج- علاقة الولد بالوالديـــن :

أوجب الاسلام على الأبناء البر بالآباء والأمهات، والبر كلمة جامعة لكل خير، وحذر الأبناء من العقوق، والعقوق كلمة جامعة لكل شر، عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الاشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس، فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور، فمازال يكررها حتى قلنا : ليته سكت»[2]. وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس[3] »[4].

وقد اعتبر الاسلام عدم مراعاة شعور الأبوين مظهرا من مظاهر العقوق لأن أي كلمة أو إشارة تفيد ضجرا منهما أو من أحدهما تعتبر معصية ولو كانت كلمة «أف» كما قال تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تبعدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً، ربكم أعلم با في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾[5] وتعد هذه الآيات جامعة ومشتملة على جميع الحالات التي يكون عليها

---

(١) المرجع السابق ، ج١، ص١٠٦ .

(٢) أحمد بن حنبل (مرجع سابق) ، ج٥ ، ص٣٨ .

(٣) اليمين الكاذبة كالتي يترتب عليها الاضرار بالآخرين، انظر: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الاثير: النهاية في غريب الحديث والاثر. ج٣ (تحقيق الطاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الصناحي)، بيروت : دار الفكر (ب.ت)، ص٣٨٦ .

(٤) الحافظ أبوعبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي : سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الامام السندي - كتاب القسامة، ج٨، استانبول: دار الدعوة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٦٣ .

(٥) سورة الاسراء ، آية (٢٣- ٢٥) .

الآباء والأبناء في الهدوء والانفعال، وهي كلها تؤكد البر بالوالدين وحسن الصحبة والطاعة، وخفض الجناح والرحمة وعدم العقوق أو الاساءة بقول أو عمل أو إشارة. ونحن نجد أن من رحمة الله بالأبوين أنه جعل الاحسان إليهما والبر بهما قضية إنسانية عامة، قال تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا﴾(١). وقال تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا..﴾(٢) فلم يقل ووصينا الانسان المسلم أو المؤمن، لأن الأدب مع الوالدين والاحسان إليهما أمر إنساني عام.(٣)

وتوجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على البر بالوالدين والعطف عليهما كما تزخر السنة النبوية بالعديد من الأحاديث التي تُبَيّنُ الموقف من بر الوالدين وطاعتهما والأمر بالاحسان إليهما، ونورد فيما يلي من الأدلة ما يؤكد المعاني السابقة ويزيدها وضوحاً. جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة لوقتها، قلت ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلت ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله»(٤). فقد جعل رسول الله ﷺ البر بالوالدين من أجل الأعمال وأفضلها، وبين أن رتبته في الثواب تأتي بعد الصلاة التي هي عماد الدين، وقدمه على الجهاد في سبيل الله تعالى، وقد جاء في الحديث عن عبدالله بن عمرو بن العاص «أن رجلا أتى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهال، فقال: أحي والداك؟ قال: نعم، قال رسول الله ﷺ: ففيهما فجاهد»(٥). وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: إني جئت لأبايعك على الهجرة وتركت أبوي يبكيان، قال: فارجع إليهما فاضحكهما كما أبكيتهما»(٦). وعن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحزن والديه فقد عقهما»(٧). كما جاء في الحديث عن أنس ابن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنة تحت أقدام الامهات»(٨)، كذلك روى الخطيب بسنده أن جَاهِمَةَ

---

(١) سورة النساء، آية (٣٦).
(٢) سورة الاحقاف، آية (١٥).
(٣) عفيف عبدالفتاح طبارة: الحكمة النبوية كما تتجلى في أحاديث رسول الله ﷺ. ط٢، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٦م، ص١٥٧.
(٤) أحمد بن حنبل (مرجع سابق)، ج ١، ص٤٥١.
(٥) الخطيب البغدادي (مرجع سابق)، ج٢، ص٢٢٩-٢٣٠.
(٦) المرجع السابق، ج ٢، ص٢٣٠.
(٧) المرجع السابق، ج ٢، ص٢٣١.
(٨) المرجع السابق، ج ٢، ص٢٣١

السلمي رضي الله عنه «أتى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، قال: ألك والدة؟ قال: نعم، قال: فالزمها فإن عند رجليها الجنة وفي مقاعد شتى»[1]، وقال أنس لرجل جاء يستأذنه في سفر لم يوافق عليه أبواه: «أرجع إلى أبويك فبرهما وأصحبهما فإنك لن تصيب كسبا خيرا منه»[2]

هذه بعض الآيات والأحاديث التي تأمر ببر الوالدين وطاعتهما والاحسان اليهما وهي كثيرة معروفة وخاصة من طلبة العلم الذين كانوا من أكثر الفئات تحرجاً ألاّ يستطيعوا الوفاء ببر الوالدين نظرا لانصرافهم إلى طلب العلم وارتحالهم في سبيله، وقد أوجب بعض العلماء الرحلة في طلب العلم حتى بغير إذن الأبوين وقالوا: «ليس لأبوي الرجل الذي يرحل في طلب العلم طاعة»[3]. ولا شك أن طاعة الأبوين أوجب من الرحلة في طلب العلم لأن الله إنما أوجب البر ولم يوجب الارتحال والتغرب وكل ما أوجبه تعالى وأمر به عبده أن يتعلم على قدر طاقته واستعداده ما يستقيم به أمر دينه ودنياه، مما فرض الله عليه ليكون أهلا للتكريم والتمييز عن باقي المخلوقات. يقول الخطيب: «الطلب المفروض على كل مسلم إنما هو طلب العلم الذي لا يسع جهله، فتجوز الرحلة بغير إذن الأبوين إذا لم يكن ببلد الطالب من يعرفه واجبات الاحكام وشرائع الاسلام، أما إذا كان قد عرف علم المفترض عليه فتكره له الرحلة إلا بإذن أبويه»[4]، وفي حالة تمسك الأبوين بعدم الموافقة على سفر ابنهما، فإن الخطيب يوجه الطالب إلى ضرورة «مداراتهما والرفق بهما حتى تطيب له أنفسهما ويسهل من أمره ما يشق عليهما».[5]

وهكذا يتضح مدى حرص الخطيب على الرحمة بالوالدين وبرهما والاحسان إليهما والرفق في معاملتهما، وطاعتهما، وخفض الجناح لهما ومداراتهما، والرفق بهما في جميع الأحوال والمناسبات، وهذه هي نظرة الاسلام إلى الوالدين، إنها نظرة عطف وبر ورحمة وتقدير، فالاحسان إليهما فيه أعظم الأجر عند الله كما أن عقوقهما مجلبة لسخط الله وعذابه في الآخرة والعياذ بالله.

---

(١) المرجع السابق، ج ٢، ص٢٣١.

(٢) المرجع السابق، ج ٢، ص٢٣٤.

(٣) المرجع السابق، ج ٢، ص٢٢٨.

(٤) المرجع السابق، ج ٢، ص٢٢٨.

(٥) المرجع السابق، ج ٢، ص٢٢٨.

د – العلاقـــة بالأصدقـــاء :

يجب أن تبنى علاقة الفرد بأصدقائه على «الحب المخلص في الله تعالى، يجتمعون عليه ويتفرقون عليه، ويتناصحون بالخير والهدى، ويأتمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكر ويتعاونون على البر والتقوى»(١). وقد تنبه الخطيب إلى أهمية الصداقة وأثرها في تعميق المودة والتواصل بين الأصدقاء، لذلك نجده يوصي طالب العلم باختيار الصديق، وأن يكون ممن يشاركه الميول والاتجاهات وأن يكون ممن «يشاكله ويوافقه على غرضه ومطلبه»(٢)، لأن «الرفيق بمنزلة الرقعة من الثوب إذا لم تكون مثله شانته»(٣)، كما أن الأصدقاء يجب أن يكونوا من ذوي التقوى والاستقامة والخلق الرفيع والسلوك القويم، عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ : «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»(٤).

وقد حثت سنة المصطفى ﷺ على حسن اختيار الأصدقاء كما بينت كيفية تقويم الصداقة وإحكام وشائجها في كل مناسبة تجمع بين الأصدقاء، فعندما يهم المرء مثلاً بالسفر يتعين عليه توديع إخوانه ووصايته إياهم بالدعاء له(٥) عن ابن عباس قال: «من السنة إذا أراد الرجل السفر أن يأتي إخوانه فيسلم عليهم وإذا جاء من سفر يأتيه إخوانه فيسلمون عليه»(٦)، ومن الآداب الاجتماعية التي تنمي الاحساس بالأخوة والتعاطف والمواساة بين الأصدقاء ما ذكره الخطيب عن محمد مُنادر قال : «كنت أمشي مع الخليل بن أحمد فانقطع شسعي(٧)، فخلع نعليه فقلت : ماتصنع؟ قال: أواسيك في الحفاء»(٨) وفي هذا الموقف من المودة واللطف والمواساة الشيئ الكثير بحيث تنتفي المسافات المادية والنفسية بين الأصدقاء ويستحكم الحب، والتقدير بين الاخوان حتى في ظاهر الأمور التي تبدوا من التوافه تصبح

---

(١) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق) ، ص٧٩١ .
(٢) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج٢، ص٢٤١ .
(٣) المرجع السابق ، ج ٢، ص٢٣٥ .
(٤) المرجع السابق ، ج ٢، ص٢٤١ .
(٥) المرجع السابق ، ج ٢، ص٢٣٨ .
(٦) المرجع السابق ، ج ٢، ص٢٤١ .
(٧) الشسع هو : قبال النعل وهو زمام بين الأصبع الوسطى والتي تليها.
(٨) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٢٤٢ .

الأخوة الاسلامية علامة بارزة على طريقة الصداقة الحميمة التي كانت تجعل الزمن كما مهملا ما لم يلتق فيه الأصدقاء، عن سفيان قال: قال إبراهيم «إنه ليطول علي الليل حتى ألقى أصحابي فأذاكرهم».[1]

وقد أورد الخطيب جملة من الآداب التي يتعين على الفرد التحلي بها في السفر والحضر وهي في جملتها متضمنة في المروءة ، فأما مروءة السفر فبذل الزاد وقلة الخلاف على أصحابك وكثرة المزاح في غير سخط الله، وأما مروءة الحضر فإدمان الاختلاف إلى المسجد وتلاوة القرآن وكثرة الأصدقاء والاخوان.[2]

٣ - الاداب الاجتماعيـــة عند الخطيب :

بينا فيما سبق أن العلاقات الاجتماعيـة كلما كانت إيجابية ورفيعة ومبنية على الحب والعطف والتقدير والاجلال كلما زادت الأفراد ترابطا وتقاربا والتزاما ذاتيا في القيام بواجباتهم الشرعية والخلقية والاجتمـاعية كل منهـم حيال الآخر[3] . وسنتكلم فيما يلي على أهم الآداب الاجتماعية التي اعتبرها الخطيب ثمرة من ثمار التربية الصالحة والخلق القويم، فضلا عن كونها أساسا لبناء العلاقات الاجتماعية الناجحة بين أفراد المجتمع ومن هذه الآداب:

أ - آداب اللباس والزينـــة :

حث الخطيب كلا من العالم والمتعلم على التحلي بجملة من الآداب الاجتماعية التي لابد من مراعاتها صونا للخلق وحماية للنفس من أمراض الغرور والكبرياء، ومن هذه الآداب، آدب اللباس والزينة الذي يعتبره الخطيب سلوكا حيويا ، وعملا مطلوبا للمحافظة على صحة الجسم وجمال المنظر الذي يبرز مكانة المرء، ويظهر قدره بين الناس لأن اللباس أحد نعم الله على الانسان وهو أساس مظهره الشخصي وبه يبدو محل احترام الآخرين وتقديرهم ، لذلك يتعين على «المحدث - العالم - أن يكون في حال روايته على أكمل هيئته وأفضل زينته

---

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٢٦٩ .
(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٢٤٢ .
(٣) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق) ، ص٧٨٠ .

ويتعاهد نفسه قبل ذلك بإصلاح أموره التي تجمله عند الحاضرين من الموافقين والمخالفين »[١] لما جاء في الحديث الشريف من أمر بتذوق الجمال وتقديره ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله جميل يحب الجمال »[٢].

لقد تمثل علماء الاسلام هذا الهدى المحمدي الرفيع ، فكانوا يلبسون أحسن الثياب وأجملها[٣] وكانوا مع جمال هيئتهم مثال التواضع والرفق بالناس وقد بين الخطيب رحمه الله أن المرء كما يكره له لبس أدون الثياب مع قدرته على لبس الجديد كذلك يكره له لبس غالي الثياب رفيعها « خوفا من الاشتهار بها وأن تسمو إليه الأنظار فيها ».[٤] ويبدو أن الحكمة من النهي عن لبس الثياب المرفهة ما يمكن أن يداخل النفس الانسانية من الخيلاء والغرور المرذول إلى جانب الآثار السلبية التي تولدها عند الضعفاء والمحتاجين الذين لا يستطيعون في العادة مجارات الأغنياء، والمقتدرين في لبس الثياب الفاخرة واكتمال الزينة.

ولما كان الانسان مطالبا باحترام مشاعر الآخرين كما هو مطالب بالتوسط والاعتدال في كل أموره ، كان عليه أن يحترم مشاعر الآخرين من إخوانه في الانسانية والاسلام وفي ذلك يقول الخطيب : « كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدون فكذلك فاكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة ».[٥]

وقد وجه الخطيب نظر العلماء إلى صفة اللباس وهيئته المطلوبة فقال: إن أحسن الثياب التي ينبغي للمرء لبسها هي الثياب البيضاء[٦]، لقول الرسول ﷺ : « ألبسوا هذه الثياب البيض فإنها أطهر وأطيب وكفنوا بها موتاكم »[٧] ، كذلك ينبغي للعالم أن لا يطيل ثيابه و « أن يكون قميصه مشمرا »[٨] ، لأن ذلك « أنقى للثوب وأنفى للكبر »[٩] . وهذه

---

(١) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج١، ص٣٧٣ .
(٢) المرجع السابق ، ج١، ص٣٧٣ .
(٣) المرجع السابق ، ج١، ص٣٨١ .
(٤) المرجع السابق ، ج١، ص٣٨٢ .
(٥) المرجع السابق ، ج١، ص٣٨٣
(٦) المرجع السابق ، ج١، ص٣٨١ .
(٧) المرجع السابق ، ج١، ص٣٨١ .
(٨) المرجع السابق ، ج١، ص٣٨٣ .
(٩) المرجع السابق ، ج١، ص٣٨٣ .

الاقوال عند الخطيب رحمه الله دالة على حرص شديد واهتمام كبير بنظافة الانسان وجمال هيئته من حيث العناية بشعره وجسده وثيابه واستعماله للطيب وتسريح لحيته وصبغها ولبس النعل والنظر في المرآة واستعمال السواك ولبس القلنسوة والعمامة والخاتم[1]. ويقول الخطيب إن هذا العمل لم يزل «من زي الصالحين وزينة الفضلاء المتدينين... »[2]. وبعد فهذه الآداب وما إليها هي التي يراها الخطيب ضرورية للمرء لكي يكون جميلا في مظهره ومخبره مقبولا لدى الآخرين.

ب – آداب النظافـــــة :

رأينا كيف اعتنى الخطيب بالنظافة الجسمية والشخصية من خلال ذكره لكثير من آداب النظافة المحمودة ، واستكمالا لتلك الآداب نذكر هنا ما أجملناه هناك عن آداب نظافة البدن، فقد روى الخطيب أن من كمال هيئة المرء نظافة بدنه ولا شك أن الفم في مقدمة أعضاء الجسم التي تحظى من الانسان عادة بالنظافة المستمرة والرعاية المتواصلة، لأن الفم عضو شرفه الله بالنطق تلك الخاصية التي تميز الانسان عن غيره من الكائنات، ومن مظاهر هذه العناية ما ذكره الخطيب عن ضرورة السواك للفم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «أمرت بالسواك حتى ظننت أو خشيت أنه سينزل علي فيه قرآن»[3]. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «استاكوا لا تأتوني قلحا لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»[4]. كما أن من آداب النظافة أيضاً التي حث الخطيب على اتباعها قص الأظافر والأخذ من الشارب وحلق العانة ونتف الابط[5] ونظافة الثياب وجدتها وتسكين الشعر واستعمال الطيب وما إلى ذلك مما حثت عليه السنة صراحة أو ضمناً.

ج – آداب الأكل والشـــرب :

يعتبر الأكل والشرب من العناصر الأساسية اللازمة لاستمرار الحياة، خاصة إذا اعتدل

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٨٣ – ٣٩٣ .
(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٧٨ .
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٧٣ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٧٣ .
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٧٥ – ٣٧٧ .

الانسان ولم يسرف في تناولهما، ومن جملة الآداب التي يوجه إليها الخطيب في مجال الأكل والشرب مجموعة حثت السنة النبوية على أهمية التزامها في أكل المرء وشرابه منها:[1]

١) تسمية الله عند بدء الأكل لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم طعاما فليقل بسم الله فإن نسي في أوله فليقل بسم الله على أوله وآخره»[2].

٢) الأكل باليمين لحديث عمر بن أبي سلمة قال: «كنت غلاما في حجر النبي ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصفحة، فقال لي: ياغلام سم الله وكل بيمينك، وكل مما يليك»[3].

٣) الاستواء في الجلوس عند الأكل لحديث أبي جحيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أنا فلا آكل متكئاً»[4] ولعل وجه الكراهة للأكل متكئاً هو مخافة التكبر أثناء الأكل والتشبه بالاعاجم في تعاظمهم وتعاليهم.[5]

٤) الاعتدال في تناول الطعام والشراب لقول الرسول ﷺ: «ماملأ آدمي وعاء شرا من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لامحالة فثلثا طعاما وثلثا شرابا وثلثا لنفسه»[6]

٥) عدم ذم الطعام أو الشراب لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ماعاب رسول الله ﷺ طعاماً قط إن اشتهاه أكله وإن كرهه تركه».[7]

٦) تجنب الشرب المتصل في نفس واحد، عن أنس قال: «كان رسول الله ﷺ: إذا شرب

---

(١) انظر: أبوحامد محمد بن محمد الغزالي: الادب في الدين (قدم له وعلق على حواشيه محمد كامل حسن المحامي) بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة (ب.ت)، ص٥١، ٥٢.

(٢) أحمد بن حنبل (مرجع سابق) ج٦، ص٢٠٨.

(٣) الحافظ أبوعبدالله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني: سنن ابن ماجه، ج٢، (تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي) استانبول: دار الدعوة ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص١٠٧٨.

(٤) الحافظ أبو داود سليمان بن الاشعث السجستاني الازدي: سنن أبي داود - كتاب الاطعمة، ج٤، استانبول: دار الدعوة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص١٤٠.

(٥) حسن أيوب: السلوك الاجتماعي في الاسلام، ط٤، بيروت: دار الندوة الجديدة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٣٧٣.

(٦) الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢، ص١٠٤.

(٧) أحمد بن حنبل (مرجع سابق)، ج٢، ص٤٢٧.

تنفس ثلاث مرات وقال: هو أهنأ وأمرأ وأبرأ)[١]

٧) غسل اليدين بعد الأكل خصوصا إذا كان في الأكل زهم أو دهن كثير.[٢]

٨) تجنب الأكل الذي تكره رائحته لحديث جابر بن عبدالله قال: «نهى رسول الله ﷺ عن البصل والكرات، فغلبتنا الحاجة، فأكلنا منه، فقال النبي ﷺ : من أكل من هذه الشجرة الخبيثة ، فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الإنس)[٣]

٩) حمد الله تعالى وشكره على نعمه وآلائه بعد فراغ المرء من تناول طعامه وشرابه.

د - آداب التحية والسلام :

أصل السلام ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، قال الله تعالى: ﴿فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة﴾[٤] . وقال تعالى : ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾[٥] . كذلك جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام ، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس﴾[٦] . وعن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام».[٧]

ولقد أمر الاسلام بإفشاء السلام بين أفراد الأمة لأنه «من العوامل الإيجابية الفعالة التي تقوي أواصر المودة بين أفراد الجماعة، وتغرس في قلوبهم المحبة والتآلف وتعمق في نفوسهم التآخي والتكامل»[٨] ، ومن هذا المنطلق كان حث الخطيب على التحلي بآداب التحية

---

(١) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق)، ج٢، ص١٢٤ .
أمرأ : أي أجمل انسياغا ، أبرأ : أي أبرأ من العطش وقيل أسلم من مرض أو أذى يحصل بسبب الشرب في نفس واحد.

(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٣٧٧ .

(٣) المرجع السابق ، ج ١ ، ص٣٧٧ .

(٤) سورة النور ، آية (٦١) .

(٥) سورة النساء ، آية (٨٦) .

(٦) أحمد بن حنبل (مرجع سابق) ج٢، ص٥٤٠ .

(٧) المرجع السابق ، ج٢، ص٢٩٥ .

(٨) عبدالحميد الصيد الزنتاني (مرجع سابق) ص٨١٢ .

والسلام، حرصا منه على تحقيق وشائج الأخوة الاسلامية بين أفراد المجتمع، واتصافهم بالخلق الكريم والأدب الرفيع، الذي يجعلهم قدوة حسنة ونموذجا يحتذى ، ومن جملة هذه الآداب نشر السلام بين أفراد المجتمع الاسلامي كبارا وصغاراً إذ يرى الخطيب أن المرء يجب أن «يعم بالسلام كافة المسلمين حتى الصبيان غير البالغين»[1] ، ولا يقف الأمر عنده عند مجرد إلقاء السلام بل يتجاوز ذلك إلى المسارعة في البدء بالتحية لأن من يفعل ذلك يتولاه الله ورسوله ﷺ وكفى بالله وليا ونصيرا ، عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «من بدأ بالسلام فهو أولى بالله ورسوله».[2]

ويقول الخطيب إن الابتداء بالتحية وأخذ النفس بإلقائها على الجميع أمر يدعو إلى التواضع وطرح الكبر والغرور، فضلا عما فيه من تقوية أواصر المحبة والود بين أفراد الجماعة، عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «البادئ بالسلام بريئ من الكبر»[3] على ألا يبتدئ مسلم ذميا بالسلام فإذا سلم الذمي على المسلم لزمه رد تحية السلام لأن الله تعالى يقول: ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها..﴾[4] عن أنس قال: «قال أصحاب النبي ﷺ للنبي، يا رسول الله إن أهل الكتاب يسلمون علينا فكيف ترد عليهم؟ قال: قولوا: عليكم»[5] . كذلك من آداب التحية أن يعم المرء بالسلام جماعة المجلس وأن يخص بالسلام من قرب منه إذا جلس[6] . بالإضافة إلى وجوب رد السلام وابتداء المسلم أخاه بالسلام، وخاصة بعد الخصام والهجران واعتبار السلام ورده من حقوق الطريق، إلى جانب تسليم الصغير على الكبير والراكب على الراجل والمار على الجالس والقليل على الكثير والمصافحة باليد وإبداء البشر، لما جاء في الحديث الشريف من الأمر بذلك والحث عليه.

هـ - آداب الحديث والمجالسة:

المجالس أنواع، وهي في تعددها تختلف باختلاف أصحابها وروادها، كما تتباين

---

(١) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٣٩٩ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص٣٩٧ .

(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٩٧ .

(٤) سورة النساء ، الآية (٨٦) .

(٥) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٣٩٨ .

(٦) المرجع السابق ، ج١، ص٣٩٩ .

بحسب الأهداف المتوخاه من عقدها ، ومن أنواعها ، المجالس العامة التى تعقد فى المساجد ودور العلم ونحوها ومنها المجالس الخاصة وهى التى يدعى إليها بعض الخاصة ومنها مجالس الأصدقاء... وغيرها ، ولهذه المجالس آداب يتعين على المرء مراعاتها حتى يتجنب إيذاء الآخرين ويضمن في الوقت نفسه أن يكون محل تقديرهم واحترامهم له. ولقد اهتم الخطيب بآداب الحديث والمجالس فذكر طائفة من التوجيهات النبوية التى تمثل اختياره في نفس المجال منها: [1].

(١) مراعاة عدم إقامة الرجل والجلوس مكانة.

(٢) احترام أحقية الآخرين فى عودتهم إلى مقاعدهم التى قاموا منها.

(٣) عدم التفريق بين الجالسين والقعود بينهم إلا بإذنهم.

(٤) جلوس المرء فى مكانه الذى ينتهى إليه وتجنب تخطى الرقاب والجلوس وسط الحلقة أو المجلس.

(٥) كراهة الاضجاع أو التربع أثناء الجلوس فى المكان الضيق تجنبا لإيذاء الآخرين.

(٦) الاقبال بالوجه على الجماعة عند الحديث احتراما لهم وتقديرا.

(٧) مشاركة الآخرين في الحديث وعدم التناجى دفعا للظن السيئ.

(٨) الحرص على التحدث بالكلام الطيب الذى يفيد ولا يؤذى.

(٩) تجنب كثرة الضحك والمزاح، حفظا للكرامة والهيبة.

(١٠) توقير العالم واحترام ذوى الشيبة والكبير.

(١١) تجنب إيذاء الآخرين بأية روائح كريهة سواء من الطعام أو غيره.

(١٢) ختم المجلس بالاستغفار والحمد والتسبيح لأن ذلك كفارة لما يمكن أن يكون قد ألم به من أخطاء وذنوب.

نخلص مما سبق إلى أن الخطيب اعتنى بالتربية المتكاملة الشاملة التى تراعى جميع جوانب الشخصية، باعتبارها وحدة مترابطة تتكامل فيها هذه الجوانب، ولذلك فإن مهمة التربية هي تنمية مختلف الجوانب وترقيتها حتى يتحقق للمرء نمو متوازن يتلاءم مع إمكاناته وميوله وقدراته وتطلعاته باسلوب مرن يجمع بين المثالية والواقع ونجد أن عناية

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ج١ ، ص٤٠٤ - ٤١١ .

الخطيب بالتربية المتوازنة تبدو من خلال تناوله لبعض الميادين التربوية مثل التربية العقلية والتربية الخلقية والتربية الاجتماعية، وقد رأينا اهتمام الخطيب بالعقل والتنويه بمكانته وعلو قدره ليس من أجل أن يحيا الانسان حياة سعيدة فحسب وإنما من أجل أن يكون العقل أيضا طريقاً إلى الايمان الصحيح، ويعتبر الخطيب العقل مكونا أساسيا من مكونات الشخصية الانسانية المتكاملة، كما أنه أداة أساسية للمعرفة تساعد الانسان على إدراك الحقائق وفهم العلاقات المتشابكة، كذلك اهتم الخطيب بأدوات الحس التي يعتبرها جسورا إلى معرفة العالم الخارجي بكل خصائصه ومكوناته.

كما تناول الخطيب معوقات استخدام العقل وذكر أن منها التقليد الأعمى واتباع الظن والهوى وضحالة المعرفة وبين أن الاسلام دين العقل وأن التقليد من صفات الأنعام التي لا تفقه شيئا، ولذلك حث طلبة العلم على الاجتهاد في التعليم وذكرهم بأن الانسان خير له أن يموت طالبا للعلم من أن يموت قانعا بالجهل. كذلك أورد الخطيب بعض موازين البحث العقلي الموضوعي وذكر منها إخلاص النية، والموضوعية، والتسامح، وقوة الحجة، وقلة الكلام، وتجنب الغضب والدقة، والتواضع، واستخدام القياس.

أما أساليب التربية العقلية عند الخطيب فهي كثيرة وقد تناولها الخطيب نفسه في أكثر من موضوع من كتبه ويمكن أن نذكر منها المناظرة والسؤال والتطبيق العملي والعقل المفتوح ، وبالنسبة للجانب الخلقي عند الخطيب فهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى بيان كثير، وقد تمثل في اهتمام الخطيب بالأخلاق الحميدة، وأنها أساس التربية وعمودها الفقري ومن هذه الأخلاق الاخلاص والتقوى والتواضع والحلم والرفق والنصح والصدق والموضوعية والأمانة والدقة واحترام أهل العلم وتجنب الغضب ويبدو أن الخطيب يرى أن هذه الأخلاق كفيلة باستقامة الفرد وصلاح المجتمع، وهو بذكره لها يبين الأخلاق المذمومة التي دعت السنة النبوية إلى نبذها واتقائها.

كذلك تناول الخطيب أساليب التربية الخلقية، وعدها وسائل لتحقيق الخلق الكريم والسلوك القويم ، ومن هذه الأساليب الأسوة الحسنة ، والعبادة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والممارسة، والتطبيق والوعظ والتذكير، وضرب الأمثال وغيرها. أما التربية الاجتماعية فهي ضرورة اجتماعية وإنسانية، وتمثل عند الخطيب أحد الجوانب الهامة التي تعمل على تشكيل شخصية الانسان وقد تضمنت التربية الاجتماعية العديد من العلاقات التي تعد كافية لتحقيق التكيف النفسي والاجتماعي إضافة إلى عناية الخطيب بالعلاقات داخل الأسرة

وخارجها وإلى رعايتها للآداب الاجتماعية التي تعد عنده ثمرة للتربية الصالحة والخلق القويم.

إن صورة الفكر التربوي لن تتضح بدون تناول واع لأهم مبادئ التعلم والتعليم عند الخطيب، ولذلك سنتناول فيما يلي أهم مبادئ التعلم والعوامل المؤثرة فيه إضافة إلى مناهج التعليم ومواد الدراسة في أولوياتها كما يراها الخطيب إلى جانب أساليب التعليم وأدواته في الفترة التي عاش فيها الخطيب.



الباب الثالث

التعلم والتعليم عند الخطيب البغدادي

ويتضمن هذا الباب الفصلين التاليين :

الفصل السابع : التعلم عند الخطيب البغدادي

الفصل الثامن : التعليم : مناهجه وأساليبه وأدواته

الفصل السابع

التعلم عند الخطيب البغدادي

ويتضمن هذا الفصل الموضوعات التالية :

- تمهيداً
- أولاً : مفهوم التعلم عند الخطيب البغدادي.
- ثانياً : عوامل التعلم الذاتية.
- ثالثاً : عوامل التعلم الموضوعية.
- رابعاً : عوامل أخرى مساعدة على التعلم.



الفصل السابع

التعلــم عند الخطيـب البغدادي

تمهيـــد ..

يسـود التـعلم كل أنواع النشـاط الانسـاني تقـريبـا، بمعنى أن أغلب أنواع السلوك الانساني متعلمة، أي مكتسبة، حيث يتعلم الانسان أنواع السلوك والعادات نتيجة مروره بالعديد من التجارب، والخبرات والمواقف المختلفة[1]، ويعتبر التعلم لذلك أحد المجالات الهامة، التي احتلت مكانة بارزة في الدراسات القديمة والحديثة على السواء، فقد شغل موضوع التعلم المربين والآباء والمصلحين الاجتماعيين من قديم الزمان[2] ولا يزال يشغل مكانة بارزة في علم النفس العام وغيره من ميادين علم النفس التطبيقي، فضلا عن علم النفس التربوي.

ويكفي في بيان أهمية التعلم أن ندرك أنه يحتل -بحق- محور العملية التعليمية، وأن أغلب أقوالنا، وأفعالنا، وحتى طرق تفكيرنا، واتجاهاتنا نحو الآخرين، والمهارات التي نكتسبها تمثل أنواعا من السلوك المتعلم، كما أن التعلم -من جهة ثانية- وسيلة المجتمعات الانسانية إلى غرس القيم الأخلاقية الحميدة، وتربية النشئ على العادات والتقاليد الاجتماعية، وتطبيعه بثقافة المجتمع وقيمه ومن هنا تأتي أهمية موضوع التعلم، وتأثيره في حياتنا العامة والخاصة ومن هذا المنطلق تأتي أهمية دراسة العوامل والشروط المؤثرة فيه والمهيمنة عليه.

وقد جرت العادة في دراسة التعلم أن يبدأ الباحث بتحديد المقصود من التعلم. أو مفهومه، لأن تحديد المعنى أو المفهوم هو الذي يحدد الإطار العلمي للدراسة.

---

(١) إبراهيم وجيه محمود: التعلم، أسسه ونظرياته وتطبيقاته. القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤م، ص(هـ) من المقدمة.

(٢) رمزية الغريب: التعليم، دراسة نفسية، تفسيرية وتوجيهيه، ط٤، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧١م، ص٩.

أولاً : مفهوم التعلم عند الخطيب البغدادي :

أولى الخطيب موضوع التعلم عناية كبيرة، وخاصة في كتابيه «الفقيه والمتفقه» و«الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، اللذين تعرض فيهما لأهم الأسس والعوامل المؤثرة فيه، وهو يعتبر التعلم نوعا من الالهام الذي يلقيه الله في قلب المتعلم فيدرك به ما يتعلمه ويميز به بين الحق والباطل، والصحيح والسقيم، ومثل المتعلم في إدراك هذا التعلم مثل الصراف الماهر الذي ينقد الدنانير والدراهم، لطول خبرته بها، ومعايشته لها، واشتغاله بها، بحيث يعرفها عند المعاينة، فيميز البهرج منها والزائف، والخالص والمغشوش، وكذلك يرى الخطيب حال الطالب أو المتعلم فيما يتعلمه، ويقول إن التعلم إلهام يخلقه الله في القلوب بعد طول الممارسة والاعتناء به[1]، وعلى هذا تكون المعرفة للأشياء نوعا من الالهام أو الاستبصار الذي ينقدح في ذهن المتعلم، ويلهب قريحته نحو التعلم فيعي مايتعلم.[2]

كذلك يعتبر الخطيب التعلم عملية مرادفة للحفظ ، وفي ذلك يقول: «الحفظ الإتقان»[3] ، ويقول: «العقل الحفظ واللب الفهم»[4] ، وحسب هذا المفهوم تكون أنفع العلوم تلك التي تحفظ في الصدور، وفي هذا المعنى يقول : «ليس العلم ما حواه القمطر[5] ، إنما العلم ماحواه الصدر»[6] ، ولذلك نجد الخطيب ينصح طلبة العلم بضرورة تكرار مطالعة الدرس حتى يعلق حفظه بأذهانهم ويتقنوه، وكأن الخطيب بذلك يشترط الحفظ لتمام التعلم، مما يعطي للحفظ أهمية خاصة في عملية التعلم عنده.[7] وللخطيب البغدادي نظرة إلى التعلم يمكن أن نستشف منها أبعادا معينة من حيث فهمه للتعلم تتصل بمفهوم التعلم في نظرية

---

(١) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج ٢ ، ص٢٥٥ .
(٢) المرجع السابق ، ج ٢، ص٢٥٥ .
(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٣ .
(٤) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢ ، ص١٠٠ .
(٥) ما تصان فيه الكتب ، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي : مختار الصحاح، دمشق: مكتبة النوري، ص٥٥١ .
(٦) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢، ص٢٥١ .
(٧) عملية التعلم : هي «مايطرأ على الفرد من تغييرات داخلية اثناء وجوده في الموقف التعليمي، وأثناء تكرار هذا الموقف». انظر : عبدالله عبدالحي موسى: علم النفس التربوي. القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٨١م، ص٥٤ .

التدريب الشكلي «Formal Discipline» ، وذلك عندما تحدث عن تأثير بعض المواد في تدريب ملكات العقل، وتهذيب الطباع وترويضها[١] ، كما يقترن مفهوم التعلم بالعمل عنده، بحيث لا يكون المرء عالما - بمعنى الكلمة - مالم يكن بعلمه عاملا[٢]، وفي ذلك يقول : «إنما العالم من اتبع العلم واستعمله واقتدى بالسنن، وإن كان قليل العلم»[٣] ، ويقول: «خير العلم مانفع، وإنما ينفع الله بالعلم من عَلِمَهُ ثم عمل به، ولا ينفع به عَلِمَه ثم تركه»[٤]، ومعنى ذلك أن التعلم حسب هذا المفهوم عملية تعديل للسلوك، وهو الأمر الذي تقرره الدراسة والابحاث السيكولوجية الحديثة.[٥]

وهكذا فإن لدى الخطيب مفهوما للتعلم قد يتفق ، أو يختلف مع بعض مفاهيم التعلم في النظريات التربوية والنفسية الحديثة ، وهذا الاتفاق أو الاختلاف لا يجرنا إلى المقارنة بين ماعند الخطيب وما في النظريات الحديثة، وإنما نقول إن الخطيب قد استوعب -بحق- المفاهيم التعليمية التي طرحها، أو نادى بها في آرائه التربوية، وكان صائب الفكرة عندما نظر إلى موضوع التعلم -وهو موضوع معقد جدا- هذه النظرة الموضوعية الواضحة، التي قدم لنا من خلالها نسقا تعليميا معينا هو خلاصة خبرته وتجاربه الحافلة في ميدان التربية والتعليم، لقد كان للخطيب نسق تعليمي ينسجم مع مفهومه عن التعلم، ولا يليق بنا «أن نزجه -كما قلنا- في مقارنات مع ما توصل إليه علم النفس الحديث والمعاصر، لأنها ستكون مقارنة أقل مايقال فيها أنها غير متكافئة إن لم تكن ظالمة ، فلكل عصر معطياته وفكره».[٦]

وفيما يلي نتكلم عن أهم عوامل التعلم وشروطه، وهي شروط وإن كانت «تتصل بالمتعلم الكبير السن الذي يمكنه أن يفهم مايقال له، فليس هناك مانع يمنع اعتبارها شروطا للمتعلم ككل كبيرا كان أو صغيرا..».[٧]

---

(١) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج١، ص٣٦ .
(٢) الخطيب البغدادي : اقتضاء العلم العمل (مرجع سابق)، ص١٤ .
(٣) المرجع السابق ، ص٣٠ .
(٤) المرجع السابق ، ص٣٣ .
(٥) انظر : ابراهيم وجيه محمود (مرجع سابق) ، ص٥ .
(٦) علي خليل مصطفى ابو العينين : قراءة تربوية في فكر أبي الحسن البصري الماوردي (مرجع سابق) ، ص٣١١ .
(٧) المرجع السابق ، ص٣١١ .

ثانيا : عوامل التعلم الذاتيـــة :

١ – الدافعيـــة :

للسلوك الانساني مهما تعددت صوره دوافع معينة، شعورية أو لا شعورية، توجهه إلى تحقيق بعض الأهداف، فكل سلوك يكمن وراء دافع أو دوافع، «ويمتاز السلوك الناشئ عن الدافع بالنشاط والاستمرار والتنوع، فكلما كان الدافع قويا ازداد النشاط»[١] ، ويعرف الدافع تعاريف كثيرة منها أنه «حالة جسمية أو نفسية تثير السلوك في ظروف معينة، وتواصله حتى ينتهي إلى غاية معينة»[٢] ، أو هو حالة من التوتر والشد التي تثير الرغبة نحو تحقيق هدف أو اشباع حاجة ذات قيمة لدى الفرد[٣] ، وقد أثبتت تجارب علم النفس الحديث أن وجود الدافع أو النيـة في اصطلاح علماء المسلمين يجعل المرء يتعلم بصورة أحسن[٤] ، وقد أدرك الخطيب رحمه الله أن طلبة العلم يتعلمون بصورة أفضل عندما تكون لديهم الرغبة ، أو «النية» نحو التعلم ، وهو بذلك يؤكد أهمية الدافع في إحداث التعلم الجيد الذي «لا يسارع إليه النسيان، ويحقق مع جودته الاقتصاد في الوقت والجهد مع الافادة منه في مواقف الحياة المختلفة».[٥]

ويعتبر الخطيب وضوح الهدف من العوامل التي تزيد في فاعلية الدافعية عند المتعلم، وفي ذلك يقول: «يجب على طالب الحديث -العلم- أن يخلص النية في طلبه، ويكون قصده وجه الله سبحانه»[٦] ، وأن يستعمل «الجد في أمره، وإخلاص النية في قصده، والرغبة إلى الله أن يرزقه علما يوفقه فيه، ويعيذه من علم لا ينتفع به»[٧] . وقد استخدم الخطيب ألفاظا وعبارات متعددة تدل في جملتها على معنى الدافع، مثل النية، والقصد ، والرغبة، والعزم،

---

(١) عبدالله عبدالحي موسى (مرجع سابق) ، ص٨٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص٩٠ .

(٣) Rosella, linskie: The Learning Process, Theory and Practice, D.van Nostrand Company. New York Cincinnati, Toronto, London, Melbourne,1977, p.188.

(٤) فاخر عاقل : التعلم ونظرياته، ط١، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٧، ص١٩ .

(٥) حسن عبدالعال : التعلم عند الخطيب البغدادي ، مبادئه ومحدداته (مرجع سابق) ، ص٢٨.

(٦) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ، ج١، ص٨١.

(٧) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢ ، ص٨٧ .

والمبادرة إلى التعليم، والاشتهاء، والاغتنام، وفي ذلك يقول: «ينبغي لمن اتسع وقته، وأصح الله جسمه، وحبب إليه الخروج عن طبقة الجاهلين، وألقى في قلبه العزيمة على التفقه في الدين أن يغتنم المبادرة إلى ذلك خوفا من حدوث أمر يقتطعه عنه، وتجدد حال تمنعه منه»[1]، كما يقول إن المتعلم «إذا اشتهى التعلم بنشاط عاد إليه، وإن اشتهاه بغير نشاط لم يعرض له».[2]

وللنية من حيث هي دافع أو تأهب للتعلم جانبان، جانب إيجاب، وجانب سلب[3]، ويتمثل جانب الايجاب عند الخطيب في توجيه نية طلب العلم نحو[4]:

أ - رضا الله تعالى .

ب - طلب العلم النافع .

ج - سعادة الدنيا والآخرة .

د - إزالة الجهل عن النفس وعن الآخرين.

هـ - الاجتهاد وإخلاص النية في العلم والعمل.

و - نصرة الحق وتبيانه .

أما الجانب السلبي فيتضمن بعض المحاذير التي ينبغي لطالب العلم تجنبها ومنها:[5]

أ - عدم إخلاص النية .

ب - الاهمال في طلب العلم .

ج - اتخاذ العلم وسيلة لجمع المال والفوز بعرض الدنيا .

د - المباهاة واتخاذ الأتباع.

هـ - السعي إلى المراكز وحب الظهور بين الناس .

و - المجادلة بالباطل .

---

(١) المرجع السابق ، ج٢، ص٨٧ .

(٢) المرجع السابق ، ج٢، ص١٠٨ .

(٣) سيد أحمد عثمان : التعلم عند برهان الاسلام الزرنوجي المتوفي (٥٩١هـ/١١٩٥م) - القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص٤٣ .

(٤) انظر : الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص٨٧ .

(٥) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٨٤-٨٧.

ويمكن القول بأن الخطيب وإن كان يرى أن الدافع شرط من شروط تحقق التعلم الجيد، إلا أنه لا يعده عاملا كافيا بدون توفر عنصر النشاط الذاتي لدى المتعلم، وهذا معنى قوله: «وإذا اشتهى التعلم بنشاط عاد إليه...»[1]

٢ - الممارسة والنشاط :

لا تعتبر الدافعية وحدها كافية لتحقيق التعلم الجيد -كما قلنا- بل لابد من وجود عامل النشاط الذاتي عند المتعلم، وبدون هذا النشاط تجهض استجابة المتعلم لما يتعلمه [2] فكما أن الانسان لا يستطيع الاستفادة مما يأكل ما لم يكن جائعاً، وله معدة سليمة تستطيع هضم الطعام، فكذلك حال طالب العلم لا يستطيع الاستفادة التامة مما يتعلمه إلا إذا كان راغباً في التعلم وله نشاط فيه.[3]

ويمكن القول بأن التعلم الجيد «جهد يبذله المتعلم، ونشاط يقوم به في سبيل التحصيل، وبهذا الجهد والنشاط يثبت التعلم فلا يسارع إليه النسيان ويصبح للتعلم مع هذا النشاط قيمةٌ وتتحقق منه الفائدة»[4]. ويقول الخطيب إن جهد المتعلم ونشاطه يجب أن يكون بحساب، فلا يكلف نفسه فوق طاقتها، بل يبذل من الجهد والاجتهاد ما يتناسب مع مايراد تعلمه، لأنه إن تكلف ما لا يطيق تعلمه أضر بنفسه من حيث أراد نفعها، وعمل على تأخير تعلمه من حيث أراد تقدمه، وقد ضرب الخطيب لذلك الأمثال، فقال: «لا ينبغي أن يمزج -الطالب- نفسه فيما يستفرغ جهده، وليعلم أنه إن فعل ذلك فتعلم في يوم ضعف مايحتمل أضر به في العاقبة، لأنه إذا تعلم الكثير الذي لا طاقة له به، وإن تهيأ له في يومه ذلك أن يضبطه، وظن أنه يحفظه فإنه إذا عاد من غد وتعلم نسي ماكان تعلمه أولا، وثَقُلَتْ عليه إعادته، وكان بمنزلة رجل حمل في يومه ما لا يطيقه فأثر ذلك في جسمه»[5]، ولذلك فإن من الواجب على المتعلم «أن يشفق على نفسه من تحميلها فوق طاقتها، ويقتصر من التعليم على مايبقى عليه حفظه ويثبت في قلبه»[6]، وهو أمر يتطلب من المتعلم أن «يجعل لنفسه

(١) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢، ص١٠٨ .
(٢) حسن عبدالعال : التعلم عند الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ص٣٠ .
(٣) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج٢، ص١٠٨ .
(٤) حسن عبدالعال (مرجع سابق) ، ص٣٠ .
(٥) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج٢، ص١٠٧ .
(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٨ .

حدا كلما انتهى إليها وقف عنده حتى يستقر ما في قلبه ويريح بتلك الوقفة نفسه»[1]. وقد أثبتت الدراسات الحديثة هذه الحقيقة عندما أكدت على أن التعلم المتواصل يؤدي في الغالب إلى «تداخل التعلم اللاحق في التعلم السابق بما يؤدي إلى نسيان بعض ماتم تعلمه، لذا يتعين على الطالب ألا يبادر بتحصيل موضوع بعد آخر إلا بعد أن يأخذ فترة من الاستجمام الكافي».[2]

إن التعلم عند الخطيب نشاط شامل لا يقتصر على حفظ المعلومات فقط، بل يشمل تعلم المهارات، والأساليب، وطرق التفكير، والقيم والاتجاهات ويعتبر تعلم الآداب والأخلاق والقيم نشاط يحتاج من المتعلم إلى مجاهدة النفس ومقاومة الهوى، حتى يسلس قياد النفس، لأنه لايمكن إكساب المرء القيم والأخلاق عن طريق التقليد أو التلقين مثلا، بل لابد من ممارسة هذه الأخلاق والتحلي بها، مع وجود القدوة وتوفر عامل مجاهدة النفس، ولذلك يرى الخطيب أن المتعلم مطالب بتوظيف الآداب والأخلاق الحميدة على نفسه «من استعمال الصبر والحلم والتواضع والرفق ولين الجانب ومداراة الصاحب وقول الحق والنصيحة للخلق، وغير ذلك من الأوصاف الحميدة والنعوت الجميلة».[3]

٣ - الذكـــــاء :

يعتبر الذكاء عند الخطيب أحد إمارات سعادة الانسان وتوفيقه في حياته، كما أنه إمارة تفضل من الله تعالى على عبده، وهو عامل من شأنه أن يجعل الذكي أقدر على التعلم وأسرع في الفهم من غير الذكي. وهو طبع وغريزة في المتعلم أكثر منه اكتساباً وتطبعا وفي ذلك يقول الخطيب : «الطبع أرض، والعلم بذر، ولا يكون العلم إلا بالطبع، فاذا كان الطبع مائلا زكا ريع العلم وتفرعت معانيه»[4]. وعليه فإن الخطيب يعتقد أن الذكاء نعمة من الله تعالى، كما أنه يرى أيضاً أن الغباء والبلادة ابتلاء من الله ونقمة تحيق بالعبد، يصعب معها بلوغ الأهداف وتحقيق التعلم الجيد ، مهما كانت الظروف والامكانات ، وفي ذلك يقول

---

(١) المرجع السابق ، ج٢، ص١٠٨ .

(٢) أحمد عزت راجع : أصول علم النفس . ط٩، الاسكندرية: المكتب المصري الحديث ، ١٩٧٣م، ص٢٥١.

(٣) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص٩٦ .

(٤) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٩٥ .

الخطيب: «وكما لا ينبت المطر -الأرض- الكثير الصخر ، كذلك لا ينفع البليد كثرة التعليم»[1]، مما يعني أهمية الذكاء ودوره في القدرة على التعلم عند الخطيب.

وللذكاء تعاريف كثيرة ومتنوعة[2] لا تعنينا هنا كثيرا بقدر ما يعنينا أن نتعرف على معنى الذكاء عند الخطيب، ويستطيع الدارس للأقوال السابقة أن يلمس مقصود الخطيب من الذكاء و«هو يعني عنده القدرة على التعلم بحيث إذا فقد إنسان هذه القدرة صعب عليه التعلم وأصبح كل جهد يبذل في سبيل تعليمه هباء وسدى»[3]. وقد أكد الخطيب على رعاية الأذكياء من الطلبة، وبين أنه ليس من الصعب على المعلم النابه أن يكتشف الطلبة الأذكياء النابهين، ويقول فكما «أن الشمس لا يخفى ضؤها وإن كانت تحت السحاب، فكذلك الصبي لا تخفى غريزة عقله وإن كانت مغمورة بأخلاق الحداثة».[4]

ولما كان الذكي لا يساوى بمن هو أقل منه ذكاء وفطنة في المواهب، والقدرات، لذلك يرى الخطيب ألا يساوى بينهما في طريقة التعليم، والاعداد، وعلى المعلم المنصف أن يميز الأذكياء باعطائهم عناية أكبر ورعاية أشمل، حتي تنموا استعداداتهم، وتستوي قدراتهم، ليكونوا أفرادا صالحين، يسهمون في خدمة مجتمعهم وتقدمه، وفي ذلك يقول الخطيب: «إن كان في جملة المتفقه -المتعلمين- حدث أو صبي له حرص على التعلم أن أنس الفقيه -المعلم- منه ذكاء أو فطنة، فليقبل عليه، ويصرف اهتمامه إليه»[5]، ويقول: «وإذا بان للفقيه نفاذ أحد أصحابه -طلابه- في العلم وحسن بصيرته بالفقه جاز له تخصيصه دونهم وإثرته عليهم»[6]، وعلى المتعلم أن يغتنم هذه الاثرة، وتلك الفرصة، ويقبل على التعليم، ويحرص على الاستفادة من المعلم «وخاصة في حال فراغه، وأوقات خلواته معه».[7]

---

(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٩٥ .

(٢) سعد جلال : المرجع في علم النفس - الاسكندرية : مكتبة المعارف الحديثة، القاهرة، دار الفكر العربي ، ١٩٨٥م، ص٦٠٦ .

(٣) حسن عبدالعال (مرجع سابق) ، ص٣٧ .

(٤) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج٢، ص١٣١ .

(٥) المرجع السابق ، ج٢، ص١٣١ .

(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٤٠ .

(٧) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٤١ .

ويرى الخطيب ضرورة إتاحة الفرصة للطلبة ليعبروا عن أنفسهم في المواقف التعليمية المختلفة لما في ذلك من أثر إيجابي في إكتساب الخبرات التعليمية والتجارب المطلوبة نتيجة تفاعل الطالب في الموقف التعليمي واحتكاكه بغيره من الناس وخاصة طلبة العلم وفي ذلك يقول: «وإذا علت منزلة الحدث في الفقه، فينبغي للفقيه أن يأذن له في الكلام مع المتكلمين ويجعله من جملة المتناظرين»[١] ، ولا يخفى ما في ذلك العمل التربوي التوجيهي من تشجيع للمتعلم وحفز له على التعلم والمنافسة الشريفة، وبذل الجهد في التعليم.[٢]

٤ - الفروق الفردية :

تؤثر الفروق الفردية[٣] في سرعة التعلم وكميته وتأثيره ، وقد تنبه الخطيب إلى أثر هذه الفروق بين الطلاب، وانعكاسها على تحصيلهم، فبين أن من الطلبة من يستطيع حفظ الكثير في الزمن القليل، ومنهم من لا يستطيع حفظ نصف صفحة ولو في أيام[٤] ، ويقول إن على الطلبة أن يقبلوا بتلك الحقيقة، ويراعوها ، فلا يكابروا ويحاولوا تجاهلها، وتناسى قدراتهم الحقيقية، ويقلدوا غيرهم ممن يتفوقون عليهم في الفهم وسرعة الحفظ، ولأنهم إن فعلوا ذلك عجزوا عن المجاراة وأصابتهم الخيبة واحتواهم الاحباط، وهي أمور من دواعي الكسل والنسيان، وبدل أن كان الطالب يستطيع الانتفاع بالقليل مع الاستمرار والمداومة على زيادة التحصيل، يصعب عليه الكثير، وربما ينقطع عن التعلم والتحصيل، لذلك يحبذ الخطيب ألا يأخذ المتعلم «نفسه بما لا يطيقه، بل يقتصر على اليسير الذي يضبطه ويحكم حفظه ويتقنه»[٥]، وفي هذا المعنى يقول الخطيب : «اعلم أن القلب جارحة من الجوارح تحتمل أشياء، وتعجز عن أشياء ، كالجسم الذي يحتمل بعض الناس أن يحمل مائتي رطل، ومنهم من يعجز عن عشرين رطلا، وكذلك منهم من يمشي فراسخ في يوم لا يعجزه، ومنهم من يمشي

---

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص١٣٢ .

(٢) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢، ص١٣٩ .

(٣) الفروق الفردية هي الانحرافات الفردية عن المتوسط الجماعي في الصفات المختلفة، سواء كانت جسمية أو عقلية أو مزاجية أو اجتماعية . انظر: عبدالحميد الهاشمي: الفروق الفردية، دراسة تحليلية تطبيقية في مجال التربية والاجتماع، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٧، ١١٦.

(٤) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج ١ ، ص٢٣١ .

(٥) المرجع السابق ج١، ص٢٣١ .

بعض ميل فيضر ذلك به، ومنهم من يحفظ عشر ورقات في ساعة، ومنهم من لا يحفظ نصف صفحة في أيام، فاذا ذهب الذي مقدار حفظه نصف صفحة.. يروم أن يحفظ عشر ورقات تشبها بغيره لحقه الملل، وأدركه الضجر ونسي ماحفظ ولم ينتفع بما سمع فليقتصر كل امرئ من نفسه على قدرما يبقى فيه مالا يستفرغ كل نشاطه، فإن ذلك أعون له على التعليم..»[١]

ويذكر الخطيب طلاب العلم بأن هذه الفروق ملحوظة في عملية الحفظ، فقد كان بعض الطلبة الذين يتميزون ببطء الحفظ يلجأون إلى زملائهم ممن «عرفوا بسرعة الحفظ، وجودته حتى يحفظوا لهم عن الراوي، ثم يعيدوا ذلك عليهم حتى يتقنوا حفظه عنه»[٢] وهي حقيقة ملحوظة في كل زمان ومكان توضح التفاوت بين الناس في الفروق، واختلاف طبقاتهم في العلم[٣] ، وهذا الاختلاف في القدرات والمواهب والتباين في الفروق يلقى على المعلم مسئولية كبيرة تزيد من عبء تعامله مع طلبته، وتجعله يتحمل ثقل الاعادة، والتكرار والشرح والتبيان، وكل مايجب أن يتحلى به من «الرفق والمداراة والاحتمال»[٤] وعلى المتعلم أن يقابل ذلك بالرفق وتحمل المعلم إذا ما بدر منه مايدعو إلى ذلك، والحرص على عدم إملاله أو إضجاره بالمساءلة «وترك المراجعة، وإسقاط المجاراة ، والصبر على مايرد من الفقيه»[٥] ، وقد روى الخطيب في هذا المعنى أن قوما من طلبة العلم ألحوا على الشافعي رحمه الله حتى أذوه وأضجروه فقال لهم: «لا تكلفوني أن أقول لكم ماقال محمد بن سيرين لرجل ألح عليه: إنك إن كلفتني مالم أطلق ساءك ماسرك مني من خلق».[٦]

٥- الحالة البدنيــة (الجسمية) :

تؤكد الدراسات الطبية على العلاقة الوطيدة بين الجسم والعقل، ومدى ارتباط كل منهما بالآخر، من حيث تأثير إفرازات الغدد، ووظائف الهضم، والدورة الدموية، وغيرها من

---

(١) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢، ص١٠٧ .
(٢) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق)، ج١، ص٢٣٣ .
(٣) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢، ص١٠٢ .
(٤) المرجع السابق ، ج٢، ص١٥٠ .
(٥) المرجع السابق ، ج٢، ص١٥١ .
(٦) المرجع السابق ، ج٢، ص١٥٢ .

العوامل الفسيولوجية والنفسية التي تؤثر تأثيراً واضحاً على الصحة الجسمية[1]، وقد أدرك الخطيب رحمه الله مدى الترابط الوثيق بين الحالة الجسمية للمتعلم، وأثرها على حسن التعلم وعلى جودته وكمية التعلم وسرعته، ولذلك نجده يوجه المتعلم إلى «أن يتفقد من نفسه حال الجوع، فإن بعض الناس إذا أصابه شدة الجوع والتهابه لم يحفظ، فليطفئ ذلك عن نفسه بالشيئ الخفيف اليسير»[2]، عملا بقول الرسول ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لامحالة، فثلثا طعاما، وثلثا شرابا، وثلثا لنفسه».[3]

ويقول الخطيب إن الجوع الشديد مثل الشبع والمغالاة في الأكل، كلاهما مضر بالصحة، ومحدد لقدرات المتعلم على التعلم، وحماسه له، وقد ذكرنا أمره بمقاومة الجوع باليسير، أما الشبع والبطنة فإنهما يعميان عن الفطنة[4]، كما تقدم الأمر بعدم تكليف المرء نفسه فوق طاقته وألا يجهد نفسه ويستفرغ مجهوده[5]، ويقول الخطيب إن الطالب يتعلم بصورة أفضل إذا كان له نشاط نحو التعلم واشتهاء له ورغبة فيه[6]. وإذا كان هذا هو حال المتعلم من العناية البدنية والراحة الجسمية والنفسية اللازمة لتجديد النشاط، وإنعاش القريحة، فإن المعلم مطالب أيضاً أن يتفقد حاله قبل الخروج إلى أصحابه، بحيث يكون رضى البال مستريح الجسم، مطمئن النفس، قادرا على التدريس الجيد والعطاء وفي ذلك يقول الخطيب: «إذا أراد الفقيه الخروج إلى أصحابه ليذكر لهم دروسهم فينبغي له أن يتفقد حاله قبل خروجه، فإن كان جائعاً أصاب من الطعام ما يسكن عنه فورة الجوع»[7]، «وإن كان ناعسا لأمر استهره أخر تدريسه في تلك الحال وأخذ حظه من نومه»[8] وقد أوضحت

---

(١) فيليب هـ. فينكس : فلسفة التربية (ترجمة وتقديم محمد لبيب النجيحي) -القاهرة : دار النهضة العربية ١٩٨٢م، ص٧٠٩.

(٢) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج٢، ص١٠٤ .

(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٤ .

(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٤ .

(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٨ .

(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٨ .

(٧) المرجع السابق ، ج٢، ص١٠٢ .

(٨) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢١ .

الدراسات الحديثة أهمية الراحة في المحافظة على الطاقة العقلية والجسمية للانسان، وأن ذلك مما يزيد في كمية الانتاج ونوعيته.[1]

ومن النصائح التي يوجهها الخطيب لكل من العالم والمتعلم أن يراعيا حسن اختيارهما لنوعية الغذاء الجيد، لأن ذلك أدعى إلى الحفظ، وفي هذا المعنى يقول: «ومن أنفع ما استعمل إصلاح الغذاء واجتناب الأطعمة الرديئة، وتنقية الطبع من الأخلاط المفسدة، فمن راعى مارسمت له من إصلاح الغذاء وتنقية الطبع وفراغ قلبه فلم يكد يسمع شيئا إلا سهل عليه حفظه إن شاء الله»[2]. ويقول أيضاً : «الدواء الذي لا داء فيه أن تقعد إلى الطعام وأنت تشتهيه وتقوم عنه وأنت تشتهيه»[3] ، وعلى ذلك يكون الخطيب قد ركز على ضرورة مراعاة الحالة الجسمية للمتعلم والمعلم معا، ويرى أن ذلك أدعى إلى تجدد نشاطهما ، لهذا كان على المعلم أن يصلح من «نفسه ببعض الأمر من أخذه نصيبا من الدعة والراحة واللذة، فإن ذلك يعقبه منفعة بينة»[4]

وهكذا يوضح الخطيب تأثير الحالة الجسمية على التعلم، ويؤكد أن الراحة التي تعقب التعلم ليست وقتا ضائعاً، وإنما هي فترة لازمة في الواقع لاعادة ترتيب المعلومات في الذاكرة إلى جانب إتاحة الفرصة للجسم ليستريح، ويجدد خلاياه، حتى يكون قادرا على العمل عند تجدد العطاء.

٦ - الحالة النفسيـــة :

يبدو من استقراء بعض النصوص التي كتبها الخطيب أن هناك علاقة وثيقة بين الحالة النفسية للمتعلم وسرعة تعلمه وثباته، وقد أظهرت الدراسات الحديثة أن «الانفعالات الثائرة الهائجة لا تكاد تنجو من أثرها الضار وظيفة من الوظائف العقلية، فالانفعال العنيف يشوه الادراك ، ويعطل التفكير المنظم والقدرة على حل المشكلات، ويضعف القدرة على التذكر، ويشل سيطرة الارادة»[5] ونجد بعض هذه المعاني عند الخطيب حين يقول إن الانفعالات

---

(١) أمين رويحة : شباب في الشيخوخة . ط١، بيروت: دار الاندلس، ١٩٦٥م، ص٦٨ .
(٢) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج٢، ص١٠٦ .
(٣) المرجع السابق ، ج٢، ص١٠٦ .
(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٩ .
(٥) أحمد عزت راجح (مرجع سابق) ، ص١٤٢ .

الشديدة سواء كانت إنفعالات فرح أو ترح تغطي العقل وتحجب القلب «وإذا غاب القلب لم يعقل مايقال له»[1] ولذلك يرى الخطيب ألا يسأل الطالب معلمه «استاذه» إلا وهو حاضر القلب، متهيأ للتعليم مستعدا للتدريس ، كما أن الطالب إذا كان «ناعسا أو مغموما أو مشغول القلب أو قد بطر فرحا أو امتلأ غضبا لم يقبل قلبه ماسمع ، وإن ردد عليه الشيئ وكرره -المعلم- فإن فهم لم يثبت في قلبه مافهمه، حتى ينساه، وإن استعجم قلبه عن الفهم كان ذلك داعية للفقيه إلى الضجر وللمتعلم إلى الملل»[2].

وقد وجه الخطيب طلبة العلم إلى الحالات المناسبة التي يستطيعون فيها سؤال معلميهم وتلك التي يتعين تجنب السؤال فيها، ولذلك ينبغي للطالب أن يتحين الفرص المواتية التي تطيب فيها نفس المعلم ويصفو خاطره، ويتجنب سؤاله في حالة الغضب أو الجوع أو الفرح أو الحزن. لأنه في تلك الحال يتغير فهمه ولا يستطيع إصدار أحكام صحيحة، ولذلك ينبغي للطالب ألا يسأله عند انشغال قلبه[3] ، وهكذا يتضح لنا أثر الحالة النفسية على المتعلم وبالتالي سرعة وثبات تعلمه ومدى فهمه واستيعابه.

٧ - الثواب والعقاب :

يعتبر اسلوب الإثابة أحد الأساليب التي تعزز السلوك المرغوب فيه، وقد أولى الخطيب هذا النوع من أساليب تعزيز التعلم عناية مناسبة، ووجه المعلمين إلى استخدام الشكل المناسب منه، كعبارات المديح والتشجيع مثل أصبت وأحسنت وما إليها[4] وفي ذلك يقول: «إذا أجاب المسؤل بالصواب فعلى الفقيه أن يعرفه إصابته ويهنيه بذلك ليزداد في العلم رغبة وبه مسرة»[5] ويقدم الخطيب أسلوب الثواب والمدح على اسلوب العقاب والذم، وقد أيدت التجارب صحة ماذهب إليه الخطيب من أن «الثواب أقوى وأبقى من العقاب في عملية التعلم

---

(١) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٢٣١ .
(٢) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢، ص١٠٢ .
(٣) المرجع السابق ، ج٢، ص٩٩، ١٣٣، ١٤٢ .
(٤) المرجع السابق ، ج٢، ص١٣٤ .
(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٣٣ .

وأن المدح أقوى من الذم بوجه عام».[1]

أما العقاب كباعث على التعلم عند الخطيب، فهو يؤيد المعتدل منه، الذي لايجرح كرامة المتعلم، ولا يسيئ إليه، بل يستعمل ما يدفعه إلى اتخاذ الحيطة والحذر واتقاء الوقوع في الخطأ، وفي ذلك يقول: «وإذا أخطأ المسؤل في الجواب فعلى الفقيه أن يعلمه ذلك ليأخذ نفسه بانعام النظر، ويتحفظ من التقصير خوف الزلل»[2]، وينبغي للمعلم أن يكون توجيهه لمن أخطأ في لين ورفق من غير عنف أو توبيخ[3] بل إن المعلم مطالب بأن يتبسم في وجه طلبته، ويتلطف معهم، وهو يوجههم حتى لا يفقدوا ثقتهم بأنفسهم وفي ذلك يقول: «يجوز للفقيه مداعبة من أخطأ من أصحابه ليزيل عنه الخجل بذلك».[4].

ولما كان الطلبة يتفاوتون في التحصيل، كان من الجائز أن يسأل أحدهم ، وخاصة المبتدئ منهم عن أمور قد تكون من البساطة، وربما التفاهة أو الغرابة، الأمر الذي يجعله عرضه لسخرية زملائه، وقد وجه الخطيب المعلم إلى أن يتولى بنفسه الاجابة في مثل هذه الحالة، إنقاذاً للموقف ومنعاً لإحراج الطالب، وفي ذلك يقول: «إذا سأل الفقيه سائل عن مسألة اعجوبة فلا ينبغي للأصحاب أن يضحكوا»[5]، كما لا ينبغي لهم أن «يردوا على من أخطأ بحضرة العالم»[6]، بل «يتركوا العالم حتى يكون هو الذي يرد عليه».[7] ومعروف أن مجال الثواب والعقاب فسيح وهو يشمل الأمور المعنوية والحسية، من الارشادات والتلميح إلى الألفاظ والتصريح، وعلى العالم «أن يعود لسانه لين الخطاب والملاطفة في السؤال والجواب..»[8] سواء عند الثواب أو في حالات التأديب وإنزال العقاب.

---

(١) أحمد عزت راجح (مرجع سابق) ، ص٢٢٦ .
(٢) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج٢، ص١٣٤ .
(٣) المرجع السابق ، ج٢، ص١٣٦ .
(٤) المرجع السابق ، ج٢، ص١٣٦ .
(٥) المرجع السابق ، ج٢، ص١٣٧ .
(٦) المرجع السابق ، ج٢، ص١٣٨ .
(٧) المرجع السابق ، ج٢، ص١٣٨ .
(٨) المرجع السابق ، ج٢، ص١١٣ .

٨ – معرفة مقدار التعلم :

إن ممارسة التعلم دون معرفة بالنتائج قد لا تؤدي إلى حدوث التعلم الجيد، بخلاف ما إذا لو علم المتعلم بمقدار تقدمه،فإن ذلك يعينه على إجادة التعلم، وزيادة الانتاج مقدارا ونوعية وسرعة[١] وقد أدرك الخطيب بثاقب فكره أن معرفة المتعلم مدى تقدمه يحفزه إلى مواصفة التعلم، ولذلك يجب على المتعلم أن يقف بصورة دورية على مقدار ما يتعلمه ويحفظه، لأنه بذلك العمل يراجع رصيده المعرفي، ويتبين أوجه القوة من الضعف، ومقدار التقدم من خلافه ، فيعمل على مواصلة التعلم على علم وبصيرة، وفي ذلك يقول الخطيب ينبغي للطالب أن يراعي «ما يحفظه ويستعرض جميعه كلما مضت له مدة ولا يغفل ذلك».[٢]

كذلك يتعين على المتعلم «أن يجعل لنفسه حدا كلما انتهى إليه وقف عنده حتى يستقر مافي قلبه ويريح بتلك الوقفة نفسه»[٣] ولأن ذلك يساعده على استيعاب المادة وهضمها بما يوصله إلى أهدافه ويحققها، ويرى الخطيب أن على الطالب «أن يتثبت في الاخذ ولا يكثر بل يأخذ قليلا، قليلا حسب ما يحتمله حفظه، ويقرب من فهمه»[٤] وألا يخجل من السؤال عما لا يعلم، «فإن شفاء العي السؤال»[٥]، وأن يكون له «صبر شديد على الاستذكار»[٦]، لأن العلم لا يدرك «إلا بالصبر على الضر»[٧] كل ذلك مع المتابعة المستمرة للمادة المتعلمة حتى يعمل الطالب على «زيادة انتاجه وتحسين تعلمه».[٨]

وهكذا يعتبر الخطيب أن معرفة النتائج حافزا على مواصلة التعلم، كما أنها عملية تساعد المتعلم نفسه على التعرف على مواطن القوة والضعف والنجاح والفشل أولا بأول، ولأن المتعلم إن عرف ماهو صحيح، وما هو خطأ خلال مراحل تعلمه كان من المتوقع أن يوجه

---

(١) أحمد عزت راجح (مرجع سابق) ، ص٢٣٠ .
(٢) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج٢، ص١٠١ .
(٣) المرجع السابق ، ج٢، ص١٠٨ .
(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠١ .
(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠١ .
(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٢ .
(٧) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٩٤ .
(٨) حسن عبدالعال (مرجع سابق) ، ص٣٥ .

محاولاته القادمة سواء السبيل.[1]

ثالثا : عوامل التعلم الموضوعيـــة :

١ - كمية المادة المتعلمـــة :

تطرق الخطيب لكمية المادة المتعلمة التي يستطيع المتعلم استيعابها فهما وحفظا، وقد أسلفنا قوله بتفاوت الناس في قدراتهم واستعداداتهم وأن الفروق بينهم في ذلك لا تكاد تخفى[2]، وتأسيسا على هذا المبدأ الواقعي فإن الخطيب يوصي المتعلم «بأن يجعل لنفسه مقدارا كلما بلغه وقف وقفته أياما لا يريد تعلما..»[3]، حتى تستقر المعلومات في الذاكرة، ويتجنب تداخلها، فضلا عن إتاحة الفرصة بتلك الراحة لكي يتقن حفظ ما تعلمه ويريح بتلك الوقفة نفسه كما سبقت الإشارة إلى ذلك.[4]

وعلى الطالب «ألا يكثر، بل يأخذ قليلا، قليلا، حسب ما يحتمله حفظه، ويقرب من فهمه»[5]، حتى لا يتأخر في دراسته من حيث أراد التقدم فيها، ولذلك يقول الخطيب إن الطالب الذي يروم تعلم مادة كثيرة في مدة قصيرة، ربما يضر نفسه، لأنه إن «تعلم الكثير الذي لا طاقة له به، وإن تهيأ له في يومه ذلك أن يضبطه، وظن أنه يحفظه، فإنه إذا عاد من غد وتعلم نسيى ما كان تعلمه أولا وثقلت عليه إعادته»[6] الأمر الذي قد يتسبب في صرفه عن التعلم، لعدم قدرته على هضم المادة وحفظها بصورة مرضية، فيضيع جهده سدى، فضلا عما لذلك من أثر سلبي على تعلمه، ولذلك نجد الخطيب ينصح المتعلم بألا يتعلم ما لا يطيقه بل يقتصد على اليسير الذي يضبطه.[7] وقد ساق الخطيب بعض أقوال السلف من

---

(١) محيى الدين توق وعبدالرحمن عدس : أساسيات علم النفس التربوي، نيويورك : جون وايلي وأولاده، ١٩٨٤، ص٢٢٧.

(٢) الخطيب البغدادي (مرجع سابق)، ج٢، ص١٠٧ .

(٣) المرجع السابق، ج٢، ص١٠٨ .

(٤) انظر : المرجع السابق، ج٢، ص١٠٨ .

(٥) المرجع السابق، ج٢، ص١٠١ .

(٦) المرجع السابق، ج٢، ص١٠٨ .

(٧) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٢٣١ .

العلماء لتأييد رأيه الذي ذهب إليه ، فروى عن الزهري، أنه قال: «إن هذا العلم إن أخذته بالمكابرة له غلبك، ولكن خذه مع الأيام والليالي أخذا رفيقا تظفر به». [١]

٢ - وضوح المادة المتعلمة :

ربط الخطيب بين سرعة التعلم وسهولته من جهة، وبين وضوح المادة المتعلمة من جهة ثانية، وقد دلت التجارب على سرعة تحصيل المادة واستيعابها إذا كانت ذات معنى وتنظيم حسن، كما تكون أعصى على النسيان وأكثر قدرة واحتمالا على تطبيقها في المواقف الجديدة[٢] ، صحيح أن الانسان قد يتعلم أشياء هامشية وأخرى لا يفهمها، ولكن من الصحيح والثابت أيضا أن هذا التعلم غالبا ما «يكون أبطأ، وأبعد عن الدقة، وأقرب إلى النسيان»[٣] وعلى ذلك يكون وضوح المادة أحد العوامل الهامة التي تسهل عملية التعلم، وتزيد من القدرة على الاحتفاظ بالمادة المتعلمة.[٤]

إن محاولة التعلم بدون فهم عملية محفوفة بالمخاطر، مثل المتعلم فيها كحاطب ليل يقطع الحزمة من الحطب فيحملها، ولعل فيها أفعى تلدغه وهو لا يدري فيهلك بسببها[٥] ، ولذلك يرى الخطيب أن التعلم لا بد وأن يكون عن فهم واستيعاب إذا قصد به نفع الانسان، ومن هنا كان تقديم الفهم عنده على الحفظ وقد أكد الخطيب في أكثر من موضع أهمية فهم الطالب لدرسه، وانصرافه إلى مطالعته وتكراره حتى يعلق بحفظه.[٦]

ومهما يكن من أمر فقد حث الخطيب -كما رأينا- على التزام الوضوح والتركيز على المادة المتعلمة[٧] . والأمر بتقريبها إلى أذهان المتعلمين بضرب الأمثال والقياس والتشبيه[٨] مع الوضوح في الأسلوب، والابتعاد عن غريب الألفاظ والتقعر في الكلام «فإنه يقطع عن

---

(١) المرجع السابق ، ج١، ص٢٣٢ .
(٢) أحمد عزت راجح (مرجع سابق) ، ص٢٣٤ .
(٣) المرجع السابق ، ص٢٣٤ .
(٤) انظر : محي الدين توق وزميله (مرجع سابق) ، ص٢٢٤ .
(٥) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢ ، ص٨٠ .
(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٠ .
(٧) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢٤ .
(٨) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢٥، ١٢٦ .

الغرض المطلوب»[١]، وهكذا يعتبر الخطيب الوضوح وسيلة تسهل حفظ المادة وفهمها وتيسر استيعابها بصورة أفضل.

٣ - التــــدرج :

تقدم معنا فيما سبق أن الخطيب يذهب إلى ضرورة تحديد الطالب لنفسه مقدارا يمكنه تعلمه وحفظه بيسر وسهولة وبتعبيره هو «يأخذ قليلا، قليلا، حسب ما يحتمله حفظه وقرب من فهمه»[٢]، عملا بقول الرسول ﷺ : «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى»[٣]، ولذلك يتعين على الطالب أن يتدرج في تعلمه، وأن يقسم المادة التي يتعلمها إلى أقسام أو أجزاء، يتعلم كل يوم قسما منها، حتى يستقر حفظها في ذاكرته[٤]. وقد ذكرنا توجيه الخطيب للطالب بألا يتعلم الكثير الذي لا تسعفه استعدادته به، ولأنه إن تعلم ما لا تمكنه قدراته من فهمه واستيعابه فقد حماسه للتعلم وقل نشاطه حتى في تعلم القليل[٥]، فمن الواجب، والحال هذه أن «لا يأخذ الطالب نفسه بما لا يطيقه، بل يقتصر على اليسير الذي يضبطه، ويحكم حفظه ويتقنه»[٦]، على أن يقوم المتعلم بزيادة ما يتعلمه كل يوم «فذلك أعون له على التعلم الجيد»[٧].

٤ - التوجيه والنصـــح :

دلت الدراسات الحديثة على أن المتعلم إذا وجد إرشادا ونصحا وتوجيها صحيحا فيما يختص بالطرق السليمة، سهل عليه التعلم وقل عدد المرات التي يحتاجها المتعلم لاتقان العمل والأداء المطلوب[٨]، وقد عقد الخطيب بابا في كتابه «الفقيه والمتفقه» رتب فيه كيفية

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص١٨٩.
(٢) المرجع السابق، ج٢، ص١٠١.
(٣) المرجع السابق، ج٢، ص١٠١.
(٤) المرجع السابق، ج٢، ص١٠٨.
(٥) المرجع السابق، ج٢، ص١٠٨.
(٦) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٢٣١.
(٧) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢، ص١٠٧.
(٨) محيي الدين توق وزميله (مرجع سابق)، ص٢٣٠.

أحوال الطالب المبتدئ في التعلم، بحيث ضمنه الكثير من المبادئ التعليمية والتوجيهية، والعادات الايجابية ، ومن نصائح الخطيب في هذا الباب التي يوجهها للطالب المبتدئ «أن يقرب من الفقيه حتى يكون بحيث لا يخفى عنه شيئ مما يقوله ، ويصمت، ويصغى إلى كلامه»[1] ، فقد جاء عن السلف أن «أول العلم الصمت، والثاني حسن السؤال، والثالث حسن الاستماع، والرابع حسن الحفظ، والخامس نشره عند أهله».[2]

ومن التوجيهات الكثيرة الأمر بالتفرغ لطلب العلم، والتجرد عن الشواغل التي تقطع عن التعلم، وفي ذلك يقول الخطيب : «ينبغي للمتفقه أن يقطع العلائق ويطرح الشواغل فإنها موانع عن حفظ العلم ، وقواطع عن درس الفقه»[3] ، فإذا صح العزم على التعلم، كان أول الواجبات التي تتعين على الطالب أن يحرص عليها حضور الدرس وحسن الاستماع وأن يتثبت في الأخذ عمن يتعلم منه، ويتعهد نفسه بالفهم وقوة الحفظ للمادة المتعلمة[4] ويرى الخطيب أن تعلم الطالب للقليل مع إتقان فهمه وحفظه أجدى من تعلم الكثير الذي لا يفهمه ولا يحفظه، وأن يجعل الطالب من حفظه للعلم حفظ «رعاية لا حفظ رواية، فإن رواة العلوم كثير ورعاتها قليل..»[5] ، كذلك يحسن بالطالب التدرج في التعلم خطوة خطوة حتى لا يمل من الدرس، وأن يتألف نفسه «بالاقتصاد في التعلم والتوسط في التقويم لتحسن طاقتها ويدوم نشاطها».[6]

ومن عادات التعليم الجيد التي دعا إليها الخطيب ، ورغب فيها اتباع عملية العرض والمراجعة والتكرار ، بحيث يعيد الطالب ما تعلمه على نفسه ويعرض «مايحفظه .. جميعه»[7] ، هذا بالاضافة إلى التوجيه بمراعاة الفروق الفردية بين الطلاب، وإرشادهم إلى أنسب أوقات الحفظ وأحسن أماكن التعليم، وغير ذلك مما لا يتسع المقام لحصره وتعداده.

---

(١) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج٢ ، ص١٠٠ .
(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٠
(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٩٢ .
(٤) انظر : المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٠- ١٠١.
(٥) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ، ج١، ص٨٧.
(٦) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢ ، ص١٠٧ .
(٧) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠١ .

«وغاية القول أن الخطيب البغدادي أكد على أهمية الارشاد كعامل مساعد على التعلم الجيد، ورأي أن الارشاد إذا صاحب التعلم في بداية مراحله ساعد على تكوين عادات صحيحة للتعلم».[١]

٥ – مبدأ التشويق :

أورد الخطيب بعض الأحاديث والآثار التي تدل على أهمية التنويع، والتشويق في التعلم، وأثناء التعليم حتى لا يتسرب الملل والضجر إلى النفس، وخاصة إذا امتد الدرس فترة طويلة، مما يقلل من الفائدة المتوخاة من التعليم ، ومما رواه الخطيب في هذا المعنى أن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : «كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة بين الأيام كراهة السآمة علينا»[٢] ، لذلك يرى الخطيب أن من الحكمة اتباع المعلم لأسلوب التشويق والتنويع، «وهو الطريق الذي تعتمده اليوم المؤسسات التربوية في مناهجها التعليمية، وهي خير طريق لتثبيت ما يتلقاه الطالب من المعلومات».[٣]

وقد روى الخطيب في الحث على التشويق أقوالا عديدة منها قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه «روحوا القلوب، وابتغوا لها طرف الحكمة فإنها تمل كما تمل الأبدان»[٤] ، وقول الزهري إن رجلا كان «يجالس أصحاب رسول الله ﷺ ، ويذاكرهم ، فإذا كثر وثقل عليه الحديث قال: «إن الأذن مجاجة وإن للقلب حمضة[٥] ، ألا فهاتوا من أشعاركم وأحاديثكم»[٦] وقد أسلفنا أن الخطيب كان يأمر المعلم بالتبسط مع طلابه، وممازحتهم والضحك في وجوههم، لتقريب المسافة النفسية بينه وبينهم، وليزيل حاجز الرهبة والخجل الذي يحول دون تعلمهم.[٧]

---

(١) حسن عبدالعال (مرجع سابق) ، ص٤٦ .

(٢) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢، ص١٢٧.

(٣) عدنان أبوسعد الدين: منهج المحدثين في كتابه الحديث وأثر ذلك في ضبطه -ط١، الرياض: مكتبة الرشد : ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٣.

(٤) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج٢، ص١٢٩ .

(٥) أي شهوة ورغبة.

(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢٩ - ١٣٠ .

(٧) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢، ص١٣٦ .

صحيح أن الخطيب يحذر الطالب من الفوضى ، وطرح رداء الحياء وإتيان اللعب، والضحك، وغيره من الأعمال العابثة، إلا أنه لا يمانع أيضا فيما يكون من المزاح الأخوى البرئ الذي لا يخرج عن حد الأدب والاحترام، أما ما عدا ذلك من أعمال السخف والعبث والتبذل اللامسؤلة التي تحشر الصدور وتوغرها ، فإنها من الأمور المذمومة التي تضع من القدر وتزيل المروءة والهيبة، وفي ذلك يقول الخطيب: «يجب على طالب الحديث -العلم- أن يتجنب اللعب والعبث والتبذل في المجالس بالسخف والضحك والقهقه وكثرة التنادر وإدمان المزاح والاكثار منه، فإنما يستجاز من المزاح يسيره ونادره، وطريفه، الذي لا يخرج عن حد الأدب، وطريقة العلم ، فأما متصله وفاحشه وسخيفه، وما أوغر منه الصدور، وجلب الشر فإنه مذموم، وكثرة المزاح والضحك تضع من القدر وتزيل المروءة».[١]

وقد ذكر الخطيب بعض المواقف الطريفة التي تظهر روح المودة والتعاطف والألفة بين المعلم وطلبته، والتي تظهر في نفس الوقت روح الدعابة الذكية التي يتمتع بها بعض العلماء، ومن هذه المواقف قول الخطيب إن غلام حماد بن زيد سأله «يا أبا إسماعيل حدثك عمرو عن جابر أن النبي ﷺ نهى عن الخبز؟ قال: فتبسم حماد ، فقال: يا بني إذا نهى رسول الله ﷺ عن الخبز فمن أيش -حياة- هذه الناس؟ إنما نهى النبي ﷺ عن الخِبْر[٢] »[٣]، كذلك ذكر الخطيب أخبارا كثيرة في تصحيف القراء والمحدثين وما اشتملت عليه من طرائف لا يتسع المقام لذكرها.

٦ - مبدأ التكـــرار :

هناك حقيقة علمية مفادها أن التكرارات التي نقوم بها دون أن يصاحبها نية أو رغبة في التعلم قد لا تمكننا من حفظ المادة المتعلمة، مما يعني أن التكرار في حد ذاته لا يعتبر عاملا مؤثرا في إحداث التعلم الجيد ما لم يكن موجها[٤]، وقد بينا فيما سبق أثر الدافعية أو النية في التعلم عند الخطيب، ونضيف هنا تأكيد الخطيب لمبدأ آخر هام من مبادئ التعلم هو

---

(١) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص١٥٦ .

(٢) الخبز : بفتح الخاء وكسرها (والكسر أفصح) من المخابرة وهي : كراء الارض ببعض ما يخرج منها.

(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٩٢ .

(٤) محيى الدين توق وزميله (مرجع سابق) ، ص٢٣١ .

التكرار والمعارضة بالمحفوظ ، وذلك قبل أن تستقر الأخطاء إن كانت سبقت الطالب إلى حفظه[1] ويعتبر الخطيب أن التعلم المثمر هو الذي يحققه :

أ - التكرار المقترن بالانتباه والملاحظة للمحفوظ .

ب - التكرار الذي يقترن بمعرفة مقدار التقدم .

ج - التكرار الذي يقترن بتعمد الحفظ القاصد.

وقد شدد الخطيب كما أسلفنا على هذه الشروط وروى في ذلك أقوالا كثيرة منها قول سفيان : «اجعلوا الحديث حديث أنفسكم وفكر قلوبكم تحفظوه»[2] وقول علقمة «أطيلوا كر الحديث لا يدرس»[3] ، وقول علي بن أبي طالب «تزاوروا ، وتدارسوا الحديث، ولا تتركوه يدرس»[4] وقول ابن شهاب الزهري «إنما يذهب العلم النسيان وترك المذاكرة»[5] ويقول الخطيب إن طلبة العلم كانوا إذا لم يجدوا من يذاكروه أداموا ذكر الدروس مع أنفسهم، وكرروها على قلوبهم.[6]

من هذه الأقوال وغيرها نلمس مدى اهتمام الخطيب بمبدأ التكرار وعلاقته بالحفظ والتعلم، ولذلك نستطيع القول - وبناء على تأكيدات الخطيب السابقة- أن تكرار المادة الموجه أحسن وسيلة لتثبيتها ، وهذا معنى قول الخطيب : «ليس يثبت الحفظ إلا دوام المذاكرة بالمحفوظ»[7] ، ويتضح من هذا القول المعنى الاصطلاحي لتأكد التعلم « Over Learning» عند الخطيب الذي يوصي بتكرار المحفوظ بعد أن يكون التعلم الأصلي قد تم بالفعل، و «خلاصة القول أن التكرار يعتمد على عدة أمور من بينها نية المتعلم ونشاطه، ودافعيته، وطريقة توزيعه لمرات التكرار، كما يعتمد أيضاً على معرفة

---

(١) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج١، ص٢٣٥ .
(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٦٦ .
(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٦٦ .
(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٣٦ .
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٣٨ .
(٦) المرجع السابق ، ج ١، ص٢٣٨ .
(٧) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج٢، ص١٢٧ .

الفرد نتائج تقدمه في القيام بالأداء المطلوب»[1] ، وكل ذلك مما ذكره الخطيب وأكد عليه واهتم بمراعاته فيما أسلفنا من موضوعات هذا الفصل وغيره.

رابعاً : عوامل أخرى مساعدة على التعلم :

جرت العادة أن نتحدث عن الحفظ والتعلم والنسيان كما لو كانت أشياء منفصلة، وهي في الواقع أمور مرتبطة بعضها ببعض، ولا يمكن فصلها إلا بمقاييس غاية في الدقة[2] ، ويعتبر الحفظ والنسيان عمليتين ملازمتين للتعلم «فما نتعلمه يجب أن يحتفظ به، وعلى قدر احتفاظنا به ، على قدر ما تحقق هذه العملية أغراضها»[3] ، وفيما يلي نتكلم عن أهم عوامل الحفظ والنسيان عند الخطيب .

١ - أوقات الحفظ الجيد :

يرى الخطيب أن هناك تأثيراً لأوقات الحفظ المناسبة على التعلم من حيث قوة هذا الحفظ وضعفه، وسرعته من بطئه وزواله من دوامه، وفي ذلك يقول: «اعلم أن للحفظ ساعات ينبغي لمن أراد الحفظ أن يراعيها . وأجود الأوقات الأسحار، ثم بعدها وقت انتصاف النهار، وبعدها الغدوات دون العشيات ،وحفظ الليل أصلح من حفظ النهار»[4] ، كما أن « أوقات الجوع أحمد للتحفظ من أوقات الشبع »[5] ، وقد ذكر الخطيب في باب ما ينبغي للطالب أن يوظفه على نفسه من مطالعة الحديثة -العلم- في الليل وإدامة درسه، أن الأوائل كانوا يجزؤن الليل ويقسمونه إلى أجزاء بعضها للراحة والنوم، والبعض للعبادة والآخر للحفظ والمذاكرة.[6]

ويعلل الخطيب سبب تفضيل الحفظ في أوقات الليل بخلو القلب من الشواغل التي تتنازعه بالنهار، وفي ذلك يقول: «إنما اختاروا المطالعة بالليل لخلو القلب، فإن خلوه يسرع

---

(١) محيى الدين توق وزميله (مرجع سابق) ، ص٢٣١ .
(٢) ابراهيم وجيه محمود (مرجع سابق) ، ص٣٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص٩١ .
(٤) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص١٠٣ .
(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٤ .
(٦) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢، ص٢٦٤ .

إليه الحفظ»[1]، وفي الليل الهدو والصفاء اللذان يساعدان على تركيز الانتباه في موضوع التعلم، كما يزيدان من القدرة على التأمل والفهم، وبالتالي الحفظ والتعلم الجيد، لذلك يعتقد الخطيب أن خلو القلب من الغم «الهم» يكون أتم مايكون في أوقات الليل التي تساعد على الراحة واستعادة الاتزان والهدوء، وفي ذلك يقول: «وليست قلة الغم إلا مع خلو السر، وفراغ القلب، والليل أقرب الأوقات إلى ذلك»[2]

إن تفضيل المذاكرة والحفظ بالليل، وخاصة في الأسحار أمر له ما يبرره علميا، لأن الجسم يكون في حالة راحة وقادراً على بذل النشاط، فضلا عن إعطاء الذاكرة فرصة ترتب فيها مخزونها من المعلومات، التي تعلمها الطالب خلال اليوم، من أجل ذلك كان الأوائل يحثون على الحفظ والدرس بالليل وفي ذلك يروي الخطيب عن المنذر بن النعمان أنه قال لابنه: «يابني أحب لك النظر في الأدب بالليل، فإن القلب بالنهار طائر، وبالليل ساكن، فكلما أوعيت فيه شيئا علقه»[3] كما يروى في ذلك عن إسماعيل بن أبي أويس أنه قال: «إذا هممت أن تحفظ شيئا فنم وقم عند السحر فاسرج وانظر فيه، فإنك لا تنساه بعدُ إن شاء الله»[4]، ويذكر الخطيب أنه قيل لبعض الناس «بم أدركت العلم؟ . قال: بالمصباح والجلوس إلى الصباح»[5] وسأل شاب جاهل الفيلسوف اليوناني افلاطون «كيف قدرت على كثرة ما تعلمت؟ قال: لأني أفنيت من الزيت أكثر مما تشرب أنت من الشراب».[6]

ومهما يكن من أسباب لتفضيل الحفظ بالليل «فأحسب أن الخطيب أراد أن يتعود المتعلم التعلم والحفظ في وقت معين، يركز فيه انتباهه، ويشعر فيه أنه يتعلم تعلما مقصودا، فإذا تعلم المتعلم ذلك سهل عليه الحفظ»[7]، وذلك لأن «المتعلم عندما يتبع أسلوبا

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص٢٦٥ .
(٢) المرجع السابق، ج ٢، ص٢٦٥ .
(٣) المرجع السابق، ج ٢، ص٢٦٥ .
(٤) المرجع السابق، ج ٢، ص٢٦٥ .
(٥) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢، ص١٠٣ .
(٦) المرجع السابق، ج٢، ص١٠٣ .
(٧) حسن عبدالعال (مرجع سابق)، ص٤٩ .

معينا في المراجعة والحفظ، والتمكين ، عندما يتبع استراتيجية تعلم معينة في البداية فإنها تميل إلى أن تثبت عنده»[1]

٢ - أماكن الحفظ الجيـــد :

بعد أن تحدث الخطيب عن أوقات الحفظ المناسبة ، ذكر أن للتعلم أماكن خاصة ميسرة له، يحسن بالمتعلم المذاكرة والتحفظ فيها، وتتميز هذه الأماكن في العادة بالهدوء النسبي الذي يتيح للمتعلم في العادة فرصة التركيز والانتباه فيما يتعلمه وفي ذلك يقول : «للحفظ أماكن ينبغي للمتحفظ أن يلزمها»[2] ، ومن «أجود أماكن الحفظ الغرف دون السفل، وكل موضع بعيد مما يلهى، وخلا القلب فيه مما يفزعه فيشغله، أو يغلب عليه فيمنعه»[3]

ويبدو أن الخطيب رحمه الله إنما أراد المكان المناسب الثابت لكي يحدث عند تكرار الحفظ والدراسة فيه نوع من الاشتراط أو الارتباط عند المتعلم، بحيث يستشعر الجد والرغبة في الحفظ والتعلم كلما جلس فيه للمذاكرة، وبذلك تصبح عادة تركيز الانتباه في المكان عادة جسمية ونفسية معا تدفع المتعلم إلى العمل والحفظ والنشاط. وهكذا نرى أن أماكن الحفظ المناسبة عند الخطيب هي التي تبعد عن الصخب والحركة، وكذلك الأماكن الهادئة مثل المروج الجميلة وشواطئ الأنهار التي يؤدي الجلوس فيها إلى السرحان والتأمل والاسترخاء، وفي ذلك يقول : «وليس بالمحمود أن يتحفظ الرجل بحضرة النبات والخضرة، وعلى شواطئ الأنهار ولا على قوارع الطرق، فليس تعدم هذه المواضع غالبا ما يمنع من خلو القلب وصفاء السر».[4]

٣ - التعلم الزائد أو تجاوز الحفظ :[5]

إذا كان النسيان يبدأ حالما ينتهي التعلم مباشرة، وبصورة متسارعة في البداية، فإن

---

(١) سيد أحمد عثمان (مرجع سابق) ، ص٦٩ .

(٢) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج٢، ص١٠٣ .

(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٤ .

(٤) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص١٠٤ .

(٥) التعلم الزائد هو الذي يتعدى النقطة التي يكون التذكر عندها ممكنا للمرة الأولى - انظر : محي الدين توق وزميله (مرجع سابق) ، ص٢٦٢ .

المتعلم لكي يتذكر ما يحفظه يجب عليه أن يتعدى المستوى الأدنى المطلوب لحصول عملية التذكر[1] ، وهذا يعني الحاجة إلى تعلم زايد عن الحد العادي الذي يمكن عنده الحفظ والاستذكار، وقد أكد الخطيب على أهمية التعلم الزائد أو تجاوز الحفظ عندما أكد على المداومة على الحفظ والاستذكار والمراجعة المتكررة للمادة التعليمية حتى تثبت في الذاكرة وترسخ في قلب المتعلم وذهنه، وفي ذلك يقول الخطيب : «وليس يثبت الحفظ إلا دوام المذاكرة بالمحفوظ»[2] وقد أورد الخطيب في هذا المعنى أقوالا تقدم ذكر بعضها، وهي في جملتها تحث على الحفظ المتقن الدائم للمحفوظ من أجل تعلم يبقى ويفيد.

٤ – عوامل الحفظ عند الخطيب :

أوضحنا فيما سبق أهم العوامل التي تؤثر في عملية التعلم ومنها :[3]

أ - إخلاص النية لله تعالى .

ب - الجد والاجتهاد في طلب العلم .

ج - الذكاء والفطنة .

د - الرغبة في التعلم .

هـ - النشاط .

و - العمل ، فقد كان العلماء يستعينون على العلم بالعمل.[4]

ز - تقوى الله في السر والعلن قال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾[5] ، ويقول الخطيب إن علماء السلف كانوا يقولون : «إن أردت أن تلقن العلم فلا تعص»[6] ، ومن هذا المعنى قولهم «ترك المعاصي عون على

---

(١) المرجع السابق ، ص٢٦٢ .

(٢) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص١٢٧ .

(٣) انظر : الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢ ، ص٢٥٧-٢٦٤ .

(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٥٩ .

(٥) سورة الطلاق ، آية (٢ ، ٣) .

(٦) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج٢، ص٢٥٨ .

الحفـــظ»[1] ومما رواه الخطيب في ذلك قول الشافعي رحمه الله : [2]

شكوت إلى وكـيع سـوء حـفظي فـأومـأ لي إلى ترك المعـاصـي
وقـال بأن حـفظ الشـيئ فـضـل وفـضـل الله لا يدركـه عـاصي

ح - إصلاح الغذاء . [3]

ط - الاقتصاد في الطعام والشراب ، عملا بقول السلف «خد من الدنيا ما يكفيك ودع منها ما يطغيك، وإياك والبطنة ، فإنها تعمي عن الفطنة».[4]

ي - مداومة المذاكرة والتكرار .

ك - إشراك المتعلم لأكثر من حاسة من حواسه في التعلم، يقول الخطيب : «ينبغي لمن طالع كتابه أن يجهر بقراءته قدر ما يسمعه»[5] لأنك إن جهرت بقراءتك كان «لك ما أدى بصرك إلى قلبك، وما أدى سمعك إلى قلبك»[6] ، ومعلوم أن اشتراك أكثر من حاسة من حواس التعلم في عملية التعلم يجعل التعلم أتم والحفظ أسرع وأدق وأبقى.

٥ - عوامل النسيـان عند الخطيب :

ذكر الخطيب أن «من أنفع ما استعمل إصلاح الغذاء واجتناب الأطعمة الردينة، وتنقية الطبع من الأخلاط المفسدة»[7] ، وكما ذكر بعض الأطعمة التي يرى أنها عوامل تورث النسيان وتضعف الحفظ والفهم ، ذكر كذلك بعض الأعمال التي يعتبرها مسؤلة عن النسيان، ومن هذه الأطعمة وتلك الأعمال التي تضعف الحفظ :

أ - أكل التفاح الحامض .

---

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٢٥٨ .
(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٥٨ .
(٣) انظر : أبا بكر محمد بن زكريا الرازي : منافع الاغذية ودفع مضارها. وبهامشه دفع المضار الكلية عن الابدان الانسانية لابن سينا . ط١، بيروت : دار صادر (ب.ت) ، ص٥٩-٦١.
(٤) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع السابق) ، ج٢ ، ص٢٥٩ .
(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٦٦ .
(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٦٦ .
(٧) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج ٢، ص١٠٦ .

ب - شرب سؤر الفأرة .

ج - أكل الخل .

د - الحجامة في النقرة.[1]

هـ - إلقاء القمل على الأرض .

و - البول في الماء الراكد .

وكما ذكر الخطيب بعض الأعمال التي يعتقد أنها تورث المرء النسيان ذكر أيضاً بعض الأشياء التي يرى أنها تزيد في الحفظ ومنها :

أ - أكل سفوف الكُنْدر[2] «فإنه يشجع القلب ويذهب النسيان». [3]

ب - حلق القفا .

ج - أكل العسل «فإنه جيد للحفظ »[5]

د - أكل الزبيب .

هـ - أكل الرمان «الحلو فانه نصوح للمعدة». [6]

و - شرب ألبان البقر «فانه يشجع القلب ويذهب بالنسيان». [7].

ومهما يكن من أمر فالذي ينبغي لنا ألا نسخر من هذه الآراء مهما بدا بعضها غريبا، بل وغير منطقي، كما ينبغي ألا نسلم بها ، وكل مافي الأمر أننا نذكرها من باب إعطاء الأمانة العلمية حقها، ومهما كانت مفاهيمنا اليوم عن هذه الأمور والأشياء، فلن نطالب الخطيب بمعرفة القيمة الغذائية للمواد التي ذكرها، كما لن نطلب منه توزيع البروتينات، والهيدروكربونات، والمواد الدهنية، والمعادن، والفيتامينات، بالمقاييس الدقيقة وحتى غير الدقيقة، التي توصل المرء إلى هناء العيش ، ونشاط العقل، وزيادة

---

(١) النقرة : مكان في القفا.

(٢) الكُنْدُر : ضرب من العلك وهو اللبان الذكَر .

(٣) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢، ص٢٦٣ .

(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٦٣ .

(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٦٢ .

(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٦٢ .

(٧) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٦٢ .

الجمال، وإطالة الحياة[1] ، وهي معلومات تعد اليوم من عموميات الثقافة، بعدما اكتشف العلم الكثير من الخصائص والمكونات التي تشتمل عليها تلك المواد ، وأثرها على بناء الصحة الجسيمة والعقلية والنفسية للانسان.

ولئن كانت لنا ملاحظات على بعض العوامل التي تورث النسيان أو تزيد من الحفظ، فاننا نأخذ في الاعتبار أن الرجل ابن بيئته وأنه إنما يعبر عن مفاهيم وآراء معينة كانت سائدة في عصره وثقافته، «وأياما كان نصيب هذه الآراء من الصحة أو الغرابة بالنسبة إلينا فإنها تعكس أقصى ما كان ممكنا من فهم لدور هذه العوامل جميعاً في النسيان كما تعكس اتساعاً في فهم ظاهرة النسيان من حيث هي ظاهرة متعددة الجوانب إنفعالية، وعقلية وسلوكية، فضلا عن جوانبها الجسمية والغذائية والصحية».[2]

نخلص مما سبق إلى أن الخطيب أحد العلماء الأجلاء الذين استطاعوا بثاقب فكرهم وتجاربهم أن يكونوا نظرة موضوعية عن التعلم وهو وإن لم يكتب عن التعلم كتابة قاصدة إلا أن الباحث يستطيع الوقوف على مدى عنايته به ودقته في فهمه لمبادئه، وعوامله المؤثرة فيه، وقد رأينا أن للخطيب مفهومه الخاص عن التعلم كما كان له رأيه الواضح في العوامل والشروط التي تهيمن عليه وتساعد على تحسين قدرته وكفاءته، حيث تناول مجموعة من العوامل التي يمكن تصنيفها إلى عوامل ذاتية تتصل بالمتعلم وأخرى موضوعية تتصل بالمادة المتعلمة وثالثة مساعدة للتعلم وميسرة له، ولئن كانت لنا ملاحظات أو تحفظات على بعض هذه العوامل، فإننا نأخذ في الاعتبار أن الخطيب ابن بيئة معينة أثرت فيه، وفي نظرته إلى التعلم وغيره، وليس من المقبول أن نطلب من الخطيب أن تكون أحكامه موافقه لاحكامنا، لان عصره وظروفه غير عصرنا وظروفنا، ولذلك ينبغي أن يكون حكمنا على آرائه في حدود المتغيرات الاجتماعية والثقافية والفكرية والتعليمية التي كانت سائدة في زمنه، وكيفما كان حظ هذه الآراء من الصحة أو الخطأ، ومن الغرابة من خلافها بالنسبة إلينا، فإنها تعكس أقصى ماكان ممكنا من فهم لدور هذه العوامل وأثرها في التعلم والتعليم في العصر الذي عاش فيه الخطيب.

---

(١) جايلورد هوزر : الغذاء يصنع المعجزات لماذا نأكل وماذا يجب أن نأكل ، (ترجمة أحمد قدامة) ط٨، بيروت: دار النفائس ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٢٦.

(٢) سيد أحمد عثمان (مرجع سابق) ص٨٤ .

الفصل الثامن

التعليم : مناهجه وأساليبه وأدواته

ويتضمن هذا الفصل الموضوعات التالية :

- تمهيداً

أولاً : مناهج التعليم

ثانياً : الأساليب التعليمية

ثالثاً : أدوات التعليم



الفصل الثامن

التعليم : مناهجه وأساليبه وأدواته

تمهيـــد :

التعليم والاعداد للحياة عمليتان متلازمتان «الأولى وسيلة والثانية غاية»[١]، وللتعليم معان كثيرة ، فقد يطلق على العملية التربوية بكاملها[٢]، وقد يطلق على عملية التدريس والتدريب[٣]، وقد يطلق على غير ذلك من معاني العملية التربوية في عمومها وخصوصها.[٤]

والواقع أن التعليم شيئ غير التدريس، فالتعليم نقل للتراث والتجارب والخبرات من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة[٥]، أما التدريس فهو وسيلة هذا التعليم وطريقة تحقيقه[٦] ، فلا يمكن مثلا «أن نقول إن مدرسا قد قام بعملية تدريس ناجحة، إذا لم يوجد من تعلم منه شيئا..»[٧]، وعلى هذا يكون التعليم الفعال هو التعليم الذي يؤثر في المتعلم ويحدث التعديل المرغوب في سلوكه.

وفيما يلي نتكلم على التعليم عند الخطيب من حيث مناهج التعليم وأساليبه، وأدواته.

---

(١) محمد جمال صقر (مرجع سابق) ، ص١١ .

(٢) انظر : عبدالفتاح جلال (مرجع سابق) ، ص١٦ - ٢٤ .

(٣) رشدي لبيب ، جابر عبدالحميد ومنير عطا الله : الاسس العامة للتدريس ، ط١، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٣م، ص٢٩ .

(٤) جلبرت هايت : فن التعليم، (ترجمة محمد فريد أبوحديد) - القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٥٤م ، ص٣١، ٣٥ .

(٥) سيد سجاد حسين و سيد علي أشرف : أزمة التعليم الاسلامي (ترجمة أمين حسين الرباط ومراجعة عبدالحميد محمد الخريبي) ط١، جدة : شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٥٣.

(٦) كوثر حسين كوجك : مقدمة في علم التعليم . القاهرة : عالم الكتب، ١٩٧٧م، ص٢١.

(٧) المرجع السابق ، ص١٢ .

أولا : مناهج التعليم :

يرى الخطيب أن مناهج التعليم التي يجب أن يدرسها الطالب هي مايلي:

١ - القرآن الكريم :

القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى الذي أنزله على خير خلقه وأفضل أنبيائه محمد ﷺ ، وهو الكتاب الوحيد الذي تكفل الله بحفظه إلى يوم الدين ، قال تعالى : ﴿.. وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[١] . ويعتبر القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ «منهاج المسلم العام في هذه الحياة، وضمن إطارهما تنبثق مناهج التربية والتعليم في سائر العلوم والمعارف النقلية ، والعقلية، الانسانية، والتجريبية، ما نعلم منها، وما سنعلم»[٢] قال تعالى : ﴿مافرطنا في الكتاب من شئ..﴾[٣]، ومما رواه الخطيب في هذا المعنى أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يتساءلوا «عن شيئ إلا علمه في القرآن الكريم ولكن قصر علمنا عنه»[٤]

ولقد خدم المسلمون كتابهم وفاقت عنايتهم به «كل عناية بذلت أو تبذل لحفظ كتاب من الكتب السماوية أو غيرها، فكان أن عملوا على فهمه واستنباط الأحكام منه والخضوع لأوامره، ونواهيه في جميع نواحي الحياة»[٥]، وقد روى الخطيب في هذا المعنى بسنده عن عبدالله بن مسعود ، قال: قال رسول الله ﷺ : «إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلموا مأدبته، ما استطعتم، وإن هذا القرآن هو حبل الله، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا

---

(١) سورة فصلت ، آية (٤١، ٤٢) .

(٢) إسحاق أحمد فرحان وتوفيق مرعي، وأحمد بلقيس : المنهاج التربوي بين الاصالة والمعاصرة. ط١، عمان : دار الفرقان ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٦٤.

(٣) سورة الأنعام ، الآية (٣٨).

(٤) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج١، ص٥٧ .

(٥) أحمد البيلي : «التصور الاسلامي لمناهج التعليم» من كتاب محمد حامد الافندي وبنى أحمد بالوتش : المنهج واعداد المعلم (ترجمة عبدالحميد الخريبي) -ط١، جدة : شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٥٤ .

يخلق على كثرة الرد ».[1]

لهذه الاعتبارات وغيرها يرى الخطيب أن القرآن الكريم هو « أجل العلوم وأولاها بالسبق والتقديم »[2] ولذلك كان حرصه على البدء بحفظه قبل تعلم غيره من العلوم، ويذكر الخطيب أن الأوزاعي كان يسأل الغلام الذي يأتيه يتعلم منه : « ياغلام ، قرأت القرآن؟ فإن قال: نعم، قال: أقرأ: ﴿يوصيكم الله في أولادكم ..﴾[3]. وإن قال لا. قال : إذهب تعلم القرآن قبل أن تطلب العلم ».[4]. لأن من تعلم القرآن «واتبع مافيه هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب»[5] قال تعالى : ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾[6]، وعلى الطالب أن يتفرغ لحفظ القرآن الكريم ولا يشرك معه غيره من العلوم حتى وإن كانت حديث الرسول ﷺ محافظة عليه من النسيان.[7]

٢ - الحديث الشريف :

يعتبر الحديث الشريف العلم الثاني الذي يتلو القرآن الكريم في السبق وأهمية التقديم، وفي ذلك يقول الخطيب : «الذي يتلو القرآن من العلوم أحاديث رسول الله ﷺ، وسنته، فيجب على الناس طلبها إذ كانت أس الشريعة وقاعدتها »[8] وإذا كان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة في جميع الأوقات، فإن طلبة آكد، وتعلمه أوجب في الأوقات التي ينتشر فيها الجهل، وتضعف العزائم، وتنحط الهمم، وخاصة إذا ما تأكد جهل المسلمين بدينهم،وهو الأمر الذي يبدو حدوثه في زمن الخطيب، حتى اعتبر « أصحاب السنن أقل الناس »[9]. ويقول الخطيب إن ذلك راجع إلى قلة «الحفاظ للحديث العالمين بطرقه المميزين

---

(١) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص١٠٧ .
(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٠٦ .
(٣) سورة النساء ، الآية (١١) .
(٤) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج١ ، ص١٠٨ .
(٥) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٥٦ .
(٦) سورة طه ، آية (١٢٣) .
(٧) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص١٠٨.
(٨) المرجع السابق ، ج١ ، ص١١١.
(٩) المرجع السابق ، ج١ ، ص١١٢.

لصحيحه من سقيمه»[1] ورغم قلة المتخصصين التي يضيق الخطيب بها هنا، فإن تعلم الحديث وروايته كانت رائجة في عصره، وكان إقبال الطلبة على حلقات المحدثين كبيرا، وحبهم للاستزادة منه عظيما.[2]

ويتركز منهج الحديث عند الخطيب في المواد التالية، فهو يرى أن يبتدئ الطالب «بسماع الأمهات من كتب أهل الأثر، والأصول الجامعة للسنن»[3]، وأحق هذه المصادر بالتقديم عنده «كتاب الجامع والمسند الصحيحان لمحمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن حجاج النيسابوري»[4]، ويتلوا الصحيحين «سنن أبي داود السجستاني وأبي عبدالرحمن النسوي وأبي عيسى الترمذي، وكتاب محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري.. ثم كتب المسانيد الكبار، مثل مسند أبي عبدالله أحمد بن حنبل، وأبي أيوب إسحاق بن إبراهيم المعروف بابن راهويه..»[5]، ثم مسانيد الطبقة التي تأتي بعد هؤلاء[6]، ثم الكتب المصنفة في الأحكام، الجامعة للمسانيد وغير المسانيد[7]، ثم الكتب المتعلقة بعلل الحديث وتواريخ المحدثين وكلامهم في أحوال الرواة.[8]

فاذا أحرز الطالب «صدرا مما ذكرناه، فلا عليه أن يشتغل بالسماع والكتب للفوائد، المنثورة، غير المدونة والمجموعة، ويعمد لاستيعابها دون انتخابها»[9]، عملا بقول يحيى بن معين إن «الذي ينتخب الحديث إنما يأخذ النخالة ويدع الدقيق»[10]، ولذلك فقد شاع بين طلبة العلم مبدأ يقول: «لا تتركوا شيئا فإنه ليس شيئ إلا أريد به شيئ»[11]، ومعروف أن

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص١١٣.
(٢) بشار عواد معروف (مرجع سابق)، ص٥٠٣.
(٣) الخطيب البغدادي (مرجع سابق)، ج٢، ص١٨٤.
(٤) المرجع السابق، ج٢، ص١٨٥.
(٥) المرجع السابق، ج٢، ص١٨٥.
(٦) المرجع السابق، ج٢، ص١٨٦.
(٧) المرجع السابق، ج٢، ص١٨٦.
(٨) المرجع السابق، ج٢، ص١٨٦.
(٩) المرجع السابق، ج ٢، ص١٨٧.
(١٠) المرجع السابق، ج٢، ص١٨٧.
(١١) المرجع السابق، ج٢، ص١٨٨.

الحديث يشتمل على المسند والموقوف والمرسل والمقطوع، والقوي والضعيف والصحيح والسقيم، وغير ذلك من الأوصاف المختلفة والنعوت المتغايرة، وفي كتب الكل فائدة لا يخطؤها طالب العلم، وقد لخص الثوري رحمه الله الحكمة من دراسة هذه المواد والعلوم الكثيرة، وتفاوت اهتمام الطلاب بها فقال: «إني لأكتب الحديث على ثلاثة وجوه، فمنه ما أتدين به، ومنه ما أعتبر به، ومنه ما أكتبه لأعرفه».[١]

٣ - الفقــــه :

الفقه في اللغة الفهم[٢] ، ولذلك يقال للعلم الفقه وللعالم الفقيه، لأنه «إنما تعلم بفهمه على مذهب العرب في تسمية الشيئ بما كان سببا له»[٣]، ومن هذا المعنى قولهم رجل فقيه أي عالم «وكل عالم بشيئ فهو فقيه فيه.. »[٤]، كما أن الفقه معرفة الأحكام الشرعية التي طريقها الاجتهاد.[٥] ويقول الخطيب إن الفقه يدور على أربعة أحاديث أو خمسة هي الحلال بين، والأعمال بالنيات، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، ولا ضرر ولا ضرار ، وإنما الدين النصيحة.[٦].

ويتركز منهج الفقه في العلم بما أمر الله ورسوله به، وما نهيا عنه، مما جاء في الكتاب والسنة، وما توصل إليه مجتهدو هذه الأمة في ضوء الشرع أولا والعقل الذي يسدده هذا الشرع ثانيا، بحيث تخضع جميع مجالات الحياة من عبادات ومعاملات ونشاط وفكر، وعمل لله تعالى، ومعروف ما للعبادات، فضلا عن نظام المعاملات من جوانب لا تنكر في تربية الفرد وتوجيهه، إضافة إلى الآثار الاجتماعية، والأخلاقية التي تصقل النفوس، وتربي السلوك والاعتقاد.[٧]

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٩٣ .

(٢) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٥٣ .

(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٥٣ .

(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص٥٣ .

(٥) المرجع السابق ، ج١، ص٥٤ .

(٦) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢، ص٢٩٠.

(٧) انظر : فتحي بيومي حمودة ومحمد أحمد عبدالهادي : التربية والطرق الخاصة بتدريس العلوم الاسلامية والعربية. ط١ ، جدة : دار البيان العربي ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٩٧.

٤ - اللغة العربيـــة :

يقوم منهج التربية الاسلامية على ركيزتين أساسيتين هما القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وما ينبثق عنهما من علوم الشريعة والعقيدة وما يكون وسيلة لفهمهما من علوم العربية وآدابها. وتعتبر اللغة أحد أهم علوم المنهج، فهي روح الأمة ولسان حالها، وهي الوعاء الذي يضم حضارتها وعلومها، وآدابها وكل تراثها، لذلك أولى الاسلام أهمية خاصة للغة العربية، فهي لغة القرآن وأداة الفصاحة والبيان. وقد جاءت أقوال السلف واضحة في الحث على تعلم العربية واتقانها، ومما جاء بهذا الخصوص قول عمر بن الخطاب «تعلموا العربية فإنها تزيد في المروءة[١]، وقول شعبة «من طلب الحديث فلم يبصر العربية فمثله مثل رجل عليه برنس وليس له رأس»[٢] . وقول يحيى بن عتيق «سألت الحسن ، فقلت: أرأيت الرجل يتعلم العربية، يطلب بها حسن المنطق ويلتمس أن يقيم قراءته، قال : حسن، فتعلمها يا أخي، فان الرجل يقرأ الآية فيعي بوجهها فيهلك فيها ».[٣]

وقد أسلفنا أن الخطيب يعتبر علم العربية أحد العلوم المساعدة لفهم القرآن الكريم، ولذلك تجده ينصح الطلبة بحفظ الآثار ودرس النحو وعلم العربية واللغة[٤]، لأن الله تعالى إنما أنزل كتابه بلسان العرب، قال تعالى : ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[٥] ويذكر الخطيب أن الأوائل عابوا اللحن وشددوا على وجوب تجنبه، والمحاذرة من الوقوع فيه، وكان غير واحد منهم ينتقد طلبة العلم الذين يلحنون، ويطالبهم بتعلم اللغة العربية قبل البدء في طلب العلم وتحصيله[٦]، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يضربون أبناءهم على اللحن، ويجبرونهم على تعلم اللغة[٨]، و «درس النحو ومطالعة علم العربية».[٨]

---

(١) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج١، ص٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٦ .

(٣) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج١، ص٥٧ .

(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص٥٧ .

(٥) سورة يوسف ، الآية (٢) .

(٦) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ، ج٢، ص٣٦.

(٧) المرجع السابق ، ج٢، ص٢٩ .

(٨) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٤ .

وإذا كان هذا هو الحال، فإن تعلم اللغة يكون من الأمور الواجبة، وخاصة عند درس القرآن وتلاوته[1]. وإذا كان هناك من يتعلم اللغة لتقويم اللسان وإصلاح البيان وإتقان تلاوة القرآن، فإن هناك فئة من المتعليمن تعلمت اللغة ودرست النحو على سبيل الخيلاء والزهو، والغرور، والكبر المرذول[2]، وكان الأولى بهذه الفئة أن تصلح أعمالها، وتقوم أخلاقها، لأن العبرة بصلاح العمل، لا ببهرج اللغة وبريق البيان.[3]

٥ - التفسيــر :

التفسير علم يتضمن أحكاما طريقها النقل، لذلك يتعين على الطالب كتبه ويجب عليه فهمه وحفظه .[4]

٦ - القـــراءات :

عن أم أيوب عن النبي ﷺ قال : «نزل القرآن الكريم على سبعة أحرف ، فبأي حرف قرأت أصبت»[5] . وقد أولى المسلمون القرآن الكريم وما يتصل به من علوم مساعدة عناية كبيرة، وفي مقدمة تلك العلوم التفسير والقراءات.

٧ - الأدب :

من الأجناس الأدبية التي كانت مزدهرة الشعر ، الذي يتضمن عند الخطيب ذكر «الحكم النادرة، والأمثال السائرة، وشواهد التفسير، ودلائل التأويل، فهو ديوان العرب، والمقيد للغتها ووجوه خطبها، فيلزم كتبه للحاجة إلى ذلك»[6] . وقد روى الخطيب أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقول : «إذا سألتموني عن عربية القرآن فالتمسوها بالشعر، فإن

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٣٠ .
(٢) انظر : الخطيب البغدادي : اقتضاء العلم العمل (مرجع سابق) ، ص٩١ .
(٣) المرجع السابق ، ص٩٣ .
(٤) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢، ص١٩٤.
(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٩٦ .
(٦) المرجع السابق ج٢ ، ص١٩٧ .

الشعر ديوان العرب»[١]. وقد استمرت الحركة الأدبية مزدهرة حتى امتدت إليها يد التكلف التي صبغت الأدب بلون التملق والشحاذة، وتنميق العبارات وتزويقها.[٢]

٨ - المغـــازي :

والمقصود بها سيرة الرسول ﷺ في حروب الاسلام التي قادها ﷺ في حياته، وتتعلق بهذه السيرة أحكام وتعاليم وهدى كثير، لذلك يجب تعليمها والحفظ لها[٣]، وقد كان المسلمون يعلمون السيرة لأبنائهم ، كما يعلمونهم السورة من القرآن، وفي ذلك يقول علي بين الحسين : «كنا نعلم مغازي رسول الله ﷺ وسراياه كما كنا نعلم السورة من القــرآن»[٤]، وكانوا يقولون لنا : «هذه مآثركم فلا تضيعوها»[٥]

٩ - التاريـــخ :

علم التاريخ له فوائد كثيرة، أقلها العبرة والاعتبار، ومعرفة أحوال الأمم وسنن الله في الحوادث والآثار، فضلا عن كون تعلم التاريخ ودراسة أحوال الرجال، طريقاً إلى تمحيص الحقيقة ونفي الكذب عن حديث الرسول ﷺ[٦]، وقد استقر علم التاريخ عامة في عصر الخطيب، ونضجت مواده، ورسخت قواعده، وأصوله، وتنوعت أهدافه، وانقسم إلى مجموعات كبيرة، تضم السير وتواريخ الدول وتراجم المشاهير والأعلام، وتواريخ البلدان.[٧]

إن العلوم المتقدمة علوم نظرية تتطلب عند الخطيب معرفة الطرق التي تم نقلها بها، حتى نطمئن إلى صحتها وسلامتها من الكذب والتحريف، ولذلك يعتبر الخطيب أن الأسانيد المتصلة في هذه العلوم شرط في صحتها ولزوم العمل بها[٨]. ولذلك عد المسلمون الاسناد من

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٩٨ .
(٢) محمد حسين شندب (مرجع سابق) ، ص٦٩ .
(٣) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج٢، ص١٩٥ .
(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٩٥ .
(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٩٥ .
(٦) المرجع السابق ج٢ ، ص١٩٩ .
(٧) محمذ حسين شندب (مرجع سابق) ، ص٧٠ .
(٨) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج٢، ص٢١٣ .

الدين «لولا الاسناد لقال من شاء ماشاء»[1]. «أما أخبار الصالحين، وحكايات الزهاد والمتعبدين، ومواعظ البلغاء وحكم الأدباء، فالاسانيد زينة لها، وليست شرطا في تأديتها».[2]

وفي ضوء هذا المفهوم يجب أن تكون نظرتنا إلى المناهج الدراسية الاسلامية، نظرة شمولية، تكاملية، تتوخى تحقيق أهدافنا ، وغاياتنا القريبة والبعيدة، فلا تقتصر مناهجنا على العلوم الشرعية أو الأدبية أو العلمية، وإنما تشمل العلوم العقلية والنقلية، والنظرية والتجريبية، وبذلك تكون المناهج شاملة لكل علم مباح، ينفع الانسان في دينه ودنياه.

ثانيا : الأساليب التعليميـــة :

تعرف الطريقة في أبسط معانيه بأنها سلوك أقرب السبل وأيسرها إلى عمل مايريد الانسان[3]، وقد ظهرت طرق تربوية وتعليمية عديدة، حتى «صار لكل علم طريقة ينبغي لأهله أن يسلكوها، وآلات يجب عليهم أن يأخذوا بها ويستعملوها»[4]. ومع تعدد هذه الطرق وتنوعها ، إلا أنه لا توجد طريقة واحدة منها تعتبر صالحة في جميع الأوقات، ولجميع الظروف والمناسبات، وإنما تعد «الطريقة مناسبة متى سايرت مبادئ التدريس.. ومتى كانت قائمة على فلسفة تربوية واضحة، محققة للأهداف التي يريد التلاميذ والكبار تحقيقها..»[5].

وقد تنوعت طرق التعليم وأساليبه، أو ما اصطلح عليه بطرق تحمل الرواية، وأدائها عند المحدثين، تبعا لظروف العصر وأحوال المجتمع، وحاجات التعليم، ومن الطرق التعليمية التي كانت شائعة في زمن الخطيب، السماع، والمذاكرة، والاملاء، والقراءة، والعرض، والمناظرة

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢١٣ .
(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢١٣ .
(٣) فتحي بيومي حمودة وزميله (مرجع سابق) ، ص٧٣ .
(٤) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج١ ، ص٧٥ .
(٥) رشدي لبيب وزملاؤه (مرجع سابق) ، ص٣٩ .

والسؤال، والاجازة، والرحلة. وكان العالم يستخدم واحدة أو أكثر من هذه الطرق، حسب طبيعة الموضوع الذي يدرسه لطلابه، وحسب المستوى التعليمي والعقلي للتلاميذ أيضا. وفيما يلي نتناول أهمل هذه الأساليب :

١ - الامــــلاء :

يعتبر الخطيب الاملاء من أحسن أساليب المحدثين، لما «فيه من جمال الدين والاقتداء بسنن السلف الصالحين»[١]. وتتلخص طريقة الاملاء في جلوس المعلم وسط الحلقة للاملاء، فيفتتح المجلس بالبسملة وحمد الله، والصلاة على النبي ﷺ ، ثم يشرع بعد ذلك في الاملاء، فاذا فرغ مما هو فيه، أنهى المجلس بسرد بعض الحكايات والنوادر وطرف الحكمة ولطيف الأشعار، ثم يكون آخر كلامه حمد الله تعالى واستغفاره.[٢]

وكان العلماء يستعينون بشخص يسمى المستملي بعد اتساع حلق الدرس بصورة لم يعد المعلم قادرا معها على إبلاغ صوته لكل فرد في مجلس التعليم[٣]، وقد بلغ تعداد بعض المجالس ما «يحرز بأكثر من مائة ألف إنسان»[٤] وهو عدد مبالغ فيه كثيراً، الأمر الذي استدعى الاستعانة بالمستملين الذين كان عددهم في بعض المجالس قرابة العشرين[٥]، وقد ذكر الخطيب بعض الأوصاف والشروط التي يجب توفرها في المستملي منها الظرافة واللطف[٦] ، واليقظة والفصاحة وسرعة الفهم[٧]، وقوة الصوت والأداء، مع الالمام بالعلم الذي يستمليه، وله بعض الدراية والخبرة فيه.[٨].

---

(١) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج ٢ ، ص٥٥ .

(٢) أبو سعد السمعاني : أدب الاملاء والاستملاء، (تحليل وتحقيق محمد زيعور) ، ط١، بيروت: دار اقرأ ، ١٤٠٤/١٩٨٤م، ص١٢١ - ١٦٢ .

(٣) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج٢، ص٦٥ .

(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٥٦ .

(٥) السمعاني (مرجع سابق) ، ص٧٧ .

(٦) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص٦٥ .

(٧) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٦٦ .

(٨) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٨٥ .

أما الآداب التي يتيعين على المستملي أن يتحلى بها، فكثيرة ومنها قراءة بعض آي القرآن أو سوره[1] عند بدء الاملاء، والهدوء والتزام النظام، ثم البسملة، وحمد الله تعالى[2]، والصلاة على النبي ﷺ، «فإن اتباع ذكر الله واجب، والصلاة عليه في تلك الأحوال أمر لازم»[3]. ويستحب الخطيب للمستملي أن يستملي وهو قائم أو جالس على موضع مرتفع[4]، و «أن لا يخالف لفظ الراوي في التبليغ عنه، بل يلزمه ذلك، وخاصة إذا كان الراوي من أهل الدراية والمعرفة بأحكام الرواية»[5].

وللاملاء أوقات معينة يحسن بالمعلم أن يحددها لتلاميذه، وأن لا يخلف وعده، إلا أن يقتطعه عن الوفاء به أمر يقوم عذره به[6]. وعلى الطالب الذي يريد سماع الاملاء «البكور خوفا من فوات المجلس، بتأخير الحضور، وأن يتعذر عليه مع ذلك إعادته من قبل الشيخ، لعل التمنع عادته»[7]. ويقول الخطيب إن خلقا من طلبة العلم كانوا يأخذون أماكنهم في مجلس علي بن المديني، ليلة الاملاء، ويبيتون هناك حتى لا يفوتهم الاملاء.[8]

٢ - السماع:

يتمثل أسلوب السماع في إلقاء العالم دروسه على الطلبة، بينما يستمع الطلبة أو يكتبون عنه أثناء السماع[9]، وينقسم السماع إلى ثلاثة أقسام: أولها: قراءة العالم على الطالب. وثانيها: قراءة الطالب على العالم. والثالث: أن يدفع العالم إلى الطالب كتابا قد عرفه فيقول له أروه عني[10]. وقد اختلف العلماء حول القراءة والعرض والسماع، فاختار

---

(١) المرجع السابق، ج ٢، ٦٨.
(٢) المرجع السابق، ج ٢، ص٦٩.
(٣) المرجع السابق، ج٢، ص٧٠.
(٤) المرجع السابق، ج٢، ص٦٦.
(٥) المرجع السابق، ج٢، ص٦٧.
(٦) المرجع السابق، ج٢، ٥٩.
(٧) المرجع السابق، ج٢، ص١٣٥.
(٨) المرجع السابق، ج ٢، ص١٣٨.
(٩) الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية (مرجع سابق)، ص٦٧.
(١٠) المرجع السابق، ص٣٢٣.

قوم منهم طريق السماع من لفظ العالم، وفضلوها على القراءة، بينما اختار آخرون طريق العرض والقراءة[1]، ويميل الخطيب إلى الأخذ بأسلوب العرض والقراءة وتقديمه على السماع، لأن العالم عند القراءة عليه يكون متيقظا منتبها، بخلاف ما إذا كان هو الذي يقرأ بنفسه، لثقته فيما يقرأ من جهة، ولما قد يعرض له من سرحان وتشتت ذهن أثناء القراءة من جهة ثانية. وفي ذلك يقول يحيى بن سعيد القطان «القراءة أشد عليّ من الاملاء، لأني إذا قرئ علي جعلت ذهني كله فيه».[2]

ويقول الخطيب إن حجة من فضل القراءة على السماع ظاهرة «لأن الراوي ربما سها وغلط فيما يقرأ بنفسه، فلا يرد عليه السامع، أما لأنه ليس من أهل المعرفة بذلك الشأن، أو لأن الغلط صادف موضع اختلاف بين أهل العلم فيه، فيتوهم ذلك الغلط مذهبا له، فيحمله عنه على وجه الصواب، أو لهيبة الراوي وجلالته، فيكون ذلك مانعاً من الرد عليه، وأما إذا قرئ على المحدث، وهو فارغ السر، حاضر الذهن، فمضى في القراءة غلط، فإنه يرده بنفسه، أو يرده على القارئ بعض الحاضرين من أهل العلم، لأنه لا يمنع من ذلك شيئ في معنى الخلال التي ذكرناها عند قراءة العالم بنفسه، والله أعلم».[3]

وكما اختلف العلماء حول القراءة والسماع، اختلفوا أيضا حول الكتابة اثناء السماع[4]، ويعتبر الخطيب أن علة المنع أثناء السماع هي انشغال القلب عن ضبط ما يقرأ «فأما إذا لم تمنع الكتابة عن فهم مايقرأ، فالسماع صحيح، وممن صحح السماع مع الاشتغال بالكتابة عبدالله بن المبارك، وحسبك به دينا وفضلا، وعلما ونبلا..»[5].

كذلك اختلف العلماء حول السن التي يجوز السماع فيها، كما اشترطوا الاسناد لصحة السماع، حتى لا يقول من شاء ماشاء[6] ويذهب الخطيب إلى عدم تقييد سن السماع بعمر معين[7] ، لأن ذلك «يسقط رواية كثير من أهل العلم سوى من هو في عداد الصحابة،

---

(١) المرجع السابق ، ص٢٧١ .
(٢) المرجع السابق ، ص٢٧٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص٢٧٧ .
(٤) المرجع السابق ، ص٦٦ .
(٥) المرجع السابق ، ص٦٧ .
(٦) الخطيب البغدادي : شرف أصحاب الحديث (مرجع سابق) ص٤٠، ٤٢ .
(٧) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية (مرجع سابق) ص٥٤ - ٧٧ .

ممن حفظ عن النبي ﷺ في الصغر..»[1]، ويبدو أن القول الراجح عند الخطيب جواز السماع في الصغر وعدم تقييد ذلك بعمر، لان المعتبر في كتابة الحديث وسماعه «إنما هو اللقاء وتحصيل السماع، وإذا كان هذا هكذا، فليس المعتبر في كتب الحديث البلوغ ولا غيره، بل يعتبر فيه الحركة، والنضاحة، والتيقظ ، والضبط»[2]، وهذا مفهوم جديد لتحمل العلم، وهو كما رأينا مفهوم حركي، يعتمد على النضج والاستعداد والنشاط، من غير نظر إلى سن المتعلم، أو عمره الزمني، وإنما المهم فيه إكتمال المدارك ونضجها، ونمو القدرات وتفتحها.

٣ - القراءة والعرض :

تتمثل هذه الطريقة في قراءة العالم على طلبته، بينما يستمع الطلبة أو يكتبون عنه أثناء القراءة. وقد يأمر العالم أحد الطلبة بالقراءة، وسواء قرأ العالم أو الطالب، فإن القراءة في الحالتين بمنزلة واحدة[3]. لذلك يرى الخطيب أن القراءة والعرض بمنزلة السماع[4]، ويقول إن بعض أهل العلم كرهوا العرض، وهو القراءة على المحدث أو العالم ، ولا يعتبرون إلا ماسمع من لفظ العالم[5]. بينما تقول «الكافة من أئمة العلم بالأثر: أن القراءة على المحدث بمنزلة السماع منه»[6]. وعلى ذلك «جماعة من التابعين والخالفين».[7]

وقد ذكر الخطيب بعض الآداب التي يتعين على الطالب الالتزام بها في مجلس القراءة والعرض. منها اصطحاب الطالب لنسخته لمعارضتها بنسخة شيخه، أو لمقابلتها بنسخ زملائه، لأن «ذلك شرط في صحة الرواية من الكتاب المسموع»[8]. كذلك من آداب الطالب في العرض أن يكون له قلم، وأن يضبط الأسماء والحروف المشكلة، وأن يضرب على الكلمة الزائدة، وأن يزيل التحريف ، ويغير الخطأ والتصحيف، وأن يغير بالضرب على الكلمة دون

---

(١) المرجع السابق ، ص٥٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص٦٣ .
(٣) المرجع السابق ، ص٢٦٢ .
(٤) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ، ج١، ص٢٨٣.
(٥) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية (مرجع سابق) ، ص٢٦٠ .
(٦) المرجع السابق ، ص٢٦٠ .
(٧) المرجع السابق ، ص٢٦٢ .
(٨) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٢٧٥.

حكها، لأن الحك تهمة[1]. بل يخط من فوقها خطا جيدا بينا يد على إبطاله ويقرأ من تحته ما خط عليه.[2]

٤ - المذاكرة والتكرار :

لهذا الأسلوب من أساليب التعليم صور متعددة ، منها أن يجلس العالم ليحدث الطلاب بقصد المذاكرة، أو يعمد الطلبة إلى المذاكرة والعرض فيما بينهم، وقد أولى الخطيب هذا الأسلوب اهتماما كبيرا، ومما رواه في الحث عليه قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «تاوروا وتدارسوا الحديث ولا تتركوه يدرس»[3]. وقول ابن عباس «إذا سمعتم مني حديثا فتذاكروه بينكم»[4]. وقول أبي سعيد الخدري «تحدثوا وتذاكروا، فإن الحديث يذكر بعضه بعضا»[5]. كذلك روى الخطيب في نفس المعنى قول الخليل بن أحمد «ذاكر بعلمك تذكر ما عندك، وتستفد ماليس عندك».[6]

من هذه الأقوال وغيرها نرى أهمية المذاكرة والحث عليها، حتى أن الطالب كان إذا لم يجد من يذاكره ذاكر العلم مع نفسه وكرره على قلبه[7]، عملا بنصيحة سفيان التي يقول فيها : «اجعلوا الحديث حديث أنفسكم وفكر قلوبكم تحفظوه»، وقول علقمة : «أطيلوا كر الحديث لا يدرس»[8]، والمعنى ذاكروا بالحديث حتى لا تنسوه ويمحى من صدوركم، لذلك نجد أن الكثيرين من العلماء كانوا يتبعون أسلوب المذاكرة والتكرار، وكان البعض منهم يذاكر العامة حتى يحفظ ، وكانوا يقولون «من سره أن يحفظ الحديث فليحدث به ولو أن يحدث به من لايشتهيه ، فإنه إذا فعل ذلك كان كالكتاب في صدره»[9] . وكان الزهري «يجمع

---

(١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص٢٧٦ - ٢٧٩ .
(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٧٩ .
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٣٦ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٣٧ .
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٣٧ .
(٦) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٧٤ .
(٧) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٣٨
(٨) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٦٦ .
(٩) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٦٦ .

الأعاريب فيحدثهم يريد الحفظ»[1] . لقد كان للمذاكرة شهوة طاغية تنسي أهل العلم كل شيئ في سبيل الاستزاده مما هم فيه من العلم والاقبال على الحفظ والتعلم.

إن المذاكرة للعلم حياة[2]، لذلك ينبغي للطلبة تعود المذاكرة السليمة التي تنمي المحفوظ وتزيد في الفهم، ولا غرو فالمذاكرة للعلم مثل الماء للزرع، وفي ذلك يقول الخطب: إن «القلوب ترب ، والعلم غرسها ، والمذاكرة ماؤها ، فإذا انقطع عن الترب ماؤها ، جف غرسها »[3] ومما رواه الخطيب في هذا المعنى أيضا قول يحيى بن معين : «قال لي عبدالرحمن ابن مهدي: إنما مثل صاحب الحديث بمنزلة السمسار إذا غاب عن السوق تغير بصره»[4]. وكذلك الحال مع الطالب إذا لم يذاكر ، ضعف حفظه، وتفلت علمه. وقد وجه الخطيب الطلبة إلى المذاكرة «بعيون الأخبار ومستحسن الأشعار، وغرائب الأمثال، ونكت الحكايات، فيجعل مذاكرته بها، وما يورده منها فإن ذلك يكسبه جميل الذكر، وطيب الثناء والنشر»[5]. ولنا في سلفنا الصالح أسوة حسنة نتمنى على أبنا المسلمين حسن الاقتداء بها حتى يستعيدوا لهذه الأمة مجدها وعزتها عن طريق مجاهدة النفس والعمل الدؤب.

٥- السـؤال :

لا تكاد توجد طريقة تعليمية واحدة تخلو من السؤال ، ومع ذلك فإن السؤال ليس هدفا في حد ذاته، كما أنه ليس طريقة قائمة بذاتها، بقدر ماهو وسيلة لاثارة انتباه الطلاب واهتمامهم بموضوع الدرس، وحفزهم على المشاركة الايجابية ، ودعوتهم إلى التفكير.[6] وقد ركز الخطيب على أسلوب السؤال، وتحددت طريقته عنده «طبقا للأسس التي قامت عليها مذاهب العصر، ومناهج التفكير والبحث عند المناطقة، والمحدثين، وطبقا لعلوم الأصول ،

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٦٨ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ج ٢ . ص٢٦٨ .

(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٣٨ .

(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٧٨ .

(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٧٨ .

(٦) إبراهيم عصمت مطاوع وواصف عزيز واصف : التربية العملية وأسس طرق التدريس ، بيروت: دار النهضة العربية ، ١٩٨٢م، ص٢٩.

والقرآن، وقواعد الفقه المعروفة»[1]. ومما ذكره الخطيب في الحث على العمل بطريقة السؤال قول علي بن أبي طالب: «العلم خزائن ومفتاحه السؤال، فاسألوا يرحمكم الله، فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل والمعلم والمستمع والمحب لهم»[2]

وقد توسع الخطيب في طريقة السؤال، ويمكن أن نجد في كتابيه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» و «الفقيه والمتفقه» ما يؤيد ذلك، حيث أورد الكثير من الآداب التي يتعين على السائل والمجيب الالتزام بها إلى جانب مذاهب العلماء في السؤال والجواب، وما ينبغي فيهما من اتباع للحق وطرائق الصواب. وعلى ذلك يمكن أن نلخص آداب السؤال عند الخطيب فيما يلي:

أ - أن تحسن صياغة الأسئلة.[3]

ب - أن تراعى الجدوى من طرح السؤال، بحيث يكون عما يكثر نفعه في الدنيا والآخرة.[4]

ج - أن يقبل كل من السائل والمجيب على الآخر بوجهه، وأن ينصت إلى كلامه حتى نهايته «فان ذلك طريق معرفته والوقوف على حقيقته»[5].

د - وأن لا يتسرع في طرح السؤال إلى أن ينهي المتكلم كلامه، لاحتمال نسيان المتكلم للسؤال، وربما اتضح للسائل وجه الصواب بعد انتهاء الكلام.[6]

هـ - وأن تكون الأسئلة قليلة، قصيرة، واضحة، معبرة عن الفكرة، محددة، جامعة.[7]

و - وأن يسد المسؤل «بالجواب موضع السؤال، ولا يتعدى مكانه ويختصر من غير تقصير، وإن احتاج إلى بيان.. أطال من غير هذر ولا تكدير، ويقابل باللفظ المعنى، حتى يكون غير ناقص عن تمامه، ولا فاضل عن جملته»[8]. وألا يجيب عما لا يسأل عنه، إذ «ليس من الأدب أن تجيب من لا يسألك، أو تسأل من لا يجيبك، أو تحدث من لا

---

(١) ماجد الكيلاني (مرجع سابق)، ص١٤٩ - ١٥٠.

(٢) الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢، ص٣٢.

(٣) المرجع السابق، ج٢، ص٣٣.

(٤) الخطيب البغدادي: الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٢٢٤.

(٥) الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢، ص٣٢.

(٦) المرجع السابق، ج٢، ص١٠١.

(٧) المرجع السابق، ج٢، ص٣٣.

(٨) المرجع السابق، ج٢، ص٣٤.

ينصت إليك.[1]

ز - وأن يتجنب العالم «التقعير في الكلام والوحش من الألفاظ، فإنه مناف للبلاغة، بعيد عن الحلاوة.[2]

وعلى المعلم أن يشرك الطلبة في طرح الأسئلة، ويشجعهم على السؤال ، وأن لا يترك الطلبة يسخرون من بعضهم البعض، إذا أخطأ أحدهم في الجواب، وأن يبصرهم بوجه الصواب في أبوة ورفق ولين[3] ، حتى يأخذوا أنفسهم بتجنب الخطأ، ويتحفظوا من التقصير والاهمال[4]، كذلك ينبغي للطلبة أن لا يردوا على من يخطئ من زملائهم في حضرة المعلم، وليتركوا المعلم ليكون هو الذي يرد عليه[5]. ولئن ارتبط اسلوب الرواية والقراءة والمذاكرة والعرض بالحفظ والاستظهار، فإن أسلوب السؤال قد ارتبط بالفهم والتأويل وحسن الابتكار، وجودة التعليل.

٦ - المناظـــرة :

شدد الخطيب على أسلوب المناظرة و «دعا إلى استعماله، وفند المنكرين له والمؤمنين بأساليب التلقين»[6]. وقد دعا الخطيب إلى تدريب الطلبة على أسلوب المناظرة، وخاصة المستجدين منهم، بحيث يأذن للمجتهد منهم «في الكلام مع المتكلمين ، ويجعله من جملة المتناظرين»[7]

وقد حدد الخطيب عدة قواعد وآداب للمناظرة[8]، منها تقديم تقوى الله تعالى على المغالبة وحب الفوز، وإخلاص النية لله تعالى، والرغبة إليه في التوفيق لإيضاح الحق وتبيينه،

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ،ص٣٥

(٢) المرجع السابق ، ج٢ ،ص٣٧

(٣) المرجع السابق ، ج٢ ،ص١٣٦

(٤) المرجع السابق ، ج٢ ،ص١٣٤

(٥) المرجع السابق ، ج٢ ،ص١٣٨

(٦) ماجد الكيلاني (مرجع سابق) ، ص١٥٠ .

(٧) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج٢ ، ص١٣٢ .

(٨) انظر : المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٥- ٣٧

والنصيحة لله ولعامة المسلمين، والاقبال بالوجه على المناظر، والانصات له، وتجنب الغضب، ورفع الصوت في الجدال، وحسن الفهم، وأن يتجنب اللحن في الكلام، والتكبر والخيلاء، وأن يواظب على الاطلاع في «وحدته ورياضة نفسه في خلوته بذكر السؤال والجواب، وحكاية الخطأ والصواب»[1]، وأن «يكون كلامه يسيرا ، جامعا، بليغا ، فان التحفظ من الزلل مع الاقلال دون الاكثار»[2] ، وأخيرا ينبغي للمناظر أن يعمد «إلى المقصود من كلام خصمه، ولا يتعلق بما يجري في عرضه مما لا يعتمده، فإن المعول على المقصود والظهور على الخصم بإبطال ما قصده، وعول عليه، واعتمده، ولا يتكلم عما لا يقع له من كلامه، فإن الجواب لا يصح عما لم يفهمه ولم يتصور مراد خصمه منه».[3]

٧ - الرحلة في طلب العلم :

يعجب المرء لما يحدثنا به التاريخ عن علماء الاسلام عامة ، والمحدثين خاصة، الذين آثروا الرحلة في طلب العلم، وفضلوا «قطع المفاوز والغفار .. وتنعموا بالبؤس في الأسفار، مع مساكنة أهل العلم والأخيار»[4]، ويقول الخطيب : إن الطالب ليقاسي «من الأهوال ومشقة الترحال، ومعاناة النصب وشدة التعب، والسير في الليل البهيم ما يستحق وصفه بأنه العذاب الأليم»[5] ، ويقول أيضا : إذا كان هذا هو حال السفر مع كل الناس، فإن «وجود ذلك في حق صاحب الحديث أكثر، وحظه مما ذكرناه أجزل من غيره وأوفر»[6].

هذه المشاق والصعوبات التي واجهت طلبة العلم، الراحلين في سبيله قد وسمت كثيرا من الطلبة بحياة البؤس والشقاء، لدرجة قول بعضهم في حق طالب العلم «إذا أردت أن تكون شقياً فاكتب الحديث»[7] بمعنى أن الطالب الذي يطلب الحديث سيشقى لا محالة، لأنه لابد له

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٩ .
(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٨ .
(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٣٧ .
(٤) الحاكم أبوعبدالله محمد بن عبدالله الحافظ النيسابوري : معرفة علوم الحديث، ط٢، بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م ، ص٢، ٣ .
(٥) الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢ ، ص٢٤٧ .
(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٤٧ .
(٧) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٤٧ .

من الرحلة والاغتراب، لذلك كان بعض العلماء يقول في حالة طلبة الحديث وما تجره عليهم الرحلة من تعب ونصب : «إن لم يكن مع هذا ثواب، فهذا والله هو العقاب.»[1]. ويقول الخطيب: إن الطالب لا شك مثاب من الله على طلب العلم، وحمل المشقة في تحصيله[2]. وهكذا نرى أن الرحلة طريق من طرق التعليم، وهي وسيلة متعددة الأهداف، فهي إلى جانب جمع المعلومات ، طريق إلى التفاعل والتلقي المباشر لكثير من الآراء والمذاهب، وقد حث الاسلام على طلب العلم ورغب فيه، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع»[3]، وعن صفوان بن عسال قال: «إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من خرج من بيته ابتغاء العلم، وضعت الملائكة أجنحتها له رضا بما يصنع»[4]. من هذه الأحاديث وغيرها يتضح التأكيد بل والأمر بالرحلة في طلب العلم، ومدى أهميتها في منهج التحصيل العلمي للطلاب.

وقد ذكر الخطيب أن الهدف من الرحلة أمران هما «تحصيل علو الاسناد وقدم السماع، والثاني لقاء الحفاظ والمذاكرة لهم ، والاستفادة منهم»[5]، ومن أخلاقيات الرحلة وآدابها الاجتهاد في الطلب والاكثار من سماع العلماء في البلد الذي يرحل إليه، والمداومة على فعل الطاعات وتلاوة القرآن الكريم، وفعل العبادات، والسخاء بالمال، وتخير الأصحاب وقلة الخلاف مع الأحباب.[6]

٨ - الاجـــازة :

ظهرت الاجازة كأسلوب من أساليب التعليم، أو ما اصطلح عليه بتحمل الرواية عند المحدثين، وذلك عندما تكاثرت الكتب والنسخ ، إلى حد لم يعد طالب العلم قادرا معه على

---

(١) الخطيب البغدادي : شرف أصحاب الحديث (مرجع سابق) ، ص٦٠ .
(٢) المرجع السابق ، ص٦٠ .
(٣) الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث (مرجع سابق) ، ص٨٠ .
(٤) المرجع السابق ، ص٨٣ .
(٥) الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢ ، ص٢٢٣ .
(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٣٥ .

سماعها أو قراءتها على الشيخ أو العالم.[1] و «الاجازة في كلام العرب مأخوذة من جواز الماء الذي يسقاه المال من الماشية والحرث، ويقال منه استجزت فلانا فأجازني إذا أسقاك ماء لأرضك ولماشيتك»[2] . أما الاجازة في الاصطلاح فهي إذن المجيز للمجاز بأن يروي عنه ما يصح عنده أنه من حديثه أو كتابه، من غير أن يسمعه منه، أو يقرأه عليه[3] مع وجوب معرفة كل من المجير والمجاز بموضوع الاجازة واذا علمنا أن موضوع السماع جائز عند الجميع، فإن الاجازة دون تعليم وسماع من الشيخ موضع خلاف بين العلماء، فقد روى الخطيب: أن الناس اختلفوا «في الاجازة للأحاديث، فذهب بعضهم إلى صحتها، ودفع ذلك بعضهم، والذين قبلوها أكثر..»[4]. وقد ذكر الخطيب ضروب الاجازة وأنواعها واختلاف العلماء في أحكامها، ودلل على ثبوتها وصحة العمل بها. ومن ضروب الاجازة وأنواعها.[5]:

أ - **المناولـــة** : تعني المشافهة في الرواية وهي أرفع ضروب الاجازة وأعلاها.

ب - **المكاتبة** : وهي أقل درجة من المناولة «لأن المناولة إذن ، ومشافهة في الرواية لمعين، والمكاتبة مراسلة»[6]. ويقسم هذا النوع من أنواع الاجازات إلى إجازة من غير تمكين المجاز من أصل المجيز[7]، والنوع الثاني مكاتبة مقرونة بإذن الاجازة[8]، أما النوع الثالث فهو المكاتبة المجردة من تحديد الموضوع محل الاجازة

ج - **الاعـــلام** : وهو أن يحدث المرء عمن لم يجزه مع علمه بصحة ما نسب إليه، وهو جائز عند «طائفة من أهل العلم..»[9]. وحجة من يصحح هذا النوع أن العبرة في ثبوت الكتاب أو الحديث لراويه. والاعلام يثبت الكتاب لصاحبه. والحديث لراويه.[10]

---

(١) انظر : نور الدين عتر : منهج النقد في علوم الحديث . بيروت : دار الفكر ، (ب . ت) ،ص١٩٠- ١٩٦ .

(٢) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية (مرجع سابق) ، ص٣١٢ .

(٣) المرجع السابق، ص٣٢٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص٣١١.

(٥) المرجع السابق ص٣١١ - ٣٥٢ .

(٦) المرجع السابق ، ص٣٣٥ .

(٧) المرجع السابق ، ص٣٣٤ .

(٨) المرجع السابق ، ص٣٣٦، ٣٤٢ .

(٩) المرجع السابق ، ص٣٤٦ .

(١٠) همام عبدالرحيم سعيد : الفكر المنهجي عند المحدثين ، ط١، قطر: مطابع الدوحة الحديثة. ١٤٠٨هـ ، ص٧٩ .

د - **الوصيـة** : وهي طريق ضعيفة من طرق التحمل ، ولا تجوز الرواية عن طريقها إلا على سبيل الوجادة.[1]

هـ - **الوجـادة** : وهي أن يروي شخص حديثا أو كتابا بخط شخص آخر على سبيل الحكاية والوجادة، فيقول: وجدت بخط فلان، أو قال فلان، ولا يقول حدثنا أو أخبرنا ونحو ذلك مما يدل على اتصال السند[2]، وهذا النوع من أنواع الاجازة لا تقوم به الحجة، ولا يلزم إلا من وثق من صحة المكتوب ، وصدق نسبته إلى صاحبه.

وبعد ، فإن هذه الطرق والأساليب التعليمية ، كانت وليدة ظروف مجتمعية وتربوية وتعليمية معينة، وهي طرق تؤكد على ضرورة التنوع ، لكي تقابل مابين الطلاب من فروق وقدرات، إضافة إلى ما لديهم من معلومات وخبرات سابقة، بحيث لا تقتصر طرق التدريس على عمليات التلقين والاستظهار ، وإنما تشمل السؤال والمناقشة والمناظرة والتحليل والاستنتاج، والرحلة والقراءة ، والعرض والسماع . ومع أن الخطيب لم يصف طريقة تعليمية بعينها، إلا أنه بين أهم الاساليب التعليمية التي يجب أن يتبعها كل من المعلم والمتعلم، حتى يؤدي التعليم ثمرته الطبيعية، فينتفع به المتعلم، ويثاب عليه المعلم.

وتعتبر هذه الطرق بتنوعها مما يحقق الاستفادة الفعلية من التعليم، بحيث يتعلم كل فرد حسبما تمكنه قدراته واستعداداته . وبذلك نضمن بصورة ما ارتباط الطريقة بالمادة ، كما نضمن مراعاة المرونة في الأسلوب والتجديد في المضمون، مع القدرة على مسايرة المواقف التربوية والتعليمية المختلفة، وعلى المدرس الناجح أن يختار من هذه الطرق ما يناسب طبيعة المادة ومستوى الدارسين.

ثالثا : أدوات التعليم :

أ - الكِتَـــاب :

أورد الخطيب ما ذكره أئمة الأدب في فضائل الكتاب وأهميته، وأفاض في ذكر أخبار

---

(١) انظر : الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ص٣٥٢ - ٣٥٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص٣٥٥ .

عشاقه، ومحبيه، ويعد ماكتبه -بحق- في هذا الباب «مادة تكاد تكون بكرا»[1]، فقد أحب الخطيب الكتاب وأدرك ماله من قدرة على تثقيف العقل وتقويم الأخلاق وحفز الهمم العالية، وحثها على الفضائل وتحقيق البطولات، ومما قاله الخطيب في معرض حديثه عن «جواز كَتْب العلم، وتدوينه، وتجميل ذلك الفعل وتحسينه»[2] إنه سيذكر «أقوال أهل الأدب في فضائل اقتناء الكتب، والأمر باتخاذها، والحث على جمعها، وإدامة النظر فيها، والتحفظ لعيون مضمونها، ووصف الشعراء لها»[3]. والخطيب في دعوته هذه إلى العلم يجمع بين العلوم الشرعية باعتباره أحد المتخصصين فيها وبين العلوم الأدبية والآثار التاريخية المحمودة، إضافة إلى الجوانب الثقافية، والفكرية للحضارة الاسلامية، كل ذلك من منظور الفقهاء والمحدثين الذين يعتمدون أصول الاسلام الأساس المتين لتكوينهم الفكري.

وقد ذكر الخطيب أقوالا كثيرة في فضائل الكتب ومزاياها، وبيان فوائدها، ومن هذه الأقوال ما رواه عن بعض الحكماء أنه قال: «لن يصاب العلم بمثل بذله، ولن تكافأ النعمة فيه بمثل نشره، وقراءة الكتب أبلغ في إرشاد المسترشد من ملاقاة واضعيها. إذ مع التلاقي يقوى التصنع، ويكثر التظالم، وتفرط النصرة، وتشتد الحمية، وعند المواجهة يملك حب الغلبة وشهوة المباهاة والرياسة، مع الاستحياء من الرجوع، والأنفة من الخضوع، وعن جميع ذلك يحدث التضاغن، ويظهر التباين، وإذا كانت القلوب على هذه الصفة امتنعت من المعرفة، وعميت عن الدلالة، وليست في الكتب علة تمنع من درك البغية وإصابة الحجة..».[4]

١ - جمع الكتب :

رأينا اهتمام الخطيب بالكتاب لما له من المزايا التي لا تخفى في نشر الثقافة، والتعليم، ومن هذا المنطلق نجده يتحدث عن أهمية جمع الكتب واقتنائها والحث على الاطلاع على مختلف العلوم، والمعارف حتى وإن لم تكن ضمن دائرة اختصاص المرء، لأن العلم الذي لايفيد منه المرء اليوم، قد يفيد منه غدا، وفي ذلك يروي الخطيب عن بعض أهل العلم أنه

---

(١) الخطيب البغدادي : تقييد العلم (مرجع سابق) ، ص١٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص١١٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص١١٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص١١٨، وانظر ماروره الخطيب عن المأمون وعن عبدالله بن المعتز من نفس المرجع ص١٢٠، ١٢٤، ١٢٨ .

قال: «ينبغي للمرء أن يدخر أنواع العلوم وإن لم تكن له بمعلوم، وأن يستكثر منها، ولا يعتقد الغنى عنها، فإنه إن استغنى عنها في حال احتاج إليها في حال، وإن سئمها في وقت ارتاح إليها في وقت، وإن شغل عنها في يوم فرغ لها في يوم، وأن لا يسرع، ويعجل فيندم ويؤجل، فربما عجل المرء على نفسه بإخراج كتاب عن يده، ثم رامه فتعذر عليه مرامه، وابتغى إليه وصولا فلم يجد إليه سبيلا، فأتعبه ذلك، وأنصبه، وأقلقه طويلا وأرقه..»[1].

ولقد شقى كثير من الناس بسبب تسرعهم في بيع كتبهم أو إعارتها لمن ليس أهلا لها، ويذكر الخطيب أن من أهل العلم من سافر في طلب كتاب كان قد باعه، ورجع دون أن ينال بغيته، فآلى على نفسه ألا يبيع كتابا بعده[2]، كذلك احتاج بعض العلماء إلى تحقيق كلمة في كتاب باعه إلى آخر، فأبى عليه صاحب الكتاب تمكينه من ذلك حتى يدفع له ثمن الكتاب، فرد عليه الثمن وأخذ الكتاب من أجل كلمة![3]. ويذكر الخطيب أنه قيل لأحد العلماء: «ألا تبيع من كتبك التي لا تحتاج إليها؟ فقال: إذا لم أحتج اليها اليوم احتجت اليها بعد اليوم..»[4]، «واشترى رجل كتابا فقيل له: اشتريت ماليس بعلمك، فقال: اشتريت ماليس من علمي ليصير من علمي»[5]، وقيل لبعض القضاة إنك تكثر من جمع الكتب، وشرائها، فقال: «على قدر الصناعة تكون الآلة»[6]

٢ - الاعارة وغلول الكتب :

يرى الخطيب أن إعارة الكتب عمل مستحب، لما في ذلك من نشر العلم خاصة وإفادة الناس عامة، وقد عد ذلك من صفات العلماء المحمودة، لذلك رغب الخطيب في إعارة الكتب ودعا إليها، وكان ينحى باللائمة على من يسلك طريق البخل بها ومنعها عمن يستفيد منها، وهو يعتبر أن أول بركة العلم إعارة الكتب[7]، ويقول : «إذا كان لرجل كتاب مسموع

---

(١) المرجع السابق ، ص١٣٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص١٣٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص١٣٧ .
(٤) المرجع السابق ، ص١٣٧ .
(٥) المرجع السابق ، ص١٣٧ .
(٦) المرجع السابق ، ص١٣٧ .
(٧) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٢٤٠ .

من بعض الشيوخ الأحياء، فطلب منه ليسمع من ذلك الشيخ فيستحب ألا يمتنع من إعارته لما في ذلك من البر واكتساب المثوبة والأجر..»[1]، ويقول : إنه قلما بخل أحد بعلمه إلا ابتلى بثلاث: «إما أن ينساه ولا يحفظ، وإما أن يموت ولا ينتفع به، وأما أن تذهب كتبه».[2]

ويبدو أن عدم اهتمام المستعيرين بالكتب التي يستعيرونها، وإهمالهم لها، وعدم حرصهم على إعادتها إلى أصحابها، كان عادة سيئة لدى بعض الناس، مما كان له أثره وانعكاسه على نفسية المعيرين، وأصحاب الكتب عامة، الذين كرهوا إعارة كتبهم خوفا عليها من الضياع أو التعرض للتلف، خاصة ممن لا يرعى للعلم حرمة، ولا يرى للكتاب مكانة أو أهمية، ويقول الخطيب : «ولاجل حبس الكتب امتنع غير واحد من إعارتها واستحسن آخرون الرهون من الأصدقاء»[3] . ويقول الخطيب إن من الناس من كان لا يرى مبدأ الاعارة من أساسه، ويقول : «احفظ كتابك ، فإنه إن ذهب لك كتاب لم تجد بديله»[4] ويقول آخر : «لا تأمن قارئا على صحيفة، ولا جمالا على حبل»[5] وكان بعض الأدباء يقول : «البخل بالعلم على غير أهله قضاء لحقه ومعرفة بفضله»[6]، كما يقول آخرون : «لا تعر كتابا إلا بعد يقين بأن المستعير ذو علم ودين».[7]

٣ - شروط الاعارة وآدابها :

يقول الخطيب : «كان بعض أهل العلم إذا أتاه رجل يستفيد منه علما أو يستعير منه كتابا امتحنه فإن وجده أهلا له أعاره وإلا منعه، وكان إذا أراد أن يعيره وعده ورد‌ده، فإن عاد إليه ولم يضجر أعاره وإن لم يعد إليه كفى أمره، وعلم أنها خطرة بقلبه خطرت وشهوة كاذبة عرضت،وكان يقول : لا تعر كتاب علم من ليس من أهله ، واعتبارك ذلك بأن تستقرئه الكتاب الذي طلبه، فإن قرأه قراءة صحيحة فهو من أهله، وإن لم يحسن قراءته فليس من

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٤٠ .
(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٤٠ .
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٤٤ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٤٤ .
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٤٤ .
(٦) الخطيب البغدادي : تقييد العلم (مرجع سابق) ، ص١٤٦ .
(٧) المرجع السابق ، ص١٤٦ .

أهله، فلا تعره، وكان يقول: من حق العلم إعزازه».[1]

ورأى بعض الحكماء رجلا يبتذل كتابا فقال له : «بينت عن نقصك وبرهنت عن جهلك، فما أهان أحد كتاب علم إلا لجهله بما فيه وسوء معرفته بما يحويه»[2]، ورأى آخرون رجلا يجلس على كتاب فقالوا له : «سبحان الله يصون ثيابه، ولا يصون كتابه، لصون الكتاب أولى من صون الثياب»[3]، وكان بعض العلماء يرى أن احترام الكتاب والمحافظة عليها تدل على درجة صاحبه، ومدى ما يتمتع به من علم وأدب أخلاق، «وكان بعضهم إذا سأله إنسان أن يعيره كتابا قال : أرني كتبك، فإن وجدها مصونة مكنونة أعاره ، وإن رآها مغبرة متغيرة منعه»[4]

ومما ذكر الخطيب في هذا المعنى أن رجلا استعار كتابا من أبي حامد أحمد بن طاهر الاسفرائيني الفقيه «فرآه أبو حامد يوما وقد أخذ عليه عنبا ، ثم إن الرجل سأله بعد ذلك أن يعيره كتابا فقال : تأتيني إلى المنزل. فأتاه، فأخرج الكتاب إليه في طبق ، وناوله إياه، فاستنكر الرجل ذلك، وقال : ما هذا؟ فقال له أبو حامد : هذا الكتاب الذي طلبته ، وهذا الطبق تضع عليه ما تأكله، فعلم ماكان من ذنبه»[5] . بل إن أصحاب الكتب لم يكونوا يكتفون بالتنبيه على المستعير أن يصون الكتاب، وإنما عمد كثير منهم إلى أن يكتب على كتابه ما يعتبره رسالة موجهة إلى من يهمه الأمر للمحافظة على الكتاب وحسن استخدامه والاستفادة منه، «فكان بعض أهل العلم يكتب على ظهور الكتب التي يعيرها: يارب من حفظ كتابي فاحفظه، ومن أضاعه فلا تحفظه»[6]، وكتب آخر «الكتاب أمانة، وهو حقيق بالصيانة»[7]، وكتب آخر «ليس من أهل العلم من أضاع كتاب علم»[8] كما كتب آخر على

---

(١) المرجع السابق ، ص١٤٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص١٤٧ .
(٣) المرجع السابق ، ص١٤٧ .
(٤) المرجع السابق ، ص١٤٧ .
(٥) المرجع السابق ، ص١٤٩ .
(٦) المرجع السابق ، ص١٤٨ .
(٧) المرجع السابق ، ص١٤٨ .
(٨) المرجع السابق ، ص١٤٨ .

كتابه «أكرم الله من أكرمك، وردك كما تسلمك»[1] وكتب آخر «كتابي أعز شيئ عليّ، وإحسانك إليه إحسانك إليّ».[2]

٤ - الرهـــن أو التأميـــن :

دفع حب الكتاب والحرص عليه ، بعض الناس إلى أخذ الرهن أو التأمين من الشخص الذي يستعير منه كتابا ، حتى يضمن جدية المستعير في الحصول على الكتاب من جهة، ويحفظ حقه في استعادة كتابه من جهة ثانية، وقد أسلفنا القول بأن الخطيب ذكر عن بعض أصحاب الكتب أنهم كانوا يحبذون أخذ الرهون من الأصدقاء ، بله الغرباء[3]، ومن الحكايات الطريفة التي تحكى حول موضوع الرهن «أن رجلا سأل رجلا أن يعيره كتابا فأبى عليه، فقال: خذ مني رهنا ، فقال: من وجب أن يسترهن على علم فواجب ألا يعار»[4]، وسأل رجل رجلا أن يعيره كتابا فقال : عليّ يمين أن لا أعير كتابا إلا برهن، قال: فهذا كتاب استعرته من فلان فاتركه رهنا عندك، فقال: أخاف أن ترهن كتابي كما رهنت كتاب غيري»[5]

٥ - مدة الاعارة :

جرت العادة بأن يرد المستعير الكتاب الذي يستعيره بعد مدة قد تطول أو تقصر، ومما ذكره الخطيب في ذلك أن رجلا جاء إلى آخر يستعير منه كتابا فأعطاه إياه، وقال له : «لا تكو في حبسك له كصاحب القربة، قال : لا ، ولا تكن أنت في ارتجاعك له كصاحب المصباح. قال: لا ، وكان من حديث هذين أن رجلا استعار من رجل قربة على أن يستقي فيها مرة واحدة، ثم يردها ، فاستقى فيها سنة، ثم ردها إليه متخرمة ، وأما الآخر فإن رجلا ضافه ضيف من النهار فاستعار من جار له مصباحا ليسرجه لضيفه في الليل، فلما كان بعد ساعة أتاه، وطالبه برده ، فقال له أعرتني مصباحا لليل أو للنهار؟ قال: لليل، قال: فما دخل

---

(١) المرجع السابق ، ص١٤٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص١٤٨ .
(٣) الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١ ، ص٢٤٤ .
(٤) الخطيب البغدادي : تقييد العلم (مرجع سابق) ، ص١٤٨ .
(٥) المرجع السابق ، ص١٤٩ .

الليل»[1].

٦ - اهـداء الكتب :

إن حب الكتب ، وتعشقها لم يكن يتمثل في جمعها والمحافظة عليها فقط وإنما كان يظهر في تهادي الكتب، وتبادلها ، فقد كان لفيف من العلماء والأدباء بالذات يكتبون على كتبهم، ودفاترهم حكما ، وأشعارا ، وعبارات جميلة، كما كان البعض منهم يضمن الكتب التي يهديها أدعية طيبة للمهدى إليه، كل ذلك تظرفا وتلطفا وتأدباً منهم مع القارئ والكتاب معا[2]، ومما رواه الخطيب في هذا المعنى أن بعض الأدباء كتب إلى صديق له، أهدى إليه دفتراً : «وقد أهديت لك من فنون كلامي ، وعيون مقالي دفترا طريف المعاني شريف المباني صحيح الألفاظ ، يلذ بأفواه الناطقين، ويلين على أفواه الصامتين».[3]

وبعد فإن خوف العلماء على كتبهم، وحرصهم عليها، وترددهم أحيانا في إعارتها لم يقف حائلا دون إعطائها لمن يستفيد منها ، على أننا نلمس مدى العناء والمشقة التي كانت تلحق أصحاب الكتب من فئة المستعيرين اللامبالين الذين لم يكونوا يراعون آداب الاعارة فضلا عن حقوق الآخرين في استعادة كتبهم سليمة، ويؤيد ذلك كثرة الحكايات والنوادر التي تطفح بالمرارة وروح السخرية من عدم التزام المستعير، واحترامه لحقوق الغير، كما رأينا ذلك في كتاب «تقييد العلم» وغيره من كتب الخطيب ، ومهما يكن فإن النصوص السابقة تدل على الأهمية الكبرى للكتاب، ومكانته العالية عند الخطيب ، ومدى التأثير الكبير الذي يرتبه الخطيب على القراءة وسعة الاطلاع وما لهما من دور فاعل في نشر الثقافة والتعليم ودفع عجلة الحركة الفكرية والعمل على ازدهارها.

ب - الأدوات التعليمية الأخـرى :

تناول الخطيب بعض الأدوات التعليمية التي كان طلبة العلم يحرصون على اقتنائها، ويحافظون على حسن استخدامها، ومن هذه الأدوات : القلم والمحبرة والحبر والكاغد والسكين والمسطرة والصمغ وفيما يلي نتكلم على أهم هذه الأدوات :

---

(١) المرجع السابق ، ص١٤٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص١٣٤ .
(٣) المرجع السابق ، ص١٣٢ .

١ - القلـــــم :

ورد ذكر القلم في القرآن الكريم في مواضع كثيرة[١] ، فكان بذكر القرآن الكريم له من أشرف الأدوات التعليمية، وأعلاها رتبة[٢] ، وقد اهتم الخطيب رحمه الله بالقلم، وذكر ميزاته وأوصافه، وما ينبغي من المحافظة عليه، وصيانته، وكيفية إعداده، وبيّن أجود أنواعه فقال: «ينبغي ألا يكون قلم صاحب الحديث أصم، صلبا، فإن هذه الصفة تمنع سرعة الجري، ولا يكون رخوا، فيسرع إليه الحَفَا[٣]، ويتخذ أملس العود مُزَالَ العقود ، وتوسع فتحته، وتُطَالَ جلفَتَه، وتُحَرَّف قَطَتَهَ»[٤]

ويقول الخطيب إن جماعة من السلف كانت تقول : «إن أردت أن تُجود خطك، فأطل جلفتك، وأسمنها ، وحرف قطتك وأيمنها »[٥]، وكانوا يقولون : «ليكن قلمك صلبا بين الدقة والغلظ، ولا تبره عند عقدة، فإن منه تعقيد الأمر، ولا تكتب بقلم ملتو، ولا شق غير مستو، فإن أعوزك القلم الفارسي والبحري، واضطررت إلى الأقلام النبطية فاختر منها ماضرب إلى السمرة، واجعل سكين قلمك أحد من الموسي، ولا تبر به غيره وتعهده بالاصلاح في كل وقت، وليكن مقطك أصلب الخشب، ليخرج القط مستويا، وأبر قلمك بين التحريف والاستواء، وليعتقد فكرك أن وزن الخط وزن القراءة، أجود القراءة أبينها، وأجود الخط أبينه»[٦]، ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه «الخط علامة، فكلما كان أبين كان أحسن»[٧]

ويمكن القول بأن الخطيب يستحسن الخط المتوسط البين الواضح، وينفر من الخط الدقيق، ولذلك فهو لا يرى مبرراً للكتابة بالخط الدقيق إلا في حالة العذر مثل أن يكون -الطالب- فقيرا لا يجد من الكاغد سعة، أو يكون مسافرا ، فيدقق خطه ليخف حمل كتابه، وأكثر الراحلين، يجتمع في حاله الصفتان اللتان يقوم بهما له العذر في

---

(١) انظر : سورة القلم، آية (٢) ؛ سورة العلق ، آية (٤) وغيرها.

(٢) محمود عباس حمودة : تاريخ الكتاب الاسلامي ، القاهرة : مكتبة غريب . (ب.ت)، ص٦٤.

(٣) آي التأكل.

(٤) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٢٥٤، ومعني تحريف القطة أي جعل القطع بصورة مائلة جهة اليمين عند برى القلم.

(٥) المرجع السابق ، ج ١ ، ص٢٥٦ .

(٦) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥٦ .

(٧) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٦١

تدقيق الخط[١]، ويقول الخطيب إن بعض شيوخ العلم كانوا إذا رأوا خطا دقيقا قالوا: «هذا خط من لا يوقن بالخلف من الله»[٢] لانه لو أيقن أن الله سيخلف عليه لما قتر على نفسه، وضيق عليها وبخل بالورق عند الكتابة، ويقول الخطيب إن بعض كتاب المقتدر سئل : متى يجوز أن يوصف الخط بالجودة؟ فقال : «إذا اعتدلت أقسامه، وطالت ألفه ولامه، وتفتحت عيونه، ولم تشتبه راؤه ونونه، وأشرق قرطاسه، وأظلمت أنقاشه ، ولم تختلف أجناسه، أسرع إلى العيون بصوره، وإلى العقول بثمره ..»[٣]

٢- المِحْبَـــرَة :

عرف الانسان المحبرة «الدواة» من عهد قديم ، وكان يصنعها من «الخشب أو الفخار أو الحجارة، ومع التطور استخدمت المعادن المختلفة كالنحاس، والفضة»[٤]، وقد أظهر الخطيب اهتماما بالمحبرة باعتبارها أحد أدوات التعليم اللازمة للطالب وذكر في وصفها وفوائدها أقوالا وأشعارا كثيرة، ويقول إن في المتقدمين من كان يعد المحبرة مظهرا من مظاهر الجاه والعز والفخر للطالب[٥]، كما اعتبرها آخرون رأس مال كبير لطالب العلم يجب عليه أن يعتز به ويحافظ عليه[٦]، ووصفها البعض بأنها «سُرُجُ الاسلام»[٧]، و «قناديل الايمان وأعلام المتقين»[٨].

٣ - الحبر والكاغـد :

يسمى الحبر مدادا «لانه يمد القلم أي يعينه أو يمد الكاتب بوسيلة الكتابة، كما سمي بالحبر من الحبار في اللغة العربية، أي أثر الشيئ والمداد في الأصل كل

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٦١ .
(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٦١ .
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٦٣ .
(٤) محمود عباس حمودة (مرجع سابق) ، ص٦٦ .
(٥) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج١ ، ص٢٥٢ .
(٦) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥٢ .
(٧) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥٢ .
(٨) الخطيب البغدادي : شرف أصحاب الحديث (مرجع سابق) ، ص٥٤ .

شيئ يمد»[1]، ويقول الخطيب إن الحبر هو أصبغ الألوان، وأبقاها، ولذلك فهو يرى أن الكتابة إنما ينبغي أن تكون «بالسواد ثم بالحبر دون المداد، لأن السواد أصبغ الألوان والحبر أبقاها على مر الدهور والأزمان، وهو آلة ذوي العلم وعدة أهل المعرفة والفهم»[2]، وقد استحسن العلماء لون الحبر وعدوه في ثوب الرجل مثل الطيب في ثوب العروس، والقلادة في عنق الحسناء[3] كما اعتبر آخرون «الحبر على الثوب من المروءة، لأن صورته في الابصار سواد وفي البصائر بياض»[4]، كذلك استحسن العلماء «أن يكو ن الحبر براقا، والقرطاس نقيا، صافيا»[5] واعتبروا في ذلك أن العقول تهتدى ببريق الحبر إلى خبايا الحكم.[6]

٤ – السكيـــن :

السكين هنا هي المدية التي تستخدم خصيصا لبري الأقلام، وقد تقدم معنا أن السكين المستخدمة في بري الأقلام غير السكين العادية، فهي في قطعها حادة مثل الموسي، ومن الصفات الأخرى التي يرويها الخطيب عن سكين بري الأقلام أن تكون رقيقة ماضية الحد، صافية الحديد، مخصصة لبري الأقلام[7]، ويقول الخطيب إن أحد الأدباء وصف سكينا أهداها لصديق له فقال: «أهديت إليك سكينا أملح من الوصل، وأقطع من البين»[8]، كما دعت امرأة على وراق فقالت : «أبلاك الله بقلم حفي، وسكين صدي وورق ردي ونوم ندي، وسراج ينطفي»[9] ، ويقول الخطيب إن وراقا جمع الأدوات التعليمية في قوله لمن سأله عن حاله: «عيشي أضيق من محبرة وجسمي أدق من مسطرة، وجاهي أرق من الزجاج، ووجهي عند الناس أشد سوادا من الزاج، وحظي أخفى من شق القلم، وبدني أضعف من قصبة وطعامي أمر

---

(١) محمود عباس حمودة (مرجع سابق) ، ص٦٣ .
(٢) الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٢٤٩-٢٥٠.
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥١ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥١ .
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥٧ .
(٦) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥٧ .
(٧) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥٦ .
(٨) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥٧ .
(٩) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥٧ .

من العفص، وشرابي أسود من الحبر، وسوء الحال ألصق بي من الصمغ».[1]

والخلاصة .. أن نظرتنا إلى المناهج التعليمية يجب أن تتميز بالشمولية والمرونة والعمق، بحيث تشمل المناهج العلوم الشرعية والأدبية والانسانية عامة مما لا تتعارض مع الاسلام ، إضافة إلى العلوم العملية والتطبيقية ، وكل علم مباح نافع للانسان في دينه ودنياه، أما طرق التدريس فينبغي فيها مراعاتها لمستوى نضج المتعلم ومناسبتها للمادة كما ينبغي فيها التنوع، حتى بالنسبة للمادة الواحدة، لكي تقابل مابين الطلاب من فروق فردية واختلاف في المواهب والقدرات، وما لديهم من معلومات وخبرات سابقة، وهو أمر من الأهمية بمكان، ويقتضى وجود نوع من الترابط بين الطريقة والمادة أو بين المنهج والطريقة، أو الاسلوب المتبع في التعليم مما يصبغ طرائق التعليم في كل زمان ويجعلها تتصف بالمرونة والتجدد والقدرة على مسايرة المواقف التربوية والتعليمية المختلفة.

وبالنسبة لأدوات التعليم فقد ذكر الخطيب بعضا منها مما رآه ضروريا لطلب العلم وتحصيل المعرفة ، وفي مقدمتها الكتاب الذي أفاض العلماء والأدباء، والكُتَّابُ في ذكر فضائله وتعداد محاسنه ومزاياه في نشر الثقافة والتعليم ، ثم القلم، والمحبرة، والحبر والورق «الكاغد» والسكين والمسطرة، والصمغ، وغير ذلك مما عده العلماء واجب الاقتناء من طالب العلم والمحافظة عليه.

إن التعليم معدود اليوم من المشروعات القومية الكبرى في حياة الأمم المعاصرة، وليس أدل على ذلك من الاهتمام العالمي بالتعليم، وتطويره وتحسين كفاءته، للدور الذي يؤديه في تحقيق أمن الشعوب وعزها وسلامتها ، وتقدمها ورخائها[2]، فإذا أضفنا إلى ذلك اهتمام عالمنا العربي والاسلامي المتزايد بالتعليم أمكننا أن ندرك أهمية التعليم وضرورة النهوض به على أسس إسلامية علمية صحيحة، وإذا كانت مناهج التعليم وطرقه وأدواته في عصر الخطيب قد تشكلت وفق فلسفة تعليمية وحياتية معينة أملتها الظروف الاجتماعية في زمنه فإن هذا التعليم كان ولا يزال حيا في كثير من مناهجه وطرقه وأدواته، ومن الواجب علينا أن نستلهم روحه الاسلامي وما فيه من مناهج سليمة ومبادئ عليا وقواعد توجيهية

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥٤ .

(٢) محمد منير مرسي : التعليم العام في البلاد العربية ، ط٢، القاهرة : عالم الكتب، ١٩٧٤م، ص٣.

اسلامية من شأنها أن تسهم في تأصيل نظامنا التعليمي المعاصر وتسدده نحو غاياته البعيدة. ونحن عندما نؤكد ذلك لا ندعو إلى الوقوف عند هذه المناهج وحدها، وبالصورة التي كانت عليها، ولا نهدف إلى التعرف عليها فقط ولكننا نؤكد على وجوب استيحائها والاستفادة منها في ظل حاجاتنا التعليمية والتربوية الراهنة، من أجل إدماج مكتسبات الماضي المجيد في منجزات الحاضر الزاهر، وبناء المستقبل المنشود على علم وبصيرة وهدى إسلامي صحيح.

وفيما يلي سندرس - استكمالا لصورة الفكر التربوي عند الخطيب - آداب العالم والمتعلم في الفكر التربوي عند الخطيب ، وهي مجموعة من الوظائف والواجبات التي يتعين على كل من العالم والمتعلم التحلي بها وتطبيقها حتى يكونا أهلا للعلم من جهة وتكفل لهما حسن الاستفادة منه من جهة ثانية.



الباب الرابع

آداب العالم والمتعلم
عند الخطيب البغدادي

ويتضمن هذا الباب الفصلين التاليين :

الفصل التاسع : آداب العالم في الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي

الفصل العاشر : آداب المتعلم في الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي



الفصل التاسع

آداب العالم في الفكر التربوي
عند الخطيب البغدادي

ويتضمن هذا الفصل الموضوعات التالية :

- تمهيداً

أولاً : آداب العالم في نفسه وسلوكه.

ثانياً : آداب العالم مع تلاميذه.

ثالثاً : آداب العالم في درسه.



الفصل التاسع

آداب العالم في الفكر التربوي

عند الخطيب البغدادي

تمهيـــد :

تهتم التربية بمظهر العالم والمعلم وسلوكهما، لما لذلك من أثر بالغ في نفوس طلابهما، وقد خصص الخطيب كتابين هامين من كتبه هما كتاب «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» وكتاب «الفقيه والمتفقه»، لمناقشة العديد من المسائل العلمية والتربوية، وفي مقدمة هذه المسائل آداب العالم والمتعلم، ويستطيع الناظر في هذه الآداب «أن يلتقط ويجمع ويستنبط بعض الأنظمة السلوكية، والآداب الاجتماعية، والصفات التربوية والخلقية لكل من المعلم والمتعلم.. إذ يجد فيها قواعد لتنظيم العلاقات الفكرية والروحية والاجتماعية بين المعلم والمتعلم، مما يدل على سمو الروح وصدق الوجدان..»[1] . ومن هذه الآداب مايقابل اليوم في التربية المعاصرة ما يسمى «بصفات المربي»، ومنها ما يهتم بحال العالم والمتعلم، وأسلوب تعامل كل منهما مع الآخر.

وسنتناول فيما يلي أهم الآداب والصفات التي يتعين على العالم أن يتحلى بها في نفسه، والتي تحدد في نفس الوقت علاقته بالمتعلم، وتتمثل هذه الآداب في ثلاثة محاور رئيسية هي آداب العالم في نفسه وسلوكه، وآدابه مع طلابه، وأدابه في درسه.

أولا: آداب العالم في نفسه وسلوكـه :

يرى الخطيب أن العالم قدوة في نفسه وعلمه وسلوكه، وهو بحكم هذه القدوة محط أنظار طلابه ومحل ثقتهم وإعجابهم، لذلك ينبغي له أن يتحلى بالأخلاق الحميدة، والمحاسن النبيلة، التي ورد الشرع بها، وأن يكون مقبلا على العلم مخلصاً النية في تعلمه، وتعليمه، معتنيا بهيئته، معتزا بنفسه، صائنا لكرامته، محافظا على مكانته، متواضعا، نصوحا، رفيقا، حليما، صبورا وقورا، ورعا، صدوقا، متثبتا فيما يقول ويفعل، مجانبا للكبر والغرور

---

(١) عبدالرحمن النحلاوي : يوسف بن عبدالبر القرطبي، ط١، دمشق: دار الفكر، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٨٩ .

متجنبا كثرة المزاح، لأنها تزيل الهيبة وتحط من قدره عند طلابه فلا يستفيدون من علمه. وفيما يلي تفصيل هذ الآداب والصفات الحميدة :

١ - التزام النية وحسن القصد في التعليم :

ينبغي للعالم أن يقدم النية ويبتغي في تعلمه وتعليمه الحسبة، والنية هي أول ما يرجى من معلم العلم وطالبه، وخاصة العلم الشرعي، وفي ذلك يقول الخطيب : «ينبغي لمن عزم على التحديث أن يقدم النية ويتبغي فيه الحسبة»[١] وقد أيد الخطيب رأيه السابق بأثر ساقه عن سفيان الثوري قال فيه «لا تدخل في شيئ إلا في شيئ لك فيه نية»[٢] ، كما ساق أثرا آخر يحتم النية في كل شيئ حتى في الأكل والشرب.[٣] وعلى ذلك ينبغي للعالم أن يخلص النية، ويبتغي بعلمه وعمله وجه الله تعالى وأن يبني أمره على النصيحة لدين الله ولمن يعلمه «لأن ذلك أجمع في الدين مع أن النصيحة واجبة لجميع المسلمين»[٤] ، و «ليكن قصده إيضاح الحق وتثبيته»[٥] وأن «يستشعر في مجلسه الوقار، ويستعمل الهدى وحسن السمت، وطول الصمت إلا عند الحاجة إلى الكلام»[٦] ، وأن يتصف بالحلم، وإن «بدرت من خصمه في جداله كلمة كرهها أغضى عنها، ولم يجازه بمثلها»[٧] ، لأن اللـه تعالى يقـول: ﴿ إدفع بالتي هي أحسن﴾ [٨] ، ويقول : ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾[٩]

كذلك ينبغي للعالم أن يتحلى بخلق الانصاف وعدم المكابرة ، و «أن لا يتكلم بحضرة من يشهد لخصمه بالزور أو عند من إذا وضحت الحجة دفنها ولم يتمكن من إقامتها، فإنه لا يقدر على نصرة الحق إلا مع الانصاف وترك التعنت والاجحاف»[١٠] وأن يكون كلامه «عند

---

(١) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٣١٥ .
(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣١٦ .
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣١٦ .
(٤) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص٢٦ .
(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٦ .
(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٧ .
(٧) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٢٧ .
(٨) سورة المؤمنون ، آية (٩٦) .
(٩) سورة الفرقان ، آية (٦٣) .
(١٠) الخطيب البغدادي : (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص٢٨ .

الأمر والسؤال بالمسألة في موضوع الكلام على قدر الضرورة والحاجة، وعليه أن يحكم إذا أمر ويوضح إذا سئل، وأن يحسن إذا طلب، وأن يحقق إذا أخبر، ويحذر الاكثار والتخليط ، فإن من كثر كلامه كثر سقطه».[1] ويرى الخطيب لذلك أن يكون كلام العالم «يسيرا جامعا بليغا ، فإن التحفظ من الزلل مع الاقلال دون الاكثار، وفي الاكثار أيضا ما يخفى الفائدة، ويضيع المقصود ويورث الحاضرين الملل»[2] وعلى العالم المعلم أن يتبع مجموعة من الآداب الاسلامية كأن لا يرفع «صوته في كلامه عاليا ، فيشق حلقه، ويحمي صدره ويقطعه، وذلك من دواعي الغضب»[3] وأن «لا يخفى صوته إخفاء لا يسمعه الحاضرون، فلا يفيد شيئا ، بل يكون مقتصدا بين ذلك، ويجب عليه الاصلاح من منطقه وتجنب اللحن في كلامه والافصاح عن بيانه.. »[4]

وأن «يكون نطقه بعلم ، وإنصاته بحلم، ولا يعجل إلى جواب ، ولا يهجم على سؤال، ويحفظ ذلك من إطلاقه بما لا يعلم، ومن مناظرته فيما لا يفهمه، فإنه ربما أخرجه ذلك إلى الخجل والانقطاع، فكان فيه نقصه، وسقوط منزلته عند من كان ينظر إليه بعين العلم والفضل ويجدره بالمعرفة والعقل، والعرب تقول : عيي صامت خير من غبي ناطق».[5] ويقول الخطيب «إن من الأخلاق السيئة على كل حال مغالبة الرجل على كلامه، والاعتراض فيه لقطع حديثه»[6] وأن لا يكون العالم معجبا بكلامه ، مغرورا بنفسه، مفتونا بعلمه، لأن «الاعجاب ضد الصواب، ومنه تقع العصبية، وهو رأس كل بلية»[7]

ويقول الخطيب إن على العالم «أن يواظب على مطالعة كتبه عند وحدته، ورياضة نفسه في خلوته بذكر السؤال والجواب، وحكاية الخطأ والصواب، لئلا ينحصر في مجالس النظر إذا رمقته أبصار من حضر»[8] ، وعلى العالم أن لا يكون رخي البال، قصير الهمة، فإن

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٨ .
(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٨ .
(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٨ .
(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٨ .
(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٣١ .
(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٣٥ .
(٧) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٣٠ .
(٨) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٩ .

مدارك العلم صعبة، لا تنال إلا بالجهد والاجتهاد، ولا يحتقر خصمه فيسامحه في نظره، بل يكون على نهج واحد في الاستيفاء والاستقصاء، لأن ترك التحرز والاستظهار يؤدي إلى الضعف والانقطاع». [1]

٢ - التواضــــع :

من الأخلاق التي ينبغي للعالم أن يتحلى بها خلق التواضع ، الذي يعد أهم صفات العالم والمتعلم على السواء ، وقد ذكر الخطيب أن التواضع كان يمنع العلماء الأجلاء من التعليم في البلد الذي يظنون أن فيه من هو أعلم منهم، ومما رواه في ذلك قول بريدة «لقد سمعت سمرة بن جندب يقول : لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلاما، فكنت أحفظ عنه، وما يمنعني من القول إلا أن ههنا رجالا هم أسن مني» [2] ، ولما سأل سفيان الثوري سفيان بن عيينة : «مالك لا تحدث؟ فقال: أما وأنت حي فلا» [3] ، ويقول يحيى بن معين: «إن الذي يحدث بالبلدة وبها من هو أولى بالتحديث منه أحمق» [4].

٣ - ثقة العالم بنفسه وعلمه :

ذكرنا فيم سبق حث الخطيب على التواضع ومجانبة الكبر والغرور المرذول ، وليس اعتزاز العالم هنا من هذا الباب، بل هو اعتراف بحقه ومعرفة بقدره، ولأن عزة النفس شيئ غير الغرور، وهي لهذا لا تنافي فضيلة التواضع والرفق والحلم واللين التي تحدثنا عنها. ويرى الخطيب في هذا الصدق أن اعتزاز العالم بنفسه أمر مطلوب، ولذلك يتعين على العالم ألا يذهب إلى بيت من يتعلم منه، لأن في ذلك امتهانا لكرامته ، وإهانة للعلم الذي يحمله، وهو مالا ينبغي حصوله من المسلم عامة، وأهل العلم خاصة، ولذلك نجده يروى عن العلماء قولهم «هوان بالعلم وذل له أن يحمل إلى بيت المتعلم» [5] ومما رواه الخطيب في هذا المعنى أيضا أن ابن والي خراسان أتى ابن المبارك «فسأله أن يحدثه ، فأبى عليه ، ولم يحدثه، فلما خرج خرج

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٩ .
(٢) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ، ج١، ص٣١٨.
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣١٨ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣١٩ .
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٦٩ .

معه ابن المبارك إلى باب الدار، فقال له : ياأبا عبدالرحمن سألتك أن تحدثني فلم تحدثني، وخرجت معي إلى باب الدار، فقال: أما نفسي فأهنتها لك، وأما حديث رسول الله ﷺ فإني أجله عنك»[1].

ويقول الخطيب إن ربيعة دخل على الخليفة الأموي الوليد بن يزيد فقال له الوليد: «ياربيعة حدثنا . قال: ما أحدث شيئا. قال : فلما خرج من عنده . قال: ألا تعجبون من هذا الذي يقترح علي كما يقترح على المغنية، حدثنا يا ربيعة!»[2] وفي هذه المقولة اعتزاز بالعلم وقوة شخصية وثقة بالنفس مطلوبة لحامل العلم ومتعلمه.

٤ - تورع العلماء من قبول الأجرة على التعليم :

يعتبر أخذ الأجر على التعليم من الأمور التي استهجنها بعض علماء السلف، الذين لم يكونوا يستسيغون قبول المال أو طلبه مقابل التعليم[3]، ولما كان الخطيب يؤمن بوجوب التعليم باعتباره فرضا على كل مسلم ومسلمة، فإنه يرى ألا يطلب العالم أجرا على التعليم، بل يقتدى بالرسول ﷺ في الاحتساب وطلب الأجر والثواب من الله تعالى، ومما رواه في ذلك قول عمر بن الخطاب : «يا أهل العلم والقرآن لا تأخذوا للعلم والقرآن ثمنا فيسبقكم الدناة إلى الجنة»[4]

وكان العلماء يتحرجون من قبول الهدية، حتى لا يفسر ذلك على أنه نوع من قبول الأجر مقابل التعليم، ويقول الخطيب إن بعض طلبة العلم أهدي للأوزاعي هدية «فلما اجتمعوا قال لهم : أنتم بالخيار، إن شئتم قبلت هديتكم ولم أحدثكم، وإن شئتم حدثتكم ورددت هديتكم»[5]، بل إن من العلماء من كان لا يستخدم طلبته في قضاء حوائجه، ومن ذلك قول أحد العلماء لتلميذ كان طلب منه أن يسأل له عن شيئ« لا تسل عنه، فإنك تكتب مني

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٣٦ .
(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٣٦ .
(٣) فتحية حسن سليمان : المذهب التربوي عند الغزالي ، ط٢ ، القاهرة : مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٤م، ص١٤.
(٤) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج١ ، ص٣٥٦ .
(٥) الرجع السابق ، ج١ ، ص٣٥٧ .

الحديث، وأنا أكره أن أسأل من يسمع مني الحديث حاجة»[1]. ويقول الخطيب إن خلقا كثيرا من الزهاد والفضلاء والعباد كانوا يتورعون عن أخذ الأجر على التعليم [2] ويعدون حال العالم في ذلك مثل الحاكم الذي لا يجوز له أن يأخذ الرزق من أعيان من يحكم له وعليه . ويرى الخطيب -لذلك- أن «على الامام أن يفرض لمن نصب نفسه لتدريس الفقه والفتوى في الأحكام، ما يغنيه عن الاحتراف والتكسب، ويجعل ذلك في بيت مال المسلمين، فإن لم يكن هناك بيت مال، أو لم يفرض الامام للمفتي شيئا ، واجتمع أهله على أن يجعلوا له من أموالهم رزقا ليتفرغ لفتاويهم، وكتابات نوازلهم ساغ ذلك».[3]

وفي هذا النص إشارة من الخطيب إلى الجهات المسئولة عن تمويل الانفاق على التعليم، والفتوى نوع من التعليم العام، ولذلك يوصى الخطيب بتوفير الجو المادى والنفسي للمعلم مقابل تعليم أبناء المجتمع، وتعتبر الجهات المسئولة عن ذلك حكومية وأهلية، ويرى الخطيب أن مسئولية الجهة الأولى أوكد من غيرها ، لذلك قدمها وإن لم يعف الجهة الأخرى وعدها مكملة لها من حيث الانفاق والاشراف والتوجيه.

٥ - كرامة العلم وعدم ابتذاله

يرى الخطيب أن من اعتزاز العالم بنفسه، وإجلاله لعلمه ألا يضع العلم إلا حيث ينتفع به، وألا يحدث به إلا من هو جدير به، حرى بجمعه، وتحصيله، حريص على نفعه، وألا يمنعه فى نفس الوقت عن أهله فيأثم، ولا يحدث به غير أهله فيجهل. ومما رواه الخطيب في هذا المعنى قول عبدالله بن أحمد بن حنبل قال: «سمعت أبا الضحى يحدث عن مسروق، قال لا تنشر بزك[4] إلا عند من يبتغيه»[5] ومما قاله العلماء فى ذلك أيضا «نكد الحديث الكذب، وآفته النسيان، وإضاعته أن تحدث به غير أهله»[6] وقالوا «لا تحدث الحديث من لا

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٦١ - ٣٦٥ .

(٣) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢ ، ص١٦٤ .

(٤) البز هو الثياب الفاخرة وهو هنا الحديث والمعنى لا تحدث إلا من يرغب في حديثك.

(٥) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ، ج١، ص٣٢٧.

(٦) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٢٧ .

يعرفه فإن من لا يعرفه يضره ولا ينفعه»[1] ومن حق العلم «أن يوضع عند من يحسن حفظه ولا يضيعه»[2] وكان بعض العلماء يقول «إنى لأحتسب فى منعى الحديث كما تحتسبون فى بذله»[3] على أن الخطيب وإن كان قد ذكر هذه الأقوال، فإنه لا يرى هذا المبدأ، ولا يوافق عليه، بل يحبذ نشر العلم وتعليمه لكل سائل ومتعلم وفي ذلك يقول «والذى نستحبه أن يروى المحدث لكل أحد سأله التحديث، ولا يمنع أحداً من الطلبة»[4].

ولقد كره العلماء تحديث بعض الفئات مثل أهل الرأى والبدع والأهواء، وكانوا يشترطون في تحديث من لا يعرفون - حتى يضمنوا أنه ليس من هذه الطوائف - أن يشهد له رجلان عدلان، بأنه صاحب جماعة، وليس بصاحب بدعة[5]. ويدل ذلك العمل من العلماء زمن الخطيب على اضطراب العصر بالمذاهب والفرق المختلفة وانتشار اتباعها بين صفوف المسلمين، وقد حاول اتباع هذه الفرق والمذاهب قديما وحديثا الكيد للاسلام ومحاربة أهله حتى يصرفوهم عن دينهم إن استطاعوا، أو يشككوهم فى مصادره، أو يبلبلوا أفكارهم في أدني الأحوال، ولذلك كان العلماء - كما رأينا - يمتنعون عن تعليم وإفادة مثل هؤلاء الذين يعارضون في -الغالب- الحق بالباطل، ويكتمون الحق وهم يعلمون.

٦ - الصدق والموضوعية:

من أهم آداب العالم وأخلاقه وصفاته، خلق الصدق والموضوعية، ويرى الخطيب لذلك أن على العالم أن يتحرى الصدق فى مقاله، وأن يؤثره في جميع الأحوال على اختلاف أموره وأحواله[6]، ومن الصدق والموضوعية تحوط العالم في روايته واحترازه من الوهم والخطأ فيها، ولذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم يحتاطون عند التحديث عن رسول الله ﷺ ويختمون رواياتهم بقولهم «أو فوق ذلك، أو دون ذلك، أو قريبا من ذلك، أو شبه ذلك»[7] كما كانوا

---

(١) المرجع السابق، ج١ ص٣٢٨ .
(٢) المرجع السابق، ج١ ص٣٢٨ .
(٣) المرجع السابق، ج١ ص٣٢٩ .
(٤) المرجع السابق، ج١ ص٣٣٩ .
(٥) المرجع السابق، ج١ ص٣٣٣ .
(٦) المرجع السابق، ج ٢، ص٧ .
(٧) المرجع السابق، ج٢ ، ص٩ .

يسهرون الليل بطوله من أجل التثبت من صحة حديث واحد حتى لا يقعوا في الخطأ أو الوهم أو التوهم. ومما رواه الخطيب في ذلك عن يحيى بن معين أنه قال: «إني لاحدث بالحديث فأسهر له مخافة أن أكون قد أخطأت فيه».[١]

وكان العلماء يقولون «سماع الحديث هين، والخروج منه شديد»[٢] أي أن المرء قد يسمع الحديث فلا يكلفه ذلك جهدا كبيرا، ولكن العناء والجهد كله يكمن في أداء الحديث كما سمعه من غير زيادة ولا نقص. وهذا معنى قولهم «والخروج منه شديد».

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يعانون من أحوال شديدة عندما يحدثون عن الرسول ﷺ خوفا من أن يقعوا في الخطأ والزلل والكذب على رسول الله ﷺ ولذلك كان العلماء يقولون «إذا حدثت عن رسول الله ﷺ فازدهر»[٣]، والمعنى أن على المرء أن ينتبه عند حديثه، وأن يجعل الأمر في بؤرة الاهتمام والشعور، ويكون صادقا ودقيقا في ما يحفظه ويبلغه من علم ومعرفة. ومن أجل هذا الصدق كان العلماء يفضلون الرواية من كتبهم ويرون أن ذلك «أبعد عن الخطأ وأقرب للصواب»[٤] ولأن الأحوط «للمحدث والأولى به أن يروي من كتابه ليسلم من الوهم والغلط ويكون جديرا بالبعد عن الزلل»[٥] ويؤيد هذا المعنى ما رواه الخطيب عن أبي نعيم الأصبهاني أنه قال «ضمنت لك أن كل من لا يرجع إلى كتاب لا يؤمن عليه الزلل»[٦] وقول أحمد بن حنبل: «ماكان أحد أقل سقطا من ابن المبارك، كان رجلا يحدث من كتاب، ومن حدث من كتاب لا يكاد يكون له سقط..»[٧] فعلى العالم والحال هذه أن يتأكد مما يقول ويفعل، وذلك بالرجوع «إلى أصل كتابه ويتثبت منه»[٨]، والعالم الذي يعنيه الخطيب هنا هو الحافظ للحديث متنا وإسنادا والحفاظ نوعان هما: ثبت

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص١٠.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص١٠.

(٣) المرجع السابق، ج٢، ص٩.

(٤) المرجع السابق، ج٢، ص١٠.

(٥) المرجع السابق، ج٢، ص١٠.

(٦) المرجع السابق، ج٢، ص١١.

(٧) المرجع السابق، ج٢، ص١١.

(٨) المرجع السابق، ج٢، ص٣٨.

حفظ، وثبت كتاب.[1]

ويقول الخطيب إن على العالم أن يمسك عن الرواية إذا تعذر عليه إظهار الأصل الذي أخذ منه[2] كذلك يكره الخطيب للعالم أن يحدث عندما تتقدم به السن، ويصبح في الحالة التي تختلط عليه فيها الأمور، ولا يعود قادرا على تمييز الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، وفي ذلك يقول «إذا بلغ الراوي حد الهرم والحالة التي في مثلها يحدث الخرف، فيستحب له ترك الحديث والاشتغال بالقراءة والتسبيح، وهكذا إذا عمى بصره وخشي أن يدخل في حديثه ماليس منه حال القراءة عليه ..»[3] ومن ضمن ما تعنيه هذه الأقوال وجوب تحري العالم والمعلم للصدق والموضوعية فيما يقوله أو يعلمه تأسيا بهدي الرسولﷺ. ومما يقوله الخطيب في هذا المعنى ايضا إن الصدق والأمانة العلمية تتطلب رجوع العالم «عما رواه إذا تبين له أنه أخطأ فيه، فإذا لم يفعل كان آثما، وعلى الطالب الامساك عن الاحتجاج به»[4] كما أن العالم لا يكون «إماما في العلم حتى يعرف عمن يحدث، ولا يحدث عن كل واحد، ولا يقيم على الغلط أو نحو هذا»[5] كما يقول إن من المبالغة في الدقة والحيطة إبراء للذمة مما قد يقع من الوهم أو التوهم في النص أن على الطالب «إذا دون عن المحدث ما رواه له من حفظه أن يبين ذلك حال تأديته لتبرأ عهدته من وهم إن كان حصل فيه، فإن الوهم يسرع كثيرا إلى الرواية عن الحفظ»[6]

٧ - حسن هيئة العالم :

تميل النفس الانسانية إلى الجمال وتقبل عليه ولذلك ينبغي للعالم أن يحافظ على حسن مظهره وجمال هندامه الذي يبدو للناس فيه، ويلقاهم به. «ولما كان المظهر الخارجي للأشخاص أو الاشياء يرسل أول الانطباعات إلى النفوس عن طريق العين، فيستهويها حين

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص٣٨.
(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٣٨.
(٣) المرجع السابق، ج٢، ص٣٠٥.
(٤) المرجع السابق، ج٢، ص٤٠.
(٥) المرجع السابق، ج٢، ص٤١.
(٦) المرجع السابق، ج٢، ص٤١.

يكون مقبولا ويثير اشمئزازها حين يكون بشعا أو ممجوجا، لذا تحتم أن يولي المعلم هذه الحقيقة عنايته الزائدة واهتمامه الكبير، فيحرص على الظهور دائما بقيافة لا يشوبها نقص ولا عيب ولا تشويه، لا ليكون قدوة حسنة لطلابه فحسب -كما هو المفروض فيه أن يكون- بل لأن طبيعة مهنته تتطلب منه ذلك باعتباره من أولى اللافتات التي تعلن عن قوة الشخصية دون جلبة ولا ضوضاء»[١]. ويرى الخطيب أن على العالم أن يكون نظيفا في جسمه وملبسه، أنيقا في هيئته، طيبا في رائحته، جميلا في مظهره تأسيا بقول الرسول ﷺ «إن الله جميل يحب الجمال»[٢] وفي ذلك يقول الخطيب على العالم أن يكون في «أكمل هيئته، وأفضل زينته، ويتعاهد نفسه قبل ذلك باصلاح أموره التي تجمله عند الحاضرين من الموافقين والمخالفين»[٣]

ومن الآداب الاسلامية الرفيعة التي يوصي بها الخطيب في هذا المجال الابتداء بالسواك محافظة على نظافة الفم، وتطييبا لرائحته، لما روى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت بالسواك حتى ظننت أو حسبت أنه سينزل على فيه قرآن»[٤]. لأن صحة الفم تتوقف على نظافة الأسنان من بقايا الطعام، وكذلك نظافة اللثة بازالة المواد الجيرية المترسبة، وعمل التدليل «المساج» لها عن طريق السواك وغيره من المواد المتاحة، وقد حث الرسول ﷺ على السواك ونظافة الفم حتى قال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»[٥]. كما أن من الآداب التربوية الكريمة تقليم الأظافر وقص الشارب ونتف الابط، وتسكين شعر الرأس وتسريح اللحية والعناية بكل ذلك[٦] فقد كان مالك بن أنس رحمه الله «إذا أراد أن يخرج يحدّث توضأ وضوءه للصلاة ولبس أحسن ثيابه ولبس قلنسوته، ومشط لحيته، فقيل له في ذلك، فقال: أوقر به حديث رسول الله ﷺ»[٧]

---

(١) علي الشويكي: المدرسة والتربية وادارة الصفوف، بيروت: دار مكتبة الحياة، (ب.ت)، ص٢٨.

(٢) الخطيب البغدادي (مرجع سابق)، ج١، ص٣٧٣.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٣٧٣.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٣٧٣.

(٥) المرجع السابق، ج١، ص٣٧٣.

(٦) انظر: المرجع السابق، ج١، ص٣٧٥ - ٣٨٨.

(٧) المرجع السابق، ج١، ص٣٨٨

كذلك ينبغي للعالم أن يحافظ على نظافة ثيابه[١] وأن يغسل يديه قبل الأكل وبعده، وأن يتجنب الأطعمة ذات الروائح الكريهة[٢] . وأن يغير من شيبه بالخضاب، مخالفا بذلك فعل أهل الكتاب[٣] وأن يتجنب السواد[٤] ويقول الخطيب إن ذلك العمل «لم يزل.. من زي الصالحين وزينة الفضلاء المتدينين»[٥]، ولقد بين الخطيب صفة ملابس العالم وما يجب فيها من حيث مراعاة نوعيتها وتناسب ألوانها، فيتجنب ارتداء ماكان ذا نوع ردئ لا يليق بكرامة المعلم، كل ذلك بدون إفراط أو تفريط ويعتبر عدم الاهتمام بالملبس كالتأنق الزائد فيه، كلاهما غير مرغوب فيه، ويقول الخطيب إن على العالم أن يلبس أحسن الثباب وأجملها وأن يختار منها ماكان لونه أبيض وذلك لحديث الرسول ﷺ «ألبسوا الثياب البيض فإنها أطهر وأطيب ، وكفنوا بها موتاكم»[٦]

إن التوسط والاعتدال -كما ذكرنا- أمر مطلوب ، فالانسان يكره أن يراه الناس في الحالة التي تزري به، وتحط من قدره في نظر الآخرين، وهو عندما يحافظ على شعوره، ويعمل على حفظ كرامته ينبغي له أن يحافظ على شعور الآخرين وخاصة من الفقراء والمساكين فلا يستعرض أمامهم ويتباهى بثيابه ، ويختال بزينته ، وفي ذلك يقول الخطيب : «كما يكره له -العالم- لبس أدون الثياب، فكذلك يكره له لبس أرفعها خوفا من الاشتهار بها وأن تسموا إليه الابصار فيها»[٧]، وقد قال بعض الناس «كما تكره أن يراك الاغنياء في الثياب الدون، فكذلك فاكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة»[٨]، وهناك أمور أخرى في لباس العالم ذكرها الخطيب، موافقة لروح عصره منها لبس العمامة والطيلسان والقلنسوة وغير ذلك من الآداب التي تتعلق بجلوس العالم ومشيته ومرافقته لأصحابه وتلاميذه.[٩]

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٧٦ .
(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٧٧ .
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٧٨ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٨٠ .
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٧٨ .
(٦) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٨١ .
(٧) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٨٢ .
(٨) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٨٣ .
(٩) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٨٣- ٣٩٧ .

٨ – هيبة العالم ووقاره :

ينبغي للعالم أن يكون حديثه لطيفا ، حسنا، ودودا مع أصحابه وأن يختار من الألفاظ والعبارات ما يؤدي المعنى ولا ينبوا عن الذوق الرفيع[١] وأن يتجنب المزاح مع الجالسين في مجلسه، فإن ذلك يسقط الهيبة ويذهب بالحشمة[٢] ، عن الأحنف بن قيس قال: «قال لى عمر بن الخطاب: يا أحنف من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن أكثر من شيئ عُرِفَ به، ومن مزح أستُخِفَّ به»[٣] ، وقال أب لابنه «يابنى لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا تمازح الدنئ فيجترئ عليك»[٤].

لذلك جاز للعالم أن ينهر كل من لا يتحلى بالأدب ويوقر مجلس العلم، أو يرفع صوته فى حديثه بما ينم عن استهتاره بحرمة المجلس وأهله، ويعتبر ترك ذلك، وعدم الأخذ على يد المستخفين من الأمور التى تقلل من الهيبة، ومكانة العالم، وتحط من قدره عند جلسائه وطلابه، فلا يستفيدون من علمه، وفي هذا المعنى روى الخطيب أن الليث بن سعد رأى من بعض أصحاب الحديث ما أنكره فى مجلس العلم فنهرهم قائلا لهم «أنتم -والله- إلى يسير الأدب أحوج منكم إلى كثير العلم»[٥] ومن هذا المنطلق يتعين على العالم أن يوجه أصحابه وينبههم برفق ولين فقد جاء فى الحديث عن أبى الدرداء أن رسول الله ﷺ قال «من أعطِى حظه من الرفق فقد أعطِى حظه من الخير، ومن حُرِم حظه من الرفق فقد حُرِم حظه من الخير»[٦].

٩ – واجب الثناء على العلماء :

من الأخلاق والآداب التى يحرص الخطيب على تحلى العلماء بها ذكر فضائل السلف الصالح من الصحابة، والتابعين، وأئمة المسلمين، والاشادة بمناقبهم، والنشر لمحاسن أعمالهم وسوابقهم، وفي ذلك يقول الخطيب «إن الله تعالى اختار لنبيه أعوانا جعلهم أفضل

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٤٠٤ .
(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٤٠٤
(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٤٠٤
(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٤٠٤
(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٤٠٥
(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٤٠٧

الخلق وأقواهم إيمانا، وشد بهم أزر الدين، وأظهر بهم كلمة المؤمنين، وأوجب لهم الثواب الجزيل، وألزم أهل الملة ذكرهم بالجميل»[1]، ولذلك يستحب للعالم أن يكون كلامه على زميله وعلى أهل العلم والفضل عامة بالحمد والثناء الحسن والوصف الجميل وأن ينبه على مكانة أهل الفضل ويبين المعاني التى لا يعرفها الحفاظ من أمثالهم وذويهم[2].

إن الثناء على العلماء وذكر فضائلهم، وبيان محاسنهم يستلزم ولو ضمنيا بيان الفئة الأخرى من العلماء التى يجب الحذر منها وتجنبها، ويرى الخطيب أن من واجب العلماء والحفاظ أن يبينوا أحوال تلك الفئة وفضحهم وتشديد النكير عليهم، بل هو يرى الانكار عليهم نهارا جهارا وإنهاء أمرهم إلى ولى الأمر ليضرب على أيديهم، ويرهبهم، خاصة إذا كانوا من الكذابين وفي ذلك يقول «إذا سلك الراوى طريقا تلحق به الظِّنَة وتلوح ممن سلكها للعلماء إمارات التهمة لزم أهل المعرفة بيان أمره وإظهار حاله وإشادة ذكره ليتوقف عن الاحتجاج به، وإن كان غير مقطوع على كذبه»[3]، «أما إذا كشف الراوى قناعه وأسقط فى تخرص الكذب حياء»، فيجب إنهاء أمره إلى السلطان والاستعانة في النكير عليه بمن وجد من الأعوان»[4].

إن العالم لما كان من الواجب أن يكون عدلا في حكمه قدوة فى نفسه، أمينا فى نقله، مستقيما فى نفسه وسيرته، وجب أن يُتَحَرى عنه وأن يُسْتَعْلَم عن أخباره وأحواله ممن يعرفه[5]، وليس تتبع أخبار العلماء وكشف أخطائهم من باب تتبع عورات المسلمين أو الغيبة بل هو من باب التوثيق والتحري الذي لابد منه لمن يطلب العلم، خاصة وقد أجمع أهل العلم «على أن الخبر لا يجب قبوله إلا من العاقل الصدوق المأمون على مايخبر به، وفي ذلك دليل على جواز الجرح لمن لم يكن صدوقا في روايته مع سنة رسول الله ﷺ، وقد وردت مصرحة بتصديق ما ذكرنا، وبضد قول من خالفنا»[6]، وهذه سنة الرسول ﷺ تخبرنا بأنه سيأتي زمان يكثر فيه الكذابون، وقد نهى الرسول ﷺ عن الكذب عليه، وبين أنه ليس ككذب على أحد،

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص١١٧.
(٢) المرجع السابق، ج٢، ص١٢٠.
(٣) المرجع السابق، ج٢، ص١٦٨.
(٤) المرجع السابق، ج٢، ص١٦٩.
(٥) الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية (مرجع سابق)، ص٣٤.
(٦) المرجع السابق، ص٣٨.

«فوجب بذلك النظر في أحوال المحدثين والتفتيش عن أمور الناقلين احتياطا للدين، وحفظا للشريعة من تلبيس الملحدين»[1] ، ومن هنا يجب على كل أحد أن يدقق في أحوال من ينقل عنه أو يتعلم منه، لعله يبين من الصفات والخلال مايكشف بها حاله. «ليكون بتحذير الناس إياه من الناصرين لدين الله الذابين الكذب عن رسول الله ﷺ ، فيالها من منزلة ما أعظمها ورتبة ما أشرفها ، وإن جهلها جاهل وأنكرها منكر»[2] .

ويقول الخطيب إن فضح الكذابين وأدعياء العلم والتشهير بهم لا يعد من الغيبة أو التقليل من شأن العالم والنزول بمكانته بقدر ماهو واجب يجب الوفاء به أداء لحكم النصيحة في الدين، وعلى ذلك يكون الجرح لغير الاكفاء من أهل العلم وأدعيائه وغير الصادقين معدودا من جهة النصح لله ولرسوله وللمؤمنين[3] . لأن عدالة العالم تستدعي صدقه ونزاهته وتجرده فيما يرويه من العلم أو يعتقد من المبادئ والأفكار بحيث يتحرى الصدق فيما ينقل من علم وعمن ينقل من أهل المعرفة، فإذا لم يتحقق بنفسه من صدق الأمر وصوابه لم يجز له أن يقول بما لا يعلم مهما كلفه الأمر من جهد أو سمعة وذهاب جاه، وقد روى الخطيب في هذا المعنى أن رجلا سأل ابنا لعبد الله بن عمر عن مسألة فلم يقل فيها شيئا فقال له «إنا نعظم أن يكون مثلك ابن إمام هدى، تسأل عن أمر ليس عندك فيه علم، فقال : أعظم والله من ذلك عند الله عز وجل وعند من عرف الله عز وجل وعند من عقل عن الله عز وجل أن أقول بما ليس لي به علم أو أخبر عن غير ثقة».[4]

إن تشدد الخطيب رحمه الله في أهلية من يؤخذ العلم عنه، ومن يتصدى للتعليم عامة إنما ينصب بالدرجة الأولى على العلماء الذين يروون أحاديث الأحكام مثل أحاديث التحليل والتحريم وما إليها، فهي التي يرى أنها يجب أن تؤخذ عن الثقات العدول من العلماء والحفاظ. أما أحاديث الترغيب والترهيب والزهد والرقائق فيجوز أخذها ممن هم دون ذلك[5] ، وهو تقسيم لا مبرر له لأن الحقيقة لا تتجزأ ولذلك كان الأولى أن يكون التحري عن كل حديث بنفس الدرجة من طلب العدالة والتوثيق والصدق وليس أحاديث الأحكام فقط والله أعلم.

---

(١) المرجع السابق ، ص٣٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص٤٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص٤٠ .
(٤) المرجع السابق ، ص٣٣ .
(٥) المرجع السابق ، ص١٣٣ .

١٠ - سعة الاطـــلاع :

يمتـاز المثـقـفـون من الناس بغـزارة العلم وسـعـة الاطلاع ، ورحـابـة الأفق ونضج الفكر نتيجة إدمان المطالعة ومواصلة الدرس والبحث[١] . ويرى الخطيب أن من الضـــرورة بمكان استيفاء العالم للشروط التي تؤكد أهليته لحمل لقبه، وخاصة إذا ما كان هذا العالم ممن يتولى إفتاء المسلمين في دين الله، ولذلك يرى أن على الامام حسن اختيار ذوي الخبرة من العلماء لتولي إفتاء المسلمين، وتوجيههم في شئون دينهم ودنياهم، وفي ذلك يقول « ينبغي لإمام المسلمين أن يتصفح أحوال المفتين، فمن كان يصلح للفتوى أقره عليها ومن لم يكن من أهلها منعه منها، وتقدم إليه بأن لا يتعرض لها، وأوعده بالعقوبة إن لم ينته عنها ».[٢]

وقد أجمل الخطيب أوصاف العالم الذي يتصدر للتعليم والفتوى في قوة الاستنباط والملاحظة ورصانة الفكر والدين والمروءة وحسن الهـدى والاقـتـداء والورع والمعـرفـة بطرق الاجتهاد والدقة العلمية..[٣] ويرى الخطيب أن على العالم أن يتميز بسعة الافق وغزارة العلم ورجاحة العقل و «أن يتعلق بطرف من معرفة كل شيئ من أمور الدنيا والآخرة، ومعرفة الجد والهزل، والخلاف والضد والنفع والضر، وأمور الناس الجارية بينهم والعادات المعروفة منهم.. ولن يدرك ذلك إلا بملاقاة الرجال والاجتماع مع أهل النحل والمقالات المختلفة، ومسا ءلتهم وكثرة المذاكرة لهم وجمع الكتب ودرسها ودوام مطالعتها ».[٤] ومما ذكـره الخطيب في هذا المعنى أيضاً إنه قيل لبعض الحكماء «إن فلانا جمع كتبا كثيرة فقال: هل فهمه على قدر كتبه؟ قيل: لا . قال : فما صنع شيئا، ما تصنع البهيمة بالعلم؟» وقال رجل لآخر أتعب نفسه في كُتْبِ العلم وهو لا يعلم شيـئـا مما كتب «مالك من كَتْبِكَ إلا فضل تعبك، وطول أرقك وتسويد ورقك»[٥] وهذا هو حال من لا ينعم النظر فيما يكتب، ولا يجيل الفكر فيما بين السطور، ويعتبر العالم أحق الناس بالفهم والعلم لأنه «ليس أحد أحوج إلى طلب العلم من العالم، لأنه ليس الجهل بأحد أقبح من العالم».[٦]

---

(١) علي الشويكي (مرجع سابق) ، ص٩٥ .

(٢) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص١٥٤ .

(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٥٨ .

(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٥٨ .

(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٥٩ .

(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٦٠ .

إن العـالم الجـدير باطلاق وصف العلم في حـقـه عند الخطيب هو العـالم الذي يكون «عارفا بسنن رسول الله ﷺ ، بصيرا ، مميزا لأسانيدها ، يحفظ ما أجمع أهل المعرفة على صحته، وما اختلفوا فيه للاجتهاد في حال نقله، يعرف فرق مابين قولهم فلان حجة، وفلان ثقة، ومقبول، ووسط، ولا بأس به وصدوق وصالح وشيخ ولين وضعيف ومتروك وذاهب الحديث ويميز الروايات بتغاير العبارات نحو عن فلان، وأنا فلان، ويعرف اختلاف الحكم في ذلك بين أن يكون المسمى صحابيا أو تابعيا والحكم في قول الراوي قال فلان وعن فلان.. ويعرف اللفظة في الحديث تكون وهما وما عداها صحيحا، ويميز الألفاظ التي أدرجت في المتون فصارت بعضها لاتصالها بها، ويكون قد أنعم النظر في حال الرواة بمعاناة علم الحديث دون ما سواه لأنه علم لا يعلق إلا بمن وقف نفسه عليه، ولم يضم غيره من العلوم إليه»[١]

ويرى الخطيب أن على العالم أن يفنى عمره كله في طلب العلم، وألا يقف في تعليمه عند حد، ويذكر في ذلك أن رجلا سأل يحيى بن معين: أيفتي الرجل من مائة ألف حديث؟ قال: لا، قال ولا من مائتي ألف؟ قال: لا، قال: ولا من ثلاثمائة ألف؟ قال: لا. فقال السائل: ولا من خمسمائة ألف؟ قال: أرجو ذلك[٢]، ويقول الخطيب إن هذا العدد ليس كافيا لمن ينتصب للفتيا والتعليم مالم يكن له «معرفة به ونظرة فيه وإتقان له ، فإن العلم هو الفهم والدراية وليس الاكثار والتوسع في الرواية»[٣] وهو «نور يجعله الله في القلب»[٤]. وعلى ذلك ينبغي للعالم «أن يكون قد أكثر الحديث كتابة وسماعا ويلزم نفسه نظرا في علمه وإطلاعا مديما ذلك من غير تقصير، ومشمرا فيه غاية التشمير ، فإن ذلك سبب حفظه، ومعرفته لمن رزقه الله ، ومن عليه بموهبته»[٥]

فإذا جمع العالم علمه وتبحر في فنه، وتعمق في فهم مسائله ودقائقه وضع خلاصة هذا العلم في مصنفاته وهو عمل فوق أنه حق العلم على العالم هو أيضا عمل نافع لطلبة العلم وللمتعلمين ، كما أنه تخليد للذكر وقوة للعلم وإذكاء للقلب وشحذ للطبع، وبسط للسان وعرض للبيان، وفي ذلك يقول الخطيب «قَلَّ من تمهر في علم الحديث ويقف على غوامضه

---

(١) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢ ، ص١٧٣.
(٢) المرجع السابق ، ج٢ ،ص١٧٤ .
(٣) المرجع السابق ، ج٢ ،ص١٧٤ .
(٤) المرجع السابق ، ج٢ ،ص١٧٤ .
(٥) المرجع السابق ، ج٢ ،ص١٧٥ .

ويستنير الخفي من فوائده إلا جمع متفرقة وألف متشتته، وضم بعضه إلى بعض، واشتغل بتصنيف أبوابه، وترتيب أصنافه فإن ذلك الفعل مما يقوي النفس ويثبت الحفظ ويذكي القلب ويشحذ الطبع ويبسط اللسان ويجيد البيان ويكشف المشتبه ويوضح الملتبس ويكسب أيضا جميل الذكر وتخليده إلى آخر الدهر»[1]

ومما ينبغي للعالم فعله أن يفرغ «للتصنيف قلبه، ويجمع له همه ويصرف إليه شغله ويقطع به وقته»[2]، وأن يراجع باستمرار ما يكتبه، وينقده، ويهذبه قبل أن يخرج عمله للناس فتضيع الفرصة من يده، وقديما قالوا : «من ألف فقد استهدف» ويقول الخطيب، في هذا المعنى حاثا العالم ألا «يضع من يده شيئا من تصانيفه إلا بعد تهذيبه وتحريره وإعادة تدبره وتكريره»[3] ولكي يحقق العالم ما يريد من ثقافة وعلم واطلاع واسع شامل وقدرة على التأليف المفيد يجدر به أن يجيد فن القراءة الواعية لأن القراءة المختارة المتأنية هي أهم سبيل إلى اكتساب المعرفة، ويترتب على هذا أن يعرف متى تكون القراءة مفيدة ومتى لا تكون وأي شيئ يقرأ ، وكيف يقرأ وأن يحيط بأجواء ذلك وقواعده علما وفنا ليجني أطيب الثمار وأنفعها.

ثانيا : آداب العالم مع تلاميذه :

بعد أن استعرضنا آداب العالم في نفسه ومظهره وعلمه ،يحسن بنا أن نتناول آدابه مع تلاميذه، وللخطيب في ذلك باع طويل واهتمام كبير ولو شبهنا مجلس العلم بكائن ينبض بالحياة والنشاط لترتب على ذلك أن يكون المعلم موضع القلب الذي يزود أعضاء ذلك الكائن بكل مقومات الحياة، وهؤلاء الأعضاء هم تلاميذه الذين يجب أن تكون علاقته بهم قائمة على أساس متين من الحب والعطف والاحترام والتقدير المتبادل «ولا يتأتى ذلك الا حين يشعرهم بأنه أحنى عليهم من آبائهم، وأشفق عليهم من إخوتهم وأصدقائهم، يحترم شعورهم ويشاركهم عواطفهم، ويحس باحساساتهم ويبادر إلى مساعدتهم كلما احتاجوا إلى شيئ من

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ،ص٢٨٠ .

(٢) المرجع السابق ، ج٢ ،ص٢٨٢ .

(٣) المرجع السابق ، ج٢ ،ص٢٨٣ .

المساعدة والعون»[1]. ويحرص على العدل بينهم وتوجيههم والاهتمام بشؤنهم والبشر في وجوههم، والبر بهم، وفيما يلي نذكر أهم الصفات والآداب التي ينبغي للعالم أن يتحلى بها في تعامله مع طلابه وتلاميذه.

١ - مخالقة العالم لطلابه :

حسن الخلق من أهم آداب العالم في الاسلام التي ينبغي له أن يتحلى بها مع الناس عامة، ومع طلابه خاصة، وألا يفرق في ذلك بين طالب وآخر بل يساوي بينهم في النصح والتوجيه والتعليم ، وفي ذلك يقول الخطيب «يلزم الفقيه -العالم- أن يتخير من الأخلاق أجملها، ومن الآداب أفضلها فيستعمل ذلك مع البعيد والقريب والأجنبي والنسيب. ويتجنب طرائق الجهال، وخلائق العوام والأراذل»[2] لقول الرسول ﷺ : «أكمل الناس إيمانا أحسنهم خلقاً»[3]، فلم يعط الناس شيئاً أفضل من حسن الخلق كما جاء في حديث أسامة بن شريك قال: «سئل النبي ﷺ ، ما خير ما أعطى الناس؟ قال: حسن الخلق»[4]، كذلك قال الرسول ﷺ : «لا يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من حسن الخلق»[5] من أجل ذلك كان حسن الخلق طريقاً إلى محبة الناس في العالم وتعلق طلبته به وقربهم منه كما أن العالم بحسن أخلاقه العالية، وأدبه الجم يحبب الطلبة في العلم ويدفعهم إلى حسن الاستفادة من أوقاتهم، كل ذلك في جو من المودة والمرحمة والعطف والتقدير من جانب العالم والمتعلم على السواء.

٢ - الرفق بالمتعلمين :

يقوم المعلم «العالم» مقام الوالد من المتعلم، وحق المتعلم عليه كحق الولد على والده، عملا بقول الرسول ﷺ : «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده»[6] ، فيجب والحال هذه أن يقصد العالم إلى إنقاذ تلاميذ « من نار الآخرة وعذاب الله أولا ، ثم إعدادهم إعدادا فكريا وروحيا

---

(١) على الشوبكي (مرجع سابق) ، ص٣٧ - ٣٨ .
(٢) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢ ، ص١١٠ .
(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١١٠ .
(٤) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٣٥٢.
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٥٢ .
(٦) أحمد بن حنبل (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص٢٤٧ .

وعقليا يجعلهم صالحين لنفع أنفسهم ونفع أمتهم، وليكن حرصه على إنقاذ طلبته من الجهل ومن الأخلاق السيئة والعادات القبيحة كحرصه على إنقاذ أبنائه من ذلك كله»[١]

وقد أدرك الخطيب أن من أنجح الأساليب التربوية الرفق بالمتعلم، والأخذ بيده ومعاملته معاملة حسنة، خاصة وأن «شعور المتعلم بعطف معلمه عليه وبرفق معاملته له يكسبان المتعلم الثقة بالنفس ويشعرانه بالاطمئنان إلى معلمه، فيساعده هذا الشعور على تحصيل العلم بسهولة أكثر»[٢] وفي هذا المعنى يحث الخطيب العالم إلى «أن يعود لسانه لين الخطاب والملاطفة في السؤال والجواب، ويعم بذلك جميع الأمة من المسلمين وأهل الذمة»[٣] وقد روى الخطيب بسنده عن علي بن أبي طالب أنه قال: «من لانت كلمته وجبت محبته»[٤]، ومن الآداب الاسلامية المرعية في هذا الباب بشاشة العالم في وجوه تلاميذه وإظهار السرور بمقدمهم، واستقبالهم بالترحيب[٥]، وهكذا نرى أن أهم ما يميز هذه العلاقة الرحمة والرفق والحنو من العالم على طلبته، وهو ماينبغي أن يحس به الطالب ويستشعره تجاه معلمه، وقدوتنا في كل ذلك معلمنا الأول رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[٦].

كذلك ينبغي للعالم أن يكرم أهل العلم والفضل من طلابه، وأن ينزلهم منازلهم من العلم والشرف، لما جاء عن أم المؤمنين عائشة قالت: «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم»[٧]، وعلى العالم أن يتفقد حال طلابه، ويسأل عمن غاب منهم[٨]، وأن يرفق بمن جفا طبعه منهم وأن يصبر عليهم، ويسوسهم بالرفق، واللين، وحسن المداراة والاحتمال فقد جاء عن الرسول ﷺ أن «من يحرم الرفق يحرم الخير»[٩]، وكان العلماء يقولون «من أراد أن

---

(١) حسن أيوب (مرجع سابق)، ص٤٥٠.
(٢) فتحية حسن سليمان (مرجع سابق)، ص٣٣.
(٣) الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه (مرجع سابق)، ج٢، ص١١٣.
(٤) المرجع السابق، ج٢ ص١١٤.
(٥) المرجع السابق، ج٢، ص١١٦.
(٦) سورة التوبة، آية (١٢٨).
(٧) الخطيب البغدادي: الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٣٤٧.
(٨) الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه (مرجع سابق)، ج٢، ١١٩.
(٩) الخطيب البغدادي: الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق)، ج١، ص٣٥٤.

يحدّث -يعلم- فليصبر وإلا فليسكت»[1] ، وقد فطن الخطيب إلى أن التشهير بخطأ الطالب قد يثيره ويجعله يجاهر به، ويلجأ إلى التحدي والمواجهة ، لذلك نجده ينصح المعلم بتجنب أسلوب التعنيف وأن يكون التوجيه بطرق الرفق واللين[2] حتى لا يدفع الطلاب إلى العناد، والاجتراء على مالم يكونوا يجرأون عليه.

٣ - بذل الاحسان ومساعدة الطلاب :

ذكرنا فيما سبق حث الخطيب العلماء على الاهتمام بالطلاب والسؤال عن حالهم ، وقد حرص الخطيب على بذل مزيد الاهتمام أيضا بمساعدة المحتاجين من الطلاب لذلك نجده يوجه العالم إلى أن يتألف طلابه «بالمعونة لهم على حسب إمكانه، والانبساط إليهم، والتخلق معهم»[3] ، وأن يقوم بنفسه على خدمتهم، وبذل ماله لهم، لأن ذلك «مما يصفى منهم المودة ويلقي في قلوبهم المحبة»[4] . والخطيب نفسه كان قدوة في ذلك يحسن إلى طلابه ويرعاهم، ويبذل لهم المال الكثير، ويتفقد أحوالهم وكان يقرب الطلاب الأذكياء ويدني النابهين من مجلسه ويرعاهم علميا وأدبيا وماديا، وكذلك يجب أن يكون موقف العالم من طلبته، يوجههم إلى سبل الخير، ويعلمهم الجرأة في الحق والخوف من الزلل، وينفرهم من التقحم في الباطل، والاجتراء على الشرع، ويورثهم حب الحقيقة وعدم التردد في قول «لا أدري» عندما لا يعلمون وجه الحق في المسألة أو الموضوع محل الدراسة والبحث[5]

٤ - مراعاة أحوال المتعلمين :

يعتبر الاعتدال وعدم الاملال من أهم المبادئ المرعية في التربية والتعليم، ومعناه أن على العالم أن يراعي الطاقة النفسية والجسمية للمتعلم، فلا «يطيل المجلس الذي يرويه، بل يجعله متوسطا ، ويقتصد فيه حذرا من سآمة السامع ومله، وأن يؤدي ذلك إلى فتوره عن

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٤٣ .
(٢) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج٢، ص١١٣- ١٣٨.
(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١١٧.
(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١١٨.
(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٧٢ - ١٧٤ .

الطلب وكسبه»[1]، ولأن من يسمع أو يتعلم وهو كاره لما يسمع لا يستفيد مما يتلقاه، فهو يستمع بأذنه إلا أنه لا يعي بقلبه، وعلى هذا يجب أن توضع مناهج التعليم، وتؤلف كتبه وتحدد مقرراته بحيث يقبل المتعلمون على العلم وهم راغبون فيه، حريصون على الاستزاده منه، ومما يزيد في فاعلية ذلك أن يدخل المعلم على درسه روح المرح والدعابة والبساطة بالملح والطرائف والحكم.

وقد روى الخطيب في المعاني السابقة أن «من أطال الحديث ، وأكثر القول فقد عرض أصحابه للملال وسوء الاستماع، ولأن يدع من حديثه فضلة يعاد إليها أصلح من أن يفضل عنه ما يلزم الطالب استماعه من غير رغبة فيه ولا نشاط له»[2]، ويقول الخطيب «وحق الفائدة ألا تساق إلا إلى مبتغيها ولا تعرض إلا على الراغب فيها، فإذا رأى المحدث بعض الفتور من المستمع فليسكت فإن بعض الأدباء قال: نشاط القائل على قدر فهم السامع»[3]. ويقول الخطيب أيضاً إن على العالم أن يراعي ظروف المتعلم العضوية بعد أن راعى أحواله النفسية والتي قد تحد من استفادته من الدرس مثل ضعف السمع فيقول «إذا حضر المجلس سيئ السمع وجب على المحدث أن يرفع صوته بالحديث حتى يسمعه»[4]، ويقول إن العالم في ذلك ليس مثل المتعلم ، لأن العالم يستطيع التحكم في صوته مثلا بينما لا يستطيع المتعلم -ممن تلك حاله- التحكم في سمعه وحواسه عامة ولا يستطيع أن يزيد فيها ولذلك من حقه على العالم أن يرفع له صوته بالدرس حتى يسمعه.[5]

والواقع أن الرغبة في التعليم قد تدفع بعض طلبة العلم إلى إضجار العالم وإعناته ، وقد وجه الخطيب طلبة العلم -كما ذكرنا سابقا- إلى الأحوال التي يسألون فيها وتلك التي يتعين عدم سؤالهم فيها، ومن هذه الحالات التي ينبغي تجنب السؤال فيها حالة المشي والقيام والغضب أو الفرح الشديد ، وانشغال القلب والتعلم وقد سأل رجل سعيد بن جبير أن يحدثه

---

(١) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢ ، ص١٢٧ .
(٢) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص١٢٧ .
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٣٠ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص٤١٣
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص٤١٣ .

في وقت غير موات للتحديث فقال له سعيد «إنه ليس كل حين أحلب فأشرب»[1] وفي ذلك من الاحساس بالضجر، مايدعو الطالب إلى ضرورة مراعاة ظروف العالم وأحواله النفسية.

٥ – مراعاة الفروق الفرديـة :

من آداب التعليم ومبادئه وقيمه الأصيلة التي جاءت بها السنة مراعاة الفروق بين الناس، ويرى الخطيب أن على العالم أن يكون بصيرا باستعداد طلابه وأن يكون معهم مثل الطباخ الماهر يقدم لكل واحد منهم ما يناسبه ويطيب له من أنواع الطعام الذي يناسب معدته ويحفظ صحته ، وكذلك حال العالم «المعلم» الذي ينبغي له ألا يلقى إلى المتعلم إلا مايحتمله عقله وتحيط به مداركه، وهو مايتطلب أن يكون المعلم بصيرا بطلابه عالما بما يفيدهم ويصلحهم وفي ذلك يقول الخطيب «ينبغي للعالم أن يكون بمنزلة الطباخ الحاذق يعمل لكل قوم مايشتهون من الطعام، وكذلك ينبغي للعالم أن يحدّث كل قوم بما تحتمله قلوبهم وعقولهم من العلم»[2] ، فليس كل ما يصلح لشخص يصلح لآخر، وليس كل مايصلح لبيئة يصلح لأخرى وليس كل ما يصلح لزمن يصلح لسائر الازمنة والعصور، ولذلك ينبغي للعالم أن يراعي ظروف طلابه ويقدم لكل واحد منهم ما يناسبه من العلم ويصلح له وبالقدر الذي يصلح به وفي الوقت الذي ينتفع به أيضا، ويعطي لكل متعلم على حسب قدرته واستعداده.[3]

وهكذا نرى أن الخطيب قد أولى مبدأ الفروق الفردية عناية، واهتماما كبيرين، حتى يكون تعامل المعلم مع طلابه على بصيرة وعلم باستعداداتهم وقدراتهم ومواهبهم، وبالتالي لما يصلح لكل واحد منهم، وبذلك يكون الخطيب قد نادى قديما بما توصل إليه المربون حديثا من التأكيد على وجوب مراعاة الفروق في التعليم، ولأن عدم مراعاتها قد يتسبب في تنفير الطلبة من التعليم والاقبال على الدراسة، والشعور بالاحباط والفشل فينقطعوا عن الدراسة ويكون ذلك سببا في ضياع مستقبلهم وإهدار طاقاتهم ، وبقدر مايكون المعلم بصيرا بالفروق بين طلابه، بقدر مايكون ناجحا وموفقا في مجال التربية والتعليم.[4]

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص٤٠٨ .

(٢) يوسف القرضاوي : الرسول والعلم (مرجع سابق) ، ص١٣٤ .

(٣) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص١٠٨ - ١١٠ .

(٤) محمد بن محمد أبو حامد الغزالي : أيها الولد. (تحقيق وتعليق علي محي الدين علي القره داغي) القاهرة : دار الاعتصام ١٩٨٣م، ص٦٦ من دراسة المحقق.

٦ – القدوة الحسنـــة :

لما كان المعلم هو القدوة والمثل الذي يحتذى من قبل المتعلم، كان من الواجب أن يكون مثالا حسنا وانموذجا صالحا في نفسه وسلوكه وعلمه، خاصة وأن أعين المتعلمين متعلقة به وهو في نظرهم المثل الذي يحتذى في القول والعمل، وقد وجه الخطيب نظر العالم إلى ضرورة العناية بمظهره وهيئته وسلوكه وأن يلتزم بالأحسن والأكمل ما استطاع إلى ذلك سبيلا[١] لا لشيئ إلا لأن ذلك العمل يغرس في نفوس التلاميذ -عن طريق التقليد، إن لم يكن الاسوة الحسنة- ما يعجز عن غرسه عن طريق القول عشرات المربين.[٢]

ولقد كان الخطيب يرى أن من الواجب أن يكون العالم صورة صادقة لما يقول ويفعل، وألا يكون من تلك الفئة من العلماء الذين يشغلون أوقاتهم بطلب العلم دون أن يعمدوا إلى العمل والتطبيق لما يعلمون، وقد ذكر الخطيب بعض أقوال السلف حول تطبيق العلم منها قول بعض الحكماء «العلم خادم العمل، والعمل غاية العلم، فلولا العمل لم يطلب العلم، ولولا العلم لم يطلب عمل، ولأن أدع الحق جهلا به أحب إلى من أن أدعه زهدا فيه»[٣] ، ويقول الخطيب إن العلم ليس «بكثرة الرواية وإنما العالم من اتبع العلم، واستعمله، واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم»[٤] وقال العلماء «تعلموا العلم واعقلوه، وانتفعوا به، ولا تعلموه لتجملوا به فإنه يوشك إن طال بكم العمر أن يتجمل بالعلم كما يتجمل الرجل بثوبه»[٥]، ويقول آخرون «إنما يراد من العلم العمل ، والعلم دليل العمل»[٦] ، وقد أورد الخطيب الكثير من الأقوال التي تدور حول هذا المعنى ، وبالجملة، لابد للعالم من الالتزام الكامل بالآداب الشرعية الظاهرة والخفية حتى يكون قدوة صالحة ومثلاً أعلى لمن يعلمه.

ولنا في رسول الله ﷺ الاسوة الحسنة والقدوة الصالحة، وكان الناس يرون في شخصيته ﷺ دين الله متحققا على الأرض، وقد جعل الله القدوة في كل عصر ومكان وقد

---

(١) انظر : الخطيب البغدادي : (مرجع سابق) ج٢ ، ص٣٧٢ - ٣٩٠ .
(٢) انظر : حسن أيوب (مرجع سابق) ، ص٤٥٢ .
(٣) الخطيب البغدادي : اقتضاء العلم العمل (مرجع سابق) ، ص١٥ .
(٤) المرجع السابق ، ص٣٠ .
(٥) المرجع السابق ، ص٣٤ .
(٦) المرجع السابق ، ص٣٧ .

أكد الخطيب -كما رأينا- على القدوة وبين أنها من أهم وسائل التربية وأجداها «فالقدوة واقع حي ملموس يدعو إلى الامتثال بالعمل قبل القول، ولذا فإن التربية بالقدوة أبلغ وأكثر تأثيرا من التربية بالمقال، فلسان الحال أبلغ من لسان المقال»[1]

٧ - المشـــاورة :

من آداب العالم مع طلابه إشراكهم فيما يدور في مجلسه من قضايا ومشكلات، ومشاورتهم ، وإتاحة الفرصة لهم في مجال المناظرة وإشراكهم في الاجابة على المسائل التي تثار في مجالس المناظرة والبحث والمناقشة، لأن ذلك بركة واقتداء بفعل السلف الصالح[٢]، واستجابة لأمر الله قبل كل شيئ ﴿ وشاورهم في الأمر..﴾[٣] ، واقتداء بفعل الرسول ﷺ الذي شاور، وأمر بالمشاورة، ومما رواه الخطيب في الحث على المشاورة قول عبدالله بن المعتز «من أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا، وعند الخطأ عاذرا»[٤].

٨ - النصـــح :

ينبغي للعالم ألا يدع مجالا لنصح طلابه إلا وأفادهم منه، كأن يوجههم إلى مراعاة الفروق بينهم، وإلى تعليمهم إخلاص العمل والخوف من الله، وأن يكون هدفهم من طلب العلم تقوى الله تعالى وليس طلب الدنيا أو المباهاة وطلب المفاخرة والرئاسة والمنافسة[٥] وقد أسلفنا ضرورة أن يكون العالم رفيقا في نصحه، مخلصا في توجيهه، وألا يعمد إلى إحراج الطالب أمام زملائه، لأن في ذلك مسا من كرامته وقد يدفعه ذلك - كما ذكرنا - إلى أن يرفع حاجز الحياء ويجاهر بالأخلاق السيئة فلا يتحقق الهدف من التربية والتعليم ، وفي مجال النصح والتناصح نجد الخطيب أحرص الناس على أن يوجه العالم طلبته إلى العلوم التي يجب أن يبدأوا بها ، ويبين لهم المراجع والكتب التي تساعدهم على التحصيل الجيد فيها وقد فصل

---

(١) عجيل جاسم النشمي : معالم في التربية ، ط١، الكويت : مكتبة المنار الاسلامية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص١٧٥ .

(٢) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢ ، ص١٨٤ .

(٣) سورة آل عمران ، آية (١٥٩) .

(٤) الخطيب البغدادي (مرجع سابق) ج٢ ،ص١٨٦ .

(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٨٧، ٨٨ .

الخطيب رحمه الله الحديث حول العلوم التي ينبغي أن يدرسها الطالب عندما تعرض لذكر مواد المنهاج[1] ، وهو موضوع بسطنا الحديث فيه عندما تناولنا مواد المنهج في فصل التعليم ومناهجه وأدواته وعلى الراغب في الاستزادة الرجوع إليه..

ومما هو جدير بالتنويه تحذير الخطيب للعالم من الوقوع فيما يغضب الله من تفريق كلمة المسلمين مما يقع فيه بعض أهل العلم من المسلمين من ذوي النفوس المريضة عندما يبغضون طلبتهم في علماء الامة السابقين منهم واللاحقين، لذلك يجب على العالم أن يبعد طلبته عن مواضيع الخلاف ، وأسباب الشقاق والبغضاء والفرقة بين المسلمين ويعودهم في مقابل ذلك على احترام العلماء والدعاء لهم والانتفاع بعلمهم وهديهم.[2]

٩ - تكريم ذوي الفضل من الطلاب المميزين :

يعتبر تكريم النابهين من الطلاب، والاعتراف بمكانة ذوي الفضل منهم عملا إسلاميا مسددا، لأنه يستجيب لأمر الرسول ﷺ الذي رواه الخطيب بسنده عن أم المؤمنين عائشة قالت: «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم»[3] . وقد بلغ احترام ذوي العلم من الطلبة للعلماء أن الرجل منهم كان إذا أتى الأحنف بن قيس أوسع له في مجلسه فإن لم تكن هناك سعة أراه كأنه يوسع له[4] وذلك منتهى الأدب أن يفعل أهل العلم ومن يتأسى بهم مثل صنيع الأحنف المتقدم، ولا يألو جهدا في تكريم ذوي العلم من الطلاب تشجيعا لهم، ولذلك نجد الخطيب يقرب الأذكياء ويرعى الفضلاء من الطلبة، فمن كان أكثرهم علما وأسرعهم فهما، فقد كان يقربه ويدنيه ويجعله مما يليه.[5]

ثالثا : آداب العالم في درســـه :

ذكرنا فيما سبق أهمية القراءة ، والاستذكار ، ومواصلة العلم والجمع ، ودوام المطالعة،

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ج٢ ص١٨٤- ٢١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٣٩ .

(٣) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٣٤٧.

(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٤٥ .

(٥) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢ ، ص١٢٢.

والبحث والتصنيف، وأن العالم مطالب بمواصلة الجهد وجمع المعلومات والتعمق في العلوم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وقد قال العلماء يبقى الرجل عالما ما تعلم فإذا ترك العلم وظن أنه قد استغنى واكتفى بما تعلم فهو أجهل الناس[١]، وكان العلماء يتعلمون ممن هم دونهم في العلم فضلا عمن هم مثلهم أو فوقهم[٢]، وكان الخطيب نفسه -وهو تلميذ- إبان رحلاته العلمية يذاكر شيوخه، ويفيدهم بمروياته كما يستفيد منهم[٣]، فدلل بذلك على مبلغ تواضع العلماء، وأن الفاضل لا يمنعه فضله من الاستفادة من المفضول، لأن الحكمة ضالة المؤمن وهو أولى بها أنى وجدها وفيما يلي نذكر أهم آداب العالم في درسه .

١ – مراعاة الحاجات النفسية والجسمية :

تعتبر الحالة النفسية والبدنية ذات تأثير كبير على نشاط الفرد وسلوكه، لذلك نصح الخطيب العلماء بمراعاة تلك الأحوال وأن يتفقدوها من أنفسهم قبل خروجهم إلى الدرس فيقول: «إذا أراد الفقيه الخروج إلى أصحابه ليذكر لهم دروسهم فينبغي له أن يراعي حاله قبل خروجه، فإن كان جائعا أصاب من الطعام ما يسكن عنه فورة الجوع»[٤]، «وإن كان ناعسا لأمر أسهره أخر تدريسه في تلك الحال وأخذ حظه من نومه»[٥]، «ولا يخرج إلا طيب النفس فارغ القلب من كل ما يشغل السر».[٦]

٢ – أدب المجلس :

يقول الخطيب «إذا صار العالم إلى مجلسه ، واجتمع إليه أصحابه -تلاميذه- فلا يخلو من أن تكون عادته أن يذكر للجماعة دروسا مختلفة لكل طائفة منهم درسا ، أو يذكر لجميعهم درسا واحدا هم فيه مشتركون، وعلى اختياره متفقون فإن كانت دروسهم مختلفة قدم

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ج٢ ، ص٤١ .
(٢) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ، ج٢، ص٢١٦-٢٢٠.
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٢٥ .
(٤) الخطيب البغدادي : الفقيه والمفقه (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص١٢٠ .
(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢١ .
(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢١ .

من كان له السبق»[1] «وإن كان ما يذكره درسا واحدا لجميعهم فإنه يأمرهم بأن يتحلقوا، ويجلس في وسطهم بحيث يكون وجهه لكلهم»[2] ومن كان أكثر الطلاب علما وأسرع فهما قريبه منه ورعاه[3] ثم يفتتح الدرس بالبسملة وحمد الله والصلاة على النبي ﷺ ، ثم يذكر للطلبة الدرس على مكث وتؤدة من غير إسراع وعجلة[4] ويستحب الخطيب للعالم أن يفتتح درسه بتلاوة بعض آيات من القرآن الكريم[5] وأن يكون وجهه تجاه القبلة أثناء تدريسه[6] مما يعني أن العلم عنده نوع من أنواع العبادة، وعلى العالم أن يدرس وهو جالس غير مضطجع تعظيما للعلم وتوقيرا للمتعلمين[7] وأن يكون على طهارة إجلالا لحديث الرسول ﷺ وتعظيما لمجلس العلم الذي تتنزل عليه الرحمة وتحفة الملائكة بأجنحتها رضا لطالب العلم بما يصنع.

ويقول الخطب إن الآداب السابقة هي المثلى والمطلوبة وأنها إنما اتبعها من اتبعها على سبيل التوقير للعلم وتعظيمه والتنزيه له ولو حُدث محدّث على غير الأحوال السابقة «لم يكون مأثوما ولا فعل أمرا محظوراً، وأجل الكتب كتاب الله وقراءته في هذه الأحوال جائزة فقراءة الحديث فيها بالجواز أولى»[8].

٣ – الأسلوب :

من آداب العالم في درسه أن يكون كلامه واضحا، سليما، غير متكلف «يسيرا بليغاً، فإن التحفظ من الزلل مع الاقلال دون الاكثار، وفي الاكثار أيضا ما يخفي الفائدة ويضيع المقصود..»[9] ، كذلك ينبغي للعالم «الاصلاح من منطقة وتجنب اللحن في كلامه،

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢١ .
(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢١ .
(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢٢ .
(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢٣ .
(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢٦ .
(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٦١ .
(٧) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢ ، ص٤٠٩ .
(٨) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٤١٠ .
(٩) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢ ، ص٢٨ .

والافصاح عن بيانه»[1] ، «وأن لا يكون معجبا بكلامه، مفتونا بجداله، فإن الاعجاب ضد الصواب»[2] ، وليتجنب التشقيق والتقعير في الكلام فإنه ربما يصرف الطلبة عن الغرض المقصود[3] وفي هذا دعوة إلى النزول إلى مستوى المتعلم وعدم مخاطبته من عل، ومراعاة مستوى فهمه وتحصيله. ومما يؤكد عليه الخطيب إيضاح الفكرة للسامع وبيان العبارة وألا يمنع الحياء من توضيح المعنى، فإذا «كان البيان يتضح بعبارة يغلب الحياء ذاكرها، فعلى الفقيه إيرادها، ولا يمنعه الحياء منها»[4].

٤ – حلق الدرس ومجالس الاملاء :

عرف المسلمون مجالس الدرس والاملاء في المساجد وغيرها، وكانت هذه المجالس تتعدد، وتتنوع حسب التخصصات وأنواع العلوم التي تملى فيها، وكانت مجالس الاملاء تعقد على مدار أيام الاسبوع، وقد اعتبر الخطيب عقد مجالس الاملاء من «أعلى مراتب الراوين ومن أحسن مذاهب المحدثين، مع مافي ذلك من جمال الدين، والاقتداء بسنن السلف الصالحين»[5] ، وعلى الطلبة أن يكونوا على علم بموعد عقد الدرس وانعقاد مجلس الاملاء، «لئلا ينقطعوا عن أشغالهم وليسعوا لاتيانه، ويعد بعضهم بعضا به»[6]. فإذا عين العالم لطلابه يوما «ووعدهم بالاملاء فيه فلا ينبغي له إخلاف موعده، إلا أن يقتطعه عن ذلك أمر يقوم عذره به»[7] فقد كان بعض علماء السلف الصالح يقول «لأن أموت عطشانا أحب إلي من أكون مخلافا لموعد»[8].

٥ – استخدام الوسائل المعينة :

يعتبر استخدام الوسائل المعينة من أهم المبادئ التربوية الأصيلة، حيث يستعين المعلم

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٨ .
(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٣٠ .
(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٨٩ .
(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢٤ .
(٥) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢ ، ص٥٥ .
(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٥٨ .
(٧) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٥٩ .
(٨) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٥٩ .

بكل وسيلة ممكنة تساعد على إيضاح الحقيقة المقصودة مثل التشبيه والتمثيل والقياس، وكل ذلك دعا إليه الخطيب ورغب فيه فدعا العالم إلى أن يشبه «الشيئ بنظيره ليقرب الافهام على المتعلمين»[١] «فإن لم يفهموا إلا بالتمثيل مثل لهم»[٢] حتى يحس أنهم قد استوعبوا الدرس وألموا بالفكرة والخطيب بهذه التوجيهات يحرص على أن يتبع المعلمون أحسن الأساليب والطرائق وأرفعها وأقربها إلى عقل المتعلم وأكثرها مناسبة لمستوى تحصيله، وأحسنها وقعا في سمعه وبصره.

٦ - الجلوس على المنبر :

إذا كثر عدد الطلاب إلى درجة أن الشيخ لم يعد قادرا على إسماعهم جميعا، فمن الأفضل له أن يجلس على منبر أو مكان مرتفع «حتى يبدو للجماعة وجهه ويبلغهم صوته»[٣] وقد روى الخطيب بسنده عن أبي السليل القيسي أنه قال : «قدم علينا رجل من أصحاب النبي ﷺ ، وكانوا يجتمعون عليه، فإذا كثروا صعد على ظهر بيته فحدثهم منه»[٤] ولعل مرد ذلك راجع إلى كراهة بعض العلماء السماع ممن لا يرون وجهه، زيادة في التوثق والتوكيد، خاصة عندما يكون الأمر متعلقا بحديث الرسول ﷺ ، ورغم كثرة مكبرات الصوت وتيسرها اليوم، إلا أن رؤية المتكلم تزيد من ثقة المستمع فيما يسمع، ولا تدع له مجالا للتشاغل عنه، كما تعزز من تفاعله مع الموضوع، واهتمامه به.

ونخلص مما سبق إلى أن العالم هو حامل لواء العلم ومبلغ رسالته ، وهو وريث الأنبياء، وقد ميزه الله بالشرف وعلو القدر ورفيع المكانة لشرف رسالته، وكرم مهنته، وهو لذلك ينبغي له أن يتصف بعدة وظائف دينية وتربوية وتعليمية ، ويترتب عليه أن يجمع في شخصه صفات مثالية وأخلاقية ودينية وأخرى عملية «مهنية»، بمعنى أن يجمع بين السمعة الحسنة والقدرات الذهنية العالية، وقد مر معنا ذكر الكثير من هذه الصفات التي تنتظم في ثلاثة محاور رئيسية هي أدب العالم في نفسه، وقد رأينا أنه يشمل النية وهي أول ما يرجى

---

(١) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢ ، ص١٢٥ .
(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢٦ .
(٣) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١ ، ص٤١٣ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص٤١٣ .

من طلب العلم وتعليمه، وتعني الاخلاص لله تعالى في العلم والعمل ثم الشعور بالمسئولية أمام الله والناس وعلى قدر هذه المسئولية تكون تبعات العالم، كذلك من أبرز الفضائل والأخلاق أمانة العالم، وهي إسناد القول إلى قائله، ولذلك نجد كتب السلف موثقة بالأسانيد، كما أن الأمانة تقتضي ألا يقول المرء إلا بما يعلم وأن يتقبل الحقائق ممن هو مثله أو فوقه أو دونه من الناس.

وعلى العالم أن يكون متواضعا ، مجافيا للكبر والغرور المرذول، لأن العلم بحر لا شطأن له، ولأن أكثر الناس غرورا وادعاء للعلم والمعرفة هم أنصاف المتعلمين، وليس احترام العالم لنفسه واعتزازه بعلمه من هذا الباب، لأن عزة النفس شيئ غير الغرور وهي لهذا لا تنافي فضيلة التواضع والحلم والرفق التي تحدثنا عنها. ومن إكرام العلم وإعزاز النفس أن يضع العالم علمه حيث ينتفع به وألا يمنع العلم أهله فيأثم كما لا يحدث به غير أهله فيجهل. وقد رأينا أن أدب العالم في علمه يفترض عليه عدة اعتبارات في مقدمتها قوة الاستنباط والملاحظة والفكر الرصين والتأني وإخلاص الدين، وكمال المروءة والورع والتقوى والبعد عن الشبهات والصلابة في الحق ودوام المطالعة والاشتغال بالعلم وطرق الاجتهاد ومعرفة أحوال الناس وعاداتهم وبيئاتهم وتقاليدهم إضافة إلى مراعاة أوجه الاتفاق والاختلاف بين المذاهب والنحل، وغير ذلك مما نجده في باب آداب العالم في نفسه من هيبة ووقار وجمال المخبر ونظافة البدن وحسن تناسق المظهر وأناقته.

أما آداب العالم مع تلاميذه فيطلب الخطيب من العالم أن يحبب إلى طلبته العلم ويزينه في قلوبهم وأن يتصف في سلوكه نحوهم بحسن الخلق والتواضع والرفق وكثرة الاحتمال والتفهيم وتشجيع المصيب من الطلاب والثناء عليهم ومساعدة المحتاجين منهم وبذل الاحسان لهم، ومراعاة أحوالهم، ومراعاة الفروق الفرديقة بينهم ، وأن يكون لهم مثالا صالحاً وقدوة حسنة، وانموذجا يحتذى في العلم والأخلاق، مع مواساة الطلبة ومشاورتهم وإشراكهم في الدرس وتقديم النصح لهم ورعاية الموهوبين منهم وتكريمهم والرفع من قدرهم.

أما الآداب والقواعد التي تنظم علاقة المعلم بطلبته أثناء الدرس فيمكن إجمالها في حسن عناية العالم بجسمه وراحته النفسية والبدنية وأن يعدل بين طلبته ويقدم السابقين منهم إلى الدرس، كما تتناول هذه الآداب سلوك العالم في مجلسه وطريقة تدريسه والهيئة التي يكون عليها أثناء الدرس ووضوح الأسلوب وسلامته وبعده عن التكلف، إضافة إلى عقد مجالس الدرس في المساجد لما في ذلك من إعلاء الدين والاقتداء بسنن السلف الصالحين،

وجلوس العالم على المنبر حتى يراه الحاضرون، إلى غير ذلك من عناية العالم بعلمه ودوام مذاكرته والاجتهاد وكثرة الاطلاع وتحصيل العلم وجمعه وتصنيفه والتأليف بين متفرقه حتى تتحقق الفائدة لطلبة العلم ويضمن العالم مواكبة فكره لتيار العلم وتجدد معلوماته وتطويرها.

وسنتطرق في الفصل التالي لآداب المتعلم بعد أن تناولنا الآداب التربوية الخاصة بالمعلم، تعميما للفائدة واستكمالا لجوانب صورة الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي بما يجلي هذه الصورة ويزيدها وضوحاً وإشراقا، وبما يقربنا من القصد زلفى ويدنينا من تحقيق الغاية المرجوة إن شاء الله من وراء هذا الجهد العلمي المتواضع إنه سبحانه بالحمد جدير وعلى تحقيق الهدف قدير.



الفصل العاشر

آداب المتعلم في الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي

ويتضمن هذا الفصل الموضوعات التالية :

- تمهيداً
- أولاً : آداب المتعلم في نفسه.
- ثانياً : آداب المتعلم مع شيخه وأستاذه.
- ثالثاً : آداب المتعلم مع زملائه.
- رابعاً : قواعد سلوك الاستئذان عن المعلم.
- خامساً : آداب المتعلم في درسه.
- سادساً : الخلاصة.

الفصل العاشر

آداب المتعلم في الفكر التربوي
عند الخطيب البغدادي

تمهيد :

يخضع طالب العلم لمجموعة من الشروط والقواعد التنظيمية ، التي يتعين عليه تطبيقها ، والالتزام بها ، بغية الوصول إلى النتيجة الأحسن، والأسلوب الأمثل، وتنتظم تفاريق هذه القواعد ، والآداب والشروط في الوظائف ، والصفات ، التي من شأنها أن تجعل المتعلم أهلا للعلم من جهة ، وتكفل له الاستفادة من التعليم وبلوغه للأهداف التي ينشدها من طلب العلم وتحصيله من جهة ثانية ، وقد ذكر الخطيب أهم الأسس ، التي ينبغي للمتعلم أن يعتمد عليها ، وبين أهم الأطر التي يدور من خلالها ليصل إلى مايريد ، وهي تقوى الله تعالى ، وإخلاص النية في طلب العلم والاجتهاد وعلو الهمة ، والنشاط ، واحترام العلماء وإجلال العلم ، والاحسان في العمل ، وغير ذلك مما نورده بعون الله تعالى في تضاعيف هذا الفصل.

وقد ذكر الخطيب أنه سيتناول بالدراسة ما يرى أن طالب العلم «في حاجة إلى معرفته، واستعماله ، من الأخذ بالأخلاق الزكية ، والسلوك للطرائق الرضية ، في السماع والحمل ، والأداء والنقل ، وسنن الحديث ، ورسمه ، وتسمية أنواعه وعلومه ، على ما ضبطه حفاظ أخلافنا عن الأئمة من شيوخنا وأسلافنا ، ليتبعوا في ذلك دليلهم ، ويسلكوا بتوفيق الله سبيلهم ، ونسأل الله المعونة على مايرضى والعصمة من اتباع الباطل والهوى»[1] . كذلك من أخلاق طلبة العلم الصبر والحلم واتباع سنة الرسول ﷺ ، وهدي الصحابة والتابعين ، والائمة من أهل الورع والتقوى والدين ، والاجتهاد في طلب العمل والانتفاع بعلوم السلف الصالح وفي ذلك يقول الخطيب : «الواجب أن يكون طلبة الحديث ، أكمل الناس أدبا ، وأشد الخلق تواضعا ، وأعظمهم نزاهة وتدينا ، وأقلهم طيشا ، وغضبا ، لدوام قرع أسماعهم بالأخبار المشتملة على محاسن أخلاق رسول الله ﷺ ، وآدابه وسيرة السلف الأخيار من أهل بيته ، وأصحابه ، وطرائق المحدثين ، ومآثر الماضين ، فيأخذون بأجملها ، وأحسنها ، ويصدفوا عن أرذلها ، وأدونها »[2] .

---

(١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص٧٩ .

(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٧٨ .

وفيما يلى نتناول أهم آداب المتعلم كما بينها الخطيب وذكر لها أدلتها من السنة النبوية وأقوال العلماء، ومن هذه الآداب التى عني بها الخطيب ، وأكد على أهمية تمثلها في حياة المتعلم المسلم:

أولا: آداب المتعلم فى نفسه:

١- اخلاص النية في التعليم:

خير ما يتوصل به الانسان إلى رضا الله تعالى هو أن يبتغى بعلمه وعمله وجه ربه سبحانه، مخلصا له دينه، بعيدا عن الرياء والتفاخر والظهور، سواء كانت العلوم التى يطلبها دينية أو دنيوية، والأحسن من ذلك كله أن يبتغى بكل علمه وعمله وجه الله، ونفع نفسه، ومجتمعه والنية أول ما يرجى من طالب العلم وبخاصة العلم الشرعى وفى ذلك يقول الخطيب: «إذا عزم الله تعالى لامرئ على سماع الحديث، وحضرته نية فى الاشتغال به، فينبغى أن يقدم المسألة لله أن يوفقه فيه، ويعينه عليه، ثم يبادر إلى السماع والحرص على ذلك، من غير توقف ولا تأخير».[١]

وقد جاء في الحديث الشريف «إنما الاعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ مانوى..»[٢] ومن هنا كان على المتعلم «أن يخلص نيته في طلبه، ويكون قصده بذلك وجه الله سبحانه»[٣]، كذلك ينبغي للمتعلم ألا يجعل طلب العلم «سبيلا إلى نيل الأعراض[٤] وطريقا إلى أخذ الاعواض[٥]، فقد جاء الوعيد لمن ابتغى ذلك»[٦] كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من تعلم علما مما يبتغي به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض الدنيا، وقال أبونعيم: عرضا من الدنيا -لم يجد

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص١١٥ .
(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٨٢ .
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٨١ .
(٤) حطام الدنيا .
(٥) أي لا يكون هدف المتعلم من العلم الحصول على المال.
(٦) المرجع السابق ، ج١ ، ص٨٣ .

عـــرف[1] الجنة يوم القيامة»[2] إلى غير ذلك مما قد يتجه إليه قصد الانسان أو تنحرف إليه نيته من تعلم العلم لمباهاة العلماء أو مماراة السفاء أو مجارات الأغنياء أو جمع المال مما يتطلع إليه الناس من متاع الحياة الأدنى.

وقد أكد الخطيب في غير ما موضع على استعمال المتعلم «الجد في أمره ، وإخلاص النية في قصده، والرغبة إلى الله في أن يرزقه علما يوفقه فيه، ويبعده من علم لا ينتفع به»[3]، لقول الرسول ﷺ : «اللهم إني أعوذ بك من أربع : من علم لا ينفع، وقلب لايخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع»[4]. كذلك شدد الخطيب على إخلاص النية وتجريد القصد فيما رواه بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لا تعلموا العلم لثلاث: لتماروا به السفهاء أو لتجاروا به العلماء، أو لتصرفوا به وجوه الناس إليكم، وابتغوا بقولكم وفعلكم ماعند الله فإنه يبقى ويذهب ما سواه».[5]

٢ – التعلم المبكر :

يرى الخطيب أن أفضل مراحل التعليم والتعلم، مرحلة الحداثة والصغر، التي تتميز بالنشاط والحماس ، والفراغ ، والاقبال على التعليم، وعدم الاشتغال بأمور الدنيا ومسؤلياتها ، لذلك يحبذ للطالب الذي يتسع وقته لطلب العلم أن يبادر بالتعلم في مراحل حياته الأولى، لأن ذلك أيسر للتعلم ا لجيد، وفي ذلك يقول: «ينبغي لمن اتسع وقته وأصح الله جسمه وحبب إليه الخروج عن طبقة الجاهلين وألقى في قلبه العزيمة على التفقه في الدين أن يغتنم المبادرة إلى ذلك خوفا من حدوث ما يقتطعه عنه، وتجدد حال تمنعه منه»[6] ، لقول الرسول ﷺ : «اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك»[7] ، وهكذا يعد الخطيب التعلم في الصغر

---

(١) اي ريحها أو أريجها .
(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٨٤ .
(٣) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ، ج٢ ، ص٨٧ .
(٤) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٨٨ .
(٥) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٨٩ .
(٦) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٨٧ .
(٧) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص٨٧ .

أسهل على المرء من عدة وجوه، منها تفرغه للعلم، وخلوه من المسئوليات التي يضطلع بها الكبار، ومنها صفاء ذهنه وعدم تشوشه بتداخل المعلومات والمعارف والخبرات التي قد تعرقل تقدم التعلم.

ويعلل الخطيب السبب الذي من أجله رغب في التعلم زمن الحداثة والصغر بقوله: «التفقه في الشبيبة، وإقبال العمر، والتمكن منه بقلة الاشتغال، وكمال الذهن، وراحة القريحة يرسخ في القلب ويثبت، ويتمكن ، ويستحكم فيحصل الانتفاع به والبركة إذا صحبه من الله حسن التوفيق، وإذا أهمل في حالة الكبر المغيرة للأخلاق، الناقصة للآلات كان كما قال الشاعر:

إذا أنت أعياك التعلم ناشئا   فطلبه شيخا عليك شديد[1]

لأن الكبير غالبا ما يكون صاحب مسئوليات تحول دون تفرغه للتعليم، إضافة إلى عامل الحياء والخجل الذي قد يحول دون طلبه التعليم ممن هو دونه، فيكون ذلك سببا في جهله وقلة علمه.

٣ – أخلاق المتعلمين :

حدد الخطيب – كما رأينا – بعض الآداب التي يتعين على المتعلمين الاتصاف بها حتى يتميزوا عن العوام من الناس وأدعياء العلم ، ومن جملة هذه الآداب الاجتهاد في التحصيل «وتتبع آثار رسول الله ﷺ والاجتهاد في طلبها والحرص على سماعها، والاهتمام بجمعها، والانتساب إليها»[2] . ولكي يستحق الطالب هذا الشرف ويفوز بتلك المنزلة يجب عليه أن يبذل الجهد المناسب في تحصيل العلم وجمعه واستيعابه، ومن ثم العمل به وتوظيفه على النفس، والطالب الذي يحاول الانتساب إلى العلم بدون بذل الجهد إنسان دعي يدعي لنفسه ماليس له، ويرنو ببصره إلى ما لا يستحقه ، وفي هذه الفئة من طلبة العلم يقول الخطيب: «وقد رأينا خلقا من أهل هذا الزمان ينتسبون إلى الحديث، ويعدون أنفسهم من أهله المتخصصين بسماعه ونقله، وهم أبعد الناس مما يدعون، وأقلهم معرفة بما إليه ينتسبون، يرى الواحد منهم إذا كتب عددا قليلاً من الأجزاء، واشتغل بالسماع برهة يسيرة من الدهر أنه

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٩٠ – ٩١ .

(٢) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١ ، ص٧٥ .

صاحب حديث على الاطلاق، ولما يجهد نفسه ويتعبها في طلابها، ولا لحقته مشقة الحفظ لصنوفه وأبوابه»[1] . ويقول الخطيب إن هذه الفئة من طلبة العلم، مع عدم فهمها للعلم، وقلة تحصيلها له تعد من «أعظم الناس كبرا، وأشد الخلق تيها وعجبا، لا يرعون لشيخ حرمة، ولا يوجبون لطالب ذمة..»[2].

٤ - مظهر الطالب وهيئته :

العناية باللباس والمظهر كما هي الحال عند المعلم، واجب على المتعلم، وقد ذكر الخطيب وصفا للباس المتعلم مستندا في تحديد هيئته إلى الحديث المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «كان رسول الله ﷺ يلبس قميصا قصير الكمين والطول»[3]، وقد بين الخطيب -كما أسلفنا في آداب العالم- أن المغالاة في اللبس مثل التفريط فيه، مشيرا بذلك الى أهمية التوسط والاعتدال في اللباس والمظهر، بحيث يبدو الانسان في هيئة جميلة بسيطة أنيقة في غير ما إسراف أو تفريط.

ومن آداب الطالب التي يجب عليه مراعاتها عادته في السير والمشي بحيث تكون بتؤده وتمهل، لحديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «سرعة المشي تذهب بماء الوجه»[4]، كذلك يتعين على الطالب الالتزام بالوقار والحشمة وعدم التبذل، وكثرة المزاح والهزل في مجلس الدرس، لأن ذلك -فضلا عن كونه انتقاصا من مكانة العلم والعالم- هو أيضا تقليل من قدر المرء وحط لدرجته ، وهو أمر يطبع سلوكه بعدم الجد واللامبالاة ، وفي ذلك يقول الخطيب : «يجب على طالب الحديث أن يتجنب اللعب والعبث، والتبذل في المجالس بالسخف والضحك والقهقهة وكثرة التنادر وإدمان المزاح والاكثار منه، فإنما يستجاز من المزاح يسيره ونادره وطريفه الذي لا يخرج عن حد الأدب، وطريقة العلم، فأما متصلة ، وفاحشة، وسخيفة، وما أوغر منه الصدور، وجلب الشر، فإنه مذموم، وكثرة المزاح والضحك تضع من القدر ، وتزيل المرؤة».[5]

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص٧٥ .
(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٧٧ .
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٥٣ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٥٢ .
(٥) المرجع السابق ، ج ١ ، ص١٥٦ .

٥ - التفرغ لطلب العلم :

يريد الخطيب للمتعلم أن يبتعد ما أمكن عن الأمور التي تقتطعه عن التعليم، وتبعده عن التحصيل، وهو يرى أن الطالب لا يدرك هدفه من التعليم إلا بتفريغ القلب لطلب العلم والانقطاع عما يشغل عن التعليم، مع بذل الجهد والتعب، ومعاناة الترحال والسهر في سبيل العلم والتعليم، وفي ذلك يقول : «ينبغي للمتفقه أن يقطع العلائق ، ويطرح الشواغل، فإنها موانع عن حفظ العلم، وقواطع عن درس الفقه»[١] ، ويقول إن بعض الفلاسفة كان «لا يعلم أحدا يتعلق بشيئ من الدنيا ، ويقول: العلم أجل من أن يشتغل عنه بغيره».[٢]

ولكي يتفرغ الطالب للعلم بصورة تامة ، كان لابد له من أن يتخفف من مسئوليات كثيرة، وفي مقدمتها المسئوليات الزوجية، لذلك نجد الخطيب يميل إلى «أن يكون -الطالب- عزبا ما أمكنه ذلك لئلا يقتطعه الاشتغال بحقوق الزوجة والاهتمام بالمعيشة عن الطلب»[٣]، وقد روى الخطيب في ذلك أقوالا لبعض العلماء تفيد حث الطالب على التفرغ لطلب العلم منها قول سفيان الثوري : «إذا تزوج الرجل ركب البحر، فإذا ولد له كسر به»[٤] ، وفي هذا القول مبالغة وتهويل قصد منهما عدم تشاغل الطالب عن العلم، وبيان عظم مسئوليات الحياة الزوجية خاصة إذا علمنا أن الكثير من الطلبة لم يكن يستطيع التوفيق - في الغالب - بين العمل لاعاشة الأسرة وبين التعليم من جهة ثانية يضاف إلى ذلك عدم وجود الشهادات التي تكفل للمتعلم الحصول على العمل، لذلك كان أهل العلم يفضلون التفرغ للتعليم أولا ويرون في ذلك عملا يجازي الله عليه بالأجر والرزق الكثير ويفضل الخطيب لطالب العلم أن يجمع بين العمل والتعليم -مادام يستطيع- لما في ذلك من فضل وأجر عظيم عند الله تعالى.[٥]

٦ - الصبر على طلب العلـم :

ذكر الخطيب في باب الصبر على طلب العلم عن الشافعي أنه قال: «لا يصلح طلب

---

(١) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢ ، ص٩٢ .
(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٩٢ .
(٣) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١ ، ص١٠١.
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٠٣ .
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٠٤ .

العلم الا لمفلس»[1] لا يجد مايشغل به نفسه عن طلب العلم، كذلك روى الخطيب عن محمد بن الحسن أنه قال: «لا يفلح في هذا الشأن -العلم- إلا من أقرح البر قلبه»[2] ، ومعنى ذلك عند الخطيب أن الطالب لن يصل إلى هدفه إلا إذا «آثر العلم على ما عداه، ورضى به عوضا من كل شيئ سواه»[3]. وهذا بطبيعة الحال كان بالنسبة لأغلبية الطلبة، خاصة إذا علمنا أن الطالب لم يكن يطلب العلم للتكسب به، كما لم تكن هناك شهادات كما أسلفنا تخول للمتعلمين الحصول على أعمال يتعيشون منها، بل كان طلب العلم لله وفي سبيل الله.

٧ - البكور إلى الدرس :

يوصي الخطيب المتعلم بأن يسارع في الحضور إلى مجلس الدرس حتى يفوز ببركة البكرة في طلب العلم من جهة، ولا يفوته الدرس من جهة ثانية، وفي ذلك يقول: «ينبغي لمن أراد سماع الاملاء البكور خوفا من فوات المجلس بتأخير الحضور، وأن يتعذر عليه مع ذلك إعادته من قبل الشيخ لعل التمنع عادته..»[4]، وقد بارك الرسول ﷺ لأمته بكورها فقال: «اللهم بارك لأمتي في بكورها»[5] وفي حديث آخر جاءت زيادة «في طلب العلم وفي الصف الأول»[6] ، ويذكر الخطيب أن خلقا من طلبة العلم - في زمن علي بن المديني- كانوا «يأخذون مواضعهم في ليلة الاملاء، ويبيتون هناك حرصا على السماع، وتخوفا من الفوات».[7]

٨ - العمل والكسب الحلال :

قد يُطلب العلم لذاته، لعلو مكانته، وشرف منزلته ، إلا أن هذا العلم لن يكون مفيدا، ونافعاً للانسانية مالم يصاحبه تطبيق عملي، ومن هذا المنطلق يرى الخطيب ضرورة

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٠٥ .
(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٠٥ .
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٠٥ .
(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٣٥ .
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٤٩ .
(٦) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٥٠ .
(٧) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٣٨ .

العمل لطالب العلم، حتى يكون له مايكفيه، ويقيه الحاجه إلى الناس، وتزداد أهمية العمل بالنسبة للطالب الذي يعول أسرة، وفي ذلك يقول: «إذا كان للطالب عيال لا كاسب لهم غيره، فيكره له أن ينقطع عن معيشته، ويشتغل بالحديث عن الاحتراف لهم»[1]، والأصل في ذلك ماجاء عن عبدالله بن عمر قال: «فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: كفي بالمرء إثما أن يضيع من يقوت»[2]. وكان كثير من العلماء يحثون طلبتهم على العمل والتكسب من طرق الحلال، بل إن من العلماء من كان يشتغل بالتجارة وغيرها وقد روى الخطيب في الحض على العمل الشريف قول سفيان الثوري: «عليك بعمل الأبطال، الكسب من الحلال والانفاق على العيال»[3] وكان الثوري نفسه يقول للرجل إذا أتاه يطلب العلم: «هل لك وجه معيشة؟ فإن أخبره أنه في كفاية، أمره بطلب العلم، وإن لم يكن في كفاية أمره بطلب المعاش»[4].

والذي يفهم من هذه الأقوال أن غالبية طلاب العلم لم يكونوا يستطيعون التوفيق بين طلب العلم والعمل لإعاشة أسرهم، ولذلك فقد كانت علامات البؤس وآثاره تبدوا على بعضهم، وكان بعض العلماء -نظرا لحال هؤلاء الطلبة- يقول: «من أغرق في طلب الحديث فليعد للفقر جلبابا، فليأخذ أحدكم من الحديث بقدر الطاقة، وليحترف حذرا من الفاقة»[5]، ولعل حالة البؤس التي كانت تطبع كثيرا من طلبة العلم هي التي أوحت لبعض الناس أن يقول في عمل تلك الفئة المحرومة: طلب العلم حرفة المفاليس[6] ويقول آخرون في حقهم أيضاً: «لا تدخل هذه المحابر بيت رجل إلا أشقى أهله وولده»[7] نظرا لانشغاله بالعلم عن العمل لاعاشة أهله وولده.

على أن هذه الأقوال وغيرها مما قيل في هذا المعني إنما أراد بها قائلوها النصح لطلبة العلم بعدم ترك العمل وضرورة الاشتغال إلى جانب طلب العلم حتى لا يصبحوا عالة على أهلهم ومجتمعهم فيخالفوا ما حثت عليه سنة الرسول ﷺ من الأمر بالعمل والكسب الحلال.

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٩٧.
(٢) المرجع السابق، ج١، ص٩٧.
(٣) المرجع السابق، ج١، ص٩٨.
(٤) المرجع السابق، ج١، ص٩٨.
(٥) المرجع السابق، ج١، ص٩٩.
(٦) المرجع السابق، ج١، ص١٠٠.
(٧) المرجع السابق، ج١، ص١٠١.

مما أورد الخطيب رحمه الله طرفا منه هنا واجتزأنا بذكر طرف منه في هذه الحال ويمكن أن نخلص في هذا الموضوع إلى القول بأن العلم بدون عمل لا ينفع وهو ضياع وقت وجهد ومال كما أنه خسارة للمتعلم كما هو خسارة للمجتمع الذي ينتظر من الطالب أن يساهم بعلمه في النهوض بمجتمعه، ولذلك نجد أن العلم عند الخطيب هو للعمل وللفهم وللحياة، وليس علما مجردا بلا غاية ولا وسيلة، ومن هذا توجيه الخطيب عناية الطالب إلى أن «يجعل حفظه للحديث رعاية، لا حفظ رواية، فإن رواة العلوم كثير ورعاتها قليل..».[1]

٩- رذيلة المباهاة في طلب العلم :

من الاوصاف التي يؤكد الخطيب على وجوب اتصاف المتعلم بها، خلق التواضع، وترك الغرور والمفاخرة والتفاخر والتكاثر، وعدم السعي إلى نيل المراكز الاجتماعية على حساب العلم والاخلاص فيه أو التعالى على الناس، لأن ذلك آفة للعلم والمتعلم معا، وفي ذلك يقول الخطيب: «وليتق -المتعلم- المفاخرة والمباهاة به - أي العلم- وأن يكون قصده في طلب الحديث نيل الرئاسة، واتخاذ الأتباع، وعقد المجالس، فإن الآفة الداخلة على العلماء أكثرها من هذا الوجه».[2]

ولتعزيز هذا الاتجاه نجد الخطيب يستشهد بحديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ : «لا تطلبوا العلم لتباهوا به العلماء، وتماروا به السفهاء، وتخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك ، فالنار النار»[3] كذلك روى الخطيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: -أي طلبة العلم- «تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تعلمون منه، ولا تكونوا جبابرة العلماء، فلا يقوم علمكم بجهلكم»[4] ويؤكد الخطيب على ضرورة أن يتحلى الطلبة بالأخلاق الاسلامية الحميدة، وأن يتجنبوا سفاسف الأخلاق، «ويتعلقوا بمعالي الأمور ومكارمها فما من شئ أحسن من الإيمان ويزينه العلم، وما أحسن العلم، ويزينه العمل، وما أحسن العمل ويزينه الرفق، وما أضيف شيئ إلى شيئ مثل حلم إلى علم»[5] ، ويعتبر

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص٨٧ .
(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٨٥ .
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٨٧ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص٩٣ .
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص٩٤ .

الخطيب أن اتصاف المتعلم بهذه الأوصاف وتخلقه بهذه الآداب سبيله إلى تحقيق هدفه وبلـــوغ غايته، وبالتالي توقع نجاح العملية التربوية والتعليمية في حق المعلم والمتعلم معاً.

ثانيا : آداب المتعلم مع شيخه واستاذه :

١ – خلق التواضع والرفق بالعلماء :

لا يدرك العلم إلا بالتواضع ، لذلك كان على المتعلم أن يكون حليما، متواضعا دمث الأخلاق لاسيما مع استاذه، وشيخه الذي يتعلم منه، والطالب «الذي يعرف حق معلمه عليه، ويقوم بهذا الحق هو الذي يصل إلى ما يبتغي ، ويبارك الله له ، فينتفع بما تعلم، ويزداد دائما علما وهدى، ويشعر بأن الصلة بينه وبين معلمه مثل الصلة بينه وبين أبيه وأكثر، لأن الأب يربي الجسد، والمعلم يربي الروح والعقل، ويفتح للطالب مغالق الحياة..»[١]

فعلى الطالب إذن أن يكون متواضعا مؤدبا مع معلمه، وليعلم بأنه بخبرته وعلمه أقدر على بذل النصيحة له، وقد ذكر الخطيب من ضمن الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المتعلم نحو أستاذه، أن : «من حق العالم ألا تكثر عليه السؤال، ولا تعنته في الجواب، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشي له سرا، ولا تغتاب عنده أحدا، وأن تجلس أمامه، وإذا أتيته خصصته بالتحية، وسلمت على القوم عامة، وأن تحفظ سره، ومغيبه، ماحفظ أمر الله، فإنما العالم بمنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيئ»[٢] وعلى الطالب أن يكثر الصمت بحضرة المعلم ويحسن الاستماع إليه والصبر عليه وألا يكرر شيئا فهمه، وألا يكثر من الأسئلة، وأن يتعلم حسن الاصغاء والاستماع كما يتعلم حسن الكلام، كما أن من آدبه مع شيخه عدم المماراة أو الجدل، وأن يصون نفسه عن العبث والتلهي بغير الدرس ويربأ بها عن اللهو والضحك، وعدم احترام العلم واجلال مجلس العالم، مع الاعتراف بمكانته وعلمه «والاقرار بأن العلم من جهته اكتسبه، وعنه أخذه»[٣]. وأن ينوه بفضله عليه، ويشكر له إفادته إياه وتعليمه له.[٤]

---

(١) حسن أيوب (مرجع سابق) ، ص٤٤٦ .

(٢) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢ ، ص٩٩ .

(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٣٤ .

(٤) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج٢، ص١٥٤ .

ومن الآداب التي اهتم بها الخطيب موافقة الطالب لشيخه، وعدم الاعتراض عليه، صحيح أن الطالب قد يختلف مع شيخه، حول نقطة أو موضوع ما ، ولكن يجب أن يكون أدبه وخلقه رفيعا في حالة اختلافه أو اتفاقه مع شيخه من غير أن يتخلى عن المنهجية العلمية التي تفرض عليه طلب الحق وواجب الأمانة وعدم السكوت على الخطأ، لذلك نجد الخطيب يوجه المتعلم إلى الطريق الصحيحة في الاستفهام من معلمه، وكيف أن المتعلم مطالب بقبول ما يقول معلمه لكونه أمينا في نفسه، ثقة في علمه، وفي ذلك يقول: «لا يجوز للطالب أن ينكر على المحدث شيئا لم يعرفه، أو وقع في نفسه شيئ من سماعه إياه، لكن ينبغي له أن يوقفه عليه، ويستثبته فيه، فما اخبره به قبله منه، لكونه أمينا في نفسه عدلاً في حديثه»[1] ، وعلى المتعلم أن يأخذ من كل شيخ ما يفيده وينفعه في دينه ودنياه، وأن يكون في قمة الأدب والرفق والتواضع والأخلاق وهو يتلقى علمه عن شيخه أو استاذه.

٢ - إجلال العلماء وتوقيرهم:

روى الخطيب في الحث على إجلال العالم وتوقيره أقوالا كثيرة منها قول الرسول ﷺ «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا»[2] ، وقد ذكر الخطيب من مظاهر تعظيم العالم وتوقيره، مخاطبته بكنيته، ونسبته إلى العلم بأن يقول له الطالب: «أيها العالم أو أيها الحافظ ونحو ذلك»[3] وفي هذا القول حث على احترام العلم وأهله، وتقوية لصلة المتعلم بشيخه واستاذه، وهي صفات مرغوب فيها تجعل العلاقة بين المعلم والمتعلم قائمة على وشائج متينة، ومبنية على غير قليل من الاحترام المتبادل والتسامح والمحبة والمودة والتقدير بينهما، ولقد ذكر الخطيب ضمن مجموعة الآداب السابقة احترام العالم والقيام له واستقباله بالترحيب والبشر في وجهه[4] والأخذ بركاب دابته وتقبيل يده ورأسه وعينيه[5] ، وحبذا لو تأسى طلبة العلم اليوم بسلف هذه الأمة الصالح في احترام العلم وتوقير العلماء، والاقبال على التعليم، والجد في العمل الذي أوصل الامة الاسلامية في يوم ما إلى تسنم قمة الحضارة الانسانية في

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص٤٥ .
(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٨٣ .
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٨٣ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٨٥ .
(٥) انظر : المرجع السابق ، ج١ ، ص١٨٨- ١٩١ .

زمن انتشرت فيه ظلال دعوة الاسلام ونورها إلى كل بقاع المعمورة، لتشمل أوسع رقعة في العالم المعروف وأكثرها أهمية آنذاك.

٣ – تعظيم حرمات العلماء وعدم إضجارهم :

للعالم الحق في الحصول على وقت يرتاح فيه من عناء التدريس ومشكلات الحياة، ويجب على الطلاب تجنب إضجاره في مثل هذا الوقت وكل وقت لا يخصصه العالم لتعليم الطلاب[١]، ويبدو أن بعض الطلاب كانوا يكثرون من مضايقة أساتذتهم ومن هؤلاء الطلاب رجل سأل ابن سيرين وألح عليه في السؤال فما كان منه إلا أن قال له : «إنك إن كلفتني مالم أطق، ساءك ما سرك مني من خلق»[٢] . ويقول الخطيب إن «طلبة العلم على طبقات، وربما حضر عند العالم من كَتَبَةَ الحديث من لم تطل مدته في طلبه، فيتأدب بأدبه»[٣] وربما رأى العلماء من بعض أولئك الطلبة ما أغضبهم، «وليس تكاد مجالس العلم تخلو من حضور من ذكرنا وصفه، ونسأل الله أن يرزقنا تأدبا وعملاً بالعلم، بفضله ورحمته».[٤]

والواقع أن للعلماء وطلبة العلم أقوالا كثيرة، يذكرون فيها ما ينبغي لكل من العالم والمتعلم من الآداب، وكيف يكون سلوك كل منهما تجاه الآخر، ولا تعدو الحالات التي يغضب فيها العلماء من طلبتهم بعض الأوقات التي يزيد فيها غضبهم نتيجة مضايقة الطلبة وإلحاحهم المستمر، وما يكون من زياراتهم للعلماء في غير أوقات الزيارة، إذ لم يكن الأمر على ماهو عليه الحال اليوم من وجود أماكن للتعليم مثل المدارس والكليات وأوقات محددة يجتمع فيها العالم بطلابه وبعد انقضاء الدرس يعود كل فرد إلى داره أو بيته.

كما يحتمل القول بأن الألفاظ التي تفوه بها بعض العلماء في حالة ضيقهم إنما قالوها على سبيل المزاح والدعابة، وليس على سبيل التجريح أو الاساءة، فليس مثل ذلك من عادة العلماء، بل المشهور عنهم التواضع ، وحسن الخلق، والتجمل، والصبر وبذل التعليم لكل راغب فيه، على أن ما ينبغي التذكير به هنا والتنبيه عليه هو ضرورة سيطرة العالم على

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢١٤ .
(٢) المرجع السابق ، ج١، ص٢١٥ .
(٣) الخطيب البغدادي : شرف أصحاب الحديث (مرجع سابق) ، ص١٢٢ .
(٤) المرجع السابق ، ص١٢٢ .

أعصابه وتحكمه في انفعالاته، فلا يصدر عنه إلا القول الطيب وإن احتج البعض بالروايات المأثورة عن جماعات من العلماء الذين نلتمس لهم العذر للأسباب التي ذكرناها، وهناك كثير من العلماء كانوا يسعون بأنفسهم إلى من يعلمونه، يتواضعون بذلك[1] ولئن كان بعض العلماء يتبرمون بالدرس فإنهم إنما فعلوا ذلك لأنهم لم يروا من طلبة العلم رغبة صادقة في التعليم، بل كان العكس هو البادي من سلوكهم وسوء أخلاقهم واطراحهم حكم الأدب[2] لذلك زهد أولئك العلماء في تعليم هذه الفئة من الطلبة ولم يريدوا للعلم أن يكون عند غير أهله.

٤ - اختيار المتعلم لشيخه واستاذه :

لا يختلف العلماء في وجوب أخذ العلم عمن كملت أهليته، وظهرت ديانته، وتحققت معرفته، واشتهرت صيانته، ولا يكفي أن يكون كثير العلم، بل لابد من أن يكون له دربة ودين، وخلق جميل، واطلاع تام[3] وفي ذلك يقول الخطيب : «ينبغي للمتعلم أن يقصد من الفقهاء من اشتهر بالديانة، وعرف بالستر والصيانة»[4] وقد أثر عن العلماء أنهم قالوا «إنما العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم»[5]. ويقول الخطيب إن درجة العلماء لا تتساوى في العلم، لذلك ينبغي للطالب «أن يتخير المشهور منهم بطلب الحديث المشار إليهم بالاتقان له والمعرفة به»[6]، وكان العلماء يقولون : «اكتبوا المشهور عن المشهور»[7]، أي المشهور والثابت من العلم عن العلماء الثقات المعروفين بالعلم والصدق، وذلك بالطبع «بعد استقامة الطريقة وثبوت العدالة والسلامة من البدع، فأما من لم يكن على هذه الصفة فيجب العدول عنه، واجتناب السماع منه»[8]. ويقول الخطيب إن طلبة العلم كانوا «إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سمته، وإلى صلاته ، وإلى حاله ، ثم يأخذوا عنه»[9].

---

(١) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١، ص٢٠٣ .

(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٢١ .

(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٣٥ .

(٤) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢ ،ص٩٦ .

(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٩٦ .

(٦) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١ ، ص١٢٦ .

(٧) المرجع السابق ، ج١ ،ص١٢٦ .

(٨) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٢٧ .

(٩) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٢٩ .

إن بيان صفة العلماء الأتقياء العاملين، يلقي أضواء على الفئة الأخرى من العلماء الذين يجب الابتعاد عنهم وعدم التتلمذ لهم، لأنهم إنما يفسون أكثر مما يصلحون، وفي هذه النوعية يقول الخطيب : «اتفق أهل العلم على أن السماع ممن ثبت فسقه لا يجوز..»[١] كذلك يجب عدم الأخذ من أهل البدع والأهواء ، والمذاهب التي تخالف الحق، وإن عرف أصحابها بالاجتهاد في طلب العلم والحفظ له.[٢]

ولا يكفي أن يكون العالم مشهورا بالورع والصلاح والعبادة، بل لابد من توفر عنصر الضبط، والحفظ والاتقان لما يعلمه ويعلّمه[٣] ومما رواه الخطيب في ذلك بسنده عن مالك بن أنس أنه قال : «لا يؤخذ العلم عن أربعة ويؤخذ ممن سوى ذلك، لا يؤخذ من سفيه معلن بالسفه وإن كان أروى الناس، ولا يؤخذ من كذاب يكذب في أحاديث الناس إذا جرب ذلك عليه، وإن كان لا يتهم أن يكذب على رسول الله ﷺ ، ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من شيخ له فضل وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدّث»[٤] ، ومعنى ذلك أن العلم لا يؤخذ «عن كذاب ولا متظاهر ببدعة، ولا معروف بفسق»[٥] ، وإنما يؤخذ عن الثقة، العدل «ممن حسنت طريقته وظهرت عدالته»[٦]

ثالثاً : آداب المتعلم مع زملائه :

يريد الخطيب أن تكون العلاقة بين المتعلمين علاقة مودة، وتعاون وتناصح، ولذلك فالذي يستحبه إفادة العلم لمن لم يسمعه والدلالة على الشيوخ، «فإن أقل مافي ذلك النصح للطالب، والحفظ للمطلوب، مع ما يكتسب به من جزيل الأجر وجميل الذكر»[٧] . ويقول الخطيب إن العلماء كانوا يقولون «يامعشر الشباب تعجلوا بركة هذا العلم ، فإنكم لاتدرون

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٣٠ .
(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٣٧ .
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٣٩ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٣٩ .
(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٨٩ .
(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٨٩ .
(٧) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٤٥ .

لعلكم لا تبلغون ما تؤملون منه، ليفيد بعضكم بعضا »[1] ، لذلك كان الطلبة يدل بعضهم بعضاً على العلماء والحفاظ، ولا يتركون فرصة تسنح دون اقتناصها ، والاستفادة منها[2]، ويرون أن العلم يشيع بين الجماعة خير من أن يكون عند الواحد.[3]

إن هذا الأدب العظيم والتعاون المشكور لا يمحوان من النفس البشرية مافيها من الأنانية وحب الاثرة والذات، والتنافس والصراع، لذلك كان هناك من طلبة العلم من لم تتوفر فيه الصفات السابقة، ولم يكن متعاونا حتى مع أقرب المقربين[4] بل إن التنافس في العلم لم يكن يقتصر على الأقران بل تجاوزهم إلى التنافس بين الآباء والأبناء، فقد روى الخطيب عن أبي اليمان أنه قال : «جاءني أحمد بن شبويه بأحاديث ومعه ابنه، فقال: ياأبا اليمان إن لي إليك حاجة، فقلت: وما هي؟ قال: لا تسمع ابني هذه الأحاديث، فقال أبو اليمان: ياعجبي هل رأيت أبا يحسد ابنه؟! »[5].

وقد صنف الخطيب طلبة العلم إلى ثلاثة أقسام «طالب يجالس العلماء، ويسمع ولا يكتب ولا يحفظ ، فذاك لا شيئ، وطالب يكتب كل شيئ يسمعه، فذلك الحاطب، وطالب يسمع العلم فيتخيره، وينتقي ما يكتب فذاك العالم»[6]. ويقول الخطيب إن الطلبة قد يختلفون فيما بينهم ويتنازعون الأسبقية فيمن يبدأ منهم بالقراءة والعرض على المعلم، خاصة إذا مااختلفت الموضوعات التي يريدون عرضها أو قراءتها عليه ولذلك فإنه يرى أن الأولوية للسابق منهم إلى مجلس الدرس[7] ، وقد قال العلماء « مجالس العلم السابق إليها أحق بها »[8] ، فإذا اتفق الطلبة فيما بينهم على من يسبق منهم، أو قدم العالم أحدهم، فلا ينبغي

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٥٠ .
(٢) انظر المرجع السابق ، ج٢ ص١٥١ ، ١٥٢ .
(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٥٣ .
(٤) انظر : المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٤٢- ١٤٤ .
(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٣٩ .
(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٥٥ .
(٧) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٠٢ .
(٨) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٠٥ .

له أن يقرأ حتى يأذن له المحدث».[1] وإذا كان الطالب في عجلة من أمره، وخاف فوات حاجته، فله أن يسأل من له الدور قبله، لكي يسامحه في القراءة على المعلم، وعليه أن يلتزم بالمقدار الذي يحدده له المعلم، فلا يتجاوزه طلبا للزيادة.[2]

كما يرى الخطيب أن من الأمور التي ينبغي مراعاتها تقديم الغريب من الطلبة «لتأكد حرمته، ووجوب ذمته»[3] وتقديرا لظروفه التي قد تضطره إلى التعجل في السفر دون لقاء العالم أو الاستفادة منه وهو رحمه الله يرى في ذلك نوعا من العدل الذي ينبغي أن يسود بين الطلاب، وعدم التفريق بينهم ، رغم ما قد يحدث من تقديم العالم للأذكياء والحفاظ من طلبة العلم وفي ذلك يقول : «يباح للمحدث أن يؤثر حفاظ الطلبة، وأهل المعرفة، والفهم منهم، وإن كان الأفضل أن يعدل بينهم، ولا يؤثر بعضهم على بعض»[4] ، وقد روى الخطيب في «جواز الاثرة بالرواية لأهل العلم والدراية» ما لا يتسع المجال لذكره، وقد كان بعض العلماء يخص الشباب بالعلم، ويقدمهم على المشايخ ويقول : «إنما الخير في الشباب»[5]، لأن الشباب «أفرغ قلوبا ، وأحفظ لما سمعوا»[6].

رابعاً : قواعد سلوك الاستئذان على المعلم :

فصل الخطيب الحديث حول سلوك الطالب عند دخوله على المعلم، فذكر وجوب احترام حق المعلم في التمتع بقسط من الراحة، وكيفية الاستئذان عليه، والدخول إلى مجلسه، والسير على بساطه.[7] وذكر أقوالا كثيرة ترشد الطالب إلى سلوك أفضل الطرق وأكثرها تشبهاً بهدي الصالحين وهي الآداب التي ينبغي اتباعها عند الاستئذان على المعلم فقال: «إذا وجد الطالب باب المعلم مفتوحا فلا ينبغي له أن يقتحمه، ولكن يقف

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٠٣ .
(٢) انظر : المرجع السابق ، ج ١ ، ص٣٠٣ ، ٣٠٤ .
(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٠٣ .
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٠٦ .
(٥) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣١٠ .
(٦) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣١٢ .
(٧) انظر : المرجع السابق ، ج١ ، ص١٥٨ ، ١٥٩ .

قريبا منه ويستأذن[1] ولا ينظر إلى داخل البيت، ويقرع الباب بأظافره، ويعرّف بنفسه فإذا أذن له سلم عند دخوله ، وقال: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ثلاثا فإن أذن له في الثالثة وإلا انصرف لأن ذلك هو السنة وهو فعل الرسو ل ﷺ وأمره.[2]

خامسا : آداب المتعلم في درسه :

١ – آداب الطالب في مجلس العلم :

حدد الخطيب للطالب الآداب التي ينبغي له الالتزام بها واتباعها أثناء الدرس، بل ومن قبل حضور الدرس إذ تجده يوصيه بأن يتخذ لنفسه كامل الهيئة من فراغ القلب، وحسن السمت، والبكور إلى الدرس، ومراعاة أحوال المعلم ، وظروفه النفسية، والبدنية، وخاصة عند انشغال قلبه، وغمه، ونعاسه أو فرحه وانشراحه كما أنه أوصى الطالب بأن يراعي ذلك من نفسه وألا يقبل على الدرس إلا بنفس راضية ورغبة صادقة وجسم مستريح غير منهك بالسهر أو العمل، حتى يتمكن من تحقيق أكبر مردود ينتظر من الدرس، هذا إلى جانب العديد من التوجيهات، والوصايا التربوية، التي ترسم للطالب طريقه ، وتحدد له واجباته.

وفي ذلك يقول الخطيب يلزم الطالب المبتدئ إذا حضر مجلس الدرس «أن يقرب من الفقيه -المعلم- حتى يكون بحيث لا يخفى عنه شيئ مما يقول، ويصمت ، ويصغى إلى كلامه»[3]، ومما رواه الخطيب حول مراتب التعلم قول أبي عمرو بن العلاء: «أول العلم الصمت، والثاني حسن السؤال، والثالث حسن الاستماع، والرابع حسن الحفظ، والخامس نشره عند أهله»[4]. ومما ينبغي للطالب فعله ملازمة حضور الدرس وعدم التخلف إلا لسبب قاهر، والتدرج في التعليم، ودوام المطالعة والتكرار بالمحفوظ حتى يعلق بالذاكرة ولا ينسى[5]، و«أن يتثبت في الأخذ، ولا يكثر، بل يأخذ قليلا، قليلا، حسب ما يحتمله حفظه، ويقرب

---

(١) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٥٩ .
(٢) انظر : المرجع السابق ، ج١ ، ص١٦٢ – ١٦٨ .
(٣) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (مرجع سابق) ج٢ ، ص١٠٠ .
(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٠ .
(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٠، ١٠٢ .

من فهمــــه»[1]، عملا بقول الرسولﷺ : «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله. فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى»[2].

كذلك يلزم المتعلم افتقاده من نفسه من حيث مراعاته الراحة، والأكل المناسب والنوم، وصفاء الذهن، وراحة النفس وهو إلى ذلك أكثر حاجة من المعلم «لأنه يريد أن يسمع مالم يكن سمعه من قبل، فيريد أن يتعرفه، وأن يتحفظه ، والفقيه فَهِمٌ لما يريد أن يلقيه، حافظ لما يقصد أن يحكيه»[3] وفي ذلك يقول الخطيب «إذا كان الفقيه من الحفظ والمعرفة على ماذكرت، ويلزمه ماوصفت من افتقاده نفسه، والمتعلم يريد أن يلقى إلى قلبه مالا يعرفه، وقلبه نافر، ونفسه تستثقل التعب والاكباب علــى الطلب، فهــو يحتاج من فــراغ القلب إلى أكثر مما يحتاج اليه الفقـــيه، ويحتـــاج إلى صبر شديد على الاستذكار والترديد»[4] فالعلم لا يطلب براحة الجسم، ومن لم يصبر على تعبه وعنائه، صبر على ذل الجهل وشقائه.[5]

ومن الآداب التي حددها الخطيب للطالب أثناء الدرس وقد يراها البعض أنها من الشكليات مراعاة الكتابة بالحبر الأسود «لأن السواد أصبغ الألوان، والحبر أبقاها على مر الدهور والأزمان، وهو آلة ذوي العلم، وعدة أهل المعرفة والفهم»[6] وقد اعتبره العلماء على ثوب المتعلم من علامات المروءة والنباهة، وهو عندهم «في الأبصار سواد وفي البصائر بياض»[7] ، كذلك استحب العلماء وجود محبرة في يد الطالب لا تفارقه وعدوا وجودها رأس مال كبير، ومصدر فخر واعتزاز للطالب[8] ويرى الخطيب أن مما ينبغي للطالب حمله محبرة

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠١ .
(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠١ .
(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٢ .
(٤) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٢ .
(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٣ .
(٦) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع (مرجع سابق) ج١ ، ص٢٤٩-٢٥٠.
(٧) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥١ .
(٨) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥٢ .

وصحيفة «لئلا يعرض له من يحدّثه بما يحتاج إلى كَتْبه»[1] ، ويعتبر أن الذي يأتي الدرس بدون قلم ومحبرة وألواح كالذي يجيئ إلى الحرب بغير سلاح.[2]

وقد اشترط الخطيب حسن الخط وتجويده، وكان يرى أن أجود الخطوط أبينها[3] ، وأن يستعمل الطالب في كتابته قرطاسا نقيا صافيا[4] ، وأن يحضر معه إلى مجلس الدرس نسخة بمرويات الشيخ الذى يحضر درسه[5] ، لكى يقابل عليها النصوص التى يسمعها أثناء القراءة أو العرض، ويقول الخطيب إن الأفضل فى حالة القراءة أن يكون المعلم هو الذى يقرأ بنفسه[6] فإن لم يتمكن من القراءة «تخير للقراءة أفصح الحاضرين لسانا ، وأوضحهم بيانا ، وأحسنهم عبارة، وأجودهم أداء»[7] ، مع مرعاة أن يكون القارئ ممن اشتغل بالعلم بعض الوقت إن لم يكن كله، وأن يكون على طهارة أثناء الدرس، تعظيما للعلم، وكان العلماء في ذلك مضرب المثل والقدوة الحسنة.

٢- قواعد الجلوس فى مجلس العلم:

من الآداب الاسلامية الرفيعة التى يحث الخطيب طلبة العلم على التمسك بها عدم الجلوس في وسط حلقة الدرس، وألا يجلس الطالب بين اثنين إلا برضاهما[8] ، ولأن جلوس الطالب فى الموضع الذى يمكنه من الاستفادة من الدرس من غير أن يؤذى زملاءه خير له من أن يضايق الآخرين ويزاحمهم على ما ليس له بحق، وفي ذلك يقول الخطيب: «لا تسرع إلى أرفع موضع في المجلس، فالموضع الذى ترفع إليه خير من الموضع الذى تحط عنه»[9] ، ويقول إن العرب كانت تقول: «لا يتصدر إلا فائق أو مائق»[10] بمعنى أن الذى يتصدر المجلس

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٨٣ .
(٢) انظر : المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٨٣ .
(٣) انظر : المرجع السابق ، ج ١ ، ص٢٦٢ .
(٤) انظر : المرجع السابق ، ج ١ ، ص٢٥٧ .
(٥) انظر : المرجع السابق ، ج ١ ، ص٢٨٤ .
(٦) انظر : المرجع السابق ، ج ١ ، ص٢٨١ .
(٧) المرجع السابق ، ج ١ ، ص٢٨٤ .
(٨) المرجع السابق ، ج ١ ، ص١٧٦ .
(٩) المرجع السابق ، ج ١ ، ص١٧٦ .
(١٠) المرجع السابق ، ج ١ ، ص١٧٧ .

واحد من اثنين، إما شخص يفوق الناس بالشرف، ويرجع عليهم بالعلم والفضل، وإما مائق، وهو الأحمق الذى يظن أنه خير من جميع الحاضرين، وهو في الواقع أقلهم جميعا في الخصائص والفضائل والصفات.

وقد أسلفنا أن الأدب يقتضى ألا يجلس المرء بين اثنين الا برضاهما، لقول الرسول ﷺ : «لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا باذنهما»[١] -يعنى فى المجلس- كذلك يكره للطالب أن يقيم أحد الجالسين ليجلس هو مكانه لحديث الرسول ﷺ : «لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه، ثم يجلس فيه»[٢]. ومثل ذلك الجلوس فى مكان من قام له رجل عن مجلسه باختياره، لنهي الرسول ﷺ عن ذلك[٣]، إلا أن الرجل إذا أفسح له الجالسان في مجلسهما فينبغي له أن لا يرفض «لأنها كرامة أكرماه بها، فلا ينبغي أن يردها»[٤].

وقد أورد الخطيب من القواعد والآداب المرعية في مجلس الدرس أهمية عدم جلوس الطالب متربعا ، فقد قال بعض الحكماء : «اثنان ظالمان، رجل أهديت إليه النصيحة فاتخذها ذنبا، ورجل وسع له في مكان ضيق فقعد متربعاً»[٥] كذلك من غير المقبول جلوس المرء في مجلس من قام وهو يريد العودة له وأن لا يتناجى الاثنان دون الثالث[٦] كل ذلك محافظة على شعور الآخرين وحفظا للمودة، وتوثيقا لحبل الصداقة والتعاون بين المتعلمين، فإذا انقضى الدرس، وانتهى المجلس ، وهم الطالب بالانصراف سلم على أهل المجلس، تأسيا بقول الرسول ﷺ : «إذا أتى أحدكم المجلس فليسلم ، فإن قام والقوم جلوس، فليسلم، فإن الأولى ليست بأحق من الأخرى»[٧].

هذا إلى جانب الآداب الرفيعة والتوجيهات التربوية والقواعد المنظمة التي حرص الخطيب -كما رأينا- على تمسك طلبة العلم بها وتحليهم بفضائلها، من الحرص على الاجتهاد في التعليم والبكور إلى الدرس والقرب من مجلس العالم، والتأدب مع الزملاء والتواضع

---

(١) المرجع السابق، ج ١، ص١٧٧ .
(٢) المرجع السابق، ج ١، ص١٧٥ .
(٣) المرجع السابق، ج ١، ص١٧٥ .
(٤) المرجع السابق، ج ١، ص١٧٨ .
(٥) المرجع السابق، ج ١، ص١٧٩ .
(٦) المرجع السابق، ج ١، ص١٨٠ .
(٧) المرجع السابق، ج ١، ص١٨٠ .

وعدم رفع الصوت والاقبال بالوجه على المعلم وحسن الصمت والاصغاء ومراعاة أحوال المعلم والحث على احترامه وتوقيره والرفق به، وعدم إضجاره، أو الالحاح عليه في السؤال، مع الحث على التعلم وعدم الخجل في التعليم، فالعلم لا يدركه مستح أو مستكبر وإذا أخلص الطالب نيته في التعليم، وحرص على الجد والمسارعة إليه ، وجدد للصبر عليه عزيمته، كان جديرا أن ينال من التعليم بغيته وأن يحقق في الحياة هدفه إذ قلما طلب إنسان شيئا وثابر عليه بجد وصدق إلا ناله «فإن لم ينله كله نال بعضه»(١).

ويبدو لنا من دراسة المبادى التربوية، والارشادات التعليمية، والقواعد السلوكية، والآداب المرعية السابقة، أن التربية عند الخطيب قائمة على وجوب إجلال العلم، والحث على طلبه والسعي إليه، وتوقير العالم، وإعداد المتعلم ليحمل رسالة العلم ويبلغها إلى الناس، عملا على تأمين التواصل بين حاضر المجتمعات وماضيها الزاهر. وقد رأينا كيف شدد الخطيب على دور كل من المعلم والمتعلم في العملية التربوية والتعليمية، وكيف يكون سلوك كل منهما تجاه الآخر، فبين الآداب والصفات المطلوبة لدى كل من العالم والمتعلم سواء كانت اجتماعية أو خلقية أو علمية (مهنية)، وهو ما تناولناه تحت آداب العالم أو المتعلم في نفسه ودرسه، ومع تلميذه أو شيخه، كذلك ذكرنا أن المعلم قدوة، ولذلك يجب تحليه بالاخلاق الفاضلة، والآداب الرفيعة، وأن يكون معتنياً بنفسه في هيئته ومظهره، وكذلك الحال مع المتعلم الذي يتعين عليه الالتزام بآداب الاسلام السمحة من غض البصر ، وخفض الصوت والاقتصاد في المشي، والبكور إلى الدرس والاهتمام بالتطبيق والعمل والجد في التعليم والمذاكرة بالمحفوظ، وما إلى ذلك من القواعد والآداب التي ترسم للطالب السلوك الأمثل ، وتوجهه إلى الطريق الأقوم.

وجملة القول أن التربية عند الخطيب تربية شاملة، واقعية، مثالية، تنبع من مصادر الاسلام الأصيلة وترتبط بالحياة وبالناس والمجتمع ومن هذا المنطلق نجد حثه على صلاح الانسان واستقامته، ونشر العلم بين الناس وتعليمه لمن لا يعلمه، واعتباره العلم بدون عمل جسدا بلا روح، إلى غير ذلك من المبادئ التي تحث على استمرارية التعليم، وتكافؤ الفرص التعليمية، مما تنادي التربية المعاصرة اليوم بضرورة الاهتمام به والتركيز عليه. ولئن كان

---

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص١٧٩ .

الخطيب في آرائه وأفكاره التربوية متأثرا بعصره الذي عاش فيه وما ساده من مبادئ وأهداف ومثل وقيم، فإن ذلك ميزة له، لا عليه، خاصة وقد أحسن الاستفادة من المتغيرات في بيئته وعصره، واستطاع -كما رأينا- أن يحدد لنفسه أهدافا وغايات، عمل على توضيحها، والتأكيد عليها، والذي يعنينا منها هنا أفكاره وآراؤه في مجال التربية والتعليم، فقد جمع وبوب ونسق القواعد المعروفة في عصره، وهذا في حد ذاته عمل تنظيمي مايزال نافعا بل وفي الكثير منه صالحا.

وقد أظهرت هذه الدراسة تكامل العملية التربوية والتعليمية عند الخطيب وترابط أجزائها وشمولها «لحياة الانسان من عقيدة ثابتة صحيحة، وإخلاص فيها، وقيام بالعبادة، واتباع للشريعة الاسلامية، واقتداء بسنة النبي ﷺ وتهذيب للنفس البشرية بشتى صنوف التربية لضمان السعادة في الدنيا والاستعداد للآخرة.. وأخيرا تجسيد ذلك بواقع عملي وهو ما يسمى (باقتضاء العلم العمل)، وأي انتقاص من ذلك المجموع هو انتقاص من العملية التربوية الاسلامية، التي تهدف الى تهيئة العوامل المساعدة لانشاء الشخصية الاسلامية بتميزها ورقيها». (١)

سادساً : الخلاصــة :

وبعد .. فلقد رأينا كيف كان حال المسلمين زمن الخطيب من ضعف وتشتت وتمزق، وتفرق، وكيف أن الصراعات المستمرة بينهم والحروب الكثيرة قد شغلتهم عن أنفسهم، وعمقت الخلافات بينهم فبدت وكأنها مصيرية دائمة، بعد أن كانت عارضة زائلة، ومع كل ذلك فقد بقيت هذه الأمة صامدة شامخة تنازل أعداءها وتقاوم محاولات إذابة الشخصية والتغريب والتجهيل، وكانت عدتها في ذلك كثيرة، وفي مقدمتها عقيدتها الصحيحة وفكرها الأصيل وعلومها ونظامها التربوي والتعليمي الذي يستند إلى أصول الاسلام الأصيلة الثابتة.

ولقد قامت اتجاهات فكرية وتربوية كثيرة بين صفوف هذه الأمة تفاوتت في صفاء مصادرها ونقاء أصولها وإخلاص أهدافها، كانت تحاول النهوض بالأمة وبناء شخصيتها من جديد، وكان التوفيق من الله تعالى حليف بعضها بقدر ماكان منهجها سليما، ونيتها صادقة

---

(١) ابن الجوزي : لفتة الكبد في نصيحة الولد (مرجع سابق) ص١٠-١١. من مقدمة مروان قبان.

وعملها خالصا ، وقد تبلور الاتجاه الاسلامي في الفكر التربوي المعاصر لدى العلماء والمفكرين الاسلاميين الذين حاولوا تشكيل صورة هذا الفكر الذي يعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ويستلهمهما في استخراج القانون الالهي في التربية التي أرادها الله تعالى للصالحين من عباده، والتي كان سيد الخلق محمد ﷺ مثالها الحي، وقدوتها الحسنة، فشكلت بفضل الله ورحمته الانسان المسلم الذي أضاء للبشرية آفق المعرفة قرونا عديدة.

واليوم وقد اتجهت انظار الباحثين إلى الاسلام، وفكره، وعلومه وسير علمائه، لاستخراج كنوزه في العلم والمعاملات والتشريع والحياة بمختلف ميادينها - ومنها ميدان التربية والتعليم- نجد أن الوقت موات والظروف مناسبة لاستجلاء فكرنا التربوي الاسلامي الأصيل، وغربلته من كل ما يشوبه أو يختلط به من غريب دخيل، وأن ندرسه دراسة فاحصة ناقدة محللة، لا للوقوف عنده والاعجاب به فحسب، بل من أجل توظيفه في حياتنا التربوية والتعليمية، والاستفادة من أصالته وعمقه مع تقدم الحاضر ورقيه.

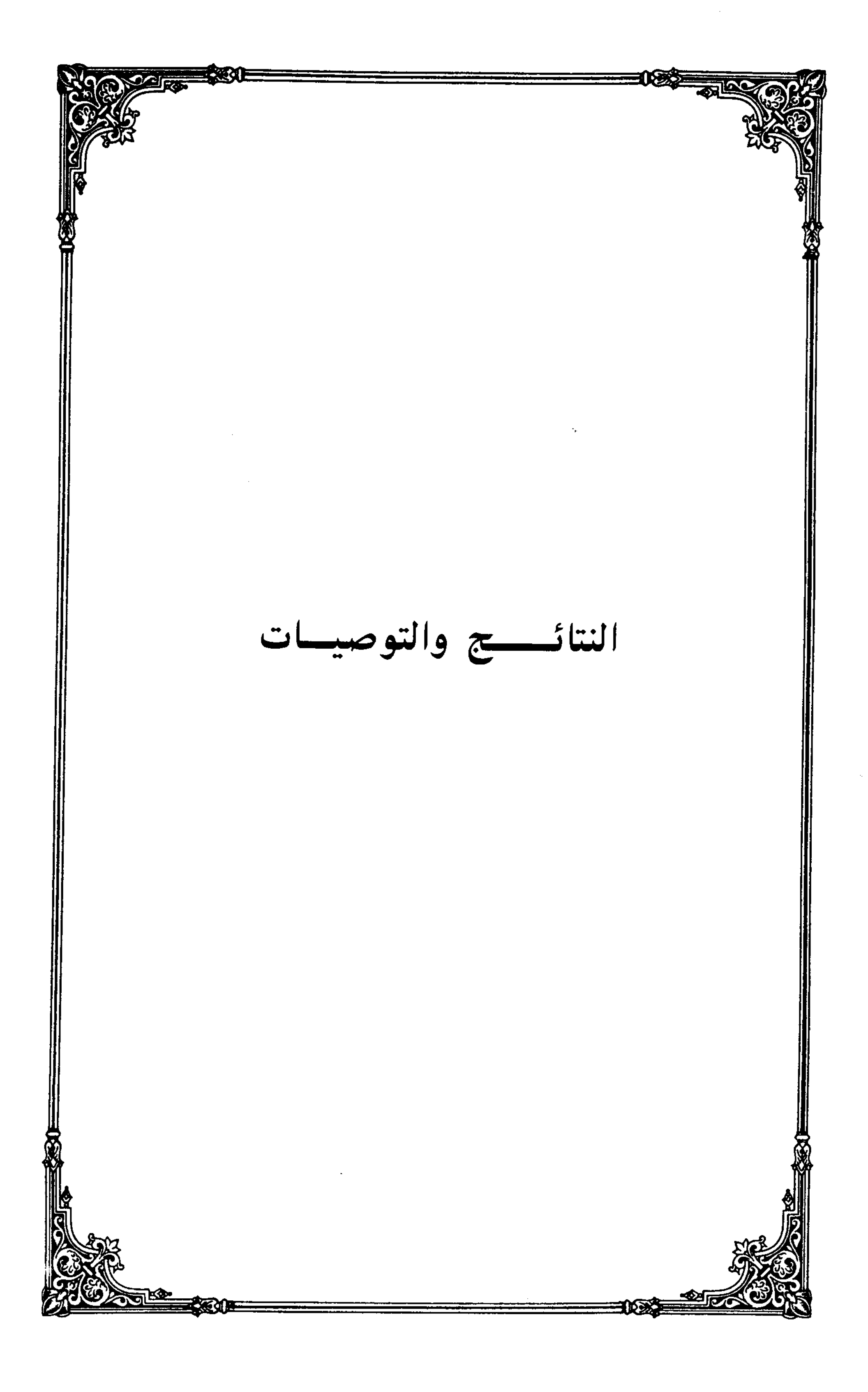
ولقد بدأت الدراسات التربوية التأصيلية تتلى وإن بدا ظاهراً أنها تتقدم ببطئ إلا أنها تسير بإذن الله بخطى ثابتة مخلصة جسورة ، وكما يقال أول الغيث قطر ثم ينهمر، وقد سح غيث البحث التربوي ، وبالذات في المجال التربوي الاسلامي، في الآونة الأخيرة، بحثا عن الذات الظائعة بين ركام الفلسفات والمذاهب والاتجاهات العالمية والمحلية، القديمة والحديثة، والتي أكدت مناهجها على الدوام التبعية الفكرية وكرست التقليدية لهذا الفريق أو ذاك. وقد أقنعت محاولات التجديد والتأثر والاستيراد والتقليد قادة الفكر التربوي الاسلامي بأن الاستمرار في تلك المحاولات لن يؤدي إلا إلى مزيد من التبعية الفكرية وضياع الشخصية، ولذلك حاول المخلصون منهم أن يبدأوا بداية صحيحة سليمة وأن يعدوا لذلك أرضا صلبة لبداية مرحلة التكوين الذاتي الحر للنظام التربوي الاسلامي في واقع الشخصية الاسلامية في جميع مراحل التكوين التربوي والنفسي ، من خلال الرجوع إلى الاسلام، وأصوله، وفكر علمائه العاملين، مع عدم تجاهل منجزات الحاضر وأهميته في الاعداد للمستقبل المنشود.

ومن هذا المنطلق كانت هذه الدراسة التي تتناول الفكر التربوي لأحد أعلام المسلمين البارزين هو الحافظ أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي، وقد استعرضنا خلال هذه الدراسة الآراء والأفكار التربوية والتعليمية عنده، وما يزخر به فكره التربوي من اجتهادات، أو أسهم به من آراء وأفكار تربوية ألقت الضوء على العديد من موضوعات الفكر التربوي الاسلامي في عصره، ولعل في تبيانها اليوم ما يثبت الأقدام وينير البصائر ويهدي

إلى الحق وإلى صراط مستقيم. وقد فصلنا القول - خلال فصول هذه الرسالة- حول العديد من قضايا هذا الفكر عند الخطيب سواء ماكان يتعلق منها بالأصول والمصادر التي يستند إليها فكره التربوي ويصدر عنها أو ماكان من تناوله لقضايا تتصل بالتعلم والتعليم، وطرق التدريس ، ومناهج التعليم وأدواته وآداب العالم والمتعلم وخصائص كل منهما وغير ذلك مما ورد في ثنايا البحث.

وقد استقى الخطيب أفكاره حول هذه القضايا من الشرع الحنيف وأصوله السمحة الأصيلة الثابتة، واجتهذ رأيه فيما استمده من هذه الأصول، وأضاف إلى ذلك كله الكثير من خبراته في المجال التعليمي، وإسهاماته المشكورة في معالجة مشكلات التربية والتعليم في عصره، وعلينا أن نحذوا حذوه في الاجتهاد والبحث عن حل للمشكلات التربوية والتعليمية في عالمنا المعاصر.





النتائــــج والتوصيــات



النتائج والتوصيات

تمهيـــــد :

يكثر الحديث في الآونة الأخيرة عن الحاجة الملحة إلى نظرية تربوية إسلامية متميزة، ويبدو أن هذا المطلب لا مناص من تحقيقه، بعدما بدا واضحا عجز الفكر العالمي عن تقديم الأنموذج الثقافي، والتربوي البديل[1] ، وقد أدرك التربويون والمفكرون أن التربية المجلوبة، واستيراد النظم التربوية وترقيعها لن يؤدي إلى تقدم شعوبهم، ولن يحل مشكلاتها أو يوفر لها الشروط اللازمة لتنميتها، هذا إذا ما ظلت في تبعيتها وخضوعها للمذاهب والفلسفات والأمم التي تقلدها.

وإذا كان الفكر التربوي المعاصر يعاني من التناقضات الفكرية، والأزمات المنهجية، وعدم وضوح الرؤية، واللاهدفية[2]، وإذا كانت الأمة العربية والإسلامية قد تأثرت بهذا الفكر أو ذاك، مجبرة أو مختارة، وعانت من تداخلاته، وتأثيراته، وما نتج عن ذلك من تبعية فكرية وثقافية، وتقليد أورثها تشوش الرؤية، وضعف البنية الفكرية والتربوية منها بالذات، إذا كان الأمر كذلك فإن الحاجة تؤكد اليوم أكثر من أي زمن مضى ضرورة الرجوع إلى الفكر الاسلامي الأصيل في مصادره وأصوله، وفي إنتاج أعلامه من العلماء والمفكرين، وخاصة الفقهاء والمحدثين.

وقد رأينا تميز الفكر التربوي عند الخطيب ، وغناه بالعديد من الآراء والمضامين التربوية الأصيلة التي يستند فيها إلى أصول الاسلام الثابتة، وقد تبلور فكره التربوي في إطار ثقافة مجتمعة، وعقيدته، وحاجات عصره ومتطلباته التربوية، ولذلك فإن أصالة هذا الفكر قد فرضت على الخطيب تناول كثير من قضايا التربية الاسلامية، وآرائها، ومبادئها وميادينها بنظرة موضوعية حسب مصطلحات ومناهج العصر الذي عاش فيه. وفيما يلي

---

(١) انظر: عبدالله عبدالدائم : التربية في البلاد العربية، حاضرها ومشكلاتها ومستقبلها من عام ١٩٥٠ الى ٢٠٠٠. ط٤ ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٣م، ص٧٤٧ .

(٢) انظر : محمد نبيل نوفل : دراسات في الفكر التربوي المعاصر، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٥م، ص١٨-٥٠ .

نستعرض أهم ما انتهت إليه نتائج هذه الدراسة، وما نقترحه من توصيات تدعو إلى الاهتمام بمعطيات الفكر التربوي عند الخطيب من المنظور التربوي والتعليمي المعاصرين.

١ - رأينا مدى أهمية دراسة الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي باعتباره أحد العلماء المسلمين الرواد في مجال الفكر التربوي الاسلامي، في تفاعله مع واقعه ومعالجة مشكلات عصره التربوية، فضلا عما تضمنه فكره الموسوعي من جوانب واجتهادات علمية وتربوية تمثل روح عصره وتعكس قضايا الفكر والمجتمع التربوية الاسلامية الأصيلة. ونظرا لما لهذه الدراسات الفكرية التربوية من أثر فعال في إيجاد نوع من التواصل الفكري، وتأكيد الوعي التربوي ، يوصي الباحث بما يأتي:

أ - ضرورة تكثيف الدراسات الجادة حول فكر العلماء المسلمين، وخاصة الفقهاء والمحدثين، وذلك من منطلق الحاجة الماسة إلى تأصيل فكرنا التربوي المعاصر وجعله فكرا تربويا يتفاعل معه الناس، ويقبلونه كجزء أصيل من حياتهم وثقافتهم وتفكيرهم.

ب - توجيه النظام التربوي والتعليمي توجيها إسلامياً صحيحاً يجمع بين الأصالة والمعاصرة، ومواجهة كل ذلك بالفكر والعمل والتخطيط السليم وتقويم مسيرة الفكر التربوي الاسلامي المعاصر، بحيث يسهم في نهضة هذه الأمة وبعثها من جديد.

٢ - تبين لنا أن النصف الأول من القرن الخامس الهجري -وهو الفترة الزمنية التي عاش فيها الخطيب البغدادي (٣٩٢-٤٦٣هـ) كان من أغنى فترات الدولة العباسية بالأحداث والتقلبات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخصومات الطائفية والخلافات الدينية والمذهبية، وقد انعكست تلك الأوضاع والمتغيرات المختلفة على الحياة في هذه الفترة ووصمتها بالضعف والصراع الذي فرق وحدة الأمة وبدد طاقاتها باستثناء الناحية الفكرية والعلمية التي لاقت بعض العناية والازدهار في هذه الفترة التي زخرت بالعديد من المصنفات الأصيلة في مختلف العلوم، والتخصصات ، كذلك قعدت قواعد العلوم، ووضعت المناهج الدقيقة، التي قلما استطاع المتأخرون تجاوزها.

ولما كانت التربية عملية لا تتم في فراغ، وإنما هي عملية إنسانية تتم بقصد حفظ المجتمعات الانسانية وبقائها واستمرارها، وبدونها تذبل المجتمعات وتضمحل ، وقد تذوى وتمحى من الوجود ، ولما كان الانسان هو المخلوق المستهدف من هذه التربية، فإن دراسة العوامل والقوى المؤثرة في البيئة التي يعيش فيها هذا الإنسان أمر من الأهمية بمكان، خاصة وأن الانسان مؤثر في هذه البيئة ومتأثرة بها، وفي ضوء ذلك يوصي الباحث بما يأتي:

أ - دراسة البيئة بما فيها من متغيرات وأوضاع فكرية ومادية متاحة، وعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية، وتوظيف المعلومات التاريخية المستقاة عن هذه المتغيرات والعوامل والقوى في إلقاء الضوء على المشكلات التربوية وقضايا التعليم.

ب - تفسير مختلف الآراء والظواهر الفكرية والتربوية والاجتماعية في ضوء تلك الأوضاع واستجلاء تأثيرها وفعلها في الحياة بمختلف جوانبها، عند دراسة تاريخ التربية الاسلامية وشخصياتها.

٣ - لاقت الحركة الفكرية إقبالا وتشجيعا كبيراً من دويلات القرن الخامس الهجري، فقد كان الخلفاء والأمراء والحكام، يتنافسون في جمع الكتب واستقطاب العلماء والمفكرين، فضلاً عن الأدباء والمتأدبين، وقد ازدهرت الحركة الفكرية نتيجة هذه الرعاية، إلا أنها ظلت دون مستواها الذي كانت عليه أثناء القرن الرابع الهجري، وما قبله، وإن بقيت -كما بينا- متطورة، نامية ، منتجة، رغم الأجواء الغائمة التي خيمت بظلالها على الحياة بمختلف جوانبها إبان هذه الفترة.

وقد انعكست هذه الأوضاع على الحركة التربوية والتعليمية، وعلى آيديولوجية الحياة في المجتمع الاسلامي، حيث برزت اتجاهات فكرية عديدة أفرزتها تطورات الحياة، ومن أهمها مدرسة الفقهاء والمحدثين، ومدرسة علماء الكلام، ومدرسة الفلاسفة ثم مدرسة الصوفية، وقد أسهمت هذه المدارس وما أنتجه روادها من فكر في التأثير على التربية التي كان لها إبان هذه الفترة نظامها وفلسفتها وأهدافها ومناهجها وأساليبها وطرقها التي لبت حاجات المجتمع الاسلامي وتطور حركة العلوم فيه.

فبالنسبة لنظام التعليم فقد كان مرنا، وهو في الغالب تعليم حر غير نظامي، إلا ماكان من استحداث للمدارس في النصف الثاني من هذا القرن وما عرفته بعد ذلك من تعليم نظامي، وكانت مراحل هذا التعليم متعددة ، كما كانت مناهج التعليم وطرقه تختلف باختلاف المراحل وتتعدد بتعدد العلوم وميادين التعليم نفسها، كذلك تطورت مؤسسات التعليم لتواكب حركة العلوم وتقدمها ، و «يزداد الاهتمام في الوقت الحاضر بالتعليم غير النظامي، بعد أن أخذ يسير نحو الاستقرار ، باعتباره مجالا تربويا قائما بذاته، متعدد الوظائف ويتسم بخصائص بنيوية مميزة، وقد جاء هذا التعليم كاستجابة مؤسسيه لما ظهر من أوجه نقص وعجز في التعليم العام، وتتأكد أهميته بوجه خاص إذا أردنا تحقيق

ديمقراطية التعليم وتعميمه..»[1] من غير أن يعني ذلك التوهين من شأن التعليم النظامي أو التقليل من دروه، وإنما نؤكد فقط على أهميـة دعم أحد النظامين للآخر، «لأن التـعليم غير النظامي بوسعه أن يلبي احتياجات لا يستطيع التعليم النظامي تلبيتها، فمن شأنه -مثلا- أن يخفف ضغط الطلب الاجتماعي على التعليم النظامي، -فضلا عن كون- التعليم غير النظامي أكثر مرونة وأشد قابلية للتشكل من حيث بنيته، وتنظيمه، مما يمكنه من الاستجابة للمتغيرات السريعة، والحاجات الجديدة، وتزايد الطلب على التعليم وحركة انتقال الناس من مكان إلى آخر»[2]. وفي ضوء ذلك يوصي الباحث بما يأتي:

أ - زيادة الاهتمام بالتعليم غير النظامي سواء في المساجد والكتاتيب، وغيرها من المؤسسات ا الإعلامية والخيرية لتي تتولى توجيه أفراد المجتمع وتثقيفهم.

ب - إتاحة الفرصة للدارسين غير النظاميين لمواصلة دراساتهم العليا، إذا ماكانوا مبرزين في العلوم التي يريدون مواصلة التعليم فيها، فضلا عن بلوغهم درجة النضج العلمي والفكري التي تمكنهم من مواصلة ذلك التعليم.

ج - إعطاء العناية الكافية لدراسة مراحل التعليم الأولية، وقد اتضح أنها لم تحظ إلا بالقليل من اهتمام المفكرين التربويين الدارسين المحدثين رغم أهميتها ومن هنا تبرز أهمية إجراء المزيد من الدراسات والبحث العلمي الجاد حول هذه المرحلة من مراحل التعليم، وكشف دورها في تربية النشئ الاسلامي، وتشكيل بنية التعليم الأساسي في عصور الاسلام الأولى.

٤ - أظهرت الدراسة أن للتربية الاسلامية مصدرين أساسيين : الأول القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ويجب الالتزام بهما وعدم التفريط في اتباعهما والحرص على هديهما، والثاني اجتهادات المسلمين من أولي العلم فقهاء ومحدثين.. وتتمثل في الاجماع والقياس وغيرها من المصادر التي تقبل الانتقاء والاختيار منها.

وهذه هي مصادر الفكر التربوي عند الخطيب ، فالقرآن الكريم هو المصدر الأول اليقيني الذي يحتوي معالم المنهج الاسلامي في التربية والتعليم، وهو المحور الذي تدور عليه

---

(١) عبدالله عبدالدائم (مرجع سابق) ، ص٥١٠- ٥١١ .
(٢) المرجع السابق ، ص٥١١.

العملية التربوية والتعليمية، أما السنة النبوية المطهرة فهي المصدر الثاني من مصادر التربية الاسلامية، وقد أولاها الخطيب عناية واهتماما كبيرين، ويعد الاجماع المصدر الثالث لهذه التربية، وهو نوع من أنواع الاجتهاد غايته رعاية مصالح العباد، وتلبية احتياجاتهم المشروعة كلما جد جديد يستدعي معرفة حكم الله تعالى، لم يرد ذكره في الكتاب أو السنة، وقد عنى الخطيب بالاجماع وذكر أنه لايقف عند عصر دون آخر، ولا تختص به أمة دون أخرى. أما القياس فهو المصدر الرابع من مصادر التربية الاسلامية عند الخطيب، وهو مصدر عقلي تتبعي، كما أنه حجة من حجج إثات الاحكام الشرعية والعقلية، وهو مجال فسيح للاجتهاد وإعمال الفكر لا غنى للمجتهد عنه، كما أنه أسلوب هام من أساليب التربية الاسلامية، ووسيلة من الوسائل العقلية والشرعية التي يعتمد عليها البحث العلمي وتتكامل بها الجوانب الحسية والمعنوية للمعرفة الانسانية.

وهكذا تكون مصادر التربية الاسلامية التي يجب الاعتماد عليها، والرجوع إليه والصدور عنها هي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ثم الاجماع والقياس، وهي المصادر التربوية الثابتة التي يؤسس عليها الخطيب فكره ويصدر عنها في نظرته إلى التربية والتعليم وغيرها مما تشمله جوانبه الفكرية الأخرى. ويمكن الخروج مما سبق بعدد من النتائج إضافة إلى ما نادى به الخطيب من مبادئ تعليمية هامة، منها مبدأ استمرارية التعليم، وضرورة تكافؤ الفرص التعليمية بين أفراد المجتمع، والحرص على نشر التعليم، ومراعاة مبدأ الفروق الفردية ومبدأ التغيير والتنويع ، واحترام العلماء وإجلال العلم، والحرص على العمل به، وبيان أن العلم في نظر الاسلام دين وأن الدين علم. وأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ويرى الباحث في ضوء النتائج السابقة:

أ - أن تؤخذ هذه المبادئ في الاعتبار عند صياغة نظام للتربية الاسلامية، وتوجيه التعليم وبناء المناهج واختيار الطرق التعليمية المناسبة، مع التركيز على العلاقة التبادلية بين الدين والعلم والعمل والايمان والأخلاق، ومبدأ تكافؤ الفرص ونشر التعليم، ومبدأ العمل والتطبيق العملي واستمرارية التعليم.

ب - أن نهتدي بالقرآن الكريم والسنة النبوية في صياغة فكر تربوي إسلامي واضح، يعمل على صياغة الناشئة الاسلامية، بحيث تتجسد فيها قيم الاسلام ومبادؤه، ويكون مجالا للممارسة الفعلية في كل ميدان من ميادين الحياة، وعلى رأسها ميدان التربية والتعليم.

ج - أن يفتح باب الاجتهاد لإيجاد حلول مناسبة للمشكلات التربوية والتعليمية، مع المحافظة على روح الأصالة ، والأخذ في نفس الوقت لما نحتاجه وما يناسبنا من وسائل العلم والحضارة والتقدم، ويرى الباحث ضرورة التوسع في مجال القياس كمصدر من مصادر التربية الاسلامية، والاستفادة من معطياته في ميدان البحوث التربوية والتطبيقية، واستثماره في الدراسات التحليلية والمقارنة، في شتى مجالات العلم والمعرفة والنظم والتشريعات التربوية، واشتقاق القوانين التي تنظم حقوق الأفراد والجماعات وترعى مصالحهم وتحفظ كيانهم وتصون عقيدتهم وفكرهم وأخلاقهم.

د - أن تعطي مصادر التربية الاسلامية السابقة المكانة الأولى والدور الأكبر في قيادة البحوث التربوية وتوجيهها، وأن يقوم الباحثون والعلماء والمفكرون وقادة الرأي والمربون بالكشف عن القيم الايجابية في الفكر التربوي الاسلامي، مع الاستفادة القصوى من معطيات الحضارة المعاصرة، ومنجزاتها بما لا يتعارض مع هذه الأصول والمصادر، ولا يفوت على الأمة -في ذات الوقت- الاستفادة من المبتكرات العلمية والحضارية البارزة، كما يوصي الباحث بأن يستوحى النظام التربوي الاسلامي المعاصر صدق الدين وأصالة الفكر الاسلامي من أجل التأثير على النظام التعليمي في المدارس والمعاهد والجامعات لكي يتحرر من دائرة التبعية والتقليد ويسعى إلى الاستفادة من معطيات الفكر التربوي الاسلامي في وضوح الرؤية وتصحيح المفاهيم.

٥ - يتمثل الاطار الفكري للتربية عند الخطيب في تصوره عن الخالق سبحانه وعن الكون والانسان والمجتمع، فالله سبحانه هو خالق الكون ومدبره، المتصرف في ملكه المتوحد في أسمائه وصفاته، ولا يتحقق إسلام المرء الا بتوحيده والايمان به، والاخلاص في عبادته، أما الكون فيشمل العالم مما نراه وما لا نراه، وهو مجال نظر الانسان وعبرته واعتباره، كما أنه سبيل إلى معرفة الله تعالى وطاعته وخشيته، ويعتبر الانسان مكونا هاما في تصور الخطيب، وهو المخلوق المكرم المميز بالمسؤلية والعقل والذكاء والتفرد في المواهب والقدرات، أما المجتمع فهو الاطار العام لحياة هذا الانسان وما تحفل به من علاقات متشابكة.

وبالنسبة لمفهوم التربية عند الخطيب فقد - رأينا - أنه هو نفسه مفهوم التربية الاسلامية، في عمومه وشموله وتكامله واستمراره، كما رأينا أن التربية عنده مستمرة باستمرار حياة الانسان من المهد إلى اللحد. أما الأهداف التربوية عند الخطيب فهي أهداف عملية ومثالية في نفس الوقت، وتتلخص في إخلاص العمل والعبادة لله تعالى، وخشيته،

وتقواه، ولا شك أن هذا الهدف يتلاءم مع الحياة ولا يصادمها، لأن غاية التربية الاسلامية، والهدف منها صلاح الانسان في هذه الحياة، وأول علامات الصلاح تقوى الله تعالى والاخلاص له، ثم إصلاح العمل وتقويم السلوك وتعمير الحياة والنهوض بالمجتمع وازدهاره.

ويوصي الباحث : في ضوء ذلك بالعمل على تقديم صورة واضحة للنظام التربوي الاسلامي القائم على هذه الأسس من خلال الاطار الفكري الاسلامي الصحيح، بحيث يدور نظام التربية والتعليم ومناهجه حول التصور الواضح للخالق سبحانه، وحول دور الانسان في الحياة والمجتمع وإعمار الأرض، وازدهار الحياة على أسس تكفل تحقيق التنمية التربوية والتقدم في ضوء المستجدات والمتغيرات القائمة في المجتمع.

٦ - رأينا كيف اعتنى الخطيب بالتربية المتكاملة الشاملة التي تراعي جميع جوانب الشخصية، باعتبارها وحدة مترابطة تتكامل فيها هذه الجوانب التي تتولى التربية تنميتها حتى يتحقق للمرء نمو متوازن يتلاءم مع إمكاناته ، وميوله وقدراته وتطلعاته. وقد تمثلت عناية الخطيب بالتربية المتوازنة من خلال تناوله لبعض الميادين التربوية، مثل التربية العقلية والتربية الخلقة والتربية الاجتماعية، وبالنسبة للتربية العقلية فقد رأينا كيف كان اهتمام الخطيب بالعقل والتنويه بمكانته، وبيان أثر التربية الشاملة التي تعني التكامل والبعد عن التقليد، لأن التقليد من صفات الانعام، ومن هنا كان حثه على طلب العلم والترغيب فيه، والتميز بالاجتهاد والتحلي بالموضوعية والصدق، مذكرًا طلبة العلم بأن الانسان خير له أن يموت طالبا للعلم من أن يعيش قانعا بالجهل مستسلما للغفلة.

وقد أورد الخطيب بعض موازين البحث الموضوعية التي تهدف إلى تكوين العقلية العلمية الموضوعية، والتي تؤكد رفض اتباع الظن والهوى والتقليد الأعمى، كما تؤكد في نفس الوقت على النظر والبحث والأخذ بالأدلة الثابتة، وإتقان الحجة والحرص على التثبت والعمل بالقياس الصحيح. أما التربية الخلقية فإن اهتمام الخطيب بها كان كبيرا جدا، وقد أظهرت الدراسة تركيزه على الأخلاق الحميدة التي تعد توجيها للحياة الاسلامية، ووسيلة من وسائل الارتقاء بالفرد والمجتمع وتحقيق السلوك الأمثل ، كذلك يعتبر الخطيب أن التربية الاجتماعية ميدان للعلاقات الانسانية وقد تضمنت عنده العديد من العلاقات والآداب الاجتماعية التي تنصب على الفرد والمجتمع، والتي تعد ثمرة للتربية الصالحة وللخلق العظيم.

ويرى الباحث أن ميادين التربية عند الخطيب واضحة متكاملة، وتستحق الدراسة

والاستيحاء في توجيه التربية الحديثة، وتكوين أخلاق الفرد والمجتمع المسلم المعاصر في ظل التوجيه الاسلامي والعقل المستنير الذي يجمع بين العلم، والعمل والايمان واليقين الصادق، وعلى ضوء ذلك يوصي الباحث بما يأتي:

أ - أن يراعي التكامل والشمول والتوازن في ميادين التربية الاسلامية المعاصرة بحيث تشمل جميع جوانب الشخصية وتلبي احتياجاتها المادية والمعنوية.

ب - أن يؤخذ في الاعتبار التكامل والتعاون بين التربية النظامية وغير النظامية وأن تراعي عند ذلك ظروف المجتمع وحاجاته وتطلعاته.

ج - أن يعمل الباحثون الاسلاميون ومراكز البحوث ومؤسساته على بلورة ميادين التربية المتضمنة في الفكر التربوي الاسلامي، والاستفادة منها في إثراء وتوجيه الفكر التربوي المعاصر، وفق منهج علمي إسلامي واضح شامل متكامل يبرز مافي هذا الفكر من قيم وآداب وأخلاق ومبادى إسلامية كفيلة بتأكيد دور التربية المعاصرة من خلال العمل على حسن تربية الانسان وصلاحه والتأكيد على كرامته ومسئوليته، واستغلال ما بسط الله له وأنعم عليه به من عقل راجح واختيار وقدرة على العمل، وما ميزه به من أخلاق إسلامية وإرادة وحياة إنسانية كريمة.

٧ - استطاع الخطيب بلورة نظرة موضوعية عن التعلم، وهو وإن لم يكتب عن التعلم بطريقة قاصدة، إلا أنه تناول التعلم بمفهومه وعوامله المختلفة وشروطه التي تساعد على تقدمه وتزيد-عند مراعاتها- من كفاءته وتحسينه. وقد أوضحنا أن الخطيب عاش في بيئة معينة أوحت له بتكوين تصوره عن هذه النظرة وتلك المبادئ التعليمية بناء على المفاهيم السائدة في عصره، فجاءت نظرته عن التعلم وغيره متأثرة بالبيئة الثقافية والاجتماعية التي عاش فيها، وكيفما كان حظ آرائه حول التعلم من الموضوعية أو الغرابة، فإنها تعكس أقصى ماكان ممكنا من فهم لعوامل التعلم وشروطه المهيمنة عليه، ولذلك يجب أن يكون حكمنا على آراء الخطيب ومفاهيمه عن التعلم في حدود المتغيرات الثقافية والفكرية والاجتماعية التي أفرزتها البيئة التي عاش فيها الخطيب نفسه.

ويوصي الباحث في ضوء ذلك : بدراسة مبادئ التعلم وعوامله، التي جاءت في فكر العلماء المسلمين من أمثال الخطيب البغدادي وغيره من أئمة الهدى والدين، ومن هذه المبادئ التي يجب التأكيد عليها مبدأ استمرارية التعليم ومراعاة الفروق الفردية والدافعية والتدرج والتعلم بالعمل وتكافؤ الفرص التعليمية ومبدأ الثواب والعقاب، وغير ذلك من العوامل

والمبادئ التي تيسر عملية التعلم وتزيد من فعاليتها، وأثرها في التعليم، لا على أنها دراسات تجريبية مقننة، ولكن على أنها اجتهاد نظري يمكن أن نفيد منه في دراساتنا، تأسيسا عليها ووصلاً لوعي تربوي وتعليمي هام بين ماضي الأمة وحاضرها.

٨ - واتضع لنا من دراسة مناهج التعليم وأساليبه وأدواته أن للخطيب البغدادي منهجا واضحا متكاملا بأساليبه وأدواته وأهدافه، وقد أعطى الخطيب اهتماما أكبر في هذا المنهج للعلوم الدينية والعربية والأدبية عندما جعلها في بداية العلوم التي ينبغي للطالب أن يتعلمها. ولأن مناهج التعليم في كثير من البلدان العربية والاسلامية قد تأثرت بالمؤثرات الغربية أو الشرقية، فان مناهج التعليم فيها غدت مشوهة بالنسبة للمنابع التي تأثرت بها «مع افتقارها للرؤية التي تمدها بالحياة في بيئتها الأصلية، وهي بهذه الصورة تصبح من عوامل الضعف.. من حيث أنها تقف كبدائل للمواد والمناهج الاسلامية وكعوائق للتقدم والبحث..»(١)

ولما كان وضوح الرؤية والتصور للتعليم ونظام التربية أمراً غير قابل للتقليد أو الاقتباس، وإنما هو تصور يتولد من الرؤية الواضحة للنفس وللعالم وللحقيقة، أي من الدين الصحيح والفكر المستقيم الذي مكن للمدرسة الاسلامية - وعلى مدى أربعة عشر قرناً- أن تكون رائدة في كل مجال من مجالات البحث الانساني لذلك فإن الباحث يوصي بما يأتي:

أ - أن تكون علوم الدين واللغة العربية هي الأساس الذي ينطلق منه المتعلم المسلم حتى يصبح منهج الله سبحانه وتعالى هو الأساس للتربية، وتنبع منه العلوم الأخرى التي يشير إليها المنهج، والتي تربط المنهج بالحياة وتربط الحياة بكل علومها بالمنهج، وذلك من خلال زيادة المساحة المخصصة للمواد الدينية والعربية في المناهج المعاصرة، ورعاية ذلك من قبل المربين وأصحاب القرار والعلماء والمفكرين حتى نضمن إيجاد منهج إسلامي فعال مع ضرورة التكامل والشمول بين المناهج النظرية والتطبيقية، وأن تكون جميعها مما ينفع الانسان في الدنيا والآخرة، في توازن دقيق.

ب - أن يتم تأصيل مناهج التعليم المعاصرة عن طريق استيحائها للعلوم الاسلامية الأصيلة، وأن تكون هذه المناهج شاملة لكل مجالات الحياة، وأن يراعى عند بنائها ظروف

---

(١) إسماعيل الفاروقي : أسلمة المعرفة، المبادئ العامة وخطة العمل. (ترجمة عبدالوارث سعيد) -ط١، الكويت: دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص٣٣.

الفرد والمجتمع وأن تعطى العمل والتطبيق أولوية خاصة مع القضاء على معوقاته النفسية والبدنية والفردية والاجتماعية وأن تكون النظرة الاسلامية إلى العلوم المختلفة محل اهتمام ورعاية من الدراسين والمربين، ومجال عناية من المسؤلين لتجلية الفكر التربوي الاسلامي، واستخراج مافيه من قيم ومبادئ وآراء تربوية تثري الحياة الفكرية وتسدد التربية وتوجهها الوجهة الصحيحة.

ويرى الباحث أن دراسة مناهج التعليم الاسلامية تثرى التربية والتعليم، وتعمل على زيادة تأصيل مناهج التعليم المعاصرة، كما تعمل على تزويد الطلاب بالثقافة الاسلامية الأصيلة، فضلا عما تكشفه لهم من نظريات ومبادئ تربوية إسلامية، مع المحافظة على التجديد والمعاصرة المطلوبين، والباحث عندما يؤكد على أهمية الرجوع إلى المناهج والعلوم الاسلامية لا يهدف من وراء ذلك إلى الوقوف عندها، وإنما يؤكد على أهمية استيحائها ودمجها في المناهج المعاصرة دونما إفراط أو تفريط، وذلك بقصد إثراء نظامنا التربوي والتعليمي وتأصيله ، والاستفادة من أصالة الفكر التربوي الاسلامي في النهوض بالحاجات التربوية والتعليمية المعاصرة.

ج - أن تكون طرق التدريس متنوعة ومناسبة للمادة التعليمية ولمستوى نضج المتعلمين، وأن تقابل مابين الطلاب من فروق واختلاف في المواهب والاستعدادات، وما لديهم من معلومات وخبرات سابقة.

والواقع أن العبرة ليست في تعدد الطرق من عدمها، كما أنها ليست في قدمها من حداثتها وجدتها، ولكن العبرة في الطريقة المثلى والمناسبة لتعليم الأجيال ونقل العلوم والمعارف التي تساعد على التجديد والابتكار ونبذ التقليد، والحرص على الوضوح والتمسك بالنظر العميق والفهم الدقيق للمسائل والعلوم وتقاس جودة الطريقة بمدى قدرتها على إيجاد التفاعل التعليمي بين المدرس والطالب، في إثارة مواهب الطالب ومعارفه ، لتنمية نشاطه الذاتي في مختلف وظائفه الجسمية والادراكية والانفعالية والحسية والسلوكية، مما يحقق له نموا مطردا نحو الأفضل.

إن الطرق التدريسية يجب أن تتنوع في الصف الواحد وبالنسبة للمادة التعليمية الواحدة، بل وأحيانا بالنسبة لموضوع الدرس الواحد، وذلك لتنوع طرائق المعرفة الانسانية بتنوع الحواس سمعا وبصرا وتحدثا وممارسة، إضافة إلى أهمية هذا التنويع في تجنب السأم والملل، وخاصة في العمل الروتيني الذي يشكو منه بعض المدرسين الذين يلتزمون طريقة

واحدة، فتنوع الطرق -إذن- وتجددها معناه تجديد النشاط المتبادل بين العناصر البشرية في عملية التدريس.

د - أن يعطي للمعلم الحرية والمرونة في اتباع الطرق التعليمية التي يراها مناسبة لتعليم طلبته، والتي من شأنها أن توصل إلى مستوى أعلى في الفهم والاستيعاب العميق، وكذا تطبيق ما فهمه المعلم واستوعبه في مجال التعليم وطرائقه وأساليبه المثلى.

٩ - يتمتع المعلم في الاسلام بمنزلة رفيعة، ومكانة عالية شريفة نظرا لسمو رسالته وكرم مهنته، ولذا ينبغي أن يتصف بعدة وظائف دينية وتربوية وأخلاقية وعملية ومهنية، وقد رأينا كيف كانت آداب العالم في نفسه وعلمه ومع طلابه، وكيف أنها تفرض عليه عدة اعتبارات في مقدمتها إخلاص النية لله تعالى، والتقوى وعدم الغرور والتواضع والصدق والموضوعية، والاعتزاز بالنفس وكثرة العلم وقوة الاستنباط والملاحظة والفكر الرصين، وكمال المروءة وإعلاء الدين، والبعد عن الشبهات، والصلابة في الحق والاشتغال بالعلم وطرق الاجتهاد ومعرفة أحوال المجتمع والبلاد، وأوجه الاتفاق والاختلاف بين المذاهب والنحل، إلى غير ذلك من كمال الهيئة والوقار، وجمال المظهر، ونظافة البدن وحسن المخبر

أما آداب العالم فيما يختص بتلاميذه ، فقد رأينا أنها تنتظم في الرفق والتواضع ومراعاة الفروق بين المتعلمين، وأحوالهم وتكريم الموهوبين منهم ، وأما آدابه في درسه فتتمثل في عنايته بنفسه وجسمه وراحته، وتقديمه للسابق من طلبته، والعدل بينهم في التدريس والتعليم، مع المحافظة على الوضوح في الأسلوب، والبعد عن التكلف والاقتداء في ذلك كله بسنن السلف الصالحين، وقد أولى الخطيب إعداد المعلم (العالم) عناية كبيرة، من خلال تركيزه على النواحي الاخلاقية والاجتماعية والعلمية، ويوصي الباحث بضرورة العمل على :

أ - الاستفادة من توجيهات الخطيب وغيره من علماء المسلمين في مجال إعداد المعلم، وبالذات من حيث النواحي التربوية والأخلاقية والتهذيبية ، إعدادا متوازنا، متكاملا، شاملا لكل جوانب الشخصية، وأن يؤسس إعداد المعلم على غرس الايمان والارتباط الوثيق بمنهج الاسلام في الحياة والاعلاء من أخلاق الاسلام وتطبيقاته في نفسي العالم والمعلم حتى يكونا قدوة صالحة، ومثالا يحتذى في التربية والتعليم.

ب - العناية والاهتمام باعداد معلمي التربية الاسلامية على وجه الخصوص إعداداً قويا يجمع بين نقاء العقيد ومتانتها، وفهم مصادر الاسلام الأصيلة، وميادين التربية الشاملة، والاهتمام بالمواد العلمية والوسائل التربوية التي تحقق أهداف التربية وغاياتها.

ج - تأكيد أولوية العناية بمهنة التعليم ، وإصلاح شأنها على المستوى المادي والمعنوي ورفع مستوى العاملين فيها ، وفي مقدمتهم المعلم الذي يعد العنصر الأهم في العملية التربوية والتعليمية -والذي يبقى بحق - الوسيلة الفعالة في التطبيق التربوي، وفي تنمية شخصيات الطلبة والمتعلمين من خلال الحقول العلمية والمعرفية المناسبة وحسن القدوة، والاجتهاد في تحقيق الأمثل دوما ضمن إطار الاسلام ومنهجه الحكيم.

١٠ - كان الخطيب شديد العناية باستقامة سلوك المتعلمين وإكسابهم الخصائص والصفات الشخصية والعلمية والاجتماعية التي تعدهم ليكونوا أفرادا صالحين لأنفسهم وللمجتمع، وقد أورد الخطيب مجموعة كبيرة من الصفات التي يجب أن يتحلى بها المتعلم، مثل إخلاص النية لله تعالى، وتقواه والاجتهاد في التعليم، وعلو الهمة، والنشاط والتواضع وإجلال العلم وتوقير العالم، والصدق والموضوعية والتثبت فى الأخذ عن العالم، واستقامة السيرة وحسن الخلق والتناصح بالحق وبالصبر وحسن اختيار الأصحاب والاعتناء بالمظهر، وكمال الهيئة والأدب وجمال الأخلاق اثناء الدرس ومع الرفاق، ولذلك يجب إجراء المزيد من الأبحاث والدراسات العلمية الجادة، التى تكشف محاسن هذه الآداب وأثرها التربوى فى تقويم سلوك المتعلمين وتهذيب أخلاقهم، مع الاستفادة من هذه الآداب والقواعد المنظمة في مناهجنا المعاصرة، وبالذات في ميدان العلاقة بين المعلم والمتعلم، حتى تكون هذه العلاقة مبنية على المودة والتقدير والاحترام المتبادل، وقائمة على العطف والثقة، وإذا ما تحققت هذه الصلة بين المعلم وطلبته على الصفة المذكورة، فإن مهمة كل من المعلم والمتعلم سوف تكون سهلة، ميسرة، ومحببة إلى النفس باذن الله تعالى .

والشيئ الذى أود أن أختم به خلاصة دراستى عن الخطيب هو التأكيد على أن شخصية الخطيب وآراءه العلمية، والفكرية، قد أثرت في معاصريه وفيمن جاء بعده، حتى اليوم، خاصة في علوم الحديث والتاريخ والفكر التربوى، بما نجد للخطيب من الآراء الدقيقة العميقة والشواهد المستفيضه فى كثير من مسائل العلوم الأصلية منها والفرعية.

ولقد استفاد الخطيب «من مصنفات من سبقه فى علوم الحديث وزاد عليها ، وأتى بأحسن وأجمع منها ، كما أنه أرسى قواعد علم المصطلح في كتابيه «الكفاية» و «الجامع»، وجعل بقية كتبه مجالا للتطبيق العملى، والشواهد المستفيضة على كل فن من فنون علوم الحديث، وخص كل فن منها بكتاب مستقل، فسد بذلك الفراغ الذى كان قبله فى مجال علوم الحديث على أتم وجه

وأحسنه»[1] وقد أثرت كتب الخطيب هذه فيمن جاء بعده من المصنفين فى علوم الحديث وغيرها، فاستفادوا منها إلا أنهم لم يأتوا بأحسن وأجمع منها، ولذلك قال الحافظ بن نقطة الحنبلى: «كل من أنصف علم أن المحدثين بعد الخطيب عيال على كتبه»[2] وهي الكتب التى أصبحت -مع الأيام- أصلا اعتمده من صنف بعد الخطيب، ومن العلماء الذين نرى أنهم تأثروا بفكر الخطيب واستفادوا من مؤلفاته القاضى عياض «ت ٥٤٤هـ» فى كتابه «الالماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع»، كما اقتبس من مؤلفاته ابن الصلاح في كتابيه «علوم الحديث» و «أدب المفتى والمستفتى» حيث اعتنى بتصانيف الخطيب المتفرقة، فجمع شتات مقاصدها، وضم إليها من غيرها نخب فوائدها فاجتمع في كتبه ما تفرق في غيرها[3] وقد سار من جاء بعد ابن الصلاح سيره، وجعلوا كتابه (علوم الحديث) الذي هو تلخيص لكتب الخطيب محور أبحاثهم وتصنيفاتهم[4] كذلك اعتمد المتأخرون كتب العلماء الذين نقلوا عن الخطيب واعتبروها أصلا وامتدادا لمؤلفات الخطيب، وبذلك استمر تأثير الخطيب في المصنفات المتأخرة التي نقلت عن كتبه مباشرة أو بواسطة كتب ومصنفات من نقلوا عنه حتى عصرنا الحاضر الذي تبدو فيه أهمية دراسة فكر الخطيب سواء على صعيد الدراسات الحديثية أو التاريخيه أو التربوية.

ويمكن القول بأن الخطيب أثر بشخصيته وفكره الموسوعي في لفيف من العلماء في شتى ديار المسلمين سواء في زمنه أو فيمن جاءوا بعده، وفي مقدمة من تأثر به تلاميذه الكثيرون، ومنهم على سبيل المثال ابن ماكولا وابن الاكفاني وعبدالعزيز الكتاني والخطيب التبريزي وغيرهم، فضلا عن العلماء اللاحقين الذين اعتمدوا مصنفاته مصادر لهم ومنهم على سبيل المثال أيضا أبو سعد السمعاني وبدر الدين ابن جماعة وبرهان الدين الزرنوخي وغيرهم وسواء اعترفوا بذلك أم لم يعترفوا فإن التأثير أبين من أن يخفى أو يستر.

---

(١) محمود الطحان (مرجع سابق) ، ص٤٩٢، وانظر كذلك : أكرم ضياء العمري (مرجع سابق)، ص٥٩- ٦١.

(٢) ابن حجر العسقلاني : نزهة النظر شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الاثر (مرجع سابق)، ص١٦.

(٣) المرجع السابق ، ص١٧ .

(٤) محمود الطحان (مرجع سابق) ، ص٤٨٦ .

ولقد أذاعت كثرة مصنفات الخطيب شهرته «وأكبرت في عين الناظر فيها قدره، ومنزلته، وخلدت على مدى الأيام ذكره، وسمعته، فلا تكاد تقرأ كتابا أو بحثا في علوم الحديث إلا وتجد اسم الخطيب وأقواله مبثوثه في صفحاته»(١)، ولسنا في حاجة إلى استقصاء ذلك كله بعدما ذكرنا من أثر فكر الخطيب في خدمة الحديث وغيره، ومده بثروة كبير من المصنفات المتعددة المفيدة.

وبعد ... فقد حاول الباحث خلال أبواب هذه الدراسة وفصولها أن يلقي بعض الأضواء الكاشفة على جانب هام من الجوانب الفكرية عند الخطيب البغدادي، أحد العلماء الأعلام في الحديث والتاريخ والفقه والتربية والتعليم، حيث أظهرت الدراسة مدى غنى الفكر التربوي الاسلامي عند الخطيب، واحتوائه على العديد من الآراء والذخائر التربوية التي لا يزال الكثير منها لم يدرس أو يستكشف بعد، وعسى أن يكون في هذه الدراسة مايثير الانتباه إلى دراسة جوانب فكرية أخرى عند الخطيب، وغيره من العلماء ويدفع بالدارسين إلى تحليل واستخراج محتواها ومضامينها التربوية التي تسهم في إعادة الوعي، ورجاحة الفكر وتأصيل النظام التربوي والتعليمي المعاصرين.

والله أسأل أن يتولاني برحمته، وأن يوفقني فيما درستُ والخيرَ أردتُ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلتُ وهو ولي ونعم النصير، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه، واهتدى بهديه إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.



---

(١) المرجع السابق، ص٤٨٨.

الفهـــرس



المصادر والمراجع

* القران الكريم

١- إبراهيم أحمد العدوى: التاريخ الاسلامى آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

٢- إبراهيم أنيس وزملاؤه: المعجم الوسيط. جـ٢، دمشق: دار الفكر (ب، ت).

٣- إبراهيم بن سعد الله ، ابو اسحاق بدر الدين بن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم. (تحقيق وتعليق عبدالأمير شمس الدين). ط١، بيروت: دار اقرأ ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م.

٤- إبراهيم عصمت مطاوع، واصف عزيز واصف: التربية العملية وأسس طرق التدريس. بيروت: دار النهضة العربية ١٩٨٢م.

٥- إبراهيم بن علي الشيرازي، أبو إسحاق: اللمع فى أصول الفقه. (خرج أحاديثه وعلق عليه يوسف عبدالرحمن المرعشلي)، ط١، بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.

٦- إبراهيم محمود حسين فلاته: العملية التربوية في المدرسة الابتدائية أهدافها وسائلها وتقويمها. ط١ مكة المكرمة: مطابع الصفا، ١٤٠٤هـ / ١٤٠٥هـ.

٧- إبراهيم بن موسى اللخمى الشاطبى الغرناطى: الاعتصام. جـ٢، بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٨- إبراهيم وجيه محمود: التعلم، أسسه ونظرياته وتطبيقاته. القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤م.

٩- أحمد أحمد بدوى: الحياة العقلية فى عصر الحروب الطليبية بمصر والشام. القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٧٢م.

١٠- أحمد البيلي: «التصور الاسلامى لمناهج التعليم» من كتاب محمد حامد الافندى ونبى أحمد بالوتش: المنهج وإعداد المعلم (ترجمة عبدالحميد الخريبى) ط١، جدة: شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

١١- أحمد بن شعيب النسائى، الحافظ أبو عبدالرحمن: سنن النسائى. جـ٨، (بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى وحاشية الامام السندى)، استانبول: دار الدعوة، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

١٢- أحمد شلبى: التربية الاسلامية - نظمها، فلسفتها، وتاريخها. ط٦، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٨م.

١٣- أحمد عزت راجح: أصول علم النفس. ط٩، الاسكندرية: المكتب المصرى الحديث، ١٩٧٣م.

١٤- أحمد بن على بن ثابت، أبو بكر الخطيب البغدادى: اقتضاء العلم العمل. (تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى)، ط٤، بيروت: المكتب الاسلامى، ١٣٩٧هـ.

١٥- أحمد بن على بن ثابت، تاريخ بغداد أو مدينة السلام. أربعة عشر مجلدا، بيروت: دار الكتب العلمية، (ب.ت).

١٦- أحمد بن على بن ثابت،: تقييد العلم، (تحقيق يوسف العش)، ط٢، أنقرة: دار إحياء السنة النبوية، ١٩٧٤م.

١٧- أحمد بن على بن ثابت، الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع. جزءان (تحقيق محمود الطحان)، الرياض: مكتبة المعارف، (ب.ت).

١٨- أحمد بن على بن ثابت، الرحلة فى طلب الحديث. (تحقيق نور الدين عتر)، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

١٩- أحمد بن على بن ثابت، شرف أصحاب الحديث (تحقيق محمد سعيد خطيب أوغلى)، أنقرة: دار إحياء السنة النبوية، ١٩٧١م.

٢٠- أحمد بن على بن ثابت، الفقيه والمتفقه. جزءان، (تحقيق وتعليق إسماعيل الانصارى)، ط٢، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

٢١- أحمد بن على بن ثابت، الكفاية فى علم الرواية (مصور عن طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهند) عام ١٣٥٧هـ.

٢٢- أحمد بن على بن حجر العسقلاني: فتح البارى بشرح صحيح الامام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى. ج١٣، دمشق: دار الفكر، (ب.ت).

٢٣- أحمد بن على بن حجر العسقلاني: نزهة النظر شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر. ط٢، القاهرة: دار مصر للطباعة، ١٩٧٥م.

٢٤- أحمد فؤاد الأهوانى: التربية في الاسلام. القاهرة: دار المعارف ١٩٨٠.

٢٥- أحمد بن القاسم، موفق الدين أبو العباس، ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقاء الأطباء. (تحقيق نزار رضا)، بيروت: منشورات مكتبة الحياة، ١٩٦٥م.

٢٦- أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، أبو العباس شمس الدين: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. ج١، (تحقيق إحسان عباس)، بيروت: دار صادر (ب.ت).

٢٧- أحمد محمد جمال: محاضرات في الثقافة الاسلامية. ط٣، القاهرة: مؤسسة دار الشعب، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

٢٨- أحمد محمد جمال: نحو تربية اسلامية. ط١، جدة: تهامة، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

٢٩- أحمد بن محمد بن حنبل: المسند. ستة أجزاء، استانبول: دار الدعوة، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٣٠- آدم متز: الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى أو عصر النهضة في الاسلام. ج١، (ترجمة محمد عبدالهادى أبو ريدة)، ط٥، بيروت: دار الكتاب العربى، (ب.ت).

٣١- إسحاق أحمد فرحان وزملاءه: المنهاج التربوى بين الأصالة والمعاصرة. ط١، عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م.

٣٢- إسماعيل بن عمر بن كثير، عماد الدين أبو الفداء: البداية والنهاية في التاريخ. ج١٢، القاهرة: دار الفكر العربى، (ب.ت).

٣٣- إسماعيل الفاروقى: أسلمة المعرفة، المبادئ وخطة العمل. (ترجمة عبدالوارث سعيد). ط١،

الكويت: دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤.

٣٤- أكرم ضياء العمري: موارد الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد). ط٢، الرياض: دار طيبة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٣٥- أمين رويحه: شباب في الشيخوخة. ط١، بيروت: دار الاندلس، ١٩٦٥م.

٣٦- بدران أبو العينين بدران: أصول الفقه الاسلامي. الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، (ب.ت).

٣٧- بشار عواد معروف: «ازدهار الحركة الفكرية فى العرق». من كتاب العراق في التاريخ، بقلم مجموعة من الكتاب، بغداد، ١٩٨٣م.

٣٨- بهي الدين زيان: الغزالى ولمحات عن الحياة الفكرية الاسلامية. القاهرة: مكتبة نهضة مصر. (ب.ت).

٣٩- جايلورد هوزر: الغذاء يصنع المعجزات، لماذا نأكل وماذا يجب أن نأكل. (ترجمة أحمد قدامة) ط٨، بيروت: دار النفائس، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٤٠- جلبرت هايت: فن التعليم. (ترجمة ومراجعة وتحرير محمد فريد أبو حديد). القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية. ١٩٥٤م.

٤١- حامد عبده الهوال: التعليم والتعلم فى القرآن الكريم. ط١، الكويت: مكتبة الفلاح، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٤٢- حسان محمد حسان، ونادية جمال الدين: مدارس التربية في الحضارة الاسلامية - دراسة نظرية تطبيقية. ط١، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م

٤٣- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافي والاجتماعي. أربعة أجزاء، بيروت: دار إحياء التراث العربى، ١٩٦٤م.

٤٤- حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الاسلامى فى العصر العباسي. ط٥، القاهرة: دار الفكر العربى، (ب.ت).

٤٥- حسن أيوب: السلوك الاجتماعي فى الاسلام. ط٤ ، بيروت: دار الندوة الجديدة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٤٦- حسن عبدالعال: التربية الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى. القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٧٨م.

٤٧-حسن عبدالعال: «التعلم عند الخطيب البغدادى، مبادئه ومحدداته»، رسالة الخليج العربى، العدد العاشر، السنة الثالثة، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج (العربية)، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٤٨- حسن عبدالعال: مقدمة فى فلسفة التربية الاسلامية - التربية والطبيعة الإنسانية. الرياض: دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٤٩- الحسين بن على بن سينا، أبو على: القانون فى الطب. جـ١، طبعة جديدة بالأوفست عن طبعة

بولاق، بيروت: دار صادر، (ب.ت).

٥٠- الحسين بن مسعود الفراء البغوى، أبو محمد: شرح السنة. جـ١، (تحقيق شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش)، (ب.ت).

٥١- حكمت نجيب عبدالرحمن: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب. ط٤، ١٩٨٥م.

٥٢- خليل بن أيبك بن عبدالله، صلاح الدين الصفدى: الوافي بالوفيات جـ٧، (تحقيق إحسان عباس) ط٢، بيروت: دار صادر، ١٣٨٩هـ /١٩٦٩م.

٥٣- رشدى لبيب وزملاؤه: الأسس العامة للتدريس. ط١، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٣م.

٥٤- رمزية الغريب: التعليم، دراسة نفسية، تفسيرية توجيهية. ط٤، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧١م.

٥٥- زكى الدين شعبان: أصول الفقه الاسلامي. ط٣، بيروت: دار العلم، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

٥٦- سعد جلال: المرجع فى علم النفس. الاسكندرية: مكتبة المعارف الحديثة، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٨٥م.

٥٧- سعيد إسماعيل على: أصول التربية الاسلامية. القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٨٥م.

٥٨- سعيد إسماعيل على: معاهد التربية الاسلامية. القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٨٦م.

٥٩- سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدى، الحافظ أبو داود: سنن أبى داود. ج٤، استانبول: دار الدعوة، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٦٠- سيد أحمد عثمان: التعليم عند برهان الاسلام الزرنوجى المتوفى (٥٩١هـ / ١١٩٥م). القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

٦١- سيد سابق، محمد عثمان على عدلان: «التربية العقلية فى الاسلام» بحث مقدم لندوة الخبراء التربويين المنعقدة في مكة المكرمة بين ١١-١٦/٦/١٤٠٠هـ.

٦٢- سيد سجاد حسين، سيد على أشرف: أزمة التعليم الاسلامى، (ترجمة أمين حسين الرباط ومراجعة عبدالحميد محمد الخريبى)- ط١، جدة: شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٦٣- السيد الشحات أحمد حسن: تطور التعليم الدينى - دراسة تحليلية فى مصر (١٨٠٠ - ١٩٢٣م) - القاهرة: دار الفكر العربى، (ب.ت).

٦٤- سيد قطب: العدالة الاجتماعية فى الاسلام. بيروت: دار الشروق، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

٦٥- صالح أحمد العلى، وخضر جاسم الدورى: «التسلط الأجنبى» من كتاب العراق في التاريخ، بقلم مجموعة من الكتاب - بغداد، ١٩٨٣م.

٦٦- صبحى الصالح: معالم الشريعة الاسلامية. ط١، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٥م.

٦٧- الطاهر أحمد الزاوى: ترتيب القاموس على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة. جـ٢، ط٢، القاهرة: عيسى البابى الحلبى وشركاه ١٩٧٢م.

٦٨- عابد توفيق الهاشمي: مدخل إلى التصور الاسلامي للانسان والحياة. ط١، عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٦٩- عباس محمود العقاد: التفكير فريضة اسلامية. ط٢، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٩م.

٧٠- عباس محمود العقاد: الفلسفة القرآنية. المجلد السابع من المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد. ط١، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤م.

٧١- عبدالبديع عبدالعزيز عمر الخولي: الفكر التربوي في الأندلس (٤٠٣ - ٤٧٨هـ). ط٢، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٥م.

٧٢- عبدالحكيم قاسم: الآيديولوجيا والتربية بين المسيحية والاسلام. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٤م.

٧٣- عبدالحميد الصيد الزنتاني: أسس التربية الاسلامية في السنة النبوية. ليبيا، تونس: الدار العربية للكتاب ١٩٨٤م.

٧٤- عبدالحميد الهاشمي: الرسول العربي المربي. ط١، دمشق: دار الثقافة للجميع، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٧٥- عبدالحميد الهاشمي: الفروق الفردية - دراسة تحليلية تطبيقية في مجال التربية والاجتماع. ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٧٦- عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، جلال الدين: تاريخ الخلفاء. (تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد) - ط١، القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م.

٧٧- عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، أبو الفرج: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٨، ط١، الهند - حيدر أباد الدكن: مطبعة دائرة المعارف العثمانية. ١٣٥٩هـ.

٧٨-عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، لفتة الكبد في نصيحة الولد، (تقديم وتعليق مروان قبان)، ط١، بيروت: المكتب الاسلامي، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٧٩- عبدالرحمن عميرة: منهج القرآن في تربية الرجال. ط١. جدة: شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٨٠- عبدالرحمن بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. (ب.ت).

٨١- عبدالرحمن النحلاوي: أصول التربية الاسلامية، وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع. ط١، دمشق: دار الفكر، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

٨٢- عبدالرحمن النحلاوي، يوسف بن عبدالبر القرطبي. ط١، دمشق: دار الفكر، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٨٣- عبدالرحمن النقيب: بحوث في التربية الاسلامية. الكتاب الأول، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٣م.

٨٤- عبدالرحمن النقيب، بحوث في التربية الاسلامية، ط١، الكتاب الثاني، القاهرة: دار الفكر

العربى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤.

٨٥- عبدالرحمن النقيب، فلسفة التربية عند ابن سينا. القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨٤م.

٨٦- عبدالغنى عبود: الآديولوجيا والتربية- مدخل لدراسة التربية المقارنة. ط٣، القاهرة: دار الفكر العربى ١٩٨٠م.

٨٧- عبدالغنى عبود، التربية ومشكلات المجتمع. ط١، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٨٠م.

٨٨-عبدالغنى عبود، العقيدة والآيديولوجيا المعاصرة، ط١، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٧٦م.

٨٩- عبدالغنى عبود، في التربية المعاصرة. ط١، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٧٧م.

٩٠- عبدالفتاح أحمد فؤاد: في الأصول الفلسفية للتربية عند مفكرى الاسلام. ط١، الاسكندرية: منشأة المعارف ١٩٨٣م.

٩١- عبدالفتاح جلال: من الأصول التربوية في الاسلام. المركز الدولى للتعليم الوظيفي للكبار فى العالم العربى. سرس الليان، المنوفية، جمهورية مصر العربية، ١٩٧٧م.

٩٢- عبدالكريم بن محمد بن منصور السمعاني، أبو سعد: أدب الاملاء والاستملاء. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٩٣- عبدالكريم بن محمد بن منصور السمعاني، أبو سعد، الأنساب، الجزء الخامس، (تحقيق وتعليق عبدالرحمن ابن يحيى اليماني)، ط٢، بيروت: الناشر محمد أمين دمج، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٩٤- عبدالله عبدالحى موسى: علم النفس التربوى. القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨١م.

٩٥- عبدالله عبدالدائم: التربية فى البلاد العربية، حاضرها ومشكلاتها ومستقبلها من عام ١٩٥٠م الى ٢٠٠٠م. ط٤، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٣م.

٩٦- عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى. ط٤، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨م.

٩٧- عبدالوهاب بن على بن عبدالكافي السبكى، تاج الدين أبو نصر: طبقات الشافعية الكبرى. جـ٤، (تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحى) ط١، القاهرة: مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م.

٩٨- عثمان جمعه ضميرية: التصور الاسلامى للكون والحياة والانسان. الكويت: دار الأرقم، ١٩٨٢م.

٩٩- عجيل جاسم النشمى: معالم في التربية. ط١، الكويت: مكتبة المنار الاسلامية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٠٠- عدنان زرزور: الحاكم الجشمي ومنهجه فى تفسير القرآن. دمشق: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

١٠١- عدنان أبو سعد الدين: منهج المحدثين في كتابة الحديث وأثر ذلك في ضبطه. ط١، الرياض: مكتبة الرشد ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

١٠٢- عفيف عبدالفتاح طبارة: الحكمة النبوية كما تتجلى في أحاديث رسول الله ﷺ. ط٢، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٦م.

١٠٣- علي بن أحمد بن حزم الظاهرى، الحافظ أبو محمد الاندلسي: الاحكام في أصول الأحكام. جـ١، (تحقيق وتصحيح محمد أحمد عبدالعزيز). ط١، القاهرة: مكتبة عاطف، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

١٠٤- علي بن أحمد بن حزم الظاهرى، الحافظ أبو محمد الأندلسي، الفصل في الملل والاهواء والنحل. جـ١، مكتبة السلام العالمية، (ب.ت).

١٠٥- علي بن أبي بكر الهيثمي، نور الدين: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. جـ١، بيروت: دار الكتاب العربى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

١٠٦- علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الشافعي، أبو القاسم، المعروف بابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق. جـ٧، (تحقيق عبدالغني الدقر ومراجعة مطاع الطرابيشي)، دمشق: دار الفكر، (ب.ت).

١٠٧- على خليل مصطفي أبو العينين: «الفكر التربوى الاسلامى- مصادره- معطياته- حركته» رسالة الخليج العربى، العدد السابع عشر، السنة السادسة، الرياض: مكتب التربية العربى لدول الخليج، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١٠٨- على خليل مصطفي أبو العينين، فلسفة التربية الاسلامية في القرآن الكريم. ط٣، المدينة المنورة: مكتبة إبراهيم حلبى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨.

١٠٩- على خليل مصطفي أبو العينين، قراءة تربوية فى فكر أبي الحسن البصرالماوردى من خلال كتاب: أدب الدنيا والدين. القاهرة: دار الفكر العربى. (ب.ت).

١١٠- علي الشويكى: المدرسة والتربية وإدارة الصفوف، بيروت: دار مكتبة الحياة (ب.ت).

١١١- علي بن أبي علي بن محمد الآمدى، سيف الدين أبو الحسن: الاحكام في أصول الأحكام. أربعة أجزاء، القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتزيع، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧.

١١٢- علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم، عز الدين أبو الحسن، المعروف بابن الأثير: الكامل في التاريخ. جـ٤، جـ٩، جـ١٠، بيروت: دار صادر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١١٣- علي بن محمد، أبو حيان التوحيدى: رسالة الصداقة والصديق. (تحقيق إبراهيم الكيلانى) دمشق: دار الفكر، ١٩٦٤م.

١١٤- عمر سليمان الأشقر: القياس بين مؤيديه ومعارضيه. ط١. الكويت: الدار السلفية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١١٥- فاخر عاقل: التعلم ونظرياته. ط١، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٧م.

١١٦- فاروق منصور: «المنهج النبوى فى العملية التعليمية» مجلة التربية، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم- العدد الرابع والستون، رجب ١٤٠٤هـ/ ابريل ١٩٨٤م.

١١٧- فاطمة محمد السيد على: الفكر التربوى عند الامام الشافعي. رسالة ماجستير غير منشورة،

مقدمة إلى جامعة المنوفية- كلية التربية- قسم أصول التربية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١١٨- فتحي بيومي حموده، محمد أحمد عبدالهادى: التربية والطرق الخاصة بتدريس العلوم الاسلامية واللغة العربية. ط١، جدة: دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

١١٩- فتحية حسن سليمان: المذهب التربوى عند الغزالى. ط٢، القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٤.

١٢٠- أبو الفتوح رضوان وزملاؤه: المدرس في المدرسة والمجتمع. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨م.

١٢١- فؤاد البهى السيد: الذكاء. ط٤، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٧٦م.

١٢٢- فيليب هـ. فينكس: فلسفة التربية. (ترجمة وتقديم محمد لبيب النجيحى) القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٢م.

١٢٣- قاسم غني: تاريخ التصوف في الاسلام. (ترجمة صادق نشأت)، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م.

١٢٤- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربى. جـ٦، (ترجمة يعقوب بكر ومراجعة رمضان عبدالتواب)، ط٢، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣م.

١٢٥- كوثر حسين كوجك: مقدمة في علم التعليم. القاهرة: عالم الكتب ،١٩٧٧م.

١٢٦- لطفي بركات أحمد: في الفكر التربوى الاسلامى. ط١، الرياض: دار المريخ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

١٢٧- ماجد عرسان الكيلانى: تطور مفهوم النظرية التربوية الاسلامية ط١، عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٨م

١٢٨- المبارك بن محمد الجزرى، مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر. جـ٣، (تحقيق الطاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحي)، بيروت: دار الفكر (ب.ت).

١٢٩- محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة. (تحقيق أحمد شاكر)، بيروت: المكتبة العلمية، (ب.ت).

١٣٠- محمد أسعد طلس: تاريخ العرب. مجلد ٢، جـ٦، ط٢، بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٣١- محمد بن إسماعيل البخارى: صحيح البخارى. ثمانية أجزاء، استانبول: دار الدعوة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١٣٢- محمد أمين المصرى: لمحات فى وسائل التربية الاسلامية وغاياتها. ط٤، بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

١٣٣- محمد بن أبى بكر بن عبدالقادر الرازى: مختار الصحاح. دمشق: مكتبة النورى، (ب.ت).

١٣٤- محمد بن أبي بكر، شمس الدين أبو عبدالله، المعروف بابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين. جـ١، (مراجعة وتقديم وتعليق طه عبدالرؤوف سعد)، بيروت دارالجيل، ١٩٨٣م.

١٣٥- محمد بلتاجي: دراسات إسلامية. القاهرة: مكتبة الشباب بالمنيرة، ١٩٨٢م.

١٣٦- محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجرى. القاهرة: دار الفكر العربى، (ب.ت).

١٣٧- محمد جمال صقر: اتجاهات في التربية والتعليم. القاهرة: دار المعارف. ١٩٦٥.

١٣٨- محمد حسين شندب: الحضارة الاسلامية في بغداد فى النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى (٤٦٧-٥١٢هـ). ط١، بيروت: دار النفائس، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

١٣٩- محمد بن أحمد الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين: تذكرة الحفاظ. جـ٣، بيروت: دار إحياء التراث العربى، (ب.ت).

١٤٠- محمد بن زكريا الرازى، أبو بكر: منافع الأغذية ودفع مضارها، وبهامشه دفع المضار الكلية عن الأبدان الانسانية لابن سينا. ط١، بيروت: دار صادر (ب.ت).

١٤١- محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الاسلامية. جـ٢، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٨٧م.

١٤٢- محمد الشاذلي النيفر: «أسس التربية الاجتماعية فى الاسلام» بحث مقدم لندوة خبراء أسس التربية الاسلامية المنعقدة في مكة المكرمة في المدة من ١١-١٦/٦/١٤٠٠هـ، بحوث ندوة خبراء أسس التربية الاسلامية، ط٢، مكة المكرمة ١١ جمادى الثاني الى ١٦ جمادى الثاني ١٤٠٠هـ.

١٤٣- محمد بن عبدالله النيسابورى الحافظ، أبو عبدالله الحاكم: معرفة علوم الحديث. ط٢، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

١٤٤- محمد بن علي بن طباطبا، المعروف بابن الطقطقا: الفخرى في الآداب السلطانية والدولة الاسلامية. بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٦هـ/١٩٦٦م.

١٤٥- محمد بن علي بن محمد الشوكانى: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول. ط١، القاهرة: مطبعة مصطفي البابي الحلبى وأولاده، ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م.

١٤٦- محمد بن عيسى بن سورة الترمذى: سنن الترمذى. جـ٣، استنابول: دار الدعوة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١٤٧- محمد لبيب النجيحى: الأسس الاجتماعية للتربية. ط٧، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. ١٩٧٨م.

١٤٨- محمد متولى الشعراوى: منهج التربية فى الاسلام. القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٧٦م.

١٤٩- محمد بن محمد الغزالى، أبو حامد: الأدب في الدين. (قدم له وعلق على حواشيه محمد كامل حسن المحامي)، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، (ب.ت).

١٥٠- محمد بن محمد الغزالى، أبو حامد، أيها الولد. (تحقيق وتعليق علي محيي الدين القره داغي) القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٨٣م.

١٥١- محمد بن محمد الغزالي، أبو حامد، المستصفي من علم الأصول. جـ٢، وبحاشيته فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت في أصول الفقه، بيروت: مؤسسة الرسالة، (ب.ت).

١٥٢- محمد بن مكرم الأنصارى، جمال الدين ابن منظور: لسان العرب. جـ٣، القاهرة: دار المعارف، (ب.ت).

١٥٣- محمد منير مرسى: التعليم العام فى البلاد العربية. ط٢، القاهرة: عالم الكتب، ١٩٧٤م.

١٥٤- محمد نبيل نوفل: دراسات في الفكر التربوى المعاصر. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٥م

١٥٥- محمد بن يزيد بن ماجه القزوينى، أبو عبدالله الحافظ: سنن ابن ماجه. جـ٢، (تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي)، استانبول: دار الدعوة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١٥٦- محمد يعقوب الفيروز أبادى، مجد الدين: القاموس المحيط. جـ٣، بيروت: دار الجيل، (ب.ت).

١٥٧- محمود الطحان: الحافظ الخطيب البغدادى وأثره فى علوم الحديث (٣٩٢-٤٦٣هـ). ط١، بيروت: دار القرآن الكريم، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١٥٨- محمود عباس حمودة: تاريخ الكتاب الاسلامى. القاهرة: مكتبة غريب (ب.ت).

١٥٩- محي الدين توق وعبدالرحمن عدس: أساسيات علم النفس التربوى. نيويورك: جون وايلي وأولاده، ١٩٨٤م.

١٦٠- مريزن سعيد مريزن عسيرى: الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي. ط١، مكة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

١٦١- مسلم بن الحجاج القشيرى: صحيح مسلم. ثلاث أجزاء، استانبول: دار الدعوة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١٦٢- منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجرى مستقاة من كتاب (تاريخ بغداد). (ترجمة وتلخيص سامي الصقار) الرياض: دار المريخ. ١٩٨١م.

١٦٣- ناجى معروف: أصالة الحضارة الاسلامية. ط٣، بيروت: دار الثقافة، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

١٦٤- النعمان بن إبراهيم، برهان الدين الزرنوجي: تعليم المتعلم طريق التعلم. (تحقيق وتقديم صلاح محمد الخيمي، ونذير حمدان). ط١، دمشق- بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

١٦٥- نعمان عبدالرزاق السامرائي: مباحث في الثقافة الاسلامية. ط١، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٦٦- نور الدين عتر: منهج النقد في علوم الحديث. بيروت: دار الفكر، (ب.ت).

١٦٧- همام عبدالرحيم سعيد: الفكر المنهجى عند المحدثين. ط١، قطر: مطابع الدوحة الحديثة، ١٤٠٨هـ.

١٦٨- ياقوت بن عبدالله الحموى، أبو عبدالله شهاب الدين: معجم الأدباء. جـ٤، بيروت: دار احياء

التراث العربى (ب.ت).

١٦٩- ياقوت بن عبدالله الحموى، أبو عبدالله شهاب الدين، معجم البلدان. خمسة أجزاء، بيروت: دار بيروت، دار صادر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

١٧٠- يوسف بن عبدالبر القرطبى، أبو عمر: جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى في روايته وحمله جـ٢، دمشق: دار الفكر، (ب.ت).

١٧١- يوسف القرضاوى: الايمان والحياة. ط٦، القاهرة: مكتبة وهبة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

١٧٢- يوسف القرضاوى، الرسول والعلم. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

173- Dewey, Johon: Demoracy and Education, An introduction to the philosophy of Education; The Free press, A Division of Macmillan publishing Co., Inc. New York, Collier Macmillan publishers, London,1944.

174- Dewey, John: Education To-Day; G.P. Putman's sons, New York, 1940

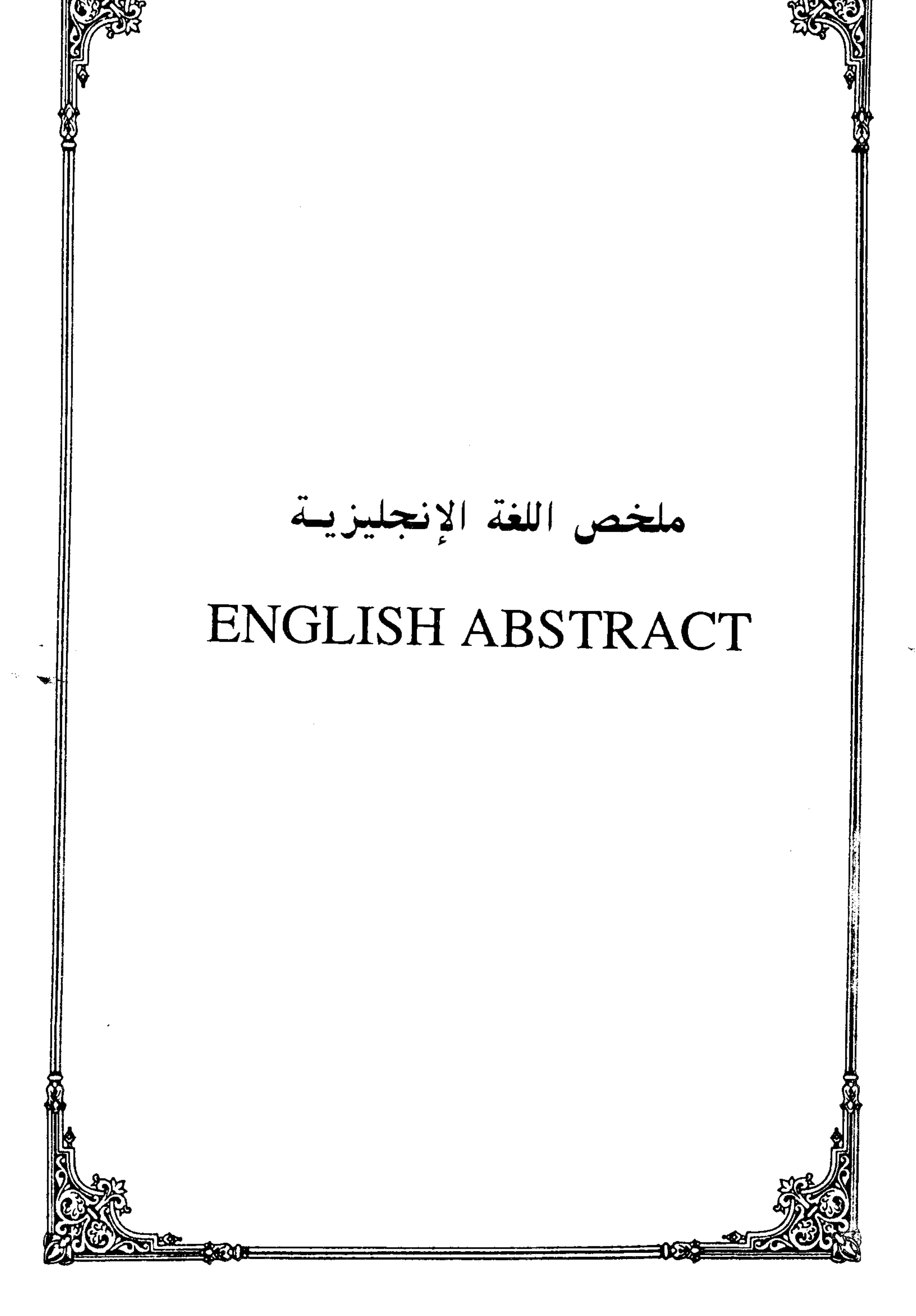
175- Rosella, Linskie: The Learning Process, Theory and practice, D. van Nostrand Company. New York Cin cinnati, Toronto, London, Melbourne. 1977



فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحـة





ملخص اللغة الإنجليزية

ENGLISH ABSTRACT

that in an overall framework belonged to the methodology of the age he lived in.

Hence the study of alkhatib's educational thought as well as that of some other Muslim scholars represents continuity of education and the educational awareness in Muslim societies, past and present. Moreover, this kind of study may very well help find solutions to some similar contemporary educational problems.

The thesis consists of an introductory chapter and four parts. Part one entitled "The factors affecting Alkhatib's educational thought" has three chapters dealing with factors affecting education in his time, the intellectual and educational movement, as well as his biography. In part two entitled "roots of Alkhatib's educational thought" which has three chapters the researcher deals with the educational trend adopted by alkhatib as well as jurisprudents and narrators. They also reflect the intellectual framework of education, its concept, aims and scope. Part three entitled "Learning and teaching according to Alkhatib" tackles the most important factors affecting the process of learning, techniques and curricula of education and its aids. Finally, part four covers teachers and learners morale. The research ends in a conclusion and some recommendations.

بسم الله الرحمن الرحيـــم

ABSTRACT:

Alkhatib was, undoubtedly, a fine example; of the Islamic Educational thought reflected in his treatment of educational problems which characterized the spirit of his age. His thought was enriched by solid educational ideas derived from the Islamic sources vis the Holy Quran, the prophet's traditions, concensus, and analogy.

We may as well say that alkhatib's educational thought was abundant in many good Islamic educational principles and ideas that cast light on an enormous number of subjects in the Islamic educational thinking during his time. These subjects either concern the origins and the sources, his educational thought depended on or the educational issues which he handled regarding the concept of learning and teaching, or the principles he storngly advocated which emphasized continuity of education, equal opportunities, publicity of knowledge, individual differences in learning, the principle of change and variation, honouring knowledge and respecting the learned, encouraging work, showing that in Islam knowledge is a religious duty. Besides, alkhatib carefully handled ideas and teachings concerning the teachers and the learners through the qualities and functions which help them become straight forward and gain good manners, besides, acquiring personal, moral social and scientific characteristic for both the teacher and the learner; all

AL- KHATIB AL-BAGHDADI'S EDUCATIONAL THOUGHT

BY

Salik Ahmed Salem Ahmed Maloum

1413 - 1993